

جدول ثقافية

فانتازيا الحقائق البديلة

أحمد جرادات

رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons License BY

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٢ / ٦ / ٣٠٥٢)

٣٦٠

جرادات، احمد حسن علي

جداول ثقافية: فانتازيا الحقائق البديلة/ احمد حسن علي جرادات.-

عمان: المؤلف، ٢٠٢٢

(ص .

ر.إ. : ٢٠٢٢ / ٦ / ٣٠٥٢

الواصفات : /المقالات العربية//الثقافة المعاصرة//الدراسات الثقافية/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه و لا يعبر هذا المصنف
عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9923-00-374-9 (ردمك)

الطباعه: **al-safir**
PRINTING
PRESS
مطبعة السفير

جدول ثقافية: فانتازيا الحقائق البديلة

أحمد جرادات

إهداء

إلى أرواح أبي وأمي وجددي،
الفلاحين الأُميين الذين حرثوا الصخر كي أتعلّم فكَّ الحرف،
فأكتب عن الأرض التي وُلدوا وماتوا فيها ومآلاتها.

فهرس المحتويات

9	تنويه.....
11	تقديم: سعود قبيلات
19	مقدمة: دكتور جورج الفار.....
27	مدخل: فانتازيا نظرية ما بعد الحقيقة
45	الجداول الثقافية
47	I. من يوتوبيا المقاومة والثورة إلى غوانتنامو والإرهاب والشعر.....
49	- عناقيد الأدب: يوميات الحرب والمقاومة.....
81	- ثورة 25 يناير: من رانديفو الشباب إلى كرنفال الشعب.....
97	- أكواب الشعر: قصائد من غوانتنامو.....
117	II. جهاد أم إرهاب... ثورة أم ربيع؟.....
119	- مستر همفر قابلة الوهابية.....
125	- الأممية الوهابية الثانية: الجهاد السوري.....
135	- فيلسوف الربيع العربي وجيفارا الثورة المضادة.....
151	- لبردى ضفاف كثيرة: يومان في دمشق.....
161	- حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابي يعودان إلى دوار اللؤلؤة.....
167	III. أوراق أردنية
169	- يعقوب زيادين: لو عادت به الأيام.....
177	- ناهض حتر: بطل تراجيدي إغريقي.....
185	- حسن نصر الله وقضايا التحرر الوطني.....
197	- هوامش على متن "هبة نيسان".....
205	- سنتياغو الأردني: قصة موت معلن.....
213	- كولاج المطربة والرقيب: مشاهد وروايات.....
223	- طابور خامس على الدوار الرابع.....
231	IV. متاريس ثقافية.....
233	- الإنتليجنسيا في الحرب الثقافية: قادة أم بيادق؟.....
241	- بانوراما: في الثقافة والسياسة وشؤون أخرى

- 257 غونتر غراس: ضربة شعرية موجعة
- 267 V. رُباعية المئوية
- 269 العقد الاجتماعي وما أدراك ما العقد الاجتماعي
- 281 1. من "دولة" عازلة إلى كيان هجين: دورة حياة
- 301 2. في الحالة الرثة: عندما تصبح "شتى" بديلاً للهوية الوطنية
- 311 3. في الدولة "الزومبي": المهمة المستحيلة
- 327 4. مانيفستو اللحن الأردني الأخير: مقارنة مقارنة
- 349 ومضة: مَنْ أنا؟

تنويه

يتألف هذا الكتاب من مجموعة مقالات مختارة كُتبت في أوقات متباعدة، في الفترة الممتدة بين عام 2006 وعام 2021، وليست نصاً واحداً بين دفتين. بيد أنّها في الوقت نفسه ليست حبات خرز مبعثرة في طُرقات ترايبية تدوسها الأقدام ولا تراها العيون ولا تلتقطها الأيدي، بل ثمة خيط رفيع، لكن متين، ”يلضمها“ ويجعل منها قلادة واحدة بغضّ النظر عما إذا كان القارئ يرى في خرزاتها أحجاراً كريمة وثمينة أم لا. هذا الكتاب ليس نهراً واحداً بين ضفتين، بل إن مقالاته أشبه بجداول متعددة ومتنوعة الأعماق والأطوال وغزارة المياه، تتوازي وتتباعد وتتقارب وتتقاطع، لكنها تنبع من منبع واحد وتصبُّ في مصب واحد على أرض واحدة. ومن هنا انبثق عنوان الشق الأول من الكتاب: ”جداول ثقافية“.

وحالّ فروغه من قراءة مدخل الكتاب سيجد القارئ أن الخيط الرفيع الذي يلضم خرزاته، أو الأرض التي تجري عليها مياه جداوله هو: ”فانتازيا نظرية ما بعد الحقيقة، أو الحقائق البديلة“، نظرية صناعة الأكاذيب الأكثر رواجاً، والسلاح الناعم الأشد فتكاً، والمتحوّر الثقافي-الإعلامي-السياسي الأخبث لمكارتية القرن الحادي والعشرين في الحرب الهمجية التي تشنّها الإمبريالية والصهيونية ووكلاؤهما المحليون على شعوبنا منذ مُنعرج هذا القرن.

تقديم

صاحب هذا الكتاب، الرفيق أحمد جرادات (أبو ناصر) - مَنْ لا يعرفه - مناضل شيوعي وطني وأُمِّي، ثبت على مواقفه ومبادئه، رغم كلِّ التَّقلُّبات السِّياسية الكُبرى التي جرتْ في بلادنا ومنطقتنا والعالم، ورغم كلِّ التَّضحيات الباهظة التي اضطرَّ لبذلها. وهذا في حين أنَّ كثيرين غادروا خنادقهم وانتقلوا إلى خندق الخصم ورفعوا راية الليبرالية المتوحَّشة، ولسان حالهم يقول: "الي يتجوَّز أُمِّي، هوَّ عمِّي".

تخرَّج أحمد جرادات في الجامعة الأردنيَّة في شهر أيلول من العام 1970، حاملاً شهادة البكالوريوس في اللغة الإنجليزيَّة، واشتغل في التَّعليم ضمن كادر وزارة التَّربية والتَّعليم في الأردن، وقد تخرَّج على يديه جيلاً لا يزال الكثير منه يذكر فضله.

وفي تاريخ 31 كانون الثَّاني 1976، جاء عددٌ من رجال المخابرات لاعتقاله من مكان عمله ("كليَّة الحسين" في عمَّان)، وصادف مجيئهم في أثناء قيامه بتدريس تلاميذه، فأصرَّ على أن يكمل الحصة إلى أن يقرع الجرس. وقد أقتيد من هناك وزجَّ به في زنزانة انفرادية من زنازين مبنى المخابرات القديم في عمَّان الذي كان يُعرَف بـ"البنية الزرقاء" أو "فندق أبو رسول".. نسبة إلى محمَّد رسول الكيلانيّ أبرز مدراء المخابرات في الأردن وأحد مؤسسيها.

كان السَّبب الأساسي والمباشر لاعتقال الرفيق أبي ناصر، آنذاك، هو نشاطه المثابر من أجل إنشاء نقابة للمعلِّمين الأردنيين. وقد أمضى في الحبس الانفرادي (وما أدراك ما الحبس الانفرادي!) أو بمعزل عن العالم الخارجي) زهاء سبعة عشر شهراً، وفصل من عمله، ووُضِع على القائمة السوداء الطويلة للمحرومين من أبسط حقوقهم وحرِّياتهم. وفي يوم عيد العمَّال (1 أيار 1977) أُطلق سراحه هو والنقابيّ

العُمالي الرَّاحل الرَّفيق موسى قويدر (أبو يوسف). وكان من تقاليد نقابات العُمال - آنذاك - أنها كانت تقيم احتفالاً سنوياً حاشداً في عيد العُمال في أحراش دبّين في جرش. وما إن أُطلق سراح الرَّفيقين جرادات وقويدر حتّى انطلقا إلى مكان الاحتفال، فاستقبلهم أوف العُمال استقبالاً حافلاً وحملوهما على الأَكف.

وعلى سيرة اعتقال أحمد جرادات وسبب اعتقاله، أذكر أن أديباً أردنياً معروفاً وناشطاً يسارياً بارزاً كتب مسرحيّة، في أواخر سبعينيّات القرن الماضي، سخر في سياقها من التّفكير الطّوباويّ لذلك المعلّم اليساريّ الذي شغل نفسه بفكرة تأسيس نقابة للمعلّمين وزجّ به في السّجن من أجل ذلك! وكان واضحاً لكلّ من قرأ المسرحيّة في ذلك الوقت أن المقصود بذلك هو أحمد جرادات!

بعد سنين طويلة، تحرّك معلّمون وطنيون ديمقراطيون وكافحوا بعناد ومثابرة إلى أن تمكّنوا من تحقيق حلم إنشاء نقابة المعلّمين الأردنيين. وكان أحمد جرادات من أكثر النَّاس فرحاً بهذا الإنجاز المهمّ، وقد عبّر عددٌ من نُشطاء نقابة المعلّمين عن تقديرهم لريادته وتضحيته الشّخصيّة الكبيرة من أجل إنشاء نقابتهم، فأقاموا له حفلاً تكريمياً خاصاً.

بعد انفكاكه من زنانه الانفراديّة، تابع أحمد جرادات نشاطه الكفاحيّ في صفوف الحزب الشّيعويّ الأردنيّ، وكذلك في إطار الحركة الثّقافيّة الوطنيّة والتّقديميّة الأردنيّة، وكان أحد مؤسّسي "رابطة الكُتّاب الأردنيين" التي انطلقت فكرة تأسيسها بمناسبة الرّحيل الفاجع للأديب الأردنيّ الرّائد تيسير السبول في خريف العام 1973.

تعرّفت على الرَّفيق أحمد جرادات، من قُرب، بعد خروجي من السّجن في ربيع العام 1983، حيث تكرّر لقائنا في اجتماعات اللجنة المركزيّة للحزب الشّيعويّ الأردنيّ. وكان الحزب - آنذاك - محظوراً بموجب قانون "مكافحة الشّيعيّة" الذي كان يُعاقب من يثبت عليه التّرويج للأفكار الشّيعيّة بالسّجن من ثلاث سنوات إلى خمس عشرة سنة. ومع ذلك كان الحزب - آنذاك - حزباً حقيقياً طليعيّاً

ويجذب قطاعات غير قليلة من الشباب الأردني الوطني المستنير، كما كان له نفوذ ملموس في النقابات المهنية والعمالية وفي الحركة الطلابية.

وسرعان ما تبين أن لدينا (الرّفيق جرادات وأنا) الكثير من الأفكار المتقاربة أو المشتركة. وفي النّصف الثّاني من ثمانينيات القرن الماضي، ساهمنا معاً ومع رفاق آخرين في تشكيل ما عُرف في حينه ”التّيّار الثّوريّ في الحزب الشّيعيّ الأردنيّ“، ضمن اطار الحزب وقد اتّخذنا من أفكار الشّهيد مهدي عامل نبزاً لنا في الوثائق التي أعدناها باسم التّيّار والممارسات الكفاحية التي خضناها معاً في إطاره.

سُجن أحمد جرادات مرّة أخرى، على هامش انتفاضة نيسان المجيدة التي انطلقت شرارتها من مدينة معان في العام 1989. وقبل ذلك وبعده، مُنع من العمل والسّفر، ولوحق طويلاً، لكنّه ظلّ ثابتاً على مبادئه، ومثابراً على النّضال من أجل وطنه وشعبه.

ورغم أنّه دأب، في السّنوات الأخيرة، على إعطاء انطباع بانصرافه عن المشاركة في الحياة السّياسية والحياة الاجتماعيّة، إلّا أنّ واقع الحال ليس كذلك؛ فالرّفيق أبو ناصر كان، على سبيل المثال، يواظب على الدّهاب كلّ خميس إلى الدّوّار الرّابع للمشاركة في الاعتصام الأسبوعيّ الشّهير الذي انطلقت فعاليّاته في خريف العام 2018 واستمرّت إلى أن تفشّى وباء كورونا وأُعلِنَ الحظر الصّحيّ بعده، كما أنّه كان قبل ذلك قد شارك بمثابة مثابرة في فعاليّات انتفاضة أيّار 2018.

وفي كتابه هذا ”مستمكات“ كثيرة على استمرار تورّطه، إلى أبعد حدّ، في الشّأن العامّ، وانشغاله الحثيث بهموم شعبه وأمّته والإنسانيّة جمعاء.. حيث يتداخل، لديه، الشّأن الأردنيّ، على نحوٍ علميٍّ دقيقٍ وصادق، مع الشّأن العربيّ والشّأن العالميّ.. خصوصاً في ما يتعلّق بقضايا حرّيّة الإنسان وكرامته وتقدّمه وقضيّة التحرّر الوطنيّ والاشتراكية والديمقراطية.. الديمقراطيّة بمعناها الأشمل والأوسع.

وتتميّز كتابة أحمد جرادات بمقاربتها للسياسة بقالب أدبي رفيع ينطوي على سُخرية مريرة من الواقع المترديّ وتمثّلاته في الانسان والقيم والسلوكات. وبوصفه قاصّاً قديماً، ليس نادراً ما نجد بعض شروط القصة (أو كلّها، أحياناً) متوقّرة في بعض موضوعات كتابه هذا. وبالتالي، فلا يمكن تصنيف هذا الكتاب في خانة الكتابة السياسيّة الصّرفة، كما لا يمكن تصنيفه في خانة الكتابة الأدبيّة الصّرفة، وإنّما هو مزيجٌ منهما كلاهما. ورّبما هو يتفرّدُ بذلك في ساحة الكتابة الأردنيّة بعمومها.

يعكس مضمون هذا الكتاب، ومحاكماته وحججه وبناء الأفكار فيه والمعلومات التي يشتمل عليها، ما يتمتّع به صاحبه من ثقافة واسعة، وتفكير عميق، ومعرفة، وفطنة. ويجتهد أبو ناصر في توظيف المفاهيم والمصطلحات العلميّة الحديثة في معالجات كتابه على نحوٍ غير نمطيّ: مصطلح "البروليتاريا الرّتّة" لكارل ماركس، على سبيل المثال، ومصطلح "الزّومبي" (رأسماليّة الزّومبي) الذي اشتقه المفكر الماركسي البريطاني كريس هارمان لوصف رأسماليّة القرن الحادي والعشرين في كتابه المعنون بـ "رأسمالية الزومبي: الأزمة العالميّة وماركس". وهذا عدا عن الاستعارات العديدة التي أجاد الرّفيق جرادات توظيفها.. من الأدب الأردنيّ والأدب العربيّ والأدب الأجنبيّ ومن الأدب التّراثي القديم.

ولا بدّ لقارئ هذا الكتاب أن يلاحظ أنّ الرّفيق أحمد جرادات يأخذ كتابته بجديّة كبيرة، فيسافر على حسابه الخاصّ إلى البلد المعنيّ (لبنان ومصر وسوريا، على سبيل المثال)، لكي يكتب مقالاً أو كتاباً عن حدثٍ كبيرٍ وقع هناك (على سبيل المثال، حرب تمّوز 2006 التي شنّها العدو الصّهيونيّ على لبنان، وانتفاضة كانون الثّاني/يناير 2011 في مصر، والحرب الظّلمة على سوريا التي لا تزال رحاها دائرة).

وسيجد القارئ أنّ أحمد جرادات ينتبه إلى أحوال المظلومين عموماً (حتّى لو كان يختلف معهم اختلاف النّقيض مع النّقيض)، وأنّ خلافه في الرّأي مع بعضهم لا يجعله يتوانى عن تسليط الضوء على وقائع ظلمهم، وعلى هدر حقوقهم وامتهان كرامتهم الإنسانيّة، ليؤكّد على حقّهم في الانصاف والمحاكمة العادلة. مثال ذلك

ما كتبه عن سجناء غوانتانامو والأشعار التي كتبوها في السجن.

وفي مجمل ما يكتبه أحمد جرادات، فإن بوصلته ثابتة لا تتبدل، وهي البوصلة التي تؤشر على مصالح وطنه وحقوق شعبه، ومصالح الأمة عموماً وحقوقها المشروعة، ورفعة الإنسان وتقدمه في كل مكان، مع اقتزان هذا بالعداء للإمبريالية والصهيونية والرجعية، باعتبار هذا الثالوث هو سبب مصائبنا الوطنية والقومية وسبب شقاء الناس عموماً.

وبينما هو يتكلم عن الواقع العربي والعالمى بقدر كبير من الأمل والتفاؤل، فإنه يتكلم عن الواقع الأردني بأقصى درجات المرارة والتشاؤم، ومعه حق في هذا، فواقعا الأردني مرير وكافكاوي؛ حيث إن الشعب الأردني واحد من عدد قليل جداً من الشعوب التي لا تزال محكومة بأنظمة أوتوقراطية قروسطية. وبدلاً من التقدم بالبلاد إلى الأمام، انسجاماً مع حركة التاريخ والتطورات الإقليمية والدولية، ثمة إصرار على متابعة الرجوع إلى الوراء إلى غياهب العصور الوسطى ودياجيرها. حيث تُجرى التعديلات تلو التعديلات لدسترة الأوتوقراطية وتعميقها ومصادرة حق الشعب في أن يكون هو مصدر السلطات. وهذا بينما تتم استباحة ثروات البلاد ومقدّراتها باستمرار، يتم نهب ما يتاح أو يباع من دون أن يحسب أي حساب للشعب، أو القانون، أو الدستور، أو العهود والقوانين الإنسانية والمواثيق الدولية الحديثة.

ويحدث هذا، كله، بينما ردود فعل المعارضة ومجمل أداؤها لا يرتقي إلى المستوى المطلوب منها تاريخياً. فقد وصل الأمر في البلاد إلى لحظة الحقيقة.. لحظة تسليم الوديعة. ويُعزّز هذه الرؤية الإقدام على تسجيل الأرض باسم القوات المسلحة، واستقدام القوات الأمريكية إلى الأرض الأردنية كقوة احتلال بموجب اتفاقية مذلة مع الولايات المتحدة أباحت الأرض وأهدرت حقوق الناس وما تبقى من السيادة الوطنية السورية أمام جحافل الجنود الأمريكيين. ومع ذلك، تواصل المعارضة الحديث عن "الحكومات المتعاقبة" أو أداء هذا الوزير أو ذاك.. وكأن هذه هي حدود الأزمة الطاحنة التي تعيشها البلاد!

وفي هذا المناخ المأساوي الكئيب، من المفهوم أن يستدعي أحمد جرادات في نهاية كتابه هذا، المتعلقة بتحوُّلات الوضع في الأردن، أصداءً لحن الرُّجوع الأخير، وخطبة الهنديِّ الأحمر الأخير "سياتل". ولكن، إذا ما رجع القارئ إلى معالجات الكتاب الأخرى المتعلقة بالوضع العربيِّ والدَّوليِّ، فإنَّه لا يمكن إلا أن يشعر بالتَّفأؤل؛ فالعالم يتغيَّر، والإقليم يتغيَّر؛ حيث بدل أحاديَّة القطب، تتعدَّد الأقطاب الآن على حساب الإمبرياليَّة الأمريكيَّة وحلف الأطلسيِّ، ولصالح ترجيح ميزان المواثيق الدَّوليَّة والقانون الدَّوليِّ. وفي المنطقة، يخسر المحور المرتبط بالولايات المتَّحدة والتَّابع لها باطِّراد، وهذا في حين يتقدَّم محور المقاومة الَّذي أصبح حقيقة إقليميَّة ودوليَّة أساسية لا يمكن القفز عنها. ومنذ حرب تمُّوز 2006، دخل الكيان الصَّهيوئيِّ الغاصب طور الأزمة الوجودية، وتأكَّدت أزمته هذه وتعمَّقت بعد حرب "سيف القدس". ولا يمكن للنَّظر إلى الواقع السِّياسيِّ أن يكون دقيقاً إلا إذا أخذ هذه التَّحوُّلات الأساسيّة بعين الاعتبار. وعندئذٍ، سنلحظ أنَّه ثمة مسار ثابت تتَّخذه التَّحوُّلات في المنطقة وفي العالم، وهو - كما هو واضح - ليس في صالح الثَّالوث الإمبرياليِّ الصَّهيوئيِّ الرَّجعيِّ، بل لصالح الشُّعوب المقهورة.. التَّوَّاقة إلى الحُرِّيَّة والديمقراطيَّة والتَّحرُّر الوطنيِّ. ولا أعتقد أنَّ الأرض الأردنيَّة ستكون جزيرة معزولة عمَّا يحيط بها ويجري حولها.

على أيَّة حال، على مدى مائة عام، سادت في بلادنا (وعنها) سردية زائفة وظالمة هي سردية النُّظام عن تاريخ الأردن التي قامت على طمس التَّاريخ التُّريِّ للبلاد وأهلها كلِّه، ورسَّخت في أذهان الكثيرين أنَّه لا وجود للأردن والأردنيين ولا تاريخ لهما قبل قيام النُّظام في البلاد. وأذكر، هنا، أنَّه عندما كتب ناهض حتر في تسعينيات القرن الماضي مقالة الشَّهير "مَنْ هو الأردني؟"، ردَّ عليه الملك الرَّاحل، الملك حسين، قائلاً: هناك مَنْ يسأل: مَنْ هو الأردني؟ ونحن نقول: ما هو الأردن؟ الأردن نحن صنعناه!

ولذلك، فإنَّ مِنْ أَوَّلِ مهام الوطنيين الأردنيين تقديم سردية أردنية حقيقية بديلة، وهي بالضرورة سردية وطنية ديمقراطية. وفي العقود الأخيرة، اضطلع بهذه المهمة عددٌ من الباحثين والمؤرخين الوطنيين الجدد المجتهدين، ومنهم: الدكتور عصام السَّعدي، والدكتور عبد الله العسَّاف، والدكتور جهاد المحيسن.

وكتاب أحمد جرادات، هذا، يأتي ضمن هذا السِّياق نفسه..

وأختم بالقول: هذا كتابٌ مشغول جيِّداً، ومدروس، وينطوي على أفكار عميقة ونظرات ثاقبة، ومكتوب بنفَسٍ وطنيٍّ وحرصٍ وطنيٍّ. وهو، لهذا، يستحقُّ أن يُقرأ بتمعُّن.

سعود قبيلات

مقدمة

نسبية الحقيقة، بالإضافة إلى فلسفة ما بعد الحداثة تؤسسان للجذور الفكرية للفوضى العارمة التي نتخبط فيها، والتي تفتت العالم وتفقدته بوصلته وتجعله عالماً فوضوياً قائماً على المنفعة والمصلحة لا على المبادئ العقلانية التي تتوخى الحق والعدل. أما غياب الرؤى الواضحة وضياع البوصلة فقد أدى إلى ظهور مصطلح ونظرية ”ما بعد الحقيقة The Post- truth theory“ الذي بدوره جعل الرأي أقوى من الحقيقة ذاتها واجتماع النظرات والآراء المؤيدة لعمل أو أمر معين أهم من الحقيقة ذاتها حتى ولو كان ذلك الرأي مزيفاً أو كاذباً.

فالرأي القوي أصبح أكثر قيمة من الحقائق وما يكتب وينشر على وسائل التواصل الاجتماعي من أكاذيب ملفقة وأخبار مغرضة هو أكثر أهمية من الحقيقة نفسها.

بهذا الفكر الباحث عن الحقيقة ومتابعته لمصطلح ”ما بعد الحقيقة أو الحقائق البديلة“ من حيث النشأة والمعنى والتدرج، يؤصل الأستاذ جرادات نظرياً لهذا الكتاب المميز ”جداول ثقافية“، وكأنه يقول لنا: إن التأصيل النظري هو قاعدة الفلسفة والعمل السياسي والأدبي. إن شرف السياسي والأديب والشاعر في كونه محباً للحقيقة وباحثاً عنها بحيث لا تضيع له بوصلة ولا يضيع هدف. فمن هذه النقطة بالذات يبدأ المؤلف بشرح ما سيقدم عليه من فعل أدبي بشقيه النثري والشعري ومن فعل تحليل سياسي عميق لما حدث في العقود الماضية من تغليب للزيف على الحقيقة ومن الكذب الإعلامي وتعمية للعيون والعقول على ما حدث في الوطن العربي وفي العالم، وأرى أنه نجح في فضح الأكاذيب وفي إزاحة الإشاعات جانباً وفي تعرية الواقع للوصول إلى حقيقة الأمر كله.

فقد بدأ المؤلف بكشف الحقيقة وفضح الأكاذيب من أمريكا نفسها، ومن حادثة انتخاب أحد رؤسائها "ترامب" الذي عُدَّ غريباً عن المؤسسات الأمريكية الحزبية والحكومية، فقد أتى من خارجها وكان مناهضاً للعوامة، لا لفضيلة فيه، بل ليجعل "أمريكا أولاً" كما وعد ناخبيه، وكيف ألبت عليه المؤسسة الأمريكية الرسمية الدنيا والناس والإعلام وكيف نشرت الزيف حوله وعنه بواسطة مؤسساتها الإعلامية ومنعته من إتمام عمله في كثير من الأحيان.

تابع المؤلف عمله محاولاً في كل مرة أن يغوص عميقاً في الحدث ذاته، أكان سياسياً أو ثقافياً أو أدبياً، لذلك نراه ينتقي الحدث ويذهب إلى مسرحه إذا أمكنه (فعل ذلك مع العدوان الإسرائيلي على لبنان والمقاومة في عام 2006 ومع ثورة 25 يناير المصرية ومع الحرب الهمجية على سوريا منذ عام 2011) ليسمع وليرى بأم عينه ما هي حقيقة الأمر في الواقع، ويسمع للناس ويسألهم ويستفيد من إجاباتهم أو ليأتي بنصوص أدبية كتبت تَوّاً خارجةً طازجاً من أيدي كتابها أو شعرائها أو مبدعيها.

هذا الإصرار والتحليل العميق للأرضية التي تقف عليها الحقيقة هو بداية للكشف عنها وعن أصلها وفصلها وعمقها. لا يابيه المؤلف كثيراً بالجمال والبناء الفني للقصيدة أو للنص الأدبي، بل ينتبه إلى هدفها ومدلولاتها وتأثيرها المباشر على الجمهور الذي تلقفها، وكأنه ينظر في عيون الأطفال ودهشتهم وفرحهم أثناء رؤيتهم مسرحية مفتوحة في قبو أحد المباني أثناء القصف الإسرائيلي الجبان على الضاحية الجنوبية لبيروت أثناء حرب تموز عام 2006.

بعد هذا التأصيل النظري للحقيقة التي يعطيها المؤلف جل اهتمامه، يبدأ بوصف ما عاينه بنفسه من وسط ميدان التحرير في القاهرة إبان ثورة أو انتفاضة 25 يناير المصرية عام 2011، بقلم يسيل صدقاً ورقة وعرفاناً جميلاً للشعب المصري الذي سمح له أن يشهد إحدى فعاليات تلك الثورة العظيمة.

يكشف المؤلف عن جذور الوهابية السياسية، ومعه يكشف عن أصول الإسلام السياسي، من خلال كشفه عن اعترافات الجاسوس البريطاني مستر همفر ودوره في إنشاء الحركة الوهابية السعودية وكيف تم التحالف بين المحمدين، محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب، أي بين السلطة والدين، وما أثر ذلك على المنطقة كلها، وكيف تم تجديد الوهابية الأولى بالغزوات الوهابية على شرق الأردن والعراق في العشرينات من القرن المنصرم، ومن ثم تشكيل الأممية الوهابية الثانية بالجهاد الأفغاني وبالجهاد السوري الذي تم بالاتفاق بين السعودية وقطر وكيف (أفلتت الصيدة من بين أيديهم على حد تعبير حمد بن جاسم) وكشف عن حرب الفتاوى في الجهاديين الأفغاني والسوري. ثم انتقل لفضح زيف الربيع العربي من خلال تتبعه لفيلسوف الربيع العربي المزيف برنار ليفي اليهودي الفرنسي الذي كان يعمل لدى المخابرات الفرنسية، ودوره في الثورتين الليبية والسورية وقتل القذافي ومحاولته تطبيق النموذج الليبي في سوريا. تحدث عن الثورة المغدورة في البحرين قائلاً إن حمدان قرمط وأي سعيد الجنابي (في إشارة واضحة إلى ثورة القرامطة التاريخية) عادا إلى دوار اللؤلؤة في البحرين.

لم ينس المؤلف وطنه الأردن، فقدم إسهامات في التحليل السياسي وفي الكتابة الأدبية من تأليفه، فعندما كتب عن ناهض حتر "كبطل إغريقي يمشي إلى حتفه" بلغ قمة أدبية وسياسية رفيعة، كذلك فعل في الكتابة عن هبة نيسان الأردنية عام 1989 التي سُجن على إثرها مع رفاق آخرين. و"أردن" رواية الكاتب الكبير ماركيز قصة موت معلن، وعالج استفادة الحكومات من انتشار وباء كورونا.

ناقش المؤلف في الفصل الخامس دور الانتليجنسيا في الحرب الثقافية، وأعلن أهمية هذه الانتليجنسيا وطريقة استغلالها وتحريكها من قبل السلطات الحاكمة ضد مصلحة الشعوب وللتعمية على الحقيقة، في موقف يتم فيه استخدام الثقافة في الحرب على الثقافة نفسها لتدميرها وإبعادها عن مهمتها التنويرية. ليس في قاموس المؤلف انفصال بين النضال الثقافي والنضال السياسي، فالمثقف الملتزم بالنسبة له متمسك بموقفه السياسي النضالي، وإذا باع موقفه هذا مقابل مال أو منصب أصبح خائناً لوطنه ولشعبه. والأمراض التي تصيب الجسم الثقافي تصيب

الأمة بأسرها بداء التكسب والفساد والإفساد، بما يقضي على روحها ومعنوياتها ومواقفها الوطنية. وكي يرهن على وجهة نظره يأخذنا في جولة بانورامية في الثقافة والسياسة ليقول لنا ما خلاصته: لا فصل بينهما ولا تفريق بين الموقف الثقافي والموقف السياسي، فالموقف الثقافي الحقيقي يرفد ويقوي الموقف السياسي النضالي.

استمتعتُ كثيراً بقراءة هذا الكتاب الغني جداً الذي يجمع بين دفتيه ما هو أدبي (نصوص نثرية وشعرية)، وما هو تحليل سياسي وكشف لحقائق تم التمويه عليها والكذب الصريح بشأنها إعلامياً وثقافياً، ليأتي الأستاذ جرادات ويسلط عليها كشّافه القوي ويعيد لنا اكتشاف الحقيقة كما هي، لا كما أرادها أصحاب نظرية "ما بعد الحقيقة" و"ما بعد الحداثة"، نسبيّة ضائعة مجزأة بين الأشخاص ذوي النفوذ والقبائل والأمم وبين سياسيين احترفوا الكذب والتضليل والتمويه ومثقفين باعوا ضميرهم من أجل حفنة من الدراهم أو المناصب أو من أجل ظهور إعلامي تهرجي .

أما عن سؤالك الأخير في الكتاب: كيف يتصالح الإنسان مع ذاته وكيف يرضى عن نفسه..؟ دعني أجيبك إجابة شخصية: لو كان هذا الكتاب هو إنجازك الوحيد في هذه الحياة فجدير بك أن تتصالح مع ذاتك من أجله، ففي عمق هذا الكتاب وبين صفحاته تختبئ ثقافة ثورية رفيعة حصلتها من خبراتك ومن قراءاتك مدى عمرك، وأدب جم خضت غماره ونشرته على الملأ وتحليل سياسي ثاقب شامل تفضح فيه المزيف والمستور وما خفي عن الأعين وراء أكاذيب الإعلام وقنابل التمويه التي رمتها بعض الدول بمساعدة جيوش من المثقفين المرتزقة.

سأقدم المؤلف من وجهة نظري الشخصية أي الأستاذ أحمد جرادات لمن لم يتعرف عليه بعد، أما لمن يعرفه عن قرب فيكون قد سبقني في اكتشاف الجوهرة الفكرية والثقافية والإنسانية التي أتكلم عنها، فقد عثرت عليها بمحض الصدفة ولم أزل الغبار والطمى عنها إلا رويداً رويداً دون تسرع أو عجلة من أمري، ولم يحاول هو لفت نظري بأي عمل خارق يشير فيه إلى نفسه، فقد ترك النيذ في خوابيه كي أتلدّد بطعمه المعتق اللطيف.

وُلد أحمد في بشرى، إحدى قرى محافظة إربد، في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي، إنساناً حساساً مرهف الذوق محباً للعلم والمعرفة، تابع دراسته الثانوية في مدينة إربد قبل أن يكمل دراسته الجامعية في الجامعة الأردنية. في طفولته رأى في قريته ما يشبه "المساواة" في الفقر وعاش بين الفلاحين الكادحين. وفي باكورة شبابه انتبه إلى الفروق الاجتماعية الواضحة في مجتمعه الأردني وأنكر عقله ما يجري حوله من بؤس وظلم فادح يقع على الفقراء من أبناء جلدته، فانخرست في قلبه وعقله الفيتين مبادئ قرأها تنادي بالعدالة الاجتماعية والاشتراكية بين الناس وبتحرير الأرض من ظلم المستبدين، وحق الشعب في الخلاص من الامبريالية والاحتلال معاً. انضم إلى صفوف الحزب الشيوعي الأردني وناضل وتظاهر ضد السياسات المتبعة التي كانت تعمل لصالح البرجوازية ونظام الحكم المستبد، وقد عزم على تكريس حياته في سبيل الدفاع عن شعبه وأرضه.

وفي حديث عن الذكريات قال لي إن الصدمات المسلحة المشؤومة التي انفجرت في أيلول/سبتمبر عام 1970، والتي خلقت و"أسست" لانقسام الشعبين الشقيقتين في الأردن، شكّل حدثاً مفصلياً في حياته السياسية، فقد نحى منحى "توحيدياً" للعلاقة بينهما في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي والإمبريالية ومن أجل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. وتعرّض للاعتقال والتعذيب لمرات عديدة وبقي راسخاً على مبادئه وقابضاً على الجمر. كان معلماً للغة الانجليزية في المدارس الحكومية وكثيراً ما فُصل من عمله وأودع السجن أو اختفى عن الأنظار، وكان أول من طالب بإنشاء نقابة للمعلمين ولم يتحقق حلمه إلا بعد خمسين عاماً من النضال على يد جيل جديد من المعلمين.

لأحمد جرادات قصته مع الشعر والأدب، فرهافته الإنسانية جعلت منه شاعراً في بداية شبابه وثقافته الرفيعة قادتة نحو التعمق في الأدب العالمي والعربي، وقرآته المتنوعة ومعرفته باللغة الانجليزية ساعدته في الوصول إلى المصادر العالمية بلغتها الأم. وفي تحليلاته لا يغمض عينيه عن الحقيقة وما يدور خلف الكواليس من مؤمرات وما يختبئ خلف الياقات البيض من فساد وانحطاط، لكن تواضعه الجرم منعه من الظهور والدعاية لنفسه، كما حالت مداهمات "زوار الليل" في

بعض الحالات دون تمكُّنه من الاحتفاظ بما يكتب لأنهم كانوا يحملون معهم في كل مرة أوراقه ودفاتره، إلى جانب لجوء ملاكه الحارس، الحجة والدته التي كانت تسهر على أمنه إلى إلقاء بعضها الآخر في بئر الدار عند المداهمة، حيث يتسرب الماء إلى محتويات الدلو.

لم يكتب أحمد بالأدب والشعر، بل إن لديه قدرة على التحليل المعمق واستشراف المستقبل، ففي قراءته للأحداث والسياسات العامة عمق وأصالة وعقل يحاول أن يفهم ما يدور حوله من أحداث جسام وما يتم التخطيط له في الغرف الأمنية المغلقة، فلا تفاجئه الأحداث لأنه يستشرفها بعقله. فقد طوّر حاسة خاصة ومهارة في ملاحقة التفاصيل على الأرض، وكان مستعداً للذهاب إلى الأماكن التي يمكن أن تظهر له حيثيات الحدث ومعناه في المكان الذي حدث فيه. فقد رأيناه يشد الرحال إلى مصر في زمن الثورات وإلى ميدان التحرير بالذات ويستطلع رأي الناس ويجلس معهم ليحاوورهم، كما رأيناه يشد الرحال إلى سورية وإلى دمشق يوم كان من المخاطرة أن يذهب المرء فيها إلى سورية، وهناك كان يتحدث إلى الأدباء السوريين والناس المحليين ليسألهم عن رأيهم في الحرب الدائرة على سوريا. وكان قد سافر إلى لبنان بعد عدوان تموز 2006، وقابل كتاباً وشعراء ومسرحيين وصحفيين وعاد بحصيلة من أعمالهم الأدبية سجّلها في هذا الكتاب. لذا، عندما يقرأ المرء ما كتبه وما ينشره يحس بلذة لاذعة وقوية من الصدق والحقيقة لأنه يكتب عن انطباعاته من وسط الشارع المتأثر بما حدث أو ينقل إلينا الصورة العفوية للأدب والشعر الذي كتبه الأدباء والشعراء في لحظاتهم الأولى وردود فعلهم العفوية على ما يدور أمامهم، ويتلقى القارئ ذلك وكأنه لمسك بيديه خبزاً طازجاً خارجاً للتو من التنور ولا يمكنه مقاومة رائحته الزكية وطعمه اللذيذ.

أما أحمد الصديق والإنسان فحدّث ولا حرج، فهو إنسان حساس إلى أبعد درجات الحساسية، يخاف من أن يخدش حياء الآخر لو كان خدشاً بسيطاً، وهو وفيٌّ لأصدقائه، صادق حتى مع خصومه، ينتبه لما يكتبه ليكون في المستوى المطلوب. ومع كونه جريئاً جداً في كتاباته، فإنه لا يخاف أن يكشف مواطن المؤامرة والنشر

والظلم الذي يقع على كرامة الإنسان وعلى أرضه وعرضه من احتلال أو عدوان أو فساد من المتملقين والأذئاب. ولا غرو في ذلك، فلم يعد يهاب أحداً فهو نفسه تعرض للضرب والتعذيب في المعتقلات وجرحت كرامته وحورب في رزقه ورزق أطفاله وقدمت له المغريات ليبوح بأسماء رفاقه، ولكنه لم يفعل ولم ينحن أمام الجلاذ، لذا تراه ينتفض بقوة ضد أي إهدار للكرامة الإنسانية وأي مساس برزق الفقراء من أبناء الشعب ولا يقبل بظلم ظالم أو مستبد. يا لك يا أحمد من أممي فهيم معنى الإنسانية وعاشها ودفع ثمنها أماً واعتقالات وسجوناً.

أشكرك على ما بذلته من جهد ووقت لجمع هذه الدرر الثمينة، كما أشكرك على التحليل المعمق الذي يرى الأحداث بعيون فاحصة ويرصد ترابطها التاريخي بعقل يرى حركة التاريخ ماثلة أمامه، ولا يتردد في أن ينظر في عين المخطئ ويقول له: "أنت مخطئ يا عزيزي".

دعني أقول إنني تصالحتُ مع نفسي يوم فهمت حركة التاريخ الجدلية. ألم تقل إن حركة التاريخ تشبه حركة اللولب، يصعد دائماً وينزل أحياناً ليعود إلى الصعود مرة أخرى؟ للأسف عشنا نحن في مرحلة هبوط تاريخ هذه الأمة العربية، وفي هذا المجتمع الاستهلاكي وفي عصر هيمنة الامبريالية على العالم، لكن لا بد أن تستيقظ الشعوب من غفوتها يوماً وتطالب التاريخ بإنصاف رجالها الحقيقيين الصادقين الذين حاولوا إنارة دربها وأشعلوا لها مشاعل الحرية وقدموا حياتهم ونضالهم من أجل أن تعيش وتحيا.

الدكتور جورج الفار

مدخل: فانتازيا نظرية ما بعد الحقيقة Post-Truth Theory

لطالما أعربتُ عن اعتقادي، وكتبْتُ في غير مقال، أن نهاية العولمة الأوليغارشية باتت مطروحة على جدول أعمال التاريخ، وأن ما أسميتهُ ”ربيعاً أمريكياً“ ضد الترمبية ربما يكون من إرهاباتها. بيد أنني لا يمكنني الجزم بذلك، ولا معرفة متى وكيف- هذا إذا صحَّ اعتقادي- فحركة التاريخ صاعدة، لكنها حلزونية تتخللها نكسات، وأشد تعقيدا من أن يحيط بها عقلي المحدود.

بعبارة ”الربيع الأمريكي“ لا أقصد المعنى الدارج لها بين مناهضي ما سُمي بـ ”الربيع العربي“، أي الربيع العربي المصنَّع أمريكياً، وإنما أقصد ربيعاً أمريكياً نظَّمه أمريكيون ضد خصوم أمريكيين في داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وهم هنا ما يُعرف باسم ”المؤسسة“ Establishment ضد الرئيس ترمب، بدعم أو تحريك أو توجيه من ”أولمب“ العولمة الأوليغارشية، الذين وصفهم ترمب في معرض هجومه عليهم أو دفاعه عن نفسه في مواجهتهم بأنهم ”عملاء العولمة“. وهم في الحقيقة ضد تيارات/اتجاهات/قوى يمثلها ترمب، أي ضد ”الترمبية“ إن صحَّ التعبير، ذلك أن ترمب ليس فرداً معزولاً أو مسلوخاً من قاعدة اجتماعية- اقتصادية- سياسية، ولا نبتة شيطانية غريبة عن بيئتها وغير متأثرة بالأزمة البنيوية للرأسمالية كما حاول خصومه تصويره. صحيح أن ترمب قد لا يمثل مدرسة أو نظرية في الحكم، إلا أنه يمثل ظاهرة ذات أهمية بالغة قد تتطور وتصبح كذلك إذا وجدت قوى اجتماعية- اقتصادية- سياسية- ثقافية كافية تسندها أو تتبناها. ونظراً لأن رمز هذه الظاهرة، أو رأس الحربة فيها ليس رئيساً عادياً لدولة صغيرة أو هامشية، وإنما رئيس الدولة الإمبريالية الأعظم والقطب العالمي الأوحده حتى الآن- فقد بدأنا نشهد ولادة نظام عالمي جديد، ربما أكثر عدلاً أو أقل جوراً- فإنها ستترك أثراً كبيراً وتداعيات عميقة على العالم الرأسمالي والعالم بأسره. ولهذا فإنني أتحدث هنا عن ”الترمبية“ وليس عن ترمب.

وإذا صحَّ أن ما حصل في الانتخابات الرئاسية للولايات المتحدة في عام 2016 هو "ربيع أمريكي" ضد الترمبية كما أزعم، فلماذا حدث ذلك؟ وَمَن الذي نَظَّمه؟ وما الذي فعله ترمب، أو اعتزم فعله، كي يستوجب استنابات ربيع ضده على غرار الربيع العربي ومن الجنس نفسه؟ يا لسخرية التاريخ، لكأن بضاعتهم رُدت إليهم!

ما قبل وما بعد

لعلَّ من السمات الأساسية للانتخابات في الديمقراطية البرجوازية بمختلف مستوياتها، الرئاسية والتشريعية والبلدية وغيرها، أن ما بعد الانتخابات ليس كما قبلها، أي أن خطاب المرشحين وبرامجهم الانتخابية الدعائية "لكسب عقول وقلوب الناخبين" (التلاعب بها في الحقيقة) وقوفاً على المنصات أمام جماهيرهم وقريباً منها لا تتطابق مع التنفيذ والممارسة بعد الفوز والجلوس على الكراسي قريباً من أو في حضان الطبقة/الشريحة الرأسمالية التي دعمتهم بالمال الساحر والإعلام المهيمن وغير ذلك من المساعدات اللوجستية غير المحدودة وأوصلتهم إلى سدة السلطة.

وفي هذا لا يُعتبر ترمب استثناءً، بل حالة مختلفة كثيراً: فقد جاء من خارج "صندوق باندورا" كما يقال، ولكنه مطلٌّ عليه من نافذة واسعة وعلى دراية بما في داخله، وتجراً على تحدي ثعابين "المؤسسة" (الديمقراطيون والجمهوريون على السواء، الكونغرس و"سي أي أيه" و"إف بي أي" والبتاغون ووزارتنا الخارجية والعدل، بالإضافة إلى امبراطورية الإعلام الجبارة وكبار ممولي المنظمات غير الحكومية NGOs والمجتمع المدني، ناهيك عن تطاوله على آلهة "الأولمب"، الأوليغارشية المعولمة). ولعل من أهم وأخطر النقاط التي تضمَّنها برنامجه الانتخابي وأثارت غضب المؤسسة، وربما رعبها: - مناهضة العولمة بالعودة إلى مشروع الدولة القومية تحت شعار "أمريكا أولاً"، وليست الوحيدة؛ ومن هنا جاء اتهام ترمب الصريح والغريب لخصومه بأنهم "عملاء العولمة". - الخروج من حلف شمال الأطلسي "الناتو" باعتباره كيانياً مكلفاً "عفا عليه الزمن" وتحملت الولايات المتحدة جُلَّ نفقاته، وينبغي أن تدفع أوروبا حصتها من تلك النفقات.

- إعادة الصناعات الأمريكية المعومة في الخارج إلى داخل الولايات المتحدة لتشغيل الطبقة العاملة الأمريكية المنتجة التي عانت من البطالة والتهميش على مدى عقود بسبب العومة المتوحشة (وهو شعار اجتذب أوساطاً واسعة من العمال ودفعتهم إلى التصويت لترمب مع علمهم بأنه مرشح رأسمالي ويميني).

- تأييد خروج بلدان الاتحاد الأوروبي من الاتحاد، كما في حالة بريطانيا "بريغزيت"، وتشجيع بقية بلدان الاتحاد على مغادرته. وقد وضعت مرشحة الرئاسة الفرنسية ماريين لوبين في صدارة برنامجها الانتخابي خروج فرنسا من الاتحاد "فرانسغزيت"، بالإضافة إلى حلف الناتو. لم يكن هذا الشعار مجرد كلام في الهواء لإرضاء جمهورها، بل كان هدفاً جدياً مطروحاً للتنفيذ، وقابلاً للتنفيذ في مرحلة ما. وهذا بالذات هو ما استدعى تدخل "فيلسوف" وعرب الربيع العربي برنار هنري ليفي بقوة وصلافة ضد لوبين وتأييده السافر وغير المحدود لماكرون، مندوب الأوليغارشية المالية المعومة وربيب عائلة روتشيلد الصهيونية، وقد أفقدها هذا الشعار ملايين الأصوات "الخائفة من المستقبل".

- إلغاء معاهدة الشراكة العابرة للمحيط الهادئ وإعادة النظر في اتفاقيات التجارة الحرة واتباع سياسات حمائية للمنتجات الأمريكية.

- في السياسة الخارجية عدم توريث الجيش الأمريكي بشكل مباشر في حروب خارجية، هذا من ناحية؛

- ومن ناحية أخرى إعطاء الأولوية رقم واحد لهدف محاربة الإرهاب الدولي والقضاء على المنظمات الإرهابية، وعلى رأسها تنظيم "داعش" وجماعة الإخوان المسلمين، قضاء مبرماً وليس احتواؤها.

- إلزام بلدان الخليج بدفع المال مقابل توفير الحماية لها، والسماح لعائلات ضحايا اعتداءات سبتمبر/أيلول 2001 برفع دعاوى قانونية أمام المحاكم الأمريكية ضد مواطنين ومسؤولين سعوديين للمطالبة بتعويضات مالية ضخمة- ربما بهدف الابتزاز.

من الواضح إذن أن برنامج ترمب تضمّن نقاطاً، إذا قُيِّض لها أن تتحقق، ربما تفضي إلى نهاية العومة النيوليبرالية المتوحشة، وليس نهاية التاريخ، التي بشر بها نبي الديانة الليبرالية الجديدة فرانسيس فوكوياما في مطلع التسعينيات من القرن المنصرم إثر تفكيك الاتحاد السوفيتي، وهلل وكبر لها الإسلاميون، وطبل وزمر

لها الليبراليون في بلداننا، وتلقّفها قوميون ويساريون، وحتى شيوعيون، وجدوا فيها ضالّتهم المنشودة فحلّت عقدةً من ألسنتهم التي كانت مربوطة في زمن القطيّن. إن ذلك من شأنه أن يكون بمثابة معول يُسهم في هدم بنيان العولمة المتوحشة الهائل، كي لا أقول حفار قبرها. وهنا مكمّن الخطر المخيف، الذي استلزم قرع أجراس الإنذار وإعلان حالة الطوارئ في عواصم العولمة الرأسمالية، وامتشاق كل أسلحتها الإعلامية والدعائية والتكنولوجية والرقمية الممكنة لشن حملة ضروس ضد مشروع ترمب بهدف إفشاله، إما بإرغامه على التراجع عن برنامجه، أو عن جزء أساسي منه أو خلع من منصبه (impeachment) وطرده من البيت الأبيض بفضيحة مدوية إذا لزم الأمر.

وقد استخدمت الحملة المضادة لترمب ترسانة كاملة من الأسلحة لتشويه سمعته، بتمويل من الملياردير الشهير جورج سوروس، الذي يقف وراء كل التظاهرات التي عمّت الولايات المتحدة واجتاحت عواصم الغرب، ومن أبرزها مسيرات النساء المليونية التي اندلعت في 22 يناير/كانون الثاني 2017

ولإقناع الرأي العام الأمريكي بجنون هذا الرئيس المطبق، قام ديفيد بروك، وهو أحد أبرز قياديي جماعات الضغط، حتى قبل حفل تنصيب الرئيس المنتخب، بوضع آلية ضخمة لمواجهته، ونشر مقالاً بعنوان صريح: "ترمب: إما أن يقدم استقالته أو يتم خلع".

ووفقاً لما نشره الصحفي الفرنسي الشهير وصاحب نظرية التشكيك في اعتداءات 11 سبتمبر/أيلول تييري ميسان (شبكة فولتير، 28 فبراير/ شباط 2017) فإن الحملة المناهضة لترمب قادتها أربع جمعيات أهلية: - "ميديا ماترز"، وهي المسؤولة عن نبذ الذرائع التي يمكن لدونالد ترامب أن يرتكز إليها.

- "أمريكان بريدج القرن 21"، ومهمتها جمع أشرطة الفيديو التي تُصوّر دونالد ترامب ومعاونيه خلال سنوات خلت، وقد جمعت أكثر من ألفي ساعة من الأشرطة لترمب

و 18,000 ساعة أخرى لمعاونه. وتتمتع هذه الجمعية المدنية بوسائل تكنولوجية متطورة، صُممت أساساً لحساب وزارة الدفاع، وتُمكنها هذه الوسائل من العثور على كل التناقضات في تصريحات أي شخص، بين مواقفه السابقة ومواقفه الحالية. ومن المتوقع أن تتوسع أبحاثها لتشمل نحو 1200 شخصية من معاوين الرئيس الجديد. - "مواطنون من أجل المسؤولية والأخلاق"، وهم عبارة عن مكتب محاماة على مستوى عالٍ جداً، مهمته تعقب كل ما من شأنه أن يتسبب بإثارة فضيحة في إدارة ترمب. ويعمل معظم المحامين في هذه الجمعية مجاناً دفاعاً عن "القضية". - "شير بلو" هي عبارة عن جيش الكتروني يصل إلى نحو 162 مليون مستخدم للانترنت في الولايات المتحدة. ومهمة هذا الجيش نشر موضوعات محددة بدقة مسبقاً، وتتمحور حول:

- إظهار أن دونالد ترمب ليس رجلاً معادياً للمرأة فحسب، بل هو إنسان ظلامي أيضاً ومتحرش ويحتقر المرأة؛
- ترمب رجل متسلط ولص ومتهرب من الضرائب؛
- ترمب واقع تحت تأثير فلاديمير بوتين؛
- ترمب ضعيف الشخصية، سريع الغضب، ويعاني من الكآبة؛
- ترمب، لم يُنتخب من غالبية الشعب الأمريكي، لهذا فهو رئيس غير شرعي؛
- نائب الرئيس مايك بينس رجل فاشي؛
- ترمب ملياردير لا يتورع عن الخلط بين أعماله الشخصية وتلك الخاصة بالدولة؛
- ترمب عنصري من أتباع التفوق العرقي الأبيض المعادي للأقليات العرقية، وهو ضد اللاجئين والمهاجرين وعدو للإسلام والمسلمين.

وتقدم هذه الجمعية الدعم للبرلمانيين الديمقراطيين الذين يتصدون لترمب، وتحطيم الذين يتعاونون معه. ونظراً لأن الإطاحة بترمب معركة تحتاج إلى وقت طويل، فإنها يجب أن تكون معركة لا هوادة فيها. وسيكون من مهمات الجمعية إنتاج نشرات إخبارية مستمرة وأشرطة فيديو من 30 ثانية فقط، بالتعاون مع مجموعتين أخريين: شركة توثيق فيديو تسمى "الأمريكي المستقل"، ووحدة إحصاء تدعى "السياسة المقارنة". وتستخدم هذه الآلية أكثر من 300 شخص من المتخصصين في مختلف المجالات، يسانداهم العديد من المتطوعين، بميزانية سنوية تزيد على 35 مليون دولار.

وبعد انقضاء الأيام المئة على تولّيه منصب الرئاسة، تبين أن ترمب لم يعجز عن تنفيذ العديد من بنود برنامجه فحسب، بل أن "المؤسسة" تقاقل من أجل إعادته إلى الحظيرة. وهو ينصاع تارةً، كما فعل عندما وجّه ضربة صاروخية عرجاء لقاعدة الشعيرات الجوية السورية، حيث حظي بتأييد المؤسسة فوراً، ويرفض أو يراوغ تارة أخرى، وينجح أو يُسمح له بالنجاح في نقاط تضر بمصالح الفقراء وذوي الدخل المحدود ويدعمها الجمهوريون، كإلغاء "قانون أوباما كير" تارةً ثالثة.

نظرية ما بعد الحقيقة Post-Truth Theory

لعلّ من أمضى الأسلحة النظرية التي استخدمها منظرو العولمة الأوليغارشية وأنصارها "نظرية ما بعد الحقيقة"، فما هي هذه النظرية، وما هي خطورة هذا السلاح؟

بحسب قاموس أكسفورد، احتلّ هذا المصطلح مرتبة "كلمة العام 2016". وكلمة post هنا لا تعني "ما بعد" بالمفهوم الزمني، كأن نقول: "ما بعد الحرب العالمية الثانية" مثلاً، وإنما هي صفة تدل على أو تتعلق بظروف تصبح فيها الحقائق الموضوعية أقل تأثيراً في تشكيل الرأي العام من مخاطبة العاطفة والاعتقاد الشخصي، أو في وقت يصبح فيه الموضوع غير مهم أو غير ذي صلة بالموضوع نفسه، ويصبح المهم هو ما بعد الموضوع الأصلي. وبحسب قاموس أكسفورد أيضاً، فإن truthfulness، أي "الحقيقية" تعني: ما يبدو لك أنه حقيقي، أو ما تشعر بأنه حقيقي، حتى لو لم يكن بالضرورة حقيقياً!

وقد استخدم هذا المصطلح الكاتب المسرحي الأمريكي الصربي الأصل ستيف تيسيتش في عام 1992، حيث قال إننا نعيش في "عالم ما بعد الحقيقة"، بمعنى أن الحقيقة نفسها فاتتْ ولم تعد ذات صلة بالموضوع المثار. بعد ذلك ظهرت عدة استخدامات لمصطلح "ما بعد الحقيقة"، من قبيل: سياسة ما بعد الحقيقة Post-truth Politics؛ عالم ما بعد الحقيقة Post-truth World؛ "الحقائق البديلة" AI-ternative Facts؛ حقبة ما بعد الحقيقة Post-truth Era؛ ثقافة ما بعد الحقيقة Post-truth Culture؛ إلى آخره.

وقد عُرِّفت "سياسة ما بعد الحقيقة" بأنها ثقافة سياسية يتشكل فيها الحوار من خلال مخاطبة العواطف المنفصلة عن تفاصيل السياسات، وبتكرار التأكيد على نقاط الكلام التي يتم فيها تجاهل الدحض الحقيقي للسردية المزيفة (ففي قصة الهجوم بالأسلحة الكيميائية في خان شيخون مثلاً، المخلّقة كلياً والمعدّدة مسبقاً والممسوحة، التي أدّنتها جوقة عالمية كاملة منسقة، من منظمة الخوذات البيضاء ومختلف فصائل "الثورة" الوهابية الإرهابية، إلى رئيس الولايات المتحدة، وما بينهما، لم تجد الأدلة المادية الدامغة التي تدحض الرواية الملفقة أذنناً صاغية من أحد، فكذب العالم "الحقيقة" وتجاهلها وصدق "ما بعد الحقيقة" وأخذ بها. ولعل من سخرية التاريخ أن هذه المقاربة نفسها - أي سياسة "ما بعد الحقيقة" استُخدمت ضد ترمب نفسه في الحملة المناهضة له والتي أُسميتها- من باب المفارقة- "الربيع الأمريكي").

ويُوصف "عالم ما بعد الحقيقة أو الحقائق البديلة" بأنه عالم تُعرّف فيه الحقيقة بأنها ما يتصوّر المرء أنها حقيقة، حتى لو كانت الحقيقة غير أو عكس ما يتصوره، وهو بالتالي عالم "الحقائق البديلة".

أما "حقة ما بعد الحقيقة" فإنها تثير حيرة الكاتب والصحفي الأمريكي ديفيد سيروتا، فيتناولها في مدونة "أوف بوست" بسؤال استنكاري بسيط: لماذا في ميدان السياسة يتم جلد ونبد الأشخاص الذين يتوخون الحقيقة ويتبين أنهم على صواب، بينما تتم مكافأة المخطئين الذين يجانبون الحقيقة كلياً واعتبارهم مجرد حاملين أو واهمين؟ في حين أنه في ميادين أخرى، كالبنزس مثلاً، يحدث العكس؟ حيث يُكافأ المصيب ويُعاقب المخطئ؟

الجواب عند سيروتا بالطبع يتعلق بقبضة المال والسلطة، أي من الذي يقبض على ناصية المال والسلطة. "فالمؤسسة" تؤيد الحرب لأسباب تتعلق بجني الأرباح، وتدعم الاتفاقيات التجارية التي تزخر بنود الحماية للشركات (براءات الاختراع، حقوق النشر، حقوق الملكية الفكرية، إلى آخره) ولكنها خالية من الحماية للبشر (الأجور، شروط العمل، حقوق الإنسان، المحافظة على البيئة).

وفي هذه الحقبة يتم تبني الخطاب السياسي الذي يُستعاض فيه كلياً عن "الواقع الحقيقي بحقبة ما بعد الحقيقة"، وهي فترة زمنية لا يتظاهر فيها هذا الخطاب- ولو مجرد تظاهر- بأنه يستند إلى أدلة حقيقية أو معلومات ملموسة، وحيث يُحتفى بالأشخاص الأكثر خطأً ويُقدّمون على أنهم الأكثر صواباً.

ويخلص سيروتا إلى القول إن نظرة سريعة على الفوضى التي تضرب العراق، أو الحالة الاقتصادية التي تعيشها الولايات المتحدة تبين أن "نظرية ما بعد الحقيقة لا تلائم أحداً سوى حفنة من النخبة المتربعة على عرش القمة."

وأما "ثقافة ما بعد الحقيقة" فرمما تكون الأخطر بين شقيقاتها لأنها، مع ظهور المزيد من استخدامات المصطلح والتوسع في المفهوم، ربما تتطور إلى نظرية قائمة بذاتها في عصر سيادة الثقافة السطحية أو تسطيح الثقافة، وتصبح غطاءً أيديولوجياً للتلاعب بعقول وقلوب الشعوب مثلما حدث لنظرية نهاية التاريخ البائسة، من يدري؟ ولعل هذا هو ما اقتضى نقل هذه الظاهرة إلى طاولة النقاش على مستوى مجتمع الأكاديميين والفلاسفة، الذين يُفترض أن تكون غايتهم تكريس الحقائق الموضوعية، وإجراء استقصاء لآراء بعضهم بشأن معنى مصطلح "ما بعد الحقيقة"، مثلما فعل الصحفي البريطاني في موقع BBC شون كوفلاند، حيث عرّض لرأي الفيلسوف والأكاديمي و أستاذ الإنسانيات البريطاني أنتوني غرينلنغ، الذي ينظر إلى عالم ما بعد الحقيقة بعين الرعب، فيحدّر من تأثير سيادة أو تفشي مفهوم ما بعد الحقيقة في "إفساد النزاهة الفكرية وإتلاف نسيج الديمقراطية برمته."

من أين جاء مصطلح " ما بعد الحقيقة"؟

يجيب البروفيسور غرينلنغ بأن العالم تغير بعد عام 2008؛ فمنذ الأزمة المالية تزايد التفاوت في الدخل بشكل "خائق ومسموم". وبالإضافة إلى الفجوة الشاسعة بين الأغنياء والفقراء، فقد نما شعور عميق بالظلمة في نفوس العائلات ذات الدخل المتوسط. وفي ظل الاستياء الاقتصادي ليس من الصعب "إشعال" نار العواطف حيال قضايا مقلقة كقضية المهاجرين واللاجئين مثلاً.

ويعتبر غرينغ ظهور وسائل التواصل الاجتماعي أحد العناصر الرئيسية لثقافة ما بعد الحقيقة. فلم يعد "صاوند بايت" sound bite مهماً، بل "آي بايت"- i-bite هو المهم، حيث "الرأي القوي" يغلب الأدلة الدامغة أو يطغى عليها.

ويرى أن ظاهرة ما بعد الحقيقة تتعلق باعتقاد المرء بأن رأيه أكثر قيمة من الحقائق، كما أنها تتعلق بشعوره تجاه الأشياء. ويعتقد أنها ظاهرة نرجسية رهيبة تعززت بالقدرة على نشر الرأي. ففي السابق كان الشخص بحاجة إلى "دلو دهان وقناع" كي يتمكن من نشر رأيه إذا لم يجد ناشراً (الإشارة إلى أيام النضال السري). أما اليوم فإن كل ما يحتاجه هو جهاز "آي فون". وإذا اختلفت معه في الرأي فإنه يعتبر ذلك هجوماً عليه شخصياً وليس على رأيه. وإذا شقَّ أحد النَّكِرَات طريقه إلى الصفوف الأمامية الـديجيتالية وشاهده آخرون أو حصل على عدد كبير من "اللايكات"، فإنه يظن أنه أصبح من نجوم المجتمع وربما من مشاهير العالم.

ويلاحظ البروفيسور غرينغ أن "الأخبار الكاذبة" التي تُنشر على وسائل التواصل الاجتماعي أضحت جزءاً من النقاشات العامة بعد الانتخابات. وهنا يحذّر غرينغ من ثقافة الانترنت التي لا تميز بين الحقيقة والخيال، ومن أن بعض المزاعم المبنوثة في التغريدات على "تويتر" تحظى بنفس القدر من الصدقية التي تتسم بها مكتبة كاملة زاخرة بالبحوث الرصينة، أو أكثر، إذ يكفي القول: "إنها منشورة على الانترنت يا أخي، ألا تصدّق؟"

ويرى الفيلسوف غرينغ أن "ما بعد الحداثة" و"النسبية" تشكلان الجذور الفكرية "لنظرية ما بعد الحقيقة". وأن مقولات من قبيل "كل شيء نسبي"، و"يتم اختلاق قصص طوال الوقت"، و"ليس ثمة شيء اسمه الحقيقة"، أخذت تتفشى على نطاق هائل، الأمر الذي يفتح الباب على مصراعيه أمام نوع من السياسة التي لا تشغل نفسها أبداً بالبحث عن أدلة بشأن الحقيقة أو عن الحقيقة نفسها. لكن، ألم يكن ذلك جزءاً من معركة الأفكار على الدوام؟ يخلص البروفيسور غرينغ إلى القول: "إن هذه الحقبة تشبه حقبة الثلاثينيات من القرن المنصرم، وقد أدرك معتنقو "نظرية ما بعد الحقيقة" أنهم ليسوا بحاجة إلى

حقائق، بل إلى مواصلة إطلاق الأكاذيب وحسب.

بعض تجليات نظرية ما بعد الحقيقة أو الحقائق البديلة

يمكنني القول أخيراً إن "جدول" هذا الكتاب تعجُّ بتجليات فانتازيا ما بعد الحقيقة أو الحقائق البديلة:

- **تموز العدوان والمقاومة:** في العدوان الإسرائيلي على لبنان في تموز/ يوليو 2006، يعرف كل ذي عقل بسيط أن الحقيقة العارية الصلدة هي: عدوان غاشم على لبنان تصدّت له مقاومة لبنانية باسلة. فقد شنت إسرائيل عدواناً همجياً صارخاً على لبنان، بكل أنواع الأسلحة الحديثة الفتاكة وبدعم كامل من الولايات المتحدة الأمريكية، مستهدفةً بشكل خاص الجنوب اللبناني والضاحية الجنوبية لبيروت، حيث ألحقت دماراً هائلاً بهما، وقتلت وجرحت العديد من المواطنين والمقاومين وهجرت مئات الآلاف من أهالي الجنوب والضاحية. وتصدّت له مقاومة لبنانية باسلة بقيادة حزب الله وألحقت به هزيمة نكراء، على الرغم من وقوف القوى اللبنانية الحليفة والعميلة لإسرائيل والغرب ضده علناً. أما الحقيقة البديلة التي اخترعها أصحاب نظرية ما بعد الحقيقة فهي أن إسرائيل المسالمة ردّت على الاعتداءات المستمرة "لحزب الله الإرهابي المدعوم من إيران الشيعية وسوريا العلوية النصيرية أعداء السنّة والجماعة".

- **25 يناير.. مفخرة شعب أم وبال عليه؟:** بعد تفجّر انتفاضة الشعب المصري في 25 يناير 2011 التي أطاحت برأس النظام حسني مبارك بمساندة الجيش المصري، والتي عدّها المصريون من مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية والمشارب السياسية والثقافية مفخرة أدهشت العالم- وهذه هي الحقيقة التي رأيتها بأمر عيني- فقد كنتُ هناك- سارعت هيلاري كلنتون إلى تسليمها إلى الإخوان المسلمين الذين سيطروا على مقاليد السلطة في انتخابات "ديمقراطية" عبر صناديق الاقتراع وعضّوا عليها بالنواجذ، فأرادوها خلافة راشدة تدوم 500 عام أخرى على حد تعبير الرئيس الأسبق محمد مرسي (في إشارة إلى الخلافة العثمانية)، وهذه هي الحقيقة البديلة التي سادت في عهد حكم الإخوان القصير. وعقب الإطاحة بهم

في 30 يونيو/حزيران 2013، تفجّر الإرهاب المسلح وتفاقم الفقر المدقع والثراء الفاحش ومضت مصر في طريق الانحدار الذي كانت قد بدأت منذ توّلي أنور السادات مقاليد الحكم بعد وفاة جمال عبد الناصر تنفيذاً لخطة هنري كيسنجر الذي وعد "بأن يحوّل أم الدنيا إلى مصر المسكينة الصغيرة" poor little Egypt. لقد دُفع المصريون إلى هاوية اليأس وكفروا بثورتهم التي قالوا عنها ذات ربيع إنها أدهشت العالم، وحملوها أوزار أوضاعهم المزرية فاعتبروها وبالاً عليهم وأساس الخراب. وهذه هي الحقيقة البديلة الثانية للثورة المصرية أو ما بعد الحقيقة التي سادت أو أُريد لها أن تسود، ولا تزال، حتى اليوم.

- جهاد أم إرهاب.. ربيع أم ثورة مضادة: تصنيع الوهابية وازدهارها
يمكنني القول إنه تم استيلاء أو تصنيع وتنشئة ورعاية الوهابية وهيمنتها الدينية والثقافية على العالمين العربي والإسلامي على ثلاث مراحل رئيسية:

الأولى مرحلة الحلم: همفر قابلة الوهابية

بحسب كتاب "مذكرات السيد همفر، الجاسوس البريطاني إلى الشرق الأوسط" Memoirs of Mr. Hempher, The British Spy to the Middle East أو اعترافات جاسوس بريطاني "Confessions of a British Spy، فإن الجاسوس البريطاني همفر، الذي أطلق على نفسه اسم الشيخ أحمد، هو الذي صنع وجنّد محمد بن عبدالوهاب ووضع له برنامج التوحش استناداً إلى منام رأى فيه همفر الشيخ محمد بن عبدالوهاب يدخل إلى مجلس النبي محمد فيقوم له النبي احتراماً ويَعده بأنه سيعهد إليه بالدعوة الصحيحة. وعقدَ حلفاً استراتيجياً وثيق العرى بينه وبين محمد بن سعود، أي بين الدين والسلطة للاستيلاء على عقول الناس وأجسادهم، واتخذوا من "الدرعية" عاصمة للحكم والدين الجديدين، ومرجعيتهم الدينية الأساسية شيخ الإسلام ابن تيمية.

وبغض النظر عن مدى دقة الكتاب، فإن الحقيقة تبين أن الحلف الاستراتيجي بين الحركة الوهابية بقيادة محمد بن عبدالوهاب وبين جيش محمد بن سعود منذ مطلع القرن الثامن عشر جاء بالقتل والهدم والترهيب وتكفير كل آخر

وأى آخر واستباحته. أما الحقيقة البديلة فهي أنها حركة جاءت لتنقية الدين الحنيف من الشوائب ولتخطيط الأصنام والقضاء على الممارسات الوثنية التي شابت الإسلام، والعودة إلى أصول الدين وصحيحه.

الثانية مرحلة الجهاد الأفغاني: الذي صمّمه مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق بريجنسكي وتعهّده من ألفه إلى يائه، تمويلاً وحشداً وتسليحاً وتدريباً، بعد أن "عمّده في كعبة المسلمين ورسم أمراءه بهدف مقاومة وإسقاط الحكومة التقدمية في أفغانستان بذريعة طرد الاحتلال السوفييتي ومكافحة الشيوعية والإلحاد والذود عن حياض الاسلام، وهذه هي الحقيقة البديلة.

- غاوون يتبعهم شعراء في غوانتنامو

عمدت الولايات المتحدة وحلفاؤها وعملاؤها إلى تصنيع الإرهاب الاسلامي لمحاربة الاتحاد السوفييتي والشيوعية والإلحاد وأطلقوا عليه اسم "الجهاد الأفغاني" حيث حشدوا ونظّموا وسلّحوا ودرّبوا وموّلوا المقاتلين الإسلاميين وأسّموهم مقاتلين من أجل الحرية ومجاهدين في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام بعد أن "رسموهم" أمراء للجهاد من جميع المذاهب الإسلامية داخل البيت الحرام الذي كان له رب يحميه من جيش أبرهة الحبشي حتى قبل الإسلام برأي جد النبي عبدالمطلب. وبعد هزيمة الجيش السوفييتي وإسقاط النظام التقدمي القائم وإعدام الرئيس نجيب الله ورفاقه، مكّنوا حركة طالبان من السيطرة على كافة أنحاء البلاد. وعقب هجمات 11 سبتمبر/ أيلول 2001 على برجى التجارة العالمية وغيرهما، اتهمت إدارة جورج بوش الابن تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن الذي كانت طالبان تحتضنه وتحميه، بتنفيذ تلك الهجمات الإرهابية، وقلبت لهم ظهر المجن. فجرّدت حملة عسكرية مدمرة على طالبان والقاعدة واحتلت أفغانستان تحت شعار القضاء على الإرهاب، واعتقلت عدداً كبيراً من أعضاء القاعدة وطالبان ممن صنّفتهم بأنهم إرهابيون خطرون، وأودعتهم معتقل غوانتنامو الرهيب وغيره من السجون السرية في بلدان أخرى، و كان من بينهم أبرياء وشعراء وغاوون من ضحايا صائدي المكافآت. وظلت قواتها وقوات حلفائها الأطلسيين تحتلها حتى منتصف شهر آب/أغسطس 2021 عندما قررت إدارة بايدن تنظيف

حركة طالبان وتبيض وجهها القبيح وإعادتها إلى الخدمة لغايات إقليمية ودولية لا يستطيع "يعقوب" ان يخفيها في نفسه. وبذلك تكون الولايات المتحدة قد صنّعت حقيقتين بديلتين لما بعد الحقيقة.

والثالثة مرحلة ربيع ليفي: إن "الثورة" الليبية التي قادها "فيلسوف الربيع العربي وجيفارا الثورة المضادة" اليهودي الصهيوني برنار هنري ليفي وحاول نسخها في سوريا كانت في الحقيقة مؤامرة مدبّرة ومنسّقة وعدواناً سافراً واحتلالاً لبلدين مستقلين ومحاولة تقسيمهما ونهب مواردهما، باستخدام قوات محمولة من الجحافل الإرهابية الوهابية التي تقاتل بالوكالة، وهي ليست سوى "بلاك ووتر" إسلامية.

لكن الحقيقة البديلة التي كرّسها برنار ليفي في أذهان العالم والعرب كانت تتمثل في تطبيق نظرية القذافي على سوريا وشيطنه رئيسها بشار الأسد لتسهيل الإطاحة به واحتلال بلاده وتقسيمها ونهب ثرواتها، بحجة الدفاع عن الشعب السوري وحمايته من "قاتل شعبه" بهدف تحقيق الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان للشعب السوري، ومن أجل نصرّة الإسلام الحنيف والسنة والجماعة في مواجهة "النصيرية والرافضة" الكفرة استناداً إلى فتاوى "مقدسة" عديدة، وفي مقدمتها فتوى ابن تيمية الشهيرة التي سترد في فصل لاحق من هذا الكتاب.

ولعلّ أسطع مثال على فانتازيا ما بعد الحقيقة في الحرب على سوريا مسرحية استخدام الأسلحة الكيميائية في مدينة خان شيخون المشار إليها آنفاً التي نفذتها منظمة الخوذات البيضاء التابعة لتنظيم الإخوان المسلمين. فعلى الرغم من أن الحكومة السورية كانت قد دمرت ترسانتها من الأسلحة الكيميائية بإشراف روسيا وبشهادة الوكالة الدولية لحظر الأسلحة الكيميائية، إلا أن الولايات المتحدة ودول حلف الأطلسي "ألّفت" المسرحية البغيضة الرديئة وأخرجتها، وحملتها عبر أثير الكرة الأرضية ماكينة البروباغاندا الغربية الرهيبة وأفتعت بها العالم وصدّقها الناس، ولم تعد الحقيقة الأصلية تُذكر.

- اغتيال بطل تراجيدي إغريقي

شكّل اغتيال الكاتب والصحفي والمناضل السياسي الأردني ناهض حتر في عام 2016 تجلياً ساطعاً آخر لنظرية ما بعد الحقيقة؛ فالكاتب لم يفعل سوى مشاركة "تشير" كاريكاتور على صفحته على فيس بوك عن "رب الدواعش" - وليس رب العالمين- الذين يذبحون ويحرقون ويدمرون النفاثس الأثرية والثقافية ويجبّون كل ما قبلهم وما بعدهم كي يفرضوا ثقافتهم الصحراوية القروسطية. فقد تم اغتياله بسبب آرائه ومواقفه السياسية المعلنة ولا علاقة له بالكاريكاتور ولا بالدين على الإطلاق، بل ربما كان له صلة بمؤامرة متعددة الأطراف والمصالح المتقاطعة. فما انفك حتر يساند سوريا علناً ومنذ اليوم الأول ويؤيد حزب الله ويمتدح مواقف روسيا وإيران ويدين مواقف وأدوار دول محور العدوان على سوريا، وخاصة الخليجية منها. كما استمر في الدعوة إلى ما أسماه "فك الارتباط المزدوج": الأول الارتباط مع الضفة الغربية المحتلة في ما أسماه حتر "دسترة قرار فك الارتباط"، ما يعني رفض "الحل" الإسرائيلي للقضية الفلسطينية بإنشاء وطن بديل للفلسطينيين في الأردن؛ والثاني بين الأردنيين ونظام الحكم في ما عبّر عنه ببلورة حركة وطنية أردنية مستقلة، ما يعني استقلال القاعدة الاجتماعية القديمة- الكتلة الشعبية الأردنية- عن نظام الحكم. وقد نُفذت عملية الاغتيال بمسدس إرهابي على درج قصر العدل الذي يشي اسمه بأنه المكان الذي تتحقق فيه العدالة الأرضية. تم ذلك بعد تنظيم حملة تكفير وتجييش وتحريض عليه بصفته زنديقاً معادياً للإسلام ومسيئاً للذات الإلهية ويعتبر قتله فرض عين، فضلاً عن إشتراك أحزاب وتنظيمات وشخصيات يسارية وقومية وليبرالية ومستقلة في حملة شعواء ضده، واتهامه بوصمة "الإقليمية"، التي يقصد بها هنا العداة للفلسطينيين، بسبب دعوته إلى دسترة فك الارتباط مع الضفة الغربية المحتلة. هذه هي الحقيقة البديلة التي فبركوها ضده وصدّقها كثيرون.

- نيسان أقسى الشهور (العبرة للشاعر تي إس إليوت في مطلع قصيدته "الأرض الياب"):

الحقيقة أنّ ما أطلق عليها المنتفضون اسم هبة نيسان عام 1989 كانت انتفاضة جماهيرية أو حراكاً شعبياً مطلبياً أندلج في محافظات جنوب الأردن، معان والكرك والطفيلة، احتجاجاً على رفع أسعار المحروقات والسلع الأساسية إثر بيع احتياطي

الذهب في البنك المركزي وتخفيض قيمة الدينار الأردني. وقد تم اعتقال مئات المتظاهرين، بالإضافة إلى العديد من قيادات وكوادر الحزب الشيوعي الأردني وآخرين من التنظيمات اليسارية و القومية الأخرى كحزب البعث والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية ومستقلين ممن تضامنوا مع المتظاهرين أو لم يتضامنوا.

تلك الحقيقة طُمت واخترع لها ما بعدها، قالوا إنها حوادث شغب وتكسير ونهب واعتداء على الممتلكات العامة والخاصة. واتُّهم الشيوعيون بأنهم يقفون وراء تلك الأحداث كفضيحة لتخويف دول الخليج العربية، وخاصة السعودية والكويت، من احتمال تمدد تلك الحوادث إليها، وذلك بهدف استجلاب الدعم المالي والسياسي، وقد حصل النظام على ذلك الدعم بالفعل فوراً.

- **مين اللي باع البلاد؟** (أحد هتافات الحراك الشعبي الأردني على الدوار الرابع) أما بالنسبة للحراك الشعبي الأردني الحديث الذي تفجّر تحت شعار "ضد الفساد والاستبداد وبيع مقدرات البلاد"، ورفع شعارات مرتفعة السقوف طالت الملك وزوجته وكبار المسؤولين الفاسدين، فقد استمر الحراكيون القلائل في نضالهم واختاروا مكاناً دائماً لاعتصام أسبوعي بالقرب من الدوار الرابع (حيث مقر رئاسة الوزراء) بعد توقف تحرك الطبقة الوسطى وتخليها عن مطالب الجماهير الشعبية. ولفقت السلطات حقيقة بديلة، حيث اتهمت الحراكيين بأنهم "طابور خامس وأصحاب أجنداث خارجية".

- **الإنجليجنسيا.. أصوات للدفاع عن الوطن أم أبواق لأعدائه؟** في الموقف من العدوان على سوريا وليبيا والعراق ولبنان واليمن، وخاصة في العشرية الحالكة التي مضت، تقول الحقيقة المرة الصارخة إن العديد من الكتاب والفنانين والمثقفين العرب في الثورات الملوّنة، أو ما سمي بالربيع العربي، تحوّلوا إلى مرتزقة وزمّارين يعزفون الألحان التي يطلبها الدافعون من أموال النفط وأسيادهم، ويستجدون الاحتلال الأجنبي لبلدانهم ويستعجلونه، بينما تزعم الحقيقة البديلة التي لفقوها أنهم مثقفو الدفاع عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ودعاة ثورة على الدكتاتورية، ورأيانهم يدبّجون أشكال الرطانة

الثقافية التي تسوّغ الخيانة الوطنية، الصريحة أو المستترة.

- رُباعية المئوية: من طبول الولادة القيصرية إلى لحن الوداع الأخير:

بات من المعروف والموثّق أن "الدولة-الإمارة" التي أنشئت باسم إمارة شرق الأردن في عام 1921 خُطط لها أن تكون كياناً وظيفياً ومنطقة عازلة تفصل بين الكيان الإسرائيلي المزمع خلقه والبلدان العربية، وبين المستعمرات البريطانية والمستعمرات الفرنسية، ولخدمة المشروع الامبريالي- الصهيوني بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وجعل الأردن وطناً بديلاً للفلسطينيين الذين سيتم تهجيرهم إليه، وملاً آمناً لغيرهم من اللاجئين والمهاجرين والأفارقة وصائدي الفرص الباحثين عن الجنسيات من مخرجات الأزمات والحروب الإقليمية، على حساب الأردنيين الذين سيتحولون إلى سكان أصليين كالهنود الحمر في القارة الأمريكية.

وخلال المئوية التي انقضت مرّت الدولة-الإمارة في أطوارها المرسومة لها منذ الولادة: من طور المنطقة العازلة إلى طور "شتى" الرث، إلى طور الهجين، إلى طور الزومبي، وحتى مانيفستو لحن الوداع الأخير.

هذه هي حقيقة ما حدث تاريخياً. أما الحقيقة التي اختُزعت وسُوّقت وسادت فهي أنها دولة قوية ومتسامحة ومفتوحة لكل العرب، وخصوصاً للأشقاء الفلسطينيين الذين احتلت إسرائيل وطنهم التاريخي واقتلعتهم من أرضهم وشرّدتهم من ديارهم. وأنها تمثل واحة للديمقراطية والاستقرار والأمن والأمان، في بحر الاقليم المتلاطم وتلعب دوراً مركزياً في المنطقة. وأنها دخلت مئويتها الثانية بنجاح واقتدار واستحقاق.

الحرب الروسية- الأوكرانية الأطلسية: الغرب "المتحضر" يعود إلى صدام الحضارات

بينما كان الكتابُ ماثلاً للطبع، وفي 24 شباط/فبراير 2022، وقع الحدث الأبرز في منقلب القرن الحادي والعشرين، حيث نشبت الحرب بين روسيا الاتحادية التي اضطرت للدفاع، ليس عن نفسها وأمنها القومي فحسب، بل عن وجودها الحضاري برمته، وبين نظام الدُمى والقوى النازية الجديدة والشوفينية المتطرفة في أوكرانيا التي تخوضها بالوكالة عن وبدعم كامل من الولايات المتحدة الأمريكية وحلف شمال الأطلسي "ناتو".

ولعلَّ مجريات وحقائق ووقائع هذه الحرب التي ستحدد، بلا مبالغة أو بيع أوهام مصير العالم، تُظهر التجلّي الأوضح والأقوى من تجليات نظرية ما بعد الحقيقة أو الحقائق البديلة.

فقد بدأت الحرب ضد روسيا فعلياً منذ الانقلاب الفاشي على الحكومة المنتخبة في كييف في عام 2014 وتنصيب حكومة دمی الشوفينيين المتطرفين والنازيين الجدد الذين أقدموا على إحراق العمال المعارضين وهم أحياء داخل مبنى النقابات العمالية وقتلوا وعذبوا وأرهبوا المعارضين والناطقين بالروسية واقترفوا عمليات إبادة جماعية ضد الروس في الدونباس، وأسماوا الانقلاب ربيعاً أوكرانياً والانقلابيين ثواراً من أجل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وحضر مسؤولون أمريكيون كبار إلى الميدان في كييف، من بينهم السيناتور جون ماكين ونائبة وزير الخارجية فيكتوريا نولاند "الستراوسية" وخطبوا "في الثوار" ووزعوا عليهم البركات مع الماء والبسكويت.

لقد أعدت الولايات المتحدة ودول حلف الأطلسي العدة لضم أوكرانيا إلى الحلف، وزوّدها بالأموال والأسلحة الفتاكة المتقدمة كي يصبح الكرمليين على بُعد خمس دقائق، وأنشأت فيها مختبرات ومعامل الأسلحة النووية والبيولوجية والجينية

(العرقية) البشعة المصممة لعمليات الإبادة الجماعية للأعراق المستهدفة، وهي هنا السلافية، تمهيداً لإرسالها حتى على أجنحة الطيور المهاجرة.

وعندما حاولت روسيا درء الخطر الوجودي عن نفسها، وُصفت عملياتها العسكرية بأنها عدوان واجتياح واحتلال روسي لبلد مسالم ومستقل وذو سيادة، وأعطى المايسترو الأمريكي الإعزاز للأوركسترا الدموية التي ضمت عازفين تابعين من شتى بلدان العالم، وضرب حصار تام على روسيا وفُرضت عليها عقوبات شاملة، عسكرية واقتصادية وسياسية ودبلوماسية وإعلامية رهيبة، طاولت حتى الرياضة والثقافة والفن والموسيقى؛ فمُنعت موسيقى تشايكوفسكي العظيمة وفرقة باليه بولشوي الساحرة وروايات دوستويفسكي التي تغوص في أعماق النفس الإنسانية، وحطمت تماثيل أعلام الأدب والشعر كشاعر روسيا العظيم بوشكين، وسارعت معشوقة الملايين الإعلامية أوبرا وينفري، المرأة السمراء التي اقتاد الرجل الأبيض أجدادها أرقاء بالأغلال والأصفاد والسلاسل من موطنهم الأصلي إلى الأرض التي اغتصبها من أصحابها الأصليين الهنود الحمر، إلى قذف ملحمة تولستوي الوطنية العظمى "الحرب والسلام" من رفوف مكتبتها الخاصة. وبذلك كشف الغرب "المتحضر" عن حقيقة أيديولوجيته العنصرية المستحكمة "صدام الحضارات" التي غطّاها بنظرية ما بعد الحقيقة أو بحقائقه البديلة .

وهكذا يتبين لكل من لديه الاستعداد لإزالة غشاوة ما بعد الحقيقة عن عينيه وأذنيه وعقله ورؤية الحقيقة المدفونة تحت ركام الحقائق البديلة أن هذه الحرب، في جوهرها، ليست حرباً بين الروس والأوكرانيين، فهذان شعبان شقيقان عبر تاريخهما المشترك القديم والمعاصر، وليست حرباً بين "إمبرياليتين" - فخّار يكسّر بعضه- كما يراها بعض اليساريين- بل هي حرب بين نظام القطب الأوحده الآفل، المعادي للشعوب والمتحكّم بمصائرهما، وبين النظام العالمي الجديد المتعدد الأقطاب الذي تُطلُّ بشائر ولادته، والذي، بحكم ظروف نشأته، سيوفر لشعوب العالم المستغلّة والمكبوتة فرصةً للتنفس، وللمستضعفة واليائسة فسحةً للأمل إذا كتب التاريخ له النصر، ولا خيار غير النصر.

الجدول الثقافية

- I -

من يوتوبيا المقاومة والثورة إلى غوانتنامو الإرهاب والشعر

- عناقيد الأدب: يوميات الحرب والمقاومة
- ثورة 25 يناير: من رانديفو الشباب إلى كرنفال الشعب
- أكواب الشعر: قصائد من غوانتنامو

عناقيد الأدب: يوميات الحرب والمقاومة¹

ما يشبه نطاق الاختصاص (Terms of Reference):

هذه الورقة تتناول النصوص الأدبية التي كُتبت بأقلام لبنانية في إدانة العدوان ودعم المقاومة أثناء الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز/ يوليو- آب/ أغسطس 2006 على مدى ثلاثة وثلاثين يوماً، والتي جمعناها أثناء زيارتي إلى بيروت، بما فيها الضاحية الجنوبية، والجنوب اللبناني في أعقاب العدوان. وتضم هذه الأنثولوجيا نصوصاً للكُتاب والشعراء (بالترتيب الألف بائي): أدونيس، جودت فخر الدين، سماح إدريس، شريف عبد النور، شوقي بزيع، عباس بيضون، غسان مطر، طارق ناصر الدين، كيرستين شايد، محمد علي شمس الدين، وهدي ميقاتي..

وتلقي الورقة الضوء على النصوص الأدبية المختارة من دون الدخول في معايير تصنيف الألوان أو الأشكال الأدبية، شعراً أم قصة أم مسرحية، بل إنها تشمل ضمن نطاق اختصاصها الخواطر الأدبية، بالإضافة إلى "اليوميات" نظراً للأهمية البالغة التي يرتديها هذا الشكل الأدبي في ما كُتب وقتئذ.

وهي لا تحاول أن تقدم نقداً أدبياً للنصوص المختارة، وإنما هي أشبه بأنثولوجيا تضم مقتطفات من النصوص الأدبية التي تمكنت من جمعها في فترة قصيرة. ولا تُعنى بمعالجة النصوص المختارة من الناحية الفنية، فلذلك مكان آخر وأوان آخر كما يقول الشاعر غسان مطر في مقدمة ديوانه "لمجدك هذا القليل": هذه اليوميات لا أحكمها فنياً اليوم. إن لذلك أواناً آخر. اليوم أحملها كما هي، كما وقعت من قلبي وأنشرها دون تردد. وفي هذه اليوميات، لا تهمني كل النظريات حول القصيدة، بل يهمني الصدق الذي تحمله الكلمات، يهمني كيف انهمرت هذه الكلمات بعشوائية كما انهمرت علينا القذائف. يهمني أنني كتبت في وقت

1- لهذا العنوان علاقة تضاد بعملية "عناقيد الغضب"، وهو الاسم الرمزي للعمليات العسكرية التي شنتها إسرائيل في عهد شمعون بيريز على الجنوب اللبناني في أبريل/نيسان 1996. فقد قصفت القوات الإسرائيلية قرية قانا، ولجأ نحو 800 من السكان المدنيين اللبنانيين إلى مركز للقوات الدولية (يونيفيل) تديره فيجي في قانا هرباً من القصف، حيث قُتل 106 مدنيين وجرح 116 آخرون، بالإضافة إلى 4 جنود من القوات الدولية. ويجدر الإشارة إلى أن قانا تعرضت مرة أخرى لمذبحة ثانية خلال عدوان صيف 2006.

كان مطلوباً من الأقلام أن تنكسر وتخرس.²

ثم إنني أتساءل: هل من الإنصاف استخدام المعايير الأدبية نفسها وانتظار التوقعات نفسها بخصوص عمل أدبي خرج مباشرةً من تحت القصف ومن بين الأنقاض ومختلطاً بأشلاء الأطفال وآخر وُلد ولادة طبيعية في سرير ناعم وبعد اختمار التجربة ووضوح الرؤية؟

هنا يطرح سماح إدريس في افتتاحية عدد مجلة الآداب المجمع، السابع والثامن والتاسع 2006 الذي صدر بعد العدوان، سؤالاً خطيراً: "هل يعني ذلك موت الأدب والشعر والقصة والحدائث في زمن الحرب؟

يجيب إدريس عن سؤاله: "طبعاً لا، ولكن "الآداب" تحاول أن تظل وفيه لخط مؤسسها الذي يؤمن بأن الأدب الفعال هو الذي يتعاطى مع المجتمع... لقد خرجنا من حرب إسرائيل على لبنان وملابسنا عابقة بغبار الدمار ورائحة اللحم المحروق، ولذا فإن أكثر الصفحات هنا تحمل آثار الحرب وآثار المقاومة." وهذا هو بالضبط ما أحاول أن أبرزه في هذه الورقة.

السمات الأساسية المشتركة للنصوص المنظورة

السمة الأولى: المقاومة المدنية

إن السمة الأساسية المشتركة الأولى لهذه النصوص، شعراً ونثراً، هي أنها جميعاً تُعتبر جزءاً من "المقاومة المدنية" المتعددة الأشكال بحسب تعبير سماح إدريس، شأنها شأن غوث المهجرين أو إيواؤهم أو العناية بالأطفال الأيتام والمنكوبين وإطعامهم من جوع وأمانهم من خوف، وموازاة المقاومة العسكرية. فهي تمجد المقاومة وتصدُّ رياح مشاعر الرعب واليأس والاستسلام التي حاول العدو الإسرائيلي وأوساط لبنانية وعربية بثها في نفوس اللبنانيين والعرب، وتتحدى القوة التدميرية الهائلة لدبابات الميركافا والبوارج الحربية والطائرات المزودة بالتكنولوجيا الأمريكية الذكية. إنها كلمات تبرز من تحت أكوام الدمار، حاملةً رائحة أشلاء

-2 مطر، غسان، لمجدك هذا القليل، دار الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2006.

الضحايا ومطوّفةً على القرى المهذّمة والمدارس والخيام والساحات العامة التي تكتظ بالمهجرين لتغرس الأمل في نفوس الناس وترفع روحهم المعنوية. وهي غير قابلة للتدمير، لأنها ما إن تخرج من أفواه أصحابها حتى تصبح أرواحاً طائرة فضاؤها السماوات والأرض.

مسرح تحت القصف³

في هذا السياق أودُّ أن ألفت الانتباه إلى عمل مسرحي جدير بإيلائه أقصى الاهتمام، وهو بعنوان: "ضحك تحت القصف" من تأليف وإخراج شريف عبد النور، أستاذ المسرح في الجامعة الأمريكية في بيروت.

هل قلتُ إنني أود أن ألفت الانتباه إلى "عمل مسرحي"؟ ربما ينبغي أن أقول: "تجربة مسرحية تفاعلية" عظيمة بذاتها وبمقاصدها. فالنص عبارة عن "هيكل عظمي" كما يسميه مؤلفه ومخرجه، خلقه هو، وترك اللحم والدم والعروق والأعضاء لارتجال الجمهور والممثلين، حيث تتغير في كل ليلة أو عرض وتختلف باختلاف المؤدين والجمهور.

وربما لهذا السبب، كتب ذلك "الهيكل العظمي" للمسرحية باللغة الإنجليزية. وقد استأذنته بترجمته إلى اللغة العربية واستخدامه في كتاباتي. وتحمس للفكرة لأنه رأى أن ذلك من شأنه أن يضيف إلى الجهد الكبير الذي بذله وأن يوصل صوت كلماته التي اخترقت هدير الطائرات وانفجارات القنابل إلى أنحاء أخرى وجماهير أخرى من العالم. ولذا يجدر أن أشير إلى أن الباحث عن نص ثابت للمسرحية لن يجده، بل سيجد نصاً مختلفاً في كل ليلة.

عن المسرحية

الأداء الأصلي: أجريت "بروفات" المسرحية وتم أدائها في الفترة بين يوليو/ تموز وأغسطس/ آب 2006 إبان العدوان الإسرائيلي على لبنان. وقد أجريت البروفات في الطوابق السفلية (التسوية) للمباني مع أطفال وشباب من العائلات المهجرة.

3- تفضّل المخرج بتوفير النصّ الأوّلي للمسرحية باللغة الإنجليزية وسمح لي بترجمته واستخدامه في البحث.

ولعب أدوارَ الممثلين أطفال تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وخمس عشرة سنة. وقضى مخرج المسرحية ثمانية أيام من العمل المكثف في البروفات وتعليم الأطفال التمثيل من الصفر. وقد انبثقت المسرحية من ورشتي عمل حول المسرح تولى المخرج عقدهما خلال ساعات النهار لأنه كان على المخرج ورفاقه بعد ذلك أن يساعدوا العائلات على المبيت في المسرح الذي كان يؤوي العديد من العائلات المهجرة.

ملخص المسرحية

تتألف المسرحية من ستة مشاهد: الوصول، المقهى، أمسية خلال الحرب، الأخبار، جمع شمل الأصدقاء، مشهد الحب، والأخبار.

المشهد العام: مقهى محلي، تنتصب في الجزء الخلفي منه شاشة تلفزيونية ضخمة. الممثلون جميعاً يرتدون قمصاناً قطنية كُتبت عليها أرقام الممثلين. المخرج يجلس بين الجمهور مرتدياً قميصاً قطنياً مماثلاً. يشرح الممثلون برواية قصص حياتهم وما يحدث لهم وخلق حوار حي حول الأوضاع الراهنة أثناء سير المسرحية، بينما يواصل المخرج المجنون صراخه على الممثلين والمتطوعين من الجمهور لإعطائهم التعليمات بإعادة الكلام وتغيير أساليب التمثيل. ولكن مشكلة تبرز، وهي أن العديد من الممثلين غائبون، ولذا يجري اختيار أفراد من الجمهور عشوائياً وإحضارهم إلى خشبة المسرح، حيث يضطرون إلى ارتجال الأدوار.

أما **الممثلون** فعددهم أحد عشر ممثلاً، لكل منهم مناجاة ذاتية قصيرة، ومعهم ممثل واحد ذو خبرة يلعب دور المخرج (وينبغي أن يقوم هذا الشخص بمراقبة مشاركة الجمهور ومُشاهد الارتجال). الممثلون الأحد عشر الآخرون يمكن أن يكونوا صغاراً أو بالغين (يفضّل أن تكون المجموعة مختلطة). وتضم المسرحية حوالي عشرة ممثلين من صفوف الجمهور يتم اختيارهم عشوائياً. ويُشار إلى جميع الممثلين بأرقامهم في النص. أما الأدوار فليست محددة النوع الاجتماعي، ولذا، يُسمح بحرية التنقل بين الأدوار.

بالنسبة للملابس، فإن كل ممثل يحمل رقماً مكتوباً على قميصه القطني. هذا كل شيء عن الملابس. وذلك لتمييز الممثلين عن أفراد الجمهور الذين سينضمون إليهم على المسرح.

أما أسلوب التمثيل فهو أسلوب واقعي: المسرحية يجب أن تشبه البروفة، والجمهور يجب أن يشاهد مسرحية في طور التشكُّل، حيث الممثلون يتطورون، والعقدة والأسلوب يتغيران أمام عيون الجمهور.

وأما المقاصد فهي تسلية الأطفال وإشغالهم وإبعاد شبح الرعب عن قلوبهم الصغيرة وحمايتهم من التعرض للصدمة والآثار النفسية للحرب المدمرة والمشاهد الرهيبة، إلى جانب المحافظة على إنسانيتهم والرد على وحشية العدو بالفن الراقى. إنها حقاً شكل من أشكال المقاومة المدنية.

وتنتهي المسرحية بهذه الكلمات:

”الممثل 5: كما يقول الشاعر المحلي المغمور والشهير -أي أنا- (يقف ويلقي قصيدته):

آواه يا زمن، ما الذي حلَّ بنا؟
الأيام تَمضي وعددنا ينقص يوماً بعد يوم
كنا نظن أننا سنعيش في عصر السلام
بيد أن الجشع لا يرتاح
لا بيت لنا، ولكن معنا عقد الإيجار
وبتنا نعرف الآن أن الديمقراطية رسبت في الامتحان
آواه يا زمن، ما الذي حلَّ بنا؟
الأيام تَمضي، وعددنا ينقص كل يوم
آه يا بوش ويا بليز
أية موهبة أنتما
للموت واليأس!
وأي زوج أنتما

أصمُّ وأبكمُّ يسيران معاً
الأحمقان الحقيقيان جاءا ليقوما هنا.

السمة الثانية: اليوميات: هل صيرتها الحرب والمقاومة لوناً إبداعياً جديداً؟
يُلاحظ بسهولة أن الأيام الثلاثة والثلاثين من الحرب والمقاومة قد فرضت تجلياتها (أقصد شكلها أو لونها أو أسلوبها أو طريقة حدوثها، أي كونها "يوميات") على النصوص التي كُتبت خلالها، بدءاً بيوميات المقاتلين على أرض المعركة وانتهاءً بالشعر، حتى كاد معظم تلك النصوص يرتدي طابع "اليوميات". بل إن ذلك في الحقيقة هو ما أهدى هذه الورقة جزءاً من عنوانها: "يوميات الحرب والمقاومة".

لمجدك هذا القليل⁴

في مقدمة ديوانه "لمجدك هذا القليل"، الذي يضم خمساً وعشرين قصيدة كتبها أثناء العدوان الإسرائيلي، يصف الشاعر غسان مطر ديوانه هذا بأنه قصيدة واحدة أسماها "يوميات غاضبة" لأنها بالنسبة له عصارة انفعالات ثلاثين يوماً من الحرب الإسرائيلية على لبنان، بدأت في اليوم الثالث لشن العدوان وانتهت صبيحة وقف إطلاق النار، معلنةً انتصار المقاومة ومجيئةً عن السؤال الذي طرح في لبنان حينئذ، والذي لا يخلو من حُبث: "لمن سيهدي السيد حسن نصر الله النصر؟" في قصيدة الإهداء:

"والخائفون من انتصارك يسألون:

"لمن ستهدي النصر؟"

...

النصر للأيدي التي صنعت بهاء النصر

للشهداء

للجرحى،

لدمع الأمهات وجدن في النصر العزاء،

لقبور من ملأوا القبور،

4- المصدر السابق يعتبر الشاعر قصائده هذه بمثابة يوميات، ولذلك فهو لا يعطيها عناوين بل أرقاماً من 1 إلى 25.

لمجد من قُتلوا وما وَجدوا القبور،
لنازحين من القرى افترشوا كرامتهم
وناموا في العراء،

للساهرين على جراح الناس
أيديهم مباركةً
وتنضحُ بالشهامة والإباء،
النصر للأطفال في ” قانا“،
لحقل التبغ،
للزيتون،
للدّم،
للعصافير التي من حولها سرقوا الهواء
للأرز تعشقهُ النسور،
على اخضرار يديه
تبني الشمسُ شرفتها
وفي أحضانه يغفو الضياء،
النصر مُلك المؤمنين بهِ
وليس هديةً
للكعنين بباب ”عَوكر“⁵
يسألون متى النهاية؟“

صيف بين المطر والرعد- يوميات الحرب، كيرستين شايد⁶

تحت هذا العنوان سجلت كيرستين شايد، أستاذة الأنثروبولوجيا في الجامعة الأمريكية في بيروت، والعضو في ”حملة مقاطعة داعمي إسرائيل“ و”حملة المقاومة المدنية“، حياتها اليومية ومشاهداتها وانطباعاتها وانفعالاتها ومعاناتها أثناء الحرب مع أسرتهما سماح وسارية وناي. وتبدأ اليوميات من السبت 16

5- حيث يقع مقر السفارة الأمريكية في بيروت.

6- عنوان اليوميات التي كتبها كيرستين شايد أثناء الحرب، ونُشر جزء منها في مجلة الآداب اللبنانية، العدد المجمع 7، 8، 9-

تموز/ يوليو 2006 حتى الثلاثاء 15 آب/أغسطس 2006.

وفي بعض يومياتها ترصد شايد بشعور بالهول عالمين متناقضين على أرض واحدة وتحت سماء واحدة وفي ظل خطر واحد- أو هكذا يُفترض- يتبدى أمام الجميع في إزهاق أرواح المدنيين، وبينهم العديد من الأطفال والنساء، وفي تدمير البيوت والمنشآت وتهجير السكان إلى العراء وإبادة كثير من مظاهر الحياة، ويحاول أن يقتل أو يهزم روح الصمود والمقاومة في النفوس:

الأربعاء 19 / 7 / 2006

في "فقرا" شعرنا، أنا وسماح، بالرغبة في المشي. سعدنا الجبل وركنا السيارة قرب الإنترنتونتيننتال. هناك رأينا منظراً غريباً: بركة تشع اخضراراً وسط الظلام، وباراً تتدلى فوقه عرائش الكرمة، ومَنْقلاً يُشوى عليه اللحم. ثمة مراقبون في أوائل عشريناتهم أو أصغر يحملون كؤوساً من الشراب، ويتحدثون بصوت عالٍ: "بِدنا نخلص منهم بَقاً"، "إيه، أنا بفتكر إنو حزب الله..". وتَبَع ذلك كلام بالإنجليزية. مشاعرهم واضحة تماماً: بودّهم أن "يخلصوا" من حزب الله.

الخميس 3 / 8 / 2006

نصل إلى "المربع الأمني". يستحيل تمييز الشوارع من المباني! الركاب أمامي في مستوى رأسي. أتسمر في مكاني. لقد سبق أن شاهدتُ ذلك على التلفزيون، ولا يجعله قُربي منه الآن أكثر حقيقةً.

فيما أتلمس طريقي بين الحطام، خطر لي أن ما نشاهده هو النسخة المعومة ما بعد الحداثيّة للبراكين التي أنتجت الأشكال الصخرية الغريبة التي أتسلّقها في فاريبا.

أحاول أن أدرس الحطام، كما يفعل علماء الآثار: قوالبُ الخبز، مصافي العصير، الدمى المحشوة، الصنادل، الحواسيب، كتابٌ عن حزب الكتائب، فرشاة نوم، أُطر أسرة خشبية، منفضة سجاد، سجادة ملفوفة، أشياء كثيرة جداً من بيوت عادية.

المخلوقات الوحيدة التي ما تزال حية هنا: قطط هزيلة، وكلبان، ودجاجة تنقر دُرّاقة على الرصيف.

حوالي الساعة مساءً. على حين غرة، قصفٌ رعدٍ تكنولوجي. إنها الشياح تُقصِف قبل الأوان. أتراني قفزتُ لأنني لم أتوقع ذلك في هذه الساعة؟ انفجاران قريبان آخران، لكن التلفزيون يقول إنهما في الشياح أيضاً. أطلب من البنّتين أن تتمرنا على آلتيهما الموسيقيتين. تحتج سارية بأنها لا تستطيع التركيز. أطلب منها أن تدع الموسيقى تأخذها إلى مكان من خَلَقها هي، حيث يعجز الإسرائيليون عن تقرير سير الأمور. أقول لها إنها لو استطاعت أن تتعلم التركيز على هذا النحو، فلن يهزها شيء، وستصبح عازفة مدهشة؛ وحين يسألها الناس كيف تعلمت العزف، فستجيبهم: "كان ذلك أثناء حرب الإسرائيليين على لبنان، لقد تعلمت كيف أنغلب عليهم بالموسيقى."

الوعد الصادق- يوميات الحرب السادسة⁷

وهو كتاب يضم مقالات ويوميات ومقابلات لصحفيين، سجّل بعضها يوميات المقاتلين على أرض المعركة، ونُشرت في عدد من الصحف أيام الحرب، ثم جُمعت في هذا الكتاب.

بنت جبيل: ...ولكن الله رمى

"هذه مشاهد منسوخة عن إحدى الحربين العالميتين. الحجارة التي تملأ الشوارع، الأبنية المحترقة، المتاجر المخلّعة الأبواب، تلال الحجارة الصخرية، الصاروخ الذي لم ينفجر، الحفر الهائلة، كل شيء ركام في سوق بنت جبيل التجاري وفي الحارات القديمة المحيطة به. هل مر شهر واحد على هذه الحرب؟ لا، فهذا الدمار يحتاج إلى أعوام طويلة. لا شيرير تحت هذه السماء له مخيلة تتسع لمثل هذا الإجمام. لا شيرير إلا هذا الذي عجز عن إسقاط المدينة "الملعونة" كما سماها، فانتقم من حجارتها حجراً حجراً.

7- "الوعد الصادق: يوميات الحرب السادسة"، دار الأمير، بيروت، لبنان 2006، هذا المقتطف لجهاد بزي في جريدة السفير اللبنانية.

...اليوت كانت مفتوحة وحتى الدكاكين حوت رسائل إلى المجاهدين بأخذ كل ما يحتاجون.. وليس صحيحاً أن الحرب فقط دمار وبؤس لأن المقاومين حملوا معهم مشاعرهم وأحلامهم الرومانسية.“

أدونيس: خمسة وعشرون يوماً

لقد أرخت يوميات الحرب رداً لها أيضاً على شكل وعنوان القصيدة التي كتبها أدونيس أثناء الحرب، فأسمها: ”خمسة وعشرون يوماً“ وقسمها إلى خمسة وعشرين مقطعاً من واحد إلى خمسة وعشرين:

خمسة وعشرون يوماً

أدونيس

- 1 -

بتباريحه، بأشلائه

يتموّج في غزّة

وتؤاخيهِ صُور، كما صُورت

في أساطيرها.

وتؤاخيهِ بيروت-معجونةً بالشرر

يتموّج، يعلو

ويبقّع أرض البشر.

- 2 -

تتساءل عن طفلها، أين؟ ماذا؟

الرمادُ جواب.

أخذتُ حفنةً من ترابِ المكانِ

انحنّت، قبّلتها

وبكّت فوقها

بين هذا التراب وأهدابها
عهدٌ حبٌّ ووعد.

- 3 -

إرفعوا هذه القماشة عنها
أزبحوا
عن تقاسيمها الغطاء:
إنها أسلمت وجهها للسماء.

- 8 -

يكتبون الحديد وأكتبُ أنشودةً
للطفولة. يا مَيِّ،
لا تُشعلي الضوءَ في البيتِ
هذا المساء.
الحديد يفتِّشُ عنا،
يُغيرُ علينا،
يفجِّرُ بركانه، ويغطيُّ الفضاء.

- 9 -

لا سرير فخذني كما شئتَ
في هذه الكرة الحائرة.
أين نمضي إذًا؟ لا طريقٌ
ولكن... ها هو القصف، هذي جهنمٌ-
مجنونهُ دائرة.

-21-

بعد هذا الشتاتِ سأفوّض جرحي إلى جسمه،
وأحيي العصاة.

-24-

إنه القاتل يسترسل في قتلك،
يجتثُ جذور الأغنية، لا تسلُ يا أيها الشاعرُ،
لن يوقظَ هذي الأرضَ غيرُ المعصية.“

السمة الثالثة: نصوص مقاومة في فضاء مقاوم

تعرض النصوص المنظورة صوراً فظيعة للخراب والدمار وأهوال الحرب، ولكنها لا تتسمّر عندها ولا تندب حظها، بل تتجاوزها وتردُّ عليها بالرفض والتحدي والأمل، وليس بالخوف والإحباط وفقدان الحول والقوة والإذعان لمشيئة المعتدي. وهي بذلك إنما تمثل أدباً مقاوماً، بمعنى أنها تعبر عن فعل مضاد وليس مجرد رد فعل سلبي على الوحشية الإسرائيلية.

وتتحرك هذه النصوص في فضاء فسيح مأهول بالإنسان والمكان والتاريخ. الإنسان فيه هو الفرد العادي والمقاتل والرمز: أحمد وحنان وقاسم وجهاد ونصر الله والحسين؛ والمكان يضمُّ أسماء القرى والجبال والأودية والأشجار والصخور التي تعرضت للقصف والهدم ولكنها أيضاً صمدت أمام العدوان وتصدت له بشرف وتسامٍ ونكران ذات بلغ حدّ التماهي مع الأرض والقضية والعقيدة: بنت جبيل وعيترون وعيتا الشعب وقانا؛ أما التاريخ فقد وسع كرسئيه أربعة عشر قرناً امتدت أحداثه من كربلاء في محرم من عام 61 بعد الهجرة إلى مارون الراس والضحية في تموز من عام 2006 بعد الميلاد.

قانا حدودك وردتان⁹

طارق ناصر الدين

”جيش الدفاع أتى، بأطفال اليهود ليرسموا فوق القذائف
شوقهم لفناء أطفال الجنوب..
رسموا بلونٍ أسودٍ، فاللونُ يعكسُ
ما تجيش به القلوب..
رسموا كما التلموذُ شاء، دماً وغرباناً وأشلاءً
تخصُّ بها الدروب..
رسموا ذئاباً تأكل الأطفال ثم تعود
تلحق ما تبقى من دمٍ فوق النيوب..
رسموا القنابل.. والغبيّة حرّة بالقتل
لكنّ الذكيّة تقصف القمر المسافر للغروب..
وجميع ما رسموه كان هديّة وصلّت..
وها أطفال قانا كالورودِ تغوصُ في دمها وتطلق
كل أنواع الطيوب..
أطفالنا أيضاً يحبون الرسوم ويقهرون الخوف
أحياناً بفيروزٍ وأحياناً بألوان تعبّر
عن أرقّ مواجع الأطفال أيام الخطوب..
رسموا تلال الأرز تحرسها الثلوج
وبلبلاً يشدو على.. وشك الغروب..
لكن آخر لوحة كانت بقبضة طفلةٍ
قُطعت يداها واستراحت
حينما فتحوا أناملها اشترأبت وردتان
تفوح من أوراقها أغلى الطيوب..
الوردة الأولى موقّعة ومهداةٌ
إلى أترابها في غزّة

9- مخطوطة تفضّل الشاعر، مشكوراً، بتقديمها لي شخصياً.

والوردة الأخرى موقّعة ومهداة
لأطفال الجنوب.“

تحت أي السقوف سأغفو إذن؟¹⁰
شوقي بزيغ
(إلى زبقين، قريتي المهدمة)

لم تقدني إليها الخطى
حين عدتُ،
ولا أملٌ يائسٌ بالعثورِ
على صرخةٍ أقفرتُ
أو نجومٍ تشطّت على ضفتي
جنةٍ من دخان
لم يقدني الهواءُ
الذي لم يزل بعدُ حياً،
ولا حفنةً من روائحٍ غائرةٍ
في جروح المكان
ولا مشيتي القهقري
كي أرى من جديدٍ
قوافل موتاي
عائدةً كالثمار إلى جوفِ
أثلامها الأمّ.

...

ولكنني رحّتُ أمشي مع العائدين
لعلي أراني هناك
لعلي أرى جسدي طائراً سابحاً
في فضاء الوهاد

التي شيعتني صغيراً
وعادت إلى حيث كنتُ
مكورةً نفسها كالأجنةِ
في ظلمات الرحم.

...

رحت أمشي مع العائدين
ولكن: إلى أين؟
يسأل كهلاً سماءً أشاحتُ بسكانها عنه،
والناس يستنطقون الركامَ الذي كان قريتهم،
قبل شهر وعشرين قبراً،
ولا يبصرون

سوى قطعٍ من جذوع الحياة
التي انتصبت فجأةً في المكان
ولا يسمعون
سوى الحشرات التي علّقوها على سفح أعمارهم
وهي تهرم،

لم تبقَ كسرة دمعٍ
لكي يعضوها مع الخبز،
لم تبقَ خابيةً لادّخار الحنينِ
إلى ما سيمضي
ولا رقعةً من قماشٍ
لتضميد جرح الأمل.

...

غير أني،
وقد غامت الذكرياتُ بعيني،
لم أجد البيت،
لم ألقني عند بوابة البيت،
لم ألق ضحكة أختي الصغيرة

راكضةً نحو شرفته

كي تقول وقد عدتُ:

”أهلاً وسهلاً“

وحذوة رجل الحصان التي

أصقتها

يد الأم ذات خريفٍ

على حاجب الباب

لم يبق منها سوى رعشة عالقة

في رؤوس الأصابع.

...

فماذا تُراني إذن فاعلاً

في لقاء كهذا؟

أأبقر أمعاء تلك الحجارة

كيما أرى تحتها

صورتي يافعاً؟

أم أهدق في التيه

معتذراً عن عقوق الصبيِّ

الذي ضلَّ درب الوصول إلى البيت

خمسين عاماً

وجاء ليرمي على قبر أحلامه

باقيةً من ندم.

أي شيءٍ سأفعلُ

في مثل هذا النهار الأصمِّ

سوى أن أصيخ طويلاً

لأسمع صوت انهمار الأعاصير

قادمةً من سماواتها

كي تهديء - من حيث لا عرق ينبض -

هذا الأم.

قصيدة ممكنة عن الضاحية¹¹

عباس بيضون

”لا أعرف شاعراً كتب قصيدة عن الضاحية ولا أظن أن قصيدة تغني دمارها ممكنة. سنقرأ بالطبع قوافي وأوزاناً لكل من ينتبه. العيون التي فتحتها الصواريخ في المباني ستبقى لفترات طويلة ذات نظرة رهيبة لن يستطيع الشعراء مقابلتها. لن يعرفوا ماذا يفعلون بضلع اسمنتي مكسور. كيف يرون جناحاً باطونياً هاوياً. كيف يتأملون تلك المجلدات الحجرية النائمة على بعضها بعضاً. سيخافون أكثر من هذه الديناصورات المعمارية التي اختفت بدون صراخ. ولن يستطيعوا بالطبع أن يجدوا قافية لأوديسه الردم التي لا تنتهي، لتسونامي الردم وموجاتها المقلوبة على بعضها. للقلوع المهتزة في أعالي البنايات وللأسمال الحجرية التي تنازع فوق ولليباب الهائل الذي ظهر فجأة. سيفزعون إذ يسمعون النداءات التي لا تزال تغرغر والتي تحولت إلى نشيد حجري أصم. سيفزعون لأن الموت لا يزال أخضر هنا ويمكن أن ينفجر فجأة كربيح جنوبي، لأن شيئاً يمكن أن يدب في هذه التجاويف القمرية، شيئاً من الروح يمكن أن يسري في هذا الكوكب المنهار. أين نجد قافية بهذا الحجم يقول شاعر اعتاد على ورد الجنائن. أين نجد وزناً لهذا الزلزال. سيفتش شاعر بحق عن عشبة في الشقوق، عن منديل وسجادة مهدبة، عن مسبحة وعصا مكسورة، إذ أن حساب الزلازل والانفجارات الكوكبية وهيجانات الطبيعة أمور لا مفردات لها...

لنبحث الآن وسط كل ذلك عن عشبة بين الشقوق، عن دمية، عن مسبحة، عن عباءة، عن مكحلة، عن أدوات زينة. كان هذا هنا بالتأكيد، أنه يلمع بالكاد فوق التراب، لا تحسبوه دموعاً، لا تحسبوه خداعاً صيفياً. كان هنا نساء جميلات وغير جميلات، رجال رائعون وغير رائعين، أطفال وأطفال تتكرر ضحكاتهم في المنازل، كان هناك بخار شاي وبخار حساء ومخادع تصيح بالرغبة وصبايا أجمل من العنقود. كان هؤلاء هنا وقد زالوا الآن فهل يمكن اختراعهم. هل هناك آلة للذاكرة تعيدهم صوراً أو أوهاماً أو أفكاراً أو أغاني أو أساطير؟“

شظايا

جودت فخر الدين¹²

1 - طريق:

طريقٌ إلى بيتنا في الجنوب.
سلكتهُ الحروب كثيراً
ونحنُ نرّمه كل يومٍ
نرّمُ أعمارنا فوقه،
لنتابع سير الحروب.

2- سماء:

السماءُ التي انبثقت من جحيم المخاوف،
لم ترتفعُ
سقطت كلها في الحديقة،
وانتثرت كالزجاج المحطم،
عاصفةُ القصف ألقَتْ ببعض النوافذِ،
فوق تراب الحديقة،
فارتعشت نجمةٌ في السياج،
صار السياجُ حدود السماء.

3- تين:

شجرٌ نالنا منه كل الوفاء،
نشأنا على حبه،
كان يقوى على يأسنا، كلما نالنا اليأس،
تصفرُّ أثماره إذ يرى خوفنا،
فزى عطفه وصفاء سريره...
إنه التينُ، أصل الحديقة،

12- جريدة السفير 22 أيلول/سبتمبر 2006

تئيس أغصانه،
فيُفرِّخُ جذعُ الحديقة من أصله.

...

إنه التين، أصل الحديقة، بهجتها.
عندما جاءه القصف،
أطرق مُنخطفاً، لا يقول،
ثم أوماً للصيف،
أن يتنكر كالمشرد بين الحقول.

4- نحلة:

نحلة جثمت قرب حوض الزهور التي ذبلت
والطين الذي أطفأته الشظايا
تلمل كالشوك فوق التراب.

5 - ضباب

إلى من تحدّث ذاك الضباب؟
ضباب الوهاد التي تتنفس فجراً.
إلى من تحدّث حين أتى
وتبيّن وجه القرى غائراً في حطام البيوت؟
تُرى هل تغلغل بين الحطام؟
تري هل تناهى إليه أنينُ البيوتِ،
التي انقبضت كالأجنة؟
هل ضاع فوق الترابِ
يحاول ان يتلاشى، فلا يستطيع؟...

6 - شرفة:

شرفة هزّها العصفُ،
كادت تنوء بأهوال ما شهدته،

ولكنها صمدت في مكان لها مشرفٍ
فترأى لها السهلُ والليلُ،
والشجرُ المستباحُ وعشبُ
يقاوم في كل منعطفٍ.
وترأى لها الخوفُ والبأسُ
والياسُ والأملُ المتجددُ
في كل خوفٍ وفي كل ياسٍ.
ترأى لها كل شيءٍ ولم تر شيئاً.
وظلت هنالك من حيث تشرف
تهفو لظلٍ، لغصنٍ، لطيرٍ...
تحدّق في السهل بين الغروب وبين الشروق،
فلا السهلُ سهلٌ،
ولا الليلُ ليلٌ.
ترأى لها كل شيءٍ، ولم تر شيئاً.
وظلت تطلُّ، وتهفو..
يمرُّ بها زمنٌ عطّلتُه الحروبُ،
فتعلو عليه،
وتسبح في غيمٍ وحشتها...
شرفه هالها العصفُ،
لكنها صمدت في مكان لها مشرفٍ،
صمدت في الزمان المعطلُّ،
ظلت تطلُّ، وتهفو، وتعلو..
لعلّ زماناً جديداً يلامسُ وحشتها العالية.
شرفه تتقصى الحياة،
فتصعدُ في برهةٍ نائيةٍ...

عرس القاسم¹³
محمد علي شمس الدين

(1)

تجمّعوا
لكي يزفوه إلى القرى
تناقل الرواة خبراً
يقول إنه المسيح عاد
ولم يكن صليبه أقل من بلاد
وإنهم رأوه
عاريًا وواقفًا بوجهه الحزين
عند مدخل المغارة
وإن قانا جمعت صغارها
لمقدم البشارة
كأنها الإله.
وقال آخرون:
إنه سواه
فكيف يستطيع أن يعود
والجسور قُطعت
كما تُقطّع الأوصال
والبلاد قُورت
كأنها الذبيحة!

(2)

تجمّعوا من القرى
وكان خوفهم يقودهم
عشرون

أربعون
أو مئة
ولكنهم
وهم رعاةٌ خوفهم
تناقلوا
بأنه في عرسه المؤمّل الغريب
ربما يقودهم إلى الحياة.

(3)

تقول أمه
التي تخاف أن يموت
يوم عرسه
عودوا إلى دياركم
فإنني نذرته للموت وحده
وإنني أجّلت عرس ابني الحبيب
لآخر الزمان.

(4)

يا سيدي
يا أيها الجميل
والقتيل
والغريب
والمؤجل القريب
يا أيها القاسم الذي
قسمت بين الموت والحياة
قسمةً لطالبيها
يُقام عرسك العجيب
في القرى المبعثرة

غداً أو بعده
وفوق ساحةٍ
مضاءةٍ بأعين الصغار في القبورِ
والبراءةِ الموطوءةِ الأردن
تظُلُّ أنت واقفاً
لتحرس المكان
كشبحٍ
على تخوم صاحب الزمان.

لن تدري الهوى¹⁴
هدى ميقاتي

من أنت غيرِ الهوى.. رَفِرْفِ على نَعْمِي
يا طائرَ الحُبِّ من أسراكِ في حُلْمِي

أعلى من الوجد ما حاولتُ ألمسهُ
أقصى من العشق ما تسعى له قدمي

ما هاجَ في الروحِ صعبٌ أن تناورهُ
بعض الحروفِ وأن تقتادهُ لفمي

فاصمتُ إذا شئتَ صمتَ العارفينِ وقلُ
أحلى الكلامِ صريرِ الصمتِ يا قلمي.
ماذا تقولُ إذا شاهدتَ ثاكلهً
تستقبل الموتَ بالتهليل والنغم

14- مخطوطة تفضلت الشاعرة بإرسالها لي، مشكورة، عن طريق الشاعر طارق ناصر الدين

أو حين تلمسُ أمَّ كَفَّ طفلتها
تحت الركاب: لكِ الحوراءُ فابتسمي

أصمتُ فكل كلامٍ ينمحي خجلاً
وانطُقْ بثغر شهيدٍ ناطقٍ بدم

أرضُ الجنُوبِ سَمَائِي أَنْتِ مُذِ سَقَطَتْ
كُلَّ السَّمَاوَاتِ وَانشَقَّتْ إِلَى حِطَمِ

هنا البطولاتُ لوُنَ الكبرياءِ دَمٌ
يُقْضَى الوضوءُ به في سَجْدَةِ الْقِيَمِ

حُبُّ الحسِينِ مدام الروح.. ساكِبها
يدري الغرامَ ويدري العشقَ بالألم

فاهتَفَ بحبِّ حَسِينٍ كَلِّمَا عَشَقْتُ
هذي القلوبُ وِصَلٌ فِي حُبِّهِ رَحِمِي

من نعمة الله أن يُهدي لناصره
نصراً عزيزاً بكلتا الحالتين مُمي

نصرَ الشهادةِ أو نصرَ البقاءِ.. بكم
يا أمة النصر يُهدى أجمل الكَلِمِ.

من ديوان لمجدك هذا القليل المشار إليه آنفاً

غسان مطر

- 19

”قانا“ تعانق ”عيترون“

وعند ”بنت جبيل“

أوقفتِ النساءُ بكاءَها

واستبدلتُ في موكب الشهداء

أهاتِ التفجع بالحداءِ.

للنصر أعراسُ وأقواسُ

وللبلدِ الأمينِ صباحهُ الآتي

وغارُ القادمين من الخنادقِ

بين أيديهمُ بيارقُهمُ

وتهزجُ في عروقهمُ الدماءُ.

من ”كربلاء“ تسللوا

قبل الصباحِ

وأقسموا أنَّ الحسينَ

هنا يقاتلُ

بعدما ضاقتُ عليه

كربلاء.

¹⁵ الغيوم التي في الضواحي

محمد علي شمس الدين

تقول التي وجهها كالقمر:

أريدُ الحياةَ

أقول لها: وأنا..

غير أنني على غير ما ترغيبينُ

لم أكنُ أعرفُ الطقسَ
ولأعترفُ
لم أفدّرُ كما ينبغي ما يكون
شممتُ قليلاً من الدم في أولِ الصيفِ
...فوق الترابِ
ولكنني قلتُ: ريحٍ ومضي
وأبصرتُ شيئاً من الذعرِ
في وشوشات الطيورِ
التي في الحديقةُ
ولكنني ما رأيتُ الحريقةُ
ولستُ نبياً
ولستُ بعرفُ هذا الزمان
ولو كنتُ أدري
لهربتُ تحت قميصي بلادي
وخبأتُ في القلب كلَّ الصغارِ
ولكنها الحربُ
أقوى
وأعظمُ من كل ما يكتبُ الشعراءُ
وما يحلمُ الحالمون
فاعذروني إذن
أيها الذاهبون إلى الموتِ
أو أيها الذاهبون إلى الانتصار
ويا أيها الصامدون على الحدِّ
أو في بطون الديارِ
ليسَ في قدرتي أن أغني
ولا أن أصيخُ
وما كنت يوماً
لأصدحُ فوق القبورِ

كديك فصيحُ
أنا، مثلما تعلمونَ، ضعيف
وأوهنُ من عشة في الجدار
ولكنني لا أخونُ الوطن
ولستُ أخونُ الذي شئتُه
مثلما شئتُه أن يكون
تلمسته بيدي
وهو يكيو وينهضُ
كالمُهرِ في ساحة المعركة
وقبلته فوق عينيه
حتى كأن الينابيعَ
سالت دموعاً على صدرنا
وطرتُ به طارَ بي
دخلنا معاً في بساتين موتِ الزمانِ.
...

يا إخوتي
أنا الآنَ
منكشُفُ كالفضاء
أطيرُ هنا وهناك
سابقاً في أعالي السماء
جميلاً
وحرّاً
وممتلئاً بالعناقيد
ودمي كالنبيذ
يسيل على الأرض
ويشربه شعب جلعاد كما يشربُ السمَّ
فيهوي صريعاً
على وجهه...

في شهر تموز
من عام جرح
وألفين بعد المسيح
وسبعين مجزة في القرى
في طريق الإمام الذبيح
سجّلوا في دفاتركم ما يلي:
أزف الوقت
واكتملت كربلاء
مثلما شاءها الأقوياء.

السمة الرابعة: يا لذلّ العرب...يا لعزّ المقاومة!

حين تأتي هذه النصوص على ذكر العرب، أقصد الحكام العرب، فإنها تعمد إلى فضح ذلّهم وهوانهم وتواطئهم، وتعبر عن إدانتهم وازدرائهم واليأس من صلاحهم، وتبرز بالمقابل البديل المنشود والمعشوق للواقع العربي المزري: أي المقاومة، وهي السبيل الوحيد لإحراز النصر وإنهاء الذل والهوان.

لمجدك هذا القليل

غسان مطر

(إلى وزراء الخارجية العرب الذين اجتمعوا في بيروت)

14

عذراً إذا لم نرفع الأقواس،
كنا نجمع الأشلاء في الأكياس،
كنا نستجير من القذيفة
بالشظية.

عذراً...
وكنا عائدين من الجنازة،
لم نجد ورداً،
وضَعنا جثَّةً في المزهرية
هم أهلنا قلنا،
وقد تعبوا وزارونا.

يا أهلنا
لا تشربو دَمنا لِتُخْفُوا عاركم،
لا تأكلوا لحمَ الضحية،
قاتلْ لحمَ الضحية
قولوا كلاماً رائعاً
عزُّوا بنا
شُدُّوا على الأيدي
اذرفوا بعضَ الدموعِ
لكي نصفقَ في ختام المسرحية.

15

ويا مصطفى قَدِّمِ الشايَ
فالناسُ أتعَبَهُم سَيْرُهُم في الجنازة،
يا مصطفى
لا تقلِ قد فقدتَ يديكَ
فقدِّمِ بنعليكِ
فالناسُ أهْلٌ لنا،
وهم موفِّدون من الأمةِ الفاجعةِ
فقدِّمِ بنعليكِ،
(هل قَدِّموا غيرَ قبرِ؟)

أبا هادي¹⁶
طارق ناصر الدين

زلزل أبا هادي وأطلق رعدك الشادي
فقد صمت الحمام.
لا تسترح سلمت يداك ولا تُرح
وفداك من خافوا ولاموا..

...

بارود نصر الله حين يشمه الأبطال
تُفلت من مرابطها الزمام..
بارود نصر الله حين يشمه الأطفال
يخرج من طفولتها السلام..
بارود نصر الله أحوج ما نكون إلى تنشقه
فقادتنا نيام..
بارود نصر الله حين تشمه الأفلام
ينفجر الكلام..
عرب سواك تمتعوا بحريمهم وحرامهم
أكلوا.. وناموا..
ومجاهدوك توصّأوا بدمائهم
جاعوا وصاموا..
لكنهم لن يرجعوا أبداً..
فقائدهم إمام..

16- السيد حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله اللبناني.
"أبا هادي" و "مارون الرأس" مخطوطتان تفضّل الشاعر شخصياً بتقديمها لي، 2006

مارون الرأس طارق نصار الدين

مارون رأس جنوبنا، رأس لوعده صادق تنهال من يده البشائر،
حدّق فهدي كربلاء قريبةً ويزيد يعشق كوندليزا بدل عمّته
ويضرب بالمزاهر.

لكن هذا الرأس لم يسقط وطار من المحيط إلى الخليج
مجنداً شرف الرجال إلى المفاجر..

يا جدتي علّمتنا بالأمس درساً أن بسم الله
تطرد أي شيطان وعاهر
يا جدتي إني "أبسمل" يهرب الشيطان، نصر الله يدركه
وتلحقه السيوف إلى المقابر..

يا ابن الجنوب ويا ابن غزة والعراق
ثلاثة عقدوا الخناصر..

ورؤوسنا ارتفعت بكم

لتعانق النجم المسافر..

غامرَ فيها شرف العروبة

لم ينله سوى المغامر..

وجميعهم أبناء بئر النفط..

أنتم وحدكم أبناء ناصر...

شكراً وامتناناً و عرفاناً

إنني إذ أتوجه بالشكر والامتنان إلى جميع هؤلاء الكتاب الذين استشهدتُ بأعمالهم،
كل باسمه ولقبه، والذين تفضلوا بمقابلتي ووقّروا لي نصوصهم أو نصوص زملائهم،
أودُّ أن أقدم اعتذاري إلى جميع الكتاب الآخرين ممن كتبوا نصوصاً أخرى ولم
أتمكن من الحصول عليها، وأرجوهم ألا يعتبروا ذلك نوعاً من عدم الاهتمام بما
كتبوه، بل بسبب عدم اطلاعي عليها في فترة الزيارة أو الكتابة في الربع الأخير

من عام 2006 . كما أتقدم بالشكر والعرفان إلى الأساتذة: عباس بيضون الذي استقبلني في مكتبه بجريدة السفير ووَقَّر لي جميع أعداد الجريدة التي صدرت خلال أيام العدوان الثلاثة والثلاثين؛ وغسان مطر وطارق ناصر الدين اللذين استضافاني في مقهى ”سيّتي كافيه“ بالحمرا وزوّداني بأشعارهما وأشعار هدى ميقاتي؛ وشريف عبد النور، الذي استقبلني في مسرح المدينة ببيروت وقَدَّم لي نسخة إلكترونية من مسرحيته باللغة الإنجليزية؛ ومحمد دكروب، الذي لم يبخل عليّ بـلقائه ومشورته الحصيفة على الرغم من حالته الصحية الصعبة وقتئذٍ؛ والنائب عن حزب الله علي فياض الذي وقَّر لي كتاب ”الوعد الصادق: يوميات الحرب السادسة“ لدى زيارتنا إلى مَعَلَم ”مليتا“ السياحي للمقاومة في الجنوب.

ثورة 25 يناير: من رانديفو الشباب إلى كرنفال الشعب

فاتحة:

”لا هو عُرفاً ولا شرعاً

يكون لك حق تتفرعن

وتخرس أي صوت عالي

عشان اللي نطق أرعن

وتعمل ألف هليلة

وتطلع كلها قرعاً

تحب أقولها بالنحوي؟

لقد ضقنا بكم ذرعاً

وعصف الشعب لن يُبقي

لكم أصلاً ولا فرعاً.“

كلمات لشاعر مجهول وُجدت مكتوبة على قصاصة في ميدان التحرير.

تنويه: شكراً وامتناناً

لقد أُتيحت لي فرصة تاريخية لا تُثمَّن ولا تُنسى وقد لا تتكرر، في لحظة مشبعة بالعاطفة عندما دخلتُ، مع زوجتي خزامى الرشيد، ميدان التحرير في إحدى "المليونيات" الشعبية غداة الإطاحة بالرئيس الأسبق حسني مبارك، وتمكنتُ من التقاط المشاهد النادرة ومشاهدة ومراقبة والاستماع إلى والتحدث مع أعداد غفيرة من الشركاء في الثورة من جميع المشارب السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، رجالاً ونساءً وأطفالاً.

وأودُّ في مستهل هذا المقال أن أتقدم بالشكر:

- إلى جريدة "المصري اليوم"، التي قدمت لي من أرشيفها كنزاً ثميناً وثروة مرجعية قيّمة، وهي أعداد الجريدة الورقية المفقودة من الأسواق خلال الثمانية عشر يوماً الخالدة في تاريخ مصر الحديث، من تاريخ انطلاق يوم الغضب في 25 يناير/كانون الثاني 2011 وحتى تنحيِّ حسني مبارك في 11 فبراير/شباط 2011، اطلَّعتُ فيها على يوميات الثورة والكثير من الوقائع والأحداث والمشاهد والقصائد والمقالات، بل على "الحياة" اليومية لسكان دولة "يوتوبيا" التحرير، وشكَّلت مصدراً أساسياً لهذه الورقة.

- إلى الضابط الشاب في الجيش المصري الذي كان يقف مع جنوده أمام مدرَّعتهم على أحد مداخل ميدان التحرير، ورَحَّب بالتقاط صورة معه كضيف أردني دون أن يتحقق من هويتي، وعلى مقربة منهم أفراد أحد متاريس اللجان الشعبية لحماية المداخل الذين لا أعرف أسماءهم ولا أظنهم يتذكرون اسمي، لأنهم سمحوا لي بدخول الميدان ككاتب أردني على الرغم من أنني لم أكن لحظتُذ أحمل أية وثيقة إثبات شخصية، فقد تركت جواز سفري في غرفتي بفندق الهيلتون القريب من الميدان، لأنهم طلبوا مني أن أكتب عن ثورتهم. وها أنذا أفعل، وأكتب رؤية انطباعية متواضعة قد لا تساوي نقطة في بحر ذلك الحدث العظيم.

- إلى صديق قديم تفضّل باصطحابي سيراً على الأقدام في أحد روافد نهر الثورة من إحدى مناطق القاهرة الشعبية، عبوراً فوق "كوبري 6 أكتوبر" ونزولاً إلى ميدان عبد المنعم رياض، مروراً بالمتحف المصري إلى قلب ميدان التحرير، وعرّفني على المحطات والأماكن وأهم الأحداث التي وقعت فيها، ومنها ساحة المعركة التي أطلق عليه المصريون تندرأ اسم "موقعة الجمل"، والمباني التي اعتلى أسطحها القناصة و"البلطجية"، وأخذوا يطلقون الرصاص الحي على المعتصمين ويقذفونهم بالزجاجات الحارقة والطوب. لقد ساعدني ذلك المشوار على "إعادة تمثيل المشهد" وشحنني بمشاعر أقرب إلى "اليوفوريا"، فأحسستُ كأنني كنت هناك... كأنني كنت بينهم ومعهم وأحدهم، فيا لمهابة ذلك الشعور!

- إلى قادة ائتلاف شباب الثورة الذين، وإن لم يكونوا عندما رأيتهم أثناء مؤتمرهم الصحفي في مكاتب جريدة الدستور بالقاهرة قد خرجوا بعد من حالة الدهشة من عظمة ما أبدعوا، بدوا متواضعين وخجولين ومتحمسين وحكماء وواثقين بأنفسهم وشعبهم وبمستقبل مصر التي قالوا بحق إنها تولد من جديد.

- إلى عدد من الزملاء المثقفين والكتاب والفنانين، الذين التقيتهم في دار ميريت للنشر بقصر النيل، حيث دار حوار رفيع المستوى، عرضوا خلاله رؤيتهم وروايتهم للثورة ودورهم فيها، وأفدتُ منه في إعداد هذه الورقة.

- إلى هيئة الدفاع عن الثورة المؤلفة من ممثلي الكيانات السياسية والشعبية الذين كانوا يعقدون اجتماعاً في فندق شبرد القريب من ميدان التحرير، حيث أُتيحت لي فرصة الاستماع إلى جانب من مناقشاتهم الهادئة في خضم أحداث هادرة، واطّلت على بعض طروحاتهم وأفكارهم المختلفة.

البدايات: "كلنا خالد سعيد" ... صفحة على "فيس بوك"

"أنا احتفلت بعيد ميلاد خالد يوم 27 يناير، ثالث يوم في الثورة، واللييلة دي باحتفل بزفافه للحوار العين. خالد استشهد في شهر يونيو، لكن الحمد لله أنا دلوقتي استريحت، ومن النهارده هالبس الأبيض، مش هالبس إسود ثاني، ولما

أروح إسكندرية، هادبح عجل لخالد، وأعمل عزومة لكل شباب مصر.“ والدة خالد سعيد ليلة سقوط مبارك.

في 6 يونيو/ حزيران 2010، يقوم أفراد من شرطة قسم سيدي جابر بالأسكندرية بجرّ الشاب خالد سعيد صبحي قاسم، 28 عاماً، إلى الشارع وينهالون عليه بالضرب الوحشي جهاراً نهاراً وأمام الملاً إلى أن تفيض روحه. وفي دقائق يتحول من شاب وسيم جميل ينبض بالحب والحياة إلى جمجمة محطمة وأسنان مكسرة ووجه مهشم وجسد ممزق إلى حد يتعذر معه التعرف على ملامحه. ولا يكتفي أفراد الشرطة بما اقترفته أيديهم، بل يحرصون على وضع كيس ”بانغو“ في فمه لإيهام الناس بأنه مدمن مخدرات. يُقتل خالد سعيد بتلك الوحشية وبذاك الحقد عقاباً له على نشر صورة فيديو على الانترنت تُظهر عملية ”إعادة تدوير“ مضبوطات المخدرات والأموال في قسم شرطة سيدي جابر.

يرسل عبد الرحمن منصور، 24 عاماً، المجند في الجيش المصري وخريج كلية الصحافة والإعلام من جامعة المنصورة، صورة ”ما تبقى“ من جسد خالد سعيد من المشرحة إلى وائل غنيم في محرك البحث غوغل، ويتفق الشبان المستفزان على فتح صفحة على موقع التواصل الاجتماعي ”فيس بوك“ تحت اسم ”كلنا خالد سعيد“، وتأسيس ”جروب“ يزداد عدد أعضائها بالآلاف في كل ساعة لأن أولئك الشباب، الذين لا يعرف بعضهم بعضاً، يقررون ألا يسمحوا بأن يضيع دم خالد سعيد في غياهب النسيان شأنه شأن آلاف الضحايا قبله وبعده، ويطلقون عليه اسم ”شهيد الطوارئ“- المقصود قانون الطوارئ الرهيب الذي كانت تُقترب في ظله أبشع الجرائم ويفلت بموجبه الجناة من العقاب- ولا يمضي وقت طويل قبل أن يتحول خالد سعيد إلى أيقونة لثورة الشباب خلال الأشهر القليلة التالية التي تفصل بين تاريخ وقوع جريمة قتل وتاريخ انطلاق ثورة.

يتم تأسيس مجموعات عديدة على الانترنت تدعو إلى الاحتجاج. وقبل أقل من أسبوعين من انطلاق يوم الغضب يقترح عبد الرحمن منصور اختيار تاريخ 25 يناير، موعداً لمغادرة العالم الافتراضي إلى العالم الواقعي والخروج في مظاهرات

احتجاج.

لماذا يوم 25 يناير؟

لقد اختير هذا التاريخ بسبب رمزيته المكثفة، فهو عيد الشرطة السنوي في مصر ويوم عطلة رسمية. ففي مثل هذا التاريخ من عام 1952، اقرت جيش الاحتلال البريطاني في مصر مجزرة رهيبة ضد أفراد شرطة الإسماعيلية الذين رفضوا الاستسلام المذل للقوات البريطانية وقاوموا بالأسلحة الخفيفة والقديمة دبابات الانجليز ومدافعهم، فاستشهد خمسون منهم وجرح ثمانون آخرون. وقد كانت تلك المجزرة واحدة من شرارات ثورة 23 يوليو/ تموز 1952. هذه هي المناسبة، أما رمزيته فتكمن في الاستفزاز الذي يشكله النقيض، حيث وقفت الشرطة المصرية في عام 1952 مع الشعب ومع شعار "الاستقلال التام أو الموت الزؤام" وطالبت بجلاء قوات الاحتلال، بينما لا تتورع الشرطة التابعة لنظام مبارك وأجهزته الأمنية الأخرى، ولا سيما جهاز مباحث أمن الدولة المخيف، عن ارتكاب الفظائع بحق المواطنين، من اعتقال تعسفي وتعذيب وحشي واعتداءات يومية وامتهان لكرامة الإنسان.

في صبيحة يوم 25 يناير/ كانون الثاني 2011 الذي يطلق عليه الشباب اسم "يوم الغضب" تظهر الرسالة التالية على صفحة "كلنا خالد سعيد" بالعامية المصرية: "مستني إيه، سيب الصفحة و انزل". يستجيب للنداء بعض الأعضاء الافتراضيين في المجموعات الافتراضية لفعالية "يوم الغضب" الافتراضي، فيتكون الصفحة الافتراضية وينزلون إلى العالم الواقعي، كلٌ ينطلق من حارته، من مختلف أحياء القاهرة المتراصة: المطرية، أمبابة، المهندسين، ناهيا، بولاق الدكرور، وسط البلد... ومن مختلف المدن المصرية: الأسكندرية والإسماعيلية وكفر الشيخ والمحلة وأسيوط وغيرها.

روافد بشرية صغيرة تلتقي في نهر عريض وتصب في بحور الميادين العامة المتلاطمة، وكأن المصريين يحاكون حركة نيلهم الأزلي أو يتدفقون في مجراه إلى مُستقره. لكنَّ ما يتدفق في نيل الثورة ليس ماءً، بل دماءٌ زكيةٌ غزيرة تُراق في

الإسماعيلية والسويس والاسكندرية وعلى جسر 6 أكتوبر وفي ميدان التحرير، الذي سيصبح منذ الآن عاصمة الثورة، دماء تطهر مياه النيل من النفايات السامة التي ما فتئ الطغاة الفاسدون وأتباعهم وأعوانهم ورجال البنس من الليبراليين الجدد يلقونها فيه منذ مدة طويلة.

ادعاء الحكمة بأثر رجعي

أكد أجزم أن أحداً على وجه الكرة الأرضية لم يتوقع اندلاع ثورة 25 يناير، ناهيك عن تكلمها بالنصر: لا الأجهزة الأمنية والاستخبارية للنظام البائد، ولا الأجهزة الاستخبارية الأمريكية والإسرائيلية المتغلغلة التي يُفترض أنها تسمع دبيب النملة، ولا الأحزاب والمنظمات السياسية المصرية ولا المثقفون والمؤرخون والصحفيون وسائر المعنيين، ولا حتى الثوار أنفسهم، الذين لم يخطر ببالهم على الإطلاق أن مظاهرات يوم الغضب التي دعوا إليها ستتعدى كونها صرخة احتجاج على وحشية الشرطة ومباحث أمن الدولة والفساد ومن أجل الخبز والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية.

وحتى لو نزل أولئك الشباب إلى الشارع فإنهم لن يشكلوا صداعاً مزعجاً للدولة البوليسية المنيعنة التي لا تُقهَر. فهؤلاء في نظر المسؤولين الأمنيين الواثقين بجبروتهم، ليسوا سوى "شوية فراخ نقول لهم كش يكشوا". وكانت المعارضة القديمة، يمينها ويسارها ووسطها، بين مشكك وغير متحمس ورافض للمشاركة في مظاهرات يوم الغضب. واستهجن بعض العقلاء والحكماء وغيرهم كيف تقوم ثورة في موعد محدد مسبق ومعلن (يوم 25 يناير/كانون الثاني من عام 2011).

ففي ذلك اليوم- 25 يناير- صدرت الصحف المصرية، "القومية" والمعارضة، بمضامينها ولهجتها وتغطياتها المعتادة وبدون تسليط الأضواء على مظاهرات "اليوم" التي ستفجر ثورة عظمى تطيح بعد ثمانية عشر يوماً فقط بأعتى نظام حكم في أكبر بلد عربي، حتى أن جريدة "المصري اليوم" المعارضة المواقبة لأحداث الثورة بعد يوم 26 يناير، نشرت مقالاً ساخراً لإحدى الكاتبات في الجريدة بعنوان "رانديفو الثورة" قالت فيه:

”أن تتفق مجموعة ”فريندز“ على رانديفو للثورة يوم الثلاثاء ياكلوا حلوة وجاتوه، فهذا هو العبط بعينه... ولذا رأَت الحكومة أنها أمام ناس نازلة الشوارع تهرَج... فقررت أنه في رانديفو الثورة اليوم (25 يناير) سيكون العصير والحاجة السقعة عليها (أي على حساب الحكومة).“

سمات أساسية لثورة/انتفاضة 25 يناير

يأتي تفجر ثورة 25 يناير المصرية بعد الثورة التونسية، وتفجّر انتفاضات عربية تباعاً أو تزامناً بعد مرور ثلاثة أو أربعة عقود على مشروع هنري كيسنجر بتحويل مصر من ”أم الدنيا“ إلى ”مصر الصغيرة المسكينة poor little Egypt“- بحسب رواية الأستاذ محمد حسنين هيكل- وعلى الخطة الأمريكية المتعلقة بمنطقتنا عقب حرب أكتوبر/ تشرين الأول 1973 والثورة الإيرانية عام 1979 بأنه لا حروب بعد اليوم بين الدول العربية وإسرائيل ولا ثورات شعبية بعد اليوم في المنطقة.

يمكنني القول إن ثورة/انتفاضة 25 يناير بصرف النظر عن مآلاتها المحتملة ، كانت إبنة الزمن الذي تنتمي إليه والذي وُلدت فيه ولادة طبيعية وصحية وحملت جيناته وحمضه النووي وبصمات أصابعه وعينه، فهي:

• ثورة مدنية سلمية تماماً، لم تستخدم العنف ولم تدعُ إلى استخدامه على الرغم من مقتل مئات الثائرين وإصابة الآلاف بجروح بشتى أنواع الأسلحة، بالرصاص الحي وقنابل الغاز والضرب بالهروات الكهربائية والرش بالمياه الكبريتية على أيدي الأمن المركزي وبالأسلحة البيضاء و”الشوم“ والطوب والزجاجات الحارقة على أيدي البلطجية التابعين للحزب الوطني. وقد برهنت الثورة على أن قوتها تكمن في سلميتها وأن الشعب أقوى من كل قوة وأنه لا سبيل إلى التغلب عليه إذا نزل إلى الشارع بالملايين.

• ثورة غير نمطية، وشروط تحققها مختلفة تماماً عما ألفه جيلنا ورسخ في مخيلنا، لا يقودها حزب ثوري أو طليعة ثورية، ولا قائد ثوري كاريزمي، ولا تعتنق أيديولوجيا محددة (ماركسية، قومية، دينية...)، وهذا توصيف يجب ألا يعني

بالتأكيد أدنى تقليل من شأن الثورات العظيمة التي عرفها جيلنا أو شهداها أو آمن بها، فلكل زمان خصائصه.

• ثورة الشعب كله، وليست ثورة جياح ومهمشين أو ثورة طبقة محددة (عمال فلاحون، برجوازية صغيرة، مثقفون ثوريون... إلخ فقط) تزيح الطبقة القديمة وتحل محلها. بل كان الجميع يخشى اندلاع ثورة الجياح والمهمشين، ممن ليسوا تحت خط الفقر فحسب بل تحت خط الحياة نفسها، وممن لم يعد لديهم ما يخسرونه سوى جوعهم وفقرهم وبؤسهم وذللهم. وكان المثقفون والمعارضون السياسيون وذوو النوايا الطيبة الذين ينشدون التغيير يضعون أيديهم على قلوبهم من وقوع انفجار اجتماعي عنيف وعممي منفلت من عقاله، يشعل ناراً لا تحرق القاهرة وحدها هذه المرة، بل مصر كلها، الأماكن والتاريخ والأدب والفن والحضارة، ويُحدث طوفاناً، ليس كفيضان النيل الذي كان يكتفي بقربان عروس واحدة كي تهدأ ثورته بحسب الأسطورة، وإنما يُغرق الملايين ويجرف في طريقه السمين قبل الغث والجميل قبل القبيح والطيب قبل الخبيث، ويتمنون في قرارة أنفسهم ألا يحدث ذلك الانفجار حتى لو ترتب على ذلك بقاء الحال على ما هو عليه، وهو المحال بعينه. من قلب هذه المعضلة "ابتكر" شباب مصر وشعبها "نظرية" جديدة مفادها أن الإنسان لا يثور لأنه ليس لديه ما يخسره في حاضره وحسب، فهذا أمر ألفوه واستكانوا له وسلّموا "بقدريته" لعقود، بل لأن لديه شيئاً أثن من ذلك كله، لا يملك أن يخسره أو يتهاون به، وهو مستقبله ومستقبل أبنائه وأحفاده وآمالهم في حياة آدمية كريمة، فاجتروا ثورة سلمية نظيفة محروسة بقلوبهم؛ والقلوب أعشاش للحب وليست مخازن للأسلحة الفتاكة.

• ثورة لم تستند إلى "مؤامرة" ثورية وتخطيط سري، ولم تضع استراتيجية وتكتيكاً مسبقين وساعة صفر لا يعلم بها سوى نفر محدود ومعدود من الثقات، بل كانت علنية معلومة للعامة والخاصة، بمن فيهم الحكومة والحزب الوطني وأجهزة الأمن.

• ثورة تداعٍ لسائر جسد الشعب الذي اشتكى منه عضو- الشباب- وليست دعوة إلى الثورة؛ وهي ثورة توجّه وليست توجيهاً؛ ومبادرة ذاتية وليست تعليمات أو أوامر تنظيمية من فوق؛ وتجاوب طوعي من قبل الشعب وليست تحريكاً له؛ وشراكة على قدم المساواة وليست إشراكاً؛ وإسهام منزّه عن الغرض ”من كل حسب قدرته“ وقناعاته ومواهبه وميوله، وليست مساهمة محسوبة العواقب. وبهذا المعنى فإنها ثورة لم يبدأها أحد بعينه ولن ينهيها أحد وليس وراءها أحد، ولذا فإن الباحث عن جواب شاف عن السؤال الأثير لجيلنا: ”مَن يقف خلفها؟“ لن يجده مهما سعى.

• ثورة متنامية، متوالدة، متدرجة، صاعدة، غير مكتملة، غير مُطلقة، انتقلت من مظاهرة عادية في يوم غضب لبضعة آلاف من الشباب إلى ثورة شاملة لملايين الشعب المصري، ومن مطالبة السلطات بالخبز والحرية والكرامة والاحتجاج على عنف الشرطة إلى المطالبة برحيل رئيس النظام بفعل الأمر ”إرحل“ وإسقاط النظام بأسره بالإرادة ”الشعب يريد إسقاط النظام“.

• ثورة تجترح حلولاً فورية عميقة للمشكلات التي تنشأ على الأرض بصورة مفاجئة، وتقدم ردوداً ثورية حكيمة على المواقف التي تواجهها، والتي لم تكن قد حسبت لها حساباً أو فكّرت في احتمالاتها مسبقاً، وقد لا تكون تلك الحلول مستدامة، ومع ذلك فإنها ليست ثورة فوضوية وعشوائية، وإنما ثورة منظمة ذاتياً وذات عقل وتمييز:

- فعندما يتم تنفيذ خطة شيطانية بإخراج السجناء والموقوفين الجنائيين من السجون ومراكز الشرطة، وإطلاق الأعنة للبطلجية ودفعهم إلى الأحياء السكنية ليعيشوا فيها فساداً ويقوموا بعمليات النهب والتخريب وترويع الأهالي، تردُّ الثورة بتنظيم اللجان الشعبية للدفاع عن المنازل والأحياء. وعندما تسحب وزارة الداخلية قوات الأمن من الشوارع، بما فيها شرطة السير، لإشاعة الفوضى والرعب بين الأهلين، عندئذ يتولى شباب الثورة مهمة حفظ الأمن في الشوارع والميادين العامة وتنظيم حركة السير بأنفسهم، دون أن يتملّكهم الرعب ويدفعهم إلى مقايضة الأمان الشخصي بالثورة، كما كان يخطط النظام ويأمل. وعندما تقطع الحكومة

وسائل الاتصال التي يستفيد منها الثوار (وقف خدمات الانترنت والهاتف الخليوي والقطارات والقنوات الفضائية غير المرغوب فيها...) يستغني عنها الثوار وتتدفق سيول هادرة من الجماهير إلى الميادين العامة، حيث يلتقي الناس وجهاً لوجه، ويتواصلون بشكل مباشر على الأرض، فتزداد الثورة زخماً وتنوعاً. وعندما تجعل السلطات من المحروسة مقلب نفايات ضخمة ويمتنع متعهدو الفساد عن نقلها، يسارع الشباب إلى تنظيف ميادينهم وشوارعهم بأنفسهم وبمبادراتهم الخاصة.

• ثورة "العائلة المصرية" الثقافية: فما إن يسمع الأهالي هتاف أبنائهم من أزقة الأحياء "يا أهالينا انضموا لينا"، حتى تطلّ الأمهات والآباء والشقيقات والأطفال من النوافذ والشرفات ويبدأون بإلقاء البصل وعلب البيبي وزجاجات الخل والماء لمواجهة الغازات المدمعة والمياه الكبريتية. ثم ما يلبثون أن يلتحقوا بهم ويندفعوا معهم إلى الشوارع الرئيسية، ومنها إلى مصب النهر البشري العظيم، ميدان التحرير، وسط القاهرة والميادين الأخرى في المدن المصرية للاعتصام فيها. - هناك يبدأ التفكير بالإقامة الطويلة وجمع شمل العائلات في مكان الإقامة الجديد، فالأهالي الذين يأتون لتفقد أولادهم وبناتهم والاطمئنان عليهم لا يعودون إلى بيوتهم، فثمة سحر عجيب يجذبهم ويُبقيهم في المكان. وسرعان ما تُنصب الخيام لنوم النساء والأطفال. وتأخذ الحياة منحى مختلفاً تقتضيه طبيعة الأحداث وتسارعها: إذ تتواصل اعتداءات قوات الأمن والمترتبة على المعتصمين، ويسقط شهداء وجرحى، فتتشكل لجان طبية من أطباء وممرضين وأشخاص عاديين متطوعين وتُقام "مستشفيات" ميدانية في الخيام لإسعاف الجرحى والمرضى بما تيسر. كما تتشكل مجموعات لحراسة مداخل الميدان وتفتيش الداخلين بهدف حماية المعتصمين. ويبنى مسرح وإذاعة لبث الخطابات ونشر المعلومات والأخبار وإسماع المطالب المتنامية في النهار، وللشعر والأغاني والموسيقى والمسرحيات المرتجلة في الليل. وتُعقد حلقات نقاش سياسي وثقافي وورشات رسم. شبان وشابات، أمهات وآباء وأطفال، مسلمون وأقباط، يساريون ويمينيون، يحملون علماً واحداً هو العلم المصري، ويطعمون "يوتوبيا" جميلة تقوم على التعاون والحب والإيثار وتقاسم الميسور القليل، ليس فيها تحرش ولا سرقة ولا تخريب ولا تعصب على أساس الجنس أو الدين أو اللون، خلافاً لما كان سائداً قبل الثورة، الجميع

متطوعون والجميع في خدمة بعضهم بعضا وفي خدمة الثورة... إنه حقاً كرنفال شعبي.

• ثورة مملوكة على الشيوع، ومُلكيتها (ownership) فردية وعامة، أي أنها لكل فرد وللجميع، كل فرد يشعر بأنها ثورته يدافع عنها ويحميها بكل ما أوتي من حول وقوة، بروحه إن لزم الأمر، كما حدث فعلاً. كلُّ يتحدث عن دوره فيها ويحكي حكايته معها، ويستخدم صيغة الجمع: ذهبنا من هنا... واجهنا الأمن المركزي هناك، اعتدى علينا البلطجية في ذلك المكان، هتفنا، طالبنا، رفضنا حققتنا، انتصرنا... حتى تخال أن محدثك هو صانع الثورة وأن الثورة أمه وأبوه أو ابنته وابنه، شيء حميم يخصه، لكن أحداً منهم لا يدعي لنفسه الفضل في صنعها أو قيادتها، بمن فيهم قادة ائتلاف شباب الثورة، لأنه لا أحد في مصر كلها يملك الصورة الكاملة. فقد أدى كل فرد دوراً ما، صغيراً كان أم كبيراً، واجترح بطولة ما، هيئنة كانت أم عظيمة، وهناك ألف رواية ورواية للثورة، ربما كانت بعدد الرواة، وهي جميعاً صحيحة على نحو ما وبقدر ما!

• ثورة العبقرية الجمعية والعقل الجمعي، لكن العقل الجمعي الخلاق، وليس عقل القطيع، والعبقرية الجمعية التي تبتكر الحلول والردود والتصرف على الفور وفي عين المكان، وليست "اليونيفورم". إنها شكل غير معهود من أشكال الثورة، أو نبتة ثورة بزغت من تفاعل عدد غير محدود من العوامل، ولا يمكن أن تبدعها عقول أفراد بعينهم مهما بلغوا من العبقرية والذكاء.

• ثورة يعود الفضل الأكبر في تفجُّرها وانتصارها إلى قانون التراكم إياه، لكن ليس تراكم التضحيات- على أهميتها- فحسب وإنما تراكم الظلم والقهر والإذلال إلى الحد الذي لم يعد معه ظهر الشعب قادراً على حمل أدنى قشة أخرى، ولا كيله قادراً على استيعاب قطرة أخرى. وعندما أُضيفت القشة الأخيرة وقطرة المر الأخيرة، وقدح الشباب الزناد، اندلع لهيب الثورة، ولكنه وقع برداً وسلاماً على مصر والأمة بأسرها بصرف النظر عن سيورتها ومآلاتها.

• ثورةً شبابها متواضعون زاهدون، ليس لديهم شهوة الحكم، ولا يفكرون في الجلوس على سدته، وليسوا في وارد الحلول محل رجال النظام البائد كما كان يحدث في الثورات القديمة، ولكنهم في الوقت نفسه حريصون كل الحرص على ثورتهم ولن يتخلوا عن مسؤوليتهم تجاهها، يتابعون ويراقبون عن كثب كل صغيرة وكبيرة في الفترة الانتقالية: الإنجاز والتقدم، التباطؤ والتقاعس، التحايل ومحاولات عودة النظام المطاح به بأشكال أخرى ولبوس آخر. وهم يمارسون التوعية والتحريض والتحذير، عيونهم لا تنام وأذانهم مرهفة وحواسهم مستنفرة. وما زالوا، حتى وقت كتابة هذه الورقة، يمتلكون الأداة الثورية الحاسمة والمرجعية الشرعية الثورية، وهي اللجوء إلى الشعب كلما اقتضت الضرورة. والشعب لا يزال يثق بهم كل الثقة ومستعد لتلبية النداء والعودة إلى الميادين والشوارع في أية لحظة إذا استنجد به الثوار. أما في المآلات، فإنني لا أريد أن أدعي الحكمة بأثر رجعي.

• ومع كل ما تقدم عن هذه الثورة/الانتفاضة، فإننا نجد أنفسنا أمام ثورة لا مثيل لها في الروح، فهي من ناحية، ثورة في منتهى الجدية، هزّت مصر والمنطقة والعالم وسقط في سبيلها آلاف الضحايا بين شهيد وجريح ومفقود ومعدّب. ولكنها من ناحية ثانية ثورة لم تفقد لحظةً روحها المرحة وظلها الخفيف ولسانها العذب حتى في أحلك الأوقات. ولعل نظرة خاطفة على الهتافات والشعارات واللافتات التي كان المعتصمون يرفعونها والمكتوبة على أي جسم يعثرون عليه - على ورقة بالية أو قطعة كرتون ملقاة في الشارع أو على الجدران أو الوجوه والأجساد البشرية - تُغني عن التفصيل، من شعار "إرحل يعني إمشي، إنت ما بتفهمشي" حتى شعار "فيس بوك على كل ظالم".

• وأخيراً هي ثورة ردّت عن الشباب تهمة السلبية وعدم الانتماء الوطني التي ما انفك جيلنا يلصقها بهم، وبرأت ساحتهم منها، بل أثبتت عكسها تماماً. ولطالما نظر جيلنا إلى شباب اليوم على أنهم "تنتات وعيال التشاتنج الفارغ على النت"، واتهمهم بانعدام الروح الوطنية واللامبالاة والسطحية والاستلاب للعوامة الرأسمالية، وإذا بهم يستخدمون أدوات العوامة نفسها سلاحاً من أجل قضايا

شعبهم ووطنهم، ويُظهرون في خضم الأحداث التاريخية الحاسمة حكمةً ورجاحة عقل ربما تفوق ما لدى الحكماء والعقلاء من جيلنا، فرأينا كيف انتصرت الثورة- في الجولة الأولى- بالشباب الذين ”يفتقرون إلى الحكمة والعقلانية“، وكيف يمكن أن تبقى حبيسة الصدور، أو أن تفشل بالسياسيين المحنكين من بيوت الحكمة والعقلانية من أمثالنا.

خاتمة

في الحديث عن سيرورة الثورة ومآلاتها لعلّ ما يتمتع به شاعر مصر العظيم عبدالرحمن الأبنودي في قصيدة ”الميدان“¹⁷ من بصيرة عميقة ورؤية ثاقبة يمثل أبلغ وأصدق تعبير عن ثورة 25 يناير، حيث يعتبر انتصارها جولة في معركة طويلة الأمد في سيرورة الثورة، ويخشى عليها من المؤامرات والتدخلات والاختطاف والتلاعب وحرف المسار وقلب ظهر المجن لها إذا غفلت عيون الشعب للحظة:

أولنا في الجولة.. لسه جولة.. ورا جولة
ده سوس بينخر يا بويا في جسد دولة
أيوه الملك صار كتابة.. إنها أبدأ
لو عَفَلت عينينا لحظة.. حيقلبوا العُملة :

”أيادي مصرية سمرا.. ليها في التمييز
ممدودة وسط الزئير.. تكسّر البراوير
سُطوع لصوت الجموع.. شوف مصر تحت الشمس
آن الأوان ترحلي.. يا دولة العواجيز!

.....

عواجيز شداد.. مسعورين.. أكلوا بلادنا أكل
ويشبهوا بعضهم.. نهم.. وخِسة وشكل
طلع الشباب البديع.. قلبوا خريفها ربيع
وحققوا المعجزة.. صَحُّوا القتل من القتل

.....

إقتلني.. قتلي.. ما حيعيد دولتك تاني
باكتب بدمي حياة تانية.. لأوطاني
دمي ده والآن الربيع؟ لتنين بلون أخضر
وبابتسم.. من سعادتني والآن أحزاني؟

السوس بينخُر وسارح.. تحت إشرافك
فرحان بيهم كنت.. وشايلهم على كتافك
وأما أهالينا: من زرعوا وبنوا وصنعوا..
كانوا مداس ليك.. ولولادك.. وأحلافك.

.....

يا مصر.. قام العليل.. رجعت له أنفاسه
وباس جبين الوطن.. مالوطن بأسه
من قبل موته بيوم.. صحوه أولاده
من كان سبب علته.. محبته لناسه!

الثورة فيضان قديم محبوبس ماشافوش زول
الثورة لو جد.. ماتبانشي ف كلام أو قول
تعديل وتقلب في سرّيه، تفور في القلب
وتتغزل فتله فتله.. في ضمير النول.

.....

وبيسرقوك يا الوطن.. قدامنا.. عيني عينك
ينده بقوه الوطن، ويقوللي: "قوم فينك؟"
ضحكت علينا الكتب، بعدت بنا عنك
لولا ولادنا اللي قاموا يسددوا دينك.

لكن خلاص يا وطن.. صحيت جموع الخلق
قبضوا على الشمس بإيديهم وقالوا: لأ

م المستحيل يفرطوا عُقد الوطن تاني
والكذب تاني.. محال.. يلبس قناع الحق!

.....

مين كان يقول ابننا.. يطلع بنا م النَّفَق!!
دي صرخة والا غنا.. وده دم والا شفق؟
أتاريها حاجة بسيطة الثورة يا اخوانا
مين اللي شافها كده؟ مين أول اللي بدأ؟

مش دول شبابنا اللي قالوا كرهوا أوطانهم؟
لبسنا توب الحداد.. وبعدنا قوي عنهم..؟
همم اللي قاموا النهارده يشعلوا الثورة
ويصنّفوا الخلق: مين عانهم، ومين خانهم!!

.....

يادي الميدان اللي حزن الفكره.. وصهرها
يادي الميدان اللي فتن الخلق وسحرها
يادي الميدان اللي غاب اسمه كثير عنه
ما بين عباد عاشقة وعباد كارهة

شباب.. كإن الميدان.. أهله وعناوينه
ولا في الميدان "نيس كافيه" ولا "كابتشينو"
خُدودُه عرّفوا جمال النومَة ع الأسفلت
والموت عارفهم قوي.. وهمم عارفينه!!

.....

أولنا في الجولة.. لسه جولة.. ورا جولة
ده سوس بينخر يا بويا في جسد دولة
أيوه الملك صار كتابة.. إنما أبداً
لو عَقَلت عينينا لحظة.. حيقلبوا العُملة.

أكواب الشعر

قصائد من غوانتانامو: المعتقلون يتكلمون

وفقاً لبيانات وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاغون" فقد احتُجز ما لا يقل عن 775 رجلاً في مركز الاعتقال التابع للولايات المتحدة في خليج غوانتانامو بكوبا منذ العام 2002. أما الذين أُتهموا بالانتماء إلى تنظيم القاعدة فلا يزيدون على 8 % من هؤلاء، والذين اعتقلتهم القوات الأمريكية في جبهات القتال، لا تزيد نسبتهم على 5% أما المتهمون بارتكاب أعمال حربية عدائية ضد الولايات المتحدة وحلفائها فهم أقل من النصف. وفي مئات الحالات، تبين أن ظروف اعتقالهم في البداية مشكوك فيها.

وتسلطُّ هذ الورقة الضوء على مجموعة من القصائد التي كتبها بعض أولئك المعتقلين في خليج غوانتانامو بعد غزو أفغانستان طلباً لرأس القاعدة وزعيمها أسامة بن لادن وللقضاء على حركة طالبان التي كانت تحكم البلاد، وذلك رداً على هجمات 11 سبتمبر/أيلول 2011. وقد صدرت تلك القصائد باللغة الإنجليزية في كتاب بعنوان: "قصائد من غوانتانامو: المعتقلون يتكلمون".¹⁸

المجموعة الشعرية: شكل بدائي للفن

تمثل هذه المجموعة الشعرية صوت الرجال المحتجزين في غوانتانامو. وكما تقول (وول ستريت جيرنال)، فإن "سجناء مثل (معظم بيغ) أَلَّفوا قصائدهم من دون أن يحدوهم أمل حقيقي في أن يسمعهم جمهور خارج السجن". فقد قال بيغ: "لم يخطر ببالي أن كلماتي ستخرج من غوانتانامو، ولكنني كتبتها على كل حال. لقد كانت بمثابة "رسالة في زجاجة". وقال مارتن موبنغا، وهو مواطن بريطاني أُطلق سراحه من غوانتانامو في العام 2005، إن كتابة الشعر ساعدته على تنفس الصعداء، فكل مشاعر الغضب والإحباط تتراكم داخلك وتتضخم ومن شأنها أن تنفجر،

فيأتي الشعر ليكون بمثابة وسيلة للتخلص منها؛ إنه طريقة للاحتفاظ بعقلك“.

لقد رأت قصائد غوانتنامو النور بفضل الجهد الدؤوب الذي بذله محامون متطوعون قدموا كل سطر منها للتدقيق والمراقبة من قبل البنتاغون. وتضم هذه المجموعة الشعرية إحدى وعشرين قصيدة لسبعة عشر معتقلاً، معظمهم لا يزال قابلاً في غوانتنامو في برزخ قانوني حتى كتابة هذه الورقة في عام 2008. وإذا كان الشعر برأي أودري لورد Audre lord ”يشكل الضوء الذي نبني عليه آمالنا وأحلامنا تجاه البقاء والتغيير“، فإن هذه الأشعار- التي كُتِب بعضها بمعجون الأسنان، وجاء بعضها الآخر خدوشاً على أكواب الشرب المصنوعة من الفلين باستخدام الحصى، ثم سُلمت بخوف شديد إلى المحامين - إنما تمثل الشكل البدائي للفن.

تعريف بالمجموعة الشعرية

يضم هذا الكتاب إحدى وعشرين قصيدة كتبها سبعة عشر شخصاً من المحتجزين في مركز الاعتقال الأمريكي في خليج غوانتنامو. وقد نُظمت هذه القصائد جميعها ”وراء القضبان“، ولم يخطر ببال أي منهم أنها يمكن أن تصل إلى أحد خارج الأسوار. إن جمع هذه القصائد ونزع صفة السرية عنها، يتيحان للعالم فرصة فريدة للاستماع مباشرةً إلى السجناء أنفسهم وهم يتحدثون عن تجربتهم في ذلك المعتقل السيئ الصيت.

وقد تمكن المحامي مارك فالكوف مع زملائه، وجميعهم محامون متطوعون، من زيارة معتقل غوانتنامو للمرة الأولى في نوفمبر/تشرين الثاني 2004، بعد أن حصلوا على تصاريح أمنية ذات صفة ”سرية“. وكان ما سمعه المحامون من موكلهم خلال تلك الزيارة بمثابة صدمة. فقد تبين أنهم عانوا من ضروب التعذيب وإساءة المعاملة على مدى السنوات الثلاث التي كانوا قد أمضوها محتجزين في عزلة تامة، بما في ذلك إساءة المعاملة الجنسية والحرمان من النوم والتعرض لدرجات قصوى من الحرارة والبرودة خلال جلسات الاستجواب التي لا نهاية لها. لقد كان أولئك المعتقلون يعيشون في ما أسماه المحرر ”الثقب الأسود“ (إشارة إلى

الظاهرة الكونية المعروفة).

وفي بادئ الأمر، لم يكن بوسع المحامين أن يفعلوا شيئاً إزاء تلك المعلومات. فقد كان المسؤولون العسكريون الأمريكيون يعتبرون أن كل ما يخبرهم به موكلوهم المعتقلون ينطوي على تهديد للأمن القومي، ومن ثم لا يمكن الإفصاح عنه للرأي العام إلا بعد الحصول على تصريح من "فريق مراجعة الامتيازات" التابع لوزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون). ولم يتسن للرأي العام في نهاية المطاف أن يستمع إلى أصوات السجناء أنفسهم، حتى لو كان ذلك من خلال وسطاء، إلا بعد أن اضطرت وزارة الدفاع الأمريكية إلى إعادة النظر في قراراتها بفرض السرية، وذلك تحت ضغط التهديد باللجوء إلى القضاء.

ويرى المحامي فالكوف وزملاؤه أن هذا الكتاب يمثل خطوة أخرى في نضالهم من أجل أن تصل أصوات موكلهم المعتقلين إلى أسماع العالم، وأن ظهور هذه القصائد ضرب من المعجزات. إذ أن من العسير سبر عمق المعاناة النفسية التي أحققها معتقل غوانتانامو بأولئك المعتقلين، مما دفع العشرات منهم إلى محاولة الانتحار، بل إلى انتحار ثلاثة منهم فعلاً في عام 2006، إما شنقاً، أو بتناول جرعات كبيرة من الأدوية التي كانوا قد خزّنوها من قبل، أو بقطع شرايينهم.

لقد اتجه العديد من المعتقلين في غوانتانامو إلى كتابة الشعر كوسيلة للحفاظ على اتزانهم العقلي، وللتذكير بالمعاناة التي كابدوها، ولصون كرامتهم من خلال تقديم أعمال إبداعية. وواجهوا عقبات لا حصر لها في كتابة قصائدهم. ففي العام الأول من الاعتقال، لم يكن يُسمح لكثير من المعتقلين باستخدام الأقلام والأوراق بصفة منتظمة. إلا إن ذلك لم يشهم عن عزمهم، فصيّروا أكواب الفلين ورقاً والحصى أقلاماً، حيث راحوا يخدشون كلمات قصائدهم بالحصى على أكواب الشرب المصنوعة من الفلين، أو يرسمونها بمعجون الأسنان، ثم يتناقلون تلك "الأكواب الشعرية" من زنزانية إلى أخرى. ولكن هذه الأكواب كانت تُجمع في نهاية المطاف مع المخلفات التي تتجمع على مدار اليوم، فتستقر أشعارهم التي شرّبت عصارة معاناتهم في حاويات القمامة.

وبعد نحو عام، سمح الجيش الأمريكي للمعتقلين بالحصول على أدوات الكتابة بشكل منتظم، وهكذا أصبح بوسعهم أن يحتفظوا بقصائدهم لفترات أطول من فترات الوجبات كما كان الأمر من قبل.

ويشير محرر الكتاب فالكوف إلى أن بعض القصائد يعكس غضب المعتقلين على ما كابده من معاناة وإذلال على أيدي الجيش الأمريكي، بينما يكشف بعضها الآخر النقاب عن إحساسهم بالخديعة وفقدان الثقة في الأمريكيين. إلا إن القصائد جميعها تفيض بالمشاعر الإنسانية التي تعتمل في قلوب أناس وصفتهم الإدارة الأمريكية بأنهم "أسوأ الأشرار".

ونظراً للقيود الصارمة التي أحاطت بجمع هذا الكتاب، فقد جاء مشوباً ببعض أوجه القصور. فالكتاب لا يقدم صورة كاملة عن الشعر الذي كُتب في غوانتانامو، ويعود ذلك أساساً إلى أن قصائد عديدة قد أُتلفت أو صُودرت قبل أن يتمكن المحامون من الاطلاع عليها. فعلى سبيل المثال، صادرت السلطات العسكرية الأمريكية جميع القصائد التي نظمها الشيخ عبد الرحيم مسلم دوست، والتي تقع في نحو 25 ألف بيت من الشعر، ولم يعيدوا إليه سوى القليل منها عند الإفراج عنه.

وبالإضافة إلى ذلك، رفضت وزارة الدفاع الأمريكية التصريح بنشر معظم قصائد المعتقلين، متذرعةً بأن هذا الشعر "يمثل تهديداً خاصاً" للأمن القومي بسبب "مضمونه وشكله"، والخوف من أن يحاول المعتقلون تهريب رسائل مشفرة عبر القصائد إلى "الكيدا ويوبي إل" (أي القاعدة وأسامة بن لادن). ونتيجةً لذلك، لا تزال مئات القصائد في حوزة الجيش الأمريكي، وقد تظل إلى الأبد محجوبةً عن عيون عموم القراء. وهناك مشكلة أخرى تتمثل في أن معظم القصائد التي سُمح بالاطلاع عليها لم يتوفر إلا من خلال الترجمة الإنجليزية، لأن وزارة الدفاع الأمريكية ترى أن القصائد الأصلية باللغتين العربية والباشتونية أو الباشتية تمثل تهديداً أمنياً مضاعفاً. ونظراً لأنه لا يُسمح بالاطلاع على مراسلات المعتقلين إلا لخبراء لغويين حاصلين على تصاريح أمنية ذات صفة سرية (والتي تُحفظ بموجب

أمر قضائي في مبنى آمن في واشنطن دي سي)، فقد كان من المستحيل الاستعانة بخبراء آخرين لترجمة القصائد لأغراض هذا الكتاب. ومن هنا، لا يمكن الاطمئنان إلى أن الترجمة الواردة في هذا الكتاب حافظت على دقة القصائد الأصلية وعلى روحها الشعرية. وذهب الكاتب والناقد الأردني الدكتور سليمان الأزاعي إلى القول إن ترجمتي- كاتب هذه الورقة - هي التي صنعت من كلماتهم شعراً.

بين الحقوقي والسياسي

أودُّ أن أنوّه بأن لهذه الورقة منطلقاً حقوقيّاً وليس سياسياً، أي أنه يتعلق بانتهاكات الحقوق الإنسانية لبشر معتقلين في ظروف قاسية ولاإنسانية ومهينة بموجب القانون الدولي لحقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني، بغض النظر عن هوية الجناة والضحايا.

كما أود أن أشير إلى أنه يجب أن لا يُفهم منها أو يُنظر إليها على أنها تروّج للإرهاب، الذي توظّفه الحكومات لمصالحها السياسية وتستخدمه ذريعة لفرض مزيد من القيود على الحريات العامة وانتهاك حقوق الإنسان المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في إطار تكاذب "الحرب على الإرهاب"، التي تصنعها الامبريالية وتحاربها بحسب اقتضاء مصالحها، وتحذو حذوها الدول الحليفة والتابعة، وتشكّل من الإرهابيين جيوشاً بديلة وتخوض بهم حروباً بالوكالة، من الجهاد الأفغاني والمقاتلين من أجل الحرية إلى سوريا وليبيا والعراق، إلى آخر القائمة المفتوحة.

مجموعة غوانتنامو الشعرية والتقييم الأدبي

ينبغي الإشارة إلى أن هذه الورقة لا تحاول أن تقدم تقييماً أدبياً أو دراسة أدبية للمجموعة الشعرية، فذلك شأن آخر، وإنما تُعنى أساساً بتقديم المجموعة والتعريف بها والتعليق على بعض جوانبها وقراءة قصائدها التي تعبّر عن معاناة إنسانية لبشر من لحم ودم ولهم قلوب ومشاعر أصبحوا الآن أسرى ضعفاء ولم يعودوا مقاتلين أعداء أو قادرين على إيذاء أحد، فضلاً عن أن نسبة الذين

اشتركوا في القتال لم تتجاوز 5%. وقد كُتبت أغلبية القصائد التي بين أيدينا باللغة العربية، وبعضها باللغة الباشتونية، وتُرجمت إلى اللغة الإنجليزية، ثم تُرجمت إلى العربية من الإنجليزية، أي أنها خسرت مرتين كما يقول النقاد. ولم يتسنَّ لي الاطلاع على الأصل العربي إلا لخمسة منها. فقامت بترجمة النصوص الإنجليزية بنفسى واعتمدتُ ترجمتي الخاصة في تناولها.

في مستهل التمهيد الذي كتبه لهذه المجموعة الشعرية يشير فلاغ ميلر إلى ما يتردد في الأوساط الأدبية العربية من أن الشعر ينبثق من المعاناة، وأنه وعاء البصيرة والتصور. ويرى أن إيقاعات الشعر العربي تتناغم مع الشعور الإنساني أكثر من تناغمها مع الأفكار. ويبدو أن في هذا الرأي شيئاً من الصحة، فخلال التاريخ العربي الإسلامي شكّل الشعر قوة إلهام معنوية للمسلمين، مثلما كان غوايةً من الشعراء. فقد كان النبي عندما يحتدم وطيس المعارك يرجز باسم جده عبدالمطلب: "أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب". وفي مقام آخر، كان القرآن يهاجم الشعراء: "والشعراء يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ". ومثلما كان بعض الشعراء حلفاءً أو أبقاقاً للحكام، فقد كان آخرون معارضين عنيدين لهم، بل كانوا من بين نزلاء السجون الأولى في العهد الإسلامي.

وفي العصر الحديث لعب الشعر دوراً بارزاً في حركة التحرر العربية، بما فيها الاتجاهات القومية واليسارية، ضد الاستعمار الكولونيالي الأوروبي. ويحاول فلاغ ميلر الربط بين الاتجاهات الأوسع نطاقاً في الشعر العربي الإسلامي المعاصر وبين قصائد غوانتنامو، فيطرح السؤال التالي: هل يستخدم شعراء غوانتنامو مفردات الإسلام الراديكالي ويقدمون أنفسهم كجهاديين إسلاميين، أم أنهم يستخدمون مفردات العدالة الاجتماعية والسياسية، شأنهم شأن المناضلين من أجل الحرية؟

يجيب ميلر على هذا السؤال بالقول إننا نجد أن قرابة نصف قصائد هذه المجموعة لا يستخدم المصطلحات الإسلامية، بل إنها تبدو أحياناً أقرب إلى العلمانية. فالموضوع المشترك بين القصائد هو السجن المادي والاضطهاد، وليس الإسلام. كما أن العديد منهم يتشاطرون شعوراً مشتركاً بالحنين الرومنسي إلى الوطن والأحبة،

حتى أنهم يستخدمون أحياناً خطاب حقوق الإنسان، وليس الخطاب الإسلامي، في محاولة للإفلات من بين حجرى رحى الحرب على الإرهاب والوصول إلى العالم بشكل مقبول. ويرى أن شعرهم كان، على أقل تقدير، بمثابة رد إسلامي جديد على زعم الولايات المتحدة بالسيادة القانونية العالمية.

وثمة سمة مشتركة أخرى تُظهرها القراءة الأولى للقصائد، وهي إبراز "الثنائيات" أو "المقابلة بين الأضداد": السلم والحرب (في قصيدة يقاتلون من أجل السلام- شاكر عبد الرحيم عامر)؛ الظلام والفجر (يا ظلام السجن- عبد العزيز)؛ العذاب والصبر (إلى والدي- عبدالله بن ثاني العنزى)؛ اليأس والأمل (أسود في أقفاص- أستاذ بدر الزمان بدر)؛ الظلم والبراءة (مرثية- جمعة الدوسري)؛ القهر والتمرد، القيد والخلخال، السجن والحرية (في قصائد شيخ عبد الرحيم مسلم دوست)؛ الخيانة والتمسك بالمبادئ (أصفاد الذل- سامي الحاج)؛ الخير والشر (الحقيقة- عماد عبد الله حسن)؛ الموت والحياة (هل صحيح؟- أسامة أبو كبير)؛ الجاني والضحية (قصيدة إضراب عن الطعام- عدنان فرحان عبد اللطيف)؛ الانهيار والصمود (أسف يا أخي- عثمان عبد الرحيم محمد)؛ النفاق والصدق (إرهابي 2003 - مارتن موبانغا)؛ الضعف الإنساني وقوة الأمل (أكتب شوقي الدفين- عبد الله ماجد النعيمي)؛ الهدوء والعاصفة، مرض القلب وبلسم الشعر (أنشودة إلى البحر- إبراهيم الريش).

أما أرييل دورفمان فيرى أن الشعر يساعد السجن على البقاء على قيد الحياة، ويذكر ما قالت له صديقة كانت في سجون الطاغية بينوشيه من أن الشعر هو الذي ساعدها على البقاء. ويلاحظ أن غوانتانامو صنع شعراءً من بعض المعتقلين فيه. إذ أن عدداً قليلاً جداً منهم كانوا يعتبرون أنفسهم شعراءً من بعض المعتقلين المعتقل. بل إن أحدهم كتب أول قصيدة في حياته هناك (محمد الغراني) ويبدو أن كل واحد منهم اعتقد أن التعبير عن محنته كتابةً كان نوعاً من السلاح ضد اليأس وأسلوباً لتأكيد إنسانيته.

ويطرح دورفمان فكرة جديدة حول الشعر- بالنسبة لي على الأقل- إذ يعتقد أن المصدر النهائي لهذه القصائد يكمن ببساطة في التنفس، في النفس الداخل والنفس الخارج، أي في الشهيق والزفير. فأصل الحياة وأصل اللغة وأصل الشعر موجود في النفس الأول للإنسان. والكلمة المكتوبة ليست أكثر من محاولة لجعل التنفس دائماً وآمناً، سواء كان هذا التنفس محفوراً في الصخر أو مخطوطاً على الورق أو معروضاً على الشاشة، وذلك كي يبقى إيقاعه بعد رحيلنا.

ويخلص دورفمان إلى القول إن الشهيق والزفير هو الشيء المشترك بين السجناء وسجانهم. وإن الشعر يمثل دعوة إلى الذين يتنفسون الهواء نفسه لكي يتنفسوا القصائد نفسها، وهو وسيلة لتجسير الفجوة بين الأجساد والثقافات وحتى المتحاربين.

وهنا تكمن الأهمية الأعمق والأكثر تناقضاً لظهور هذه القصائد في الولايات المتحدة بالذات وإنقاذها من قبل محامين أمريكيين وطباعتها من قبل مطبعة أمريكية وتحريرها من قبل كتاب أمريكيين ونشرها في الأراضي الأمريكية، أي في الدولة التي اعتقلت وعذبت وأساءت معاملة أولئك الشعراء.

وأخيراً، يعرب دورفمان عن أمله في أنه مثلما جاء اليوم الذي "أطلق فيه سراح" هذه القصائد لتحلّق في سماوات العالم، سيأتي يوم يُطلق فيه سراح الأيدي والشفاه والرئات التي انبثقت منها القصائد. وإلى أن يأتي ذلك اليوم، سيظل وطنهم الحقيقي هذه القصائد المُرّة التي كتبوها لمواجهة الوحدة والموت، وليس معتقل غوانتانامو.

أكواب الشعر:

مقتطفات من قصائد غوانتنامو

ترجمة (من الانجليزية بشيء من التصرف): أحمد جرادات

يقاتلون من أجل السلام

شاكر عبد الرحيم عامر

يقولون: سلام!

أي سلام؟

سلام النفس؟

سلام الأرض؟

أم على الأرض السلام؟

أراهم يتكلمون... يجادلون... يقاتلون

عن أي سلام يبحثون؟

ولماذا يقتلون؟

وما عساهم فاعلون؟

أمحض كلام تذرهُ الرياح في العيون

وغطاء للقتل؟

هل القتل سهل؟

وهل هو المنشود؟

يا ظلام السجن

عبد العزيز

”يا ظلام السجن خيم

إننا نهوى الظلما“.

فبعد حُلْكَةِ الليلِ
يبزغُ الفجرُ
وتشرقُ شمسُ الكرامةِ.

ومهما اشتدتْ قبضاتُ الظلمِ
وبدتْ عصيةً على الكسرِ
فإنَّ مآلها حطامٌ.

فالغياثُ يبلغها المثابرونُ
والأبوابُ تُفتحُ لمن يواصلونَ طرقها
إشتدِّي يا أزمهْ تنفرجي
فالصبحُ يوشكُ أن يبلجُ.

أسود في أقفاص
أستاذ بدر الزمان بدر

نحنُ أبطالُ الزمانِ
نحنُ شُبَّانُ الفخارِ
نحنُ الأسودُ الغرُّ في اقفاصُ.

نحنُ درعٌ في وجهِ الظالمِ
نحنُ طودٌ في البسالةِ
وفرعونُ هذا الزمانِ لا ينأى بفضلنا قريرَ العينِ.

وسيدُ القصرِ الأبيضِ،
كغيره من الأسيادِ الخطَّائِنِ،
لا يدركُ معنى صبرنا.

غالباً ما يحدثُ في هذي الأفاصُ
أن النجومَ في آلاءِ الليلِ
تجلُبُ البشارةَ
بأننا سننتصرُ
والعالمُ بانتظارنا
مع ركبِ بدرٍ.

العودة إلى الديار معظم بيغ

هي رحلةٌ تبدأُ دونَ زمامٍ
وتنتهي بالأسرِ بلا أهدافٍ
وها أنذا أرقدُ مستقيظاً في جوف الزلزانيةِ
حيثُ الفرحةُ والبسماتُ جميعاً مصطنعةٌ.

تحطّمُ الحلمُ وخابَ الأملُ
لكن المرءَ تدغدغهُ سخريةُ الأقدارِ حينَ تقول:
كن صغير الحجم، لا بأس، لكن منتصبَ القامةِ.
وأنا أرسُمُ شكلَ الكلماتِ،
أعرفُ، عندما تبدأُ الأحلامُ وتنتهي الكوابيسُ،
أنني محكومٌ بلقاءِ الأحبابِ.

قصيدة الموت جمعة الدوسري

خُدْ دمي
خُدْ كَفَنِي
خُدْ رُفَاتِي

إلتقطُ صوراً لجثمانى المسجّى في القبرِ وحيدا.

أرسلها للعالم
للقضاة
لأصحابِ الضمائرِ
لعشاقِ المبادئِ والمنصّفينِ.

ودَعهمْ ينوؤنَ بوزرِ الذنبِ أمامَ الكونِ
عن هذه الروحِ البريئةِ.
ليحملوا هذا الوزرَ أمامَ التاريخِ وحدقاتِ الأطفالِ
عن روحِ أضعها الظالمونَ بغيرِ خطيئةِ،
وسامها سوءَ العذابِ "حماةُ السلامِ".

مقطوعتان

الشيخ عبد الرحيم مسلم دوست

1.

جاءنا العيدُ ولم يأتِ أبي
وها أنذا...

آكلُ خبزِ العيدِ مغمّساً بدموعي.

2.

مثلما يخفقُ القلبُ خلفَ أسوارِ الجسدِ
يرتوي نبضُ الحياةِ رغمَ قضبانِ القفصِ.

أرقاءُ همُ الجبناءُ والأندالُ
وإن ظنوا أنهم أحرارُ.

قصيدتان على الأكواب

.1

أيُّ ربيع هذا الذي حلَّ في الأرض؟
تربةٌ لا تُنبِت الأزهارَ
وهواءٌ يخنُقُ الأنفاسَ.

.2

الأصفاذُ جديرةٌ بالصناديدُ
والخلاخيلُ خليقةٌ بالجمالياتُ.

هل صحيح؟

أسامة أبو كبير

هل صحيحٌ أن العشبَ ينمو من جديدٍ بعد المطر؟
هل صحيحٌ أن الأزهارَ تنبتُ من جديدٍ في الربيع؟
هل صحيحٌ أن الطيور المهاجرةَ تعودُ إلى أوطانها؟
هل صحيحٌ أن أسماك السلمون تسبح عائدةً في جدولها؟

هذا صحيحٌ...صحيحٌ، وهذه معجزاتٌ ولكنُ
هل صحيحٌ أننا ذات يومٍ سنغادرُ هذا الخليج؟
وأننا ذات يومٍ سنعودُ إلى الديار؟
إنني أبحرُ في الحلمِ وأحلمُ بالبيتِ
مع فلذاتِ القلبِ وحبِ الزوجِ.

إضراب عن الطعام
عدنان فرحان عبد اللطيف

مجرمون... يولغون في الجريمة
مجرمون... يدعون حب السلام
مجرمون... يعذبون حتى الصائمين.

فنانون... لكن في صنوف العذاب
فنانون... لكن في ضروب الألم
فنانون... لكن في بذاءات الكلام.

أين يغفو العالم عن محنة المضربين؟
أما من منقذ من أتون النار وسعير الأحران؟
أما من مجيب؟

لكننا طلاب حق وعشاق عدل
ويكفيينا السميع المجيب.

أنشودة إلى البحر
إبراهيم الريش

يا بحر
احمل لي أخبار الأوبة
فلولا أغلال الكفار
لمخرت عبايك
حتى أبلغ ديار الأحاب
أو أهلك في لجئتك.

شطانك حزنٌ وأسرٌّ وجورٌ
ومراتك تأكلُ صبري.
هدوءك موتٌ وموجك غربةٌ
والصمتُ الطالعُ من أعماقك يحملُ ريحَ الخيانة.

يا بحرُ
مكثتَ في جوارنا سنينُ
فما الذي كسبتهُ
غيرَ قواربِ الشعرِ في لجةِ البحرِ
وشعلةٍ مدفونةٍ في لهيبِ القلبِ؟

الإرهابي 2003

مارتن موبانغا

أمريكا...
أمريكا تلهو، أمريكا تمرحُ
ودماءُ المسلمين تُراق في الشوارعُ
في جنين وفي نابلس وفي...
أنت تفهم قصدي، أليس كذلك؟

العدالةُ أمريكيةُ
الجنودُ والخنازيرُ
والعقولُ أمريكيةُ!
إني غاضبٌ، إني حانقٌ
وقد آنَ أوانُ البوحِ.
يسألونني: ماذا تفعل بعد السجنِ؟
أيضمُّك حزنُ النظامِ القديمِ من جديدِ؟
أم تعودُ إلى براثنِ الجهادِ؟

وما أنت فاعلٌ بالشهرة التي اكتسبتها؟

قالوا: إعمل معنا

بلمسةٍ من الخداعِ يمكنُ أن تعيشَ في نعيمٍ.

...

لكنني أنضمُّ إلى فرقة المنشدين في الخليج

في زناتي المطلَّة على المحيط

المخصَّصة "للضالِّين في الإجرام" مثلي،

فما أنا بعينهم سوى

الإرهابي 2003

هذا أنا!

حتى لو اشتدَّ الأم

صديق تركستاني

عُصوا على الجرحِ فمهما اشتدَّ الأم

هناك بلسمٌ يجيء بالشفاءِ لا محالةً.

عُصوا على السجنِ فمهما طالَ الزمنُ

لا بدَّ أن تهبَّ نسائمُ الحرية.

قصائد وردتني باللغة العربية

أصفاذ الذل

سامي الحاج

علتني دموعُ ساهماتٍ تلهَّبُ

رسالتهُ ابنِ ذكَّرتني وصاحبُ

إذا عنَّ في الأيكِ الحمامُ المرعَّبُ

وغرَّدَ قمريُّ تشفُّ خواطري

سوى الله أدعوه وعينٌ تسكبُ.
وغربةً مظلوم تلوحٌ وتغربُ
قضيةً أبٌ كان في الله يرغبُ
وليلٌ أفاسيه ودمعٌ وكوكبُ
تُلاطمُ وجداً من على البحرِ يركبُ

محمدٌ إني قد ظلمتُ وليس لي
إلى الله أشكو حاجتي ثم عبّرتي
محمدٌ لا تنسى وعشٌ لقضيتي
وكيف أقول الشعرَ والقيدُ هدّني
ونفسٌ كموج البحرِ هيّجها الصّنا

الحقيقة

عماد عبدالله حسن

من ها هنا لمدينة المختارِ
حقاً أرى يا ليلٌ من أنوارِ
أنعمَ بهم من فتيةٍ أختيارِ.

أنقشُ حروفك في صميم العارِ
من ها هنا وقفَ الزمانُ تعجباً
قد بتُّ أرقبهم شبابَ محمدِ

.....

سأبوحُ بالأسرارِ من أسراري
وسأجعلُ البنيانَ جُرفاً هاوِ
في وجه هذا النورِ في إصرارِ
إبليسُ في تيهٍ وفي إكبارِ
أرضاً لكل منافقٍ غدارِ
من بعد أن لبسوا ثيابَ العارِ

يا أيها التاريخُ مهلاً إنني
وسأفضحُ الظلمَ اللعينَ جهارةً
وقفَ الطغاةُ بعدّهم وعديدهم
وأتو جميعاً في الظلامِ يقودهم
نزّلوا على أرضِ السلامِ فأصبحتُ
وغدا بها الأنصارُ أرخصَ سلعةٍ

إلى والدي

عبد الله بن ثاني العنزي

(باللهجة العامية)

عامين عيني كحلها مبعدينه
يمّ الديارِ اللي هلي ساكينته
تقبّل وتّفقي مرتعاتٍ سمينه.

عامين مرّت في سجونِ البعدينِ
عامين قلبي مرسله مراسيلِ
يا مَنبتَ القيصوم وياً المغايرِ

.....

ظلم يبكي شامخات المدينة
عكف المخالب بيع بيع السمينة
العذر عن فعل المراجل غيبته
بدل حياتك بالحياة الحسينة
ولو باعت العربان ما باع دينه

يا بُوي سجني ظلم وتزوير
مالي جريمة ولا ارتكبت المحاذير
قالوا تعذر قلت مالي معاذير
قالوا تغير عن ذرى الحق تغير
والله لو حطوا على النفس جنزير

قلبي الجريح

عبدالله ماجد النعيمي

(بالعامية)

والشعر شمّر عن ذراع طويلة
والوقت غالي والدقايق قليلة
مني سلام بالجواري الهطيلة
وانفوسنا ما هي عليكم ثقيلة
وطبع الرضى يا خوي ما في مثيله
وصاة من هو جرب المستحيلة
شي يجي لك وأما شي تجيله.
على رسول الله احمد خيله.

قلبي تقرّح من سباب طواريك
والوقت ماشي والعقارب تداريك
يا خوي أنا يا فلان بالزين بهديك
وان كان في نفسك علينا نراضيك
وارضى إذا ترضى ولاني بجافيك
واقولها من صادق الود بوصيك
ما كل ما تبغيه نفسك بياتيك
واختم قصيدي بالصلاة والتباريك

أول قصيدة في حياتي

محمد الغراني

ولو أعطوك ذمماً تلوى الذم
ومن أجله العهود ينقضون.

إمشي على جذرك في ديار العجم
فجلهم للقرش يعبدون

خاتمة

هكذا يقتضي الإنصاف أن نقر بأن الفضل في ظهور مجموعة غوانتنامو الشعرية إلى النور يعود إلى: أ) مجموعة المحامين المتطوعين، الذين بذلوا جهوداً مضيئة للدفاع عن المعتقلين، فتجردوا من كل هوى وعاملوا موكلهم معاملة مهنية كأبرياء إلى أن تثبت إدانتهم، ومعاملة إنسانية كبشر عاديين وليسوا "كمقاتلين أعداء وأشرارٍ مطلقين"، وهم الذين أطلق عليهم مستشار الأمن القومي الأسبق بريجنسكي صفة مقاتلين من أجل الحرية ووصف نشاطهم المسلح "بالجهاد الأفغاني ضد الشيوعية والإلحاد". وقد نأى أولئك المحامون بأنفسهم عن التأثير حتى بالنزعة الوطنية التي عادةً ما تلهب النفوس، وقد تسلب العقول عندما يتعرض الوطن لاعتداء خارجي؛ ب) وإلى مارك فالكوف، الأستاذ المساعد في كلية الحقوق بجامعة نورثرن إلينوي والمحامي المخلص لموكله السبعة عشر ومحرر هذه القصائد الذكي والصبور؛ ج) وإلى جامعة إيوا التي نشرت الكتاب وأتاحته للعالم بأسره ومطبعتها التي طبعت منه 10,000 نسخة؛ د) وإلى كل من فلاغ ميلر، عالم اللغويات والأنثروبولوجي في جامعة ويسكونسن- ماديسون الذي كتب مقدمة الكتاب، وأرييل دورفمان، الشاعر والروائي والكاتب المسرحي الشيلي الأمريكي الذي كتب التعقيب على الكتاب؛ وإلى منظمة العفو الدولية التي قامت بترجمة المجموعة الشعرية إلى اللغة العربية، ونشرتها دار الفارابي في بيروت.

ويرى البعض أن هذا الكتاب يُعتبر أسلوباً راقياً من أساليب الرد على وجهي العملة أو فكي الكماشة، أي "الإرهاب" و"الحرب على الإرهاب"، وذلك لأن الذين بذلوا كل تلك الجهود المضيئة من أجل إخراج هذه القصائد إلى العالم أمريكيون، لم يصدروا حكماً نمطياً على المعتقلين بأنهم إرهابيون أعداء مثلما تصفهم حكومتهم، وبالتالي لم يتصرفوا على هذا النحو، وإنما نظروا إليهم كبشر محرومين من حريتهم وحقوقهم. وهم بذلك إنما يرسلون رسالة واضحة أساسها مبدأ افتراض البراءة ومفادها أن مكافحة الإرهاب لا يجوز أن تكون من جنس الفعل، وأن الوازرة لا تزر وزر أخرى.

-II-

جهاد أم إرهاب... ثورة أم ربيع؟

- مستر همفر قابلهُ الوهابية
- الأهمية الوهابية الثانية: الجهاد السوري
- فيلسوف الربيع العربي وجيفارا الثورة المضادة
- لبردى ضفاف كثيرة: يومان في دمشق
- حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابي يعودان إلى دوار اللؤلؤة

مستر همفر قابلة الوهابية

لغايات "موضعية" - أي لأغراض هذه الدراسة فقط - التي جاء هذا المقال كملخص تنفيذي لها- ارتأيتُ تقسيم تاريخ النفوذ الوهابي إلى ثلاث حقب:

الحقبة الأولى: التأسيس - مطلع القرن الثامن عشر

وفقاً لما ورد في وثيقة يكتنفها الغموض تحمل عنوان "مذكرات مستر همفر: اعترافات جاسوس بريطاني إلى الشرق الأوسط"¹⁹، التي صدرت باللغة العربية بعنوان: "مذكرات مستر همفر: الجاسوس البريطاني في البلاد الإسلامية"، بدون ذكر اسم دار النشر والاسم الصريح للمترجم، فإن مستر همفر هذا هو الذي عمل مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب على تأسيس الوهابية. وقد نُشرت هذه الوثيقة في حلقات في الصحيفة الألمانية "شبيغل"، ثم في جريدة فرنسية، وترجمت إلى اللغة العربية، ومنها إلى اللغة الإنجليزية ولغات أخرى. بيد أن المصادر الوهابية أنكرتها واعتبرتها ملفقة وساقط لعدم رأيها ثلاثة مزاعم مختلفة غير متسقة: أن "الرافضة" أي الشيعة هم الذين لفقوها؛ وأن العثمانيين هم الذين ألفوها؛ وأنها وثيقة، أشبه بروتوكولات حكماء صهيون، لا أب لها.

بين حلم المأمون وحلم همفر: أرسطو والنبى

بحسب هذه الوثيقة أنفة الذكر فقد بدأت الوهابية بحلم، وهو حلم همفر، مثلما بدأت حركة التنوير الكبرى في العصر العباسي بحلم، وهو حلم المأمون.

حلم مستر همفر

"ذات مرة لَفَّقْتُ [همفر] له [محمد بن عبد الوهاب] حلماً، وقلت له: إني رأيت البارحة في المنام رسول الله - وقد وصفته بما كنت سمعته من خطباء المنابر- جالساً على منبر وحوله جماعة من العلماء لم أعرف أحداً منهم، وإذا بي أراك قد دخلت وهالةً من النور تشعُّ من وجهك. فلما اقتربت من الرسول قام إجلالاً وقبلك بين عينيك وقال لك: يا محمد أنت سميي ووارث علمي

19- Memoirs Of Mr. Hempher: Confessions of a British Spy To The Middle East

وقائماً مقامي في شؤون الدين والدنيا، فقلت أنت: يا رسول الله إني أخاف أن أظهر علمي على الناس. فقال لك رسول الله: لا تخف فأنت الأعلى. فلما سمع محمد مني هذا المنام كاد يطير فرحاً، وسألني تكراراً: هل أنت صادق في رؤياك؟ وكلما سألت أجبتُه بالإيجاب حتى اطمأن، وأظن أنه صمم منذ ذلك اليوم على إظهار أمره.

حلم المأمون

وبحسب ابن النديم في الفهرست، "فإن الخليفة العباسي المأمون رأى في منامه أن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة واسع الجبهة مقروناً الحاجب أجلى الرأس أشهل العينين حسن الشمائل، جالس على سريره، فقال المأمون: كأني بين يديه قد ملئت هيبة. فقلت من أنت؟ قال: أنا أرسطو طاليس. فمررتُ به وقلت: أيها الحكيم أسألك؟ قال: سل. قلت: ما الحسن؟ قال: ما حسن في العقل. قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع. قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور. قلت: ثم ماذا؟ ثم لا ثم لا... فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب، فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع." وهكذا انطلقت حركة الترجمة والتعريب والتأليف العظمى.

أهداف وزارة المستعمرات

بحسب ما ورد في مذكرات مستر همفر سالفة الذكر، كان الهدف العام لوزارة المستعمرات البريطانية يتلخص في تحطيم الامبراطورية العثمانية وتقسيم العالم العربي والإسلامي طائفيًا ومذهبيًا. وكانت الوسيلة إنشاء حركة دينية- سياسية (دين جديد- إمارة). أما الأدوات التي استُخدمت فهي المال والجنس والسلاح والاستخبارات وتجنيد المقاتلين (أليست هذه الادوات هي نفسها التي لا تزال تستخدم اليوم؟).

ففي خلوة البصرة بين الرجلين، مستر همفر والشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي لا يُعرف تاريخها، وجد همفر، الذي اختار لنفسه اسم "الشيخ أحمد"، ضالته المنشودة في الشيخ محمد، فأوكل إليه خطة تنفيذ وزارة المستعمرات:

خطة النقاط الست

وضعت وزارة المستعمرات خطة مؤلفة من ست نقاط وسلّمتها إلى عميلها همفر كي يعمل على إقناع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بتنفيذها، وتتلخص الخطة في:

1. تكفير جميع المسلمين من غير أتباع "الدين الجديد" وإباحة قتلهم وسلب أموالهم وهتك أعراضهم وبيعهم في أسواق النخاسة، وجعل رجالهم عبيداً ونسائهم جوارى؛

2. قطع طريق الحج وإغراء القبائل بسلب الحجاج وقتلهم؛

3. خلع طاعة الخليفة العثماني، والإغراء بمحاربهه وتجهيز الجيوش لذلك؛

4. هدم القباب والأضرحة والأماكن المقدسة عند المسلمين في مكة والمدينة وسائر البلاد التي يمكن تحقيق ذلك فيها باعتبارها نوعاً من الوثنية والشرك؛

5. نشر الفوضى والإرهاب في البلاد إلى أقصى حد ممكن.

6. العبث بالكعبة وتحويل النصوص المقدسة، وهو ما حدّر منه الشيخ محمد وأحجم عن الوعد بالإقدام عليه شارحاً هوله وخطورته على حياته وعلى وجود الحركة والدين الجديد ككل.

وإدراكاً منه لهول هذه الخطة أسدى وزير المستعمرات إلى همفر نصيحة جاء فيها:

"لا يهولنك هذا البرنامج الضخم، فإن الواجب يحتم علينا أن نبذر البذرة، وستأتي الأجيال الآتية لتكمل المسيرة، وقد اعتادت حكومة بريطانيا العظمى على النفس الطويل والسير خطوةً خطوة. وهل محمد النبي إلا رجلٌ واحد تمكّن من ذلك الانقلاب المذهل؟ فليكن محمد بن عبد الوهاب مثله ليتمكن من تنفيذ هذا الانقلاب المنشود."

بعد سنوات من العمل تمكنت وزارة المستعمرات من تجنيد محمد بن سعود وهندسة عرى العلاقة بين المحمدين- أي بين الدين والسلطة السياسية- للاستيلاء على قلوب الناس وأجسادهم، فقد أثبت التاريخ أن الحكومات الدينية أكثر دواماً وأشد نفوذاً وأرهب جانباً. وهكذا كان. ”وقد اتخذنا من الدرعية عاصمة للحكم والدين الجديد.“ (لاحظ وصف الوهابية بالدين الجديد)

الحقبة الثانية: الغزوات الوهابية خارج الحدود

في منقلب القرن التاسع عشر زحف الوهابيون إلى سوريا والعراق، حيث نهبوا كنوز العتبات المقدسة، ووصلوا إلى دمشق في عام 1810. وفيما يخص الأردن في أوائل القرن العشرين فقد شنوا عليه ثلاث غزوات متتالية:

الغزوة الأولى: في ليلة الثلاثاء، 22 آب/أغسطس 1922 تقدمت صوب شرق الأردن قوة قوامها حوالي ألف وخمسمائة رجل من الوهابيين، الذين أطلق عليهم الأهالي ثلاثة أسماء: ”الوهابيون“، ”الإخوان“ أو ”الخوين“ و ”المديّنة“. ووصل المهاجمون إلى مضارب بني صخر في الطنيب والمشتى والقسطل، حيث باغتوهم صباحاً في مضاربهم، وأخذوا يقتلون كل من يصادفونه في طريقهم، لا يفرقون بين محاربين ومسالمين. إلا أن ”الغبين“ جمعت جموعها وتوجّه المتطوعون من عشائر البدو الأخرى إلى ساحة المعركة، واستمر القتال طيلة يوم الثلاثاء حتى ضحى الأربعاء، عندما تمكنوا من رد الغزاة على أعقابهم بعد أن كبّدوهم خسائر فادحة. ”ومن الجدير بالتنويه أن القوات البريطانية المرابطة في شرق الأردن لم تتدخل في المعركة، بينما غادر أمير البلاد ”المقر“ إلى صويلح ”بسبب“ وعكة ألمّت به، ولم يعد إلا بعد اندحار الغزاة. (خيرالدين الزركلي في كتابه ”عامان في عمان“).

الغزوة الثانية: وقعت في صبيحة يوم الخميس، 14 آب 1924 في ثاني أيام عيد الأضحى، وضّمت القوة الغازية 4000 - 5000 مقاتل. وقد باغت الغزاة أهالي قرى اللبّين والطنيب والقسطل وأم العمد، وسرعان ما انتشر نبأ الغزو بين أهالي شرقي الأردن، فهبّ رجال عشائر البلقاء وبعض أهالي عمان وناعور ووادي السير وصويلح، لمؤازرة قبيلة بني صخر. واحتل الغزاة القرى التي هاجموها، ونهبوا

قرية الياودة. ولكن عشائر بني صخر والبلقاء والعدوان والعجارمة وبني حميدة، وحَدَّت صفوفها وصَدَّت المعتدين، وأرغمتهم على الانسحاب ملحقةً بهم خسائر فادحة فُدِّرت بنحو 500 قتيل و300 أسير.

أما الغزوة الثالثة، مجزرة "غرايس"، فقد وقعت في شباط/فبراير 1928، عندما شنت قوة من "الإخوان" تُقدَّر بنحو ألفي فارس هجوماً دمويًا على عرب بني صخر النازلين بمنطقة غرايس شمال شرق الجوف أثناء رحلة "التشريق" المعتادة، وارتكبت مقتلة مهولة في صفوفهم، لم ينج منها إلا النساء وبعض العبيد والأطفال. وكان من بين قتلى تلك المجزرة شيخ الزبن حتمل بن مناور ونجله وحوالي 88 آخرون.

وقد وصف أحد شعراء بني صخر تلك الواقعة بقصيدة، منها:
"...صارت علينا ثلاث اكوان
واللي جرى يشيب العيني
... وذبوحوا حتمل هو ونومان
هيل البيوت العزيزيني"

وقال شاعر آخر عن غرايس عندما اقترح أحدهم على قبيلته التشريق إليها مرة أخرى لوفرة الماء والكلاً فيها رافضاً الاقتراح تماماً وداعياً عليها بالسوء والقحط:
"...غرايس لو عشبها كيهوم
ماهي مريّة على الذودي
وعسى غرايس مطرها حسوم
وعساها ما تنبت العودي"

ومن المعروف أنه تم ضم منطقة الجوف لاحقاً إلى الحكم السعودي- الوهابي بشكل نهائي، وهي التي طالما تَغْنَى بها أهلها الأردنيون:
"طوقناها من معان للجوف ومن الكرك لحدود الطفيلة".
وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المعارضين لحكم الأمير عبدالله هبّوا للدفاع عن بلدهم ضد الغزوات الوهابية.

الحقبة الثالثة: تشكُّل الأُممية الوهابية الأولى والأُممية الوهابية الثانية

تبلورَ ما أطلقْتُ عليه مصطلح "الأُممية الوهابية الأولى" في ما سُمي بالجهاد الأفغاني، الذي انطلق في أواخر السبعينيات من القرن المنصرم، والذي صمّمه وخططه وحشد له ووزَّع الأدوار فيه زيغنيو بريجنسكي بهدف محاربة الاتحاد السوفييتي بالوكالة عن الولايات المتحدة والامبريالية العالمية تحت شعار "الجهاد من أجل الإسلام ضد الشيوعية والإلحاد" في أفغانستان.

أما "الأُممية الوهابية الثانية"، فقد تشكَّلت لاستهداف سوريا في ما يسمى بالجهاد السوري لمحاربة العلويين "النصيريين" والشيعة "الروافض" ولنصرة أهل السنة والجماعة. وهي حملة موجَّهة في الحقيقة ضد محور المقاومة (سوريا - حزب الله - إيران). وتتمدد أهدافها الأمريكية والأطلسية إلى روسيا والصين في نهاية الأمر.

الأممية الوهابية الثانية: "الجهاد السوري"

تهيد: الأممية الوهابية الأولى

لعلّ من مكر التاريخ أن مصطلح "الأممية" لم يعد علامة مسجلة للشيوخيين والاشتراكيين، بدءاً بالأممية الأولى التي أسسها ماركس وإنجلز في عام 1864، وحتى الأممية الثانية (الاشتراكية) في عام 1889، التي اصطفت مع برجوازيات بلدانها في الحرب الكونية الأولى، والأممية الثالثة، التي أسسها لينين في عام 1919، والأممية الرابعة التي أعلنها تروتسكي في المنفى في عام 1938، ناهيك عما أُطلق عليها اسم "الأممية الثانية والنصف"، التي أُعلنت في فيينا في عام 1921. فقد نشأت في البلدان العربية والإسلامية في الربع الأخير من القرن العشرين أممية نقيضه، في منطلقاتها وأيديولوجيتها وأهدافها ووسائلها وارتباطاتها وقيادتها وتبعيتها وفي تحديد أعدائها وأصدقائها. وهذه الأممية الجديدة النقيضه هي ما يمكنني أن أطلق عليها اسم "الأممية الوهابية"، التي ضمت طيفاً واسعاً من التيارات الإسلامية السياسية، من السلفية الجهادية إلى تنظيم القاعدة إلى جماعة الإخوان المسلمين، من سائر البلدان العربية والإسلامية، من موريتانيا إلى آسيا الوسطى، ومن أمريكا الشمالية إلى أوروبا الغربية واسكندنافيا، أي على اتساع الكرة الأرضية تقريباً. وقد تبلورت الأممية الوهابية الأولى في ما سُمي بـ "الجهاد الأفغاني" الذي انطلق في أواخر السبعينيات من القرن المنصرم.

الأممية الوهابية الثانية

بعد ما أودُ تسميته - ربما من باب الطرافة - بـ "الأممية الوهابية الأولى والنصف"، حيث أطلقت الولايات المتحدة وحلف الناتو "الجهاد البلقاني" في البوسنة والهرسك وكوسوفو "ضد الكفار" في يوغسلافيا السابقة، جاءت الحملة الدولية المهولة الراهنة على سوريا لتكرس الأممية الوهابية الثانية في ما يسمى بـ "الجهاد السوري" لمحاربة العلويين "النصيرين" والشيعية "الروافض" ولنصرة "أهل السنة والجماعة".

مقاربة مقارنة

ما أشبه اليوم بالبارحة، وما أشبه الجهاد السوري بالجهاد الأفغاني. بل أعتقد أننا بإجراء تغييرات طفيفة في "مفردات" عناصر هذا الصراع، يتبدى لنا أن التاريخ يكاد يعيد نفسه هنا والآن.

ففي الجهاد الأفغاني، قام بريجنسكي بتوزيع الأدوار الرئيسية للأطراف المشاركة فيه على النحو الآتي:

- مهمة الإشراف والتوجيه العام للجهاد الأفغاني تولتها وكالة المخابرات المركزية، التي تضطلع بالمهمة نفسها في الجهاد السوري، بالتعاون مع الدوائر الاستخبارية لبعض دول حلف الناتو، ولا سيما تركيا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا.

- استُخدمت باكستان، وهي الدولة الإسلامية السنية والعدو التاريخي للهند صديقة الاتحاد السوفييتي الذي يمثل العدو رقم واحد للولايات المتحدة طوال الحرب الباردة، والمجاورة لأفغانستان والمتداخلة معها جغرافياً وديموغرافياً، كقاعدة للعمليات الحربية وأرض لمعسكرات الإيواء والتدريب ومعبر للأسلحة والذخائر والمقاتلين ومختلف الإمدادات اللوجستية من كل مكان، ومن شتى الأصناف، ومنها ما قد لا يخطر بالبال، من قبيل جلب الحمير القبرصية من جزيرة الشمس الهائلة إلى جبال أفغانستان الوعرة وشعابها وكهوفها الغائرة.

[ففي النصف الثاني من تسعينيات القرن المنصرم كنتُ أعمل محرراً في مكتب "عرباي" ARABAI التابع لمنظمة العفو الدولية في نيقوسيا عندما قدّمت لي زميلة قبرصية في العمل نشرة تصدرها جمعية بيئية قبرصية اسمها "جمعية أصدقاء الحمار القبرصي". وفهمتُ منها أن الجمعية أنشأت محمية للمحافظة على ما تبقى من الحمير القبرصية على أرض الجزيرة، وعددها نحو ثلاثين حماراً على ما أذكر، من أصل أكثر من ألفين. وعلمتُ بعد ذلك أن تاجر حرب عربياً اشترى "الكمية كلها" بأسعار مغرية وشحنها على متن باخرة إلى باكستان، ثم أدخلها إلى أفغانستان لاستخدامها في نقل الأسلحة والمعدات والأعتدة، بما فيها صواريخ ستنغر الأمريكية التي كانت تُسقط الطائرات السوفييتية، عبر المسالك

الوعرة التي لا تسلكها المركبات، وذلك لأن الحمار القبرصي يتصف بالقوة والذكاء، حيث يعرف طريقه جيداً لأنه معتاد على طرق الملاحات ومسالك الكروم الوعرة. وقد ظننتُ حينئذ أن تلك القصة لا تخلو من خرافة أو مبالغة دعائية ظريفة يُقصد بها ترويج أهداف الجمعية، إلى أن قرأتها في أحد مقالات الأستاذ محمد حسنين هيكل في مجلة "وجهات نظر" بعد بضع سنوات. ويبدو لي أن الفلاحين القبارصة، بإنشائهم تلك الجمعية، عقب بيع حميرهم المخلصة بأسعار مغرية بعد أن لم يعد بهم حاجة إليها في عصر العولمة الرأسمالية، إنما يقدمون اعتذاراً أو "كفارة" لتلك السلالة البريئة على ما اقترفوه بحقها من جريمة، عندما تركوها تحمل على ظهورها الرشاشات والقنابل والمتفجرات، أي الموت، بدلاً من أكياس الملح والحبوب وصناديق الفواكه والخضروات، أي الحياة].

- أما في الجهاد السوري فإن تركيا، الدولة السنّية المجاورة لسوريا والمتداخلة معها جغرافياً وديمغرافياً كذلك والمعادية لإيران الشيعية على حدودها، هي التي تُستخدم كقاعدة أساسية للعمليات الحربية والاستخبارية وساحة لمعسكرات المقاتلين القادمين من جميع "الأمصار" ومعبر للأسلحة والمعدات وأجهزة الاتصالات المتطورة. وهي تفعل ذلك بقيادة العثمانيين الجدد الطامحين إلى إحياء الإمبراطورية باسم الخلافة العثمانية، ممثّلين بحزب العدالة والتنمية الحاكم بقيادة إردوغان. ومن الغريب أن تكون الأنظمة الرجعية العربية من أخلص حلفائهم وأكثرهم تشدداً، على الرغم من أن رئيسهم تبجّح علناً بتلك الأمجاد، بل إنه كال أقذع الشتائم للعرب وبالذات لأجداد عائلات حاكمة من حلفائه- السعوديين والهاشميين- عندما قال إن عصابة من اللصوص العرب خانوا الخلافة وباعوا القدس وفلسطين للغرب الاستعماري بحفنة من الليرات الذهبية في الحرب العالمية الأولى.

- في الجهاد الأفغاني كان التمويل في البداية مشتركاً بين السعودية والولايات المتحدة، حيث تم تأسيس صندوق دَوَّار في جنيف بدأ بمبلغ مليار دولار، وتجدد تلقائياً بحسب الصرف منه، إلى أن بلغ 45 مليار دولار بحسب تقديرات الصحفي الباكستاني أحمد رشيد، وقد دفعت السعودية جُلَّ هذا المبلغ. هذا فضلاً عن

المساهمات والهبات والتبرعات الحكومية والشعبية من البلدان العربية الأخرى، ومنها بلدي الأردن، الذي لم يكتف بتشجيع المؤسسات والمواطنين على دفع التبرعات للجهاد الأفغاني، بل إن حكومته وصلت إلى حد فرض "تبرع إجباري" على موظفي الدولة خُصم من رواتبهم مسبقاً بدون الحصول على موافقتهم، فضلاً عن تسهيل عبور وإرسال المقاتلين إلى أفغانستان.

- أما في الجهاد السوري، فإن السعودية وقطر تتكفلان بتغطية تكاليف شراء ونقل الأسلحة والذخائر والمعدات والتجهيزات العسكرية والأمنية ووسائل الاتصالات الأمريكية " الذكية"، وشراء الضمائر ووسائل الإعلام والإعلاميين والكتاب والهيئات والمنظمات والأحزاب والمسؤولين وحتى الحكومات والدول.

- في الجهاد الأفغاني اضطلعت السعودية بمهمة الاتصال بقيادة الفصائل "الجهادية"، بصفتها الدولة الحاضنة لأقدس المقدسات الإسلامية، ولأن ملوكها يطلقون على أنفسهم لقب "خُدام الحرمين الشريفين"، فلا ضرر ولا ضرار إذن من إعلان أي قائد أو تنظيم جهادي ارتباطه بها، بل إن ذلك يُعدُّ تشريفاً له ويضفي عليه مسحة من القداسة.

فقد وصفَ الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل، استناداً إلى كتاب "طالبان: الإسلام والنفط والصراع الكبير في وسط آسيا" للصحفي الباكستاني أحمد رشيد، كيف تم "تعميد" قادة الجهاد الأفغاني في مكة بناء على اقتراح من أحد المستشرقين في وكالة المخابرات المركزية، حيث فُتحت أبواب الكعبة لهم خصيصاً، وكان كل منهم يصلي أمام كل جدار من جدران الكعبة الأربعة (أي يولي وجهه صوب قبلة "مربّعة") ويخرج وقد تم تنصيبه "أميراً للجهاد ضد الإلحاد" مغموساً بالقداسة (مجلة وجهات نظر، تشرين الثاني/ نوفمبر 2002).

لهذا الغرض أنشأت السعودية "مكتب الخدمات العامة" في بيشاور كي يتولى مهمة تنظيم دعوة المتطوعين واستقبالهم وتدريبهم وترتيب إقامتهم وتأمين الوثائق اللازمة لتنقلهم وتوزيعهم على مواقع الجهاد. وقد أُنيطت قيادة مكتب الخدمات

بالراحل الدكتور عبدالله عزام. ونظراً للدور الأساسي والخطير الذي سيلعبه هذا الشخص في الجهاد الأفغاني، فإن الرجل يستحق إلقاء بعض الضوء على شخصيته.

عبدالله عزام أستاذ جامعي وقيادي في جماعة الإخوان المسلمين في الأردن. وهو أردني الجنسية فلسطيني المولد، عمل مدرساً في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية في نهاية السبعينيات قبل الهجرة إلى "أرض الحشد والرباط والجهاد" في أفغانستان، واطعاً مسقط رأسه قرية "السيلة الحارثية" بالضفة الغربية المحتلة وكامل فلسطين التاريخية من البحر إلى النهر خلف ظهره، ومولياً وجهه صوب الهدف الأقدس، وهو محاربة الشيوعية والإلحاد هناك. لا غرو، فالأوطان بنظره ليست سوى أوثان، والوطن الحقيقي هو الإسلام في أي مكان وزمان. وفي الجامعة الأردنية اتسم الأستاذ الجامعي بحماسة بالغة في العدا للشيوعية والطلبة اليساريين والقوميين الذين كانوا يشكلون القوة الرئيسية والمهيمنة في الحركة الطلابية وقتذاك، وعُرف بتحريضه الجامح والدؤوب لطلبة الإخوان المسلمين وإدارة الجامعة عليهم، إلى حد استخدام العنف الجسدي.

في تلك الفترة أصدر عزام كتابه الشهير المعادي للشيوعية بعنوان: "السرطان الأحمر"، الذي قال في مقدمته إن الأنظمة كلها سقطت والمناهج جميعها فشلت والتجارب بأكملها خابت، ولم يبق إلا نظام الله- وهو النسخة الإسلامية من نظرية نهاية التاريخ- وحدد فيه قانون العودة إلى الله بخطوات أربع على النحو الآتي:

- 1) العمل مع جماعة إسلامية متوازنة الفكر؛
 - 2) تبدأ هذه الجماعة الإسلامية بالجهاد فتكون كالصاعق الذي يفجر طاقات الأمة؛
 - 3) تستمر المعركة بقيادة الحركة الإسلامية؛
 - 4) تنتهي المعركة بانتصار الشعب المسلم الذي تقوده الحركة الإسلامية، وتقوم الدولة الإسلامية.
- وبالتمعن في هذه الخطة "الإلهية"، لا أرى أن تغييراً ذا بال قد طرأ عليها حتى الآن.

- أما في الجهاد السوري، فإن السعودية وقطر تتقاسمان مهمات الاتصال والإشراف والتوجيه، حيث تتولى السعودية مهمة التعامل مع الإسلاميين، بينما تتعامل قطر مع الليبراليين، وهذا هو لزوم الشغل. (من المعروف أن إمارة قطر هي التي تولت مهمة تعيين وتمويل رئاسة "المجلس الوطني السوري").

- في الجهاد الأفغاني اضطلعت مصر بمهمة توريد الأسلحة والذخيرة والمعدات من مخزونها من الأسلحة السوفيتية، حيث كانت تنقلها من مطار "قنا" العسكري إلى مطار بيشاور العسكري، ومن ميناء بورسعيد في مصر إلى ميناء كراتشي في باكستان، حتى أُفرغت المخازن العسكرية المصرية من محتوياتها.

- أما في الجهاد السوري، وبسبب ظروف مصر بعد ثورة/انتفاضة 25 يناير، فقد تم نقل ترسانة الأسلحة والذخائر التي كانت في مخازن الجيش الليبي، عقب الإطاحة بالعقيد معمر القذافي وقتله والتمثيل المتوحش بجثته، إلى سوريا عبر تركيا ولبنان والأردن، بالإضافة إلى شراء الأسلحة من السوق السوداء في الدول المجاورة.

حرب الفتاوى المقدسة

- في الجهاد الأفغاني استُخدمت الفتوى الرئيسية الجامعة التي صاغها واستصدرها الشيخ عبدالله عزام، والتي أكدت على أن الجهاد في أفغانستان "فرض عين بالنفس والمال على كل مسلم، كما قرره فقهاء المذاهب الأربعة بلا استثناء، ومعهم جمهرة المفسرين المحدثين الأصوليين".

- ففي كتاب "الرايات السود"، يروي المؤلف علي صوفان كيف عرض الدكتور عبدالله عزام على الشيخ بن باز صيغة فتواه بعنوان "الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان"، ثم قرأها على مسامح حوالي مئة عالم دين من مختلف الدول الإسلامية، من بينهم الشيخان ابن عثيمين ويوسف القرضاوي والقائد الأفغاني عبد رب الرسول سياف، في مركز التوعية العامة بمنى في مكة المكرمة أثناء موسم الحج لعام 1983.

وفي الجهاد السوري تكاثرت الفتاوى وتزاحم المفتون على وجوب الجهاد ضد النظام السوري والعلويين والشيعة، من عايض القرني ويوسف القرضاوي إلى أيمن الظواهري وعدنان العرعوري.

وقد استندت هذه الفتاوى وأخواتها إلى "الفتوى الأم" لابن تيمية، الملقب بشيخ الإسلام (667 - 728 للهجرة)، والتي تستخدمها التنظيمات السلفية المسلحة على نطاق واسع للتعبئة والحث على "الجهاد السوري". ومن الواضح تماماً أن هذه الفتوى، لمن يقرأ تفاصيلها، ليست سوى رخصة مُلزمة لقتل هؤلاء القوم، حتى أنها تحرّم قبول الجزية منهم:

"هؤلاء القوم المسمّون بالنصيرية [العلوية] هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى؛ بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم... هؤلاء [النصيرية والرافضة] كفار باتفاق المسلمين لا يحلُّ أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم، بل ولا يُقرُّون بالجزية، فإنهم مرتدون عن الإسلام، ليسوا مسلمين ولا نصارى... ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق [أبو بكر] وسائر الصحابة بدؤوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب..". (يقصد حروب الردة)

ومن بين المشتركين في مراثون الفتاوى التي صدرت بشأن الجهاد السوري: - حضَّ رجل الدين السعودي عايض القرني على قتل الرئيس بشار الأسد، مؤكداً أن قتله أوجب من قتل الإسرائيليين، ودعا أفراد الجيش السوري إلى الانشقاق عن الجيش وشق عصا الطاعة للرئيس الأسد الذي وصفه بأنه "قاتل وزنديق وخائن".

- وصفَ الشيخ صالح اللحيدان الدولة السورية بأنها ”فاجرة وخبيثة وخطيرة وملحدة“، ودعا ”الشعب السوري للجد والاجتهاد في مقاومة النظام السوري حتى لو سقط ضحايا كثيرون، ولو هلك مَنْ هلك منهم. ويستند في فتواه إلى مذهب مالك الذي يرى أنه ”يجوز قتل الثلث ليسعد الثلثان“، ولكنه يعرب عن ترفُّقه بالشعب السوري فيرجو الله في فتواه ”ألا يُقتل من سورية ثلثها“، أي ثمانية ملايين إنسان فقط!!

- أفتى رئيس هيئة علماء المسلمين الداعية الشهير يوسف القرضاوي بجواز التدخل العسكري الأجنبي، حيث أعلن أن ”من حق السوريين الطلب من دول أجنبية وبدعم من الأمم المتحدة التدخل في بلادهم في حالة فشل الدول العربية في وقف حمام الدم.“ وبما أن الدول العربية لا تريد وقف حمام الدم، بل إنها هي التي توقد ناره، فإن التدخل العسكري الأجنبي جائز شرعاً ومطلوب فعلاً.

- بعد أيام من إعلان رجال الدين في السعودية عن فتح باب الجهاد ووجوب نصره المعارضة السورية، أعلن الشيخ عبدالمجيد الزنداني وعلماء جامعة الإيمان وحزب الإصلاح فتح باب الجهاد إلى جانب المعارضة السورية.

- ناشدَ زعيم تنظيم القاعدة الدكتور أيمن الظواهري: ”كل مسلم وكل شريف حر في تركيا والعراق والأردن ولبنان أن يهبَّ لنصرة إخوانه في سوريا بكل ما يملك“، مشيراً إلى أنه ”من حق أهلنا في سوريا ومن حق الأمة كلها أن تستخدم ما تراه من وسائل لاستئصال النظام السوري.“

- أما عدنان العرعوري، الذي يطلق عليه البعض لقب ”مرشد الثورة السورية“، فقد أصبح نجماً على شاشات التلفزة الفضائية والمواقع الإخبارية الإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي، حيث يوزع فتاوى التكفير كالحلوى ويطلق دعوات القتل بلا هوادة مع تطاير رذاذ العبارات البذيئة من فمه التي يعفُّ اللسان الطبيعي عن التفوه بها.

مرحلة هجر الحبيب

بعد 11 سبتمبر/أيلول 2001، الذي أُرِّخ به المحافظون الجدد في الولايات المتحدة للعالم (ما قبل 11 سبتمبر وما بعده) انقطع "تكتيكياً" حبل الود المتين والطويل الذي ربط السلفية الجهادية وتيارات الإسلام السياسي بالولايات المتحدة والغرب، والذي كان قد ضعف تدريجياً بعد النصر الأفغاني وانهار الاتحاد السوفييتي السابق ومنظومة البلدان الاشتراكية وحلف وارسو، وذلك لانتفاء الحاجة إلى تلك الجماعات وتحسباً لخطرها المرتد المحتمل لأنها احترفت امتشاق السلاح وتفجير المفخخات وأدمنت على القتال ولا تعرف سواه مهنة لها، وخوفاً من أن ينقلب مخلوق الدكتور فرانكشتاين "المسلم" على خالقه، وهو ما حدث - أو أحدث - في 11 سبتمبر/أيلول، حين هُجر الحبيب الأول وانفصمت عروة الزواج الوثقى ووقع طلاق بينونة، الذي سيحتاج إلى "محلل" شرعي في "الجهاد السوري".

[وفي الحقيقة، استشعر بعض المقاتلين هذه العاقبة قبيل هزيمة السوفييت وترويج الجهاد الأفغاني بأكاليل النصر، الأمر الذي دفع هؤلاء إلى التعبير عن ذلك عملياً في ما يشبه إعلان "الإضراب عن الجهاد" بحسب تعبير الأستاذ محمد حسنين هيكل، الذي يذكر ذلك الحدث الغريب في مقاله المعنون بـ "واشنطن تؤذن للجهاد في أفغانستان" (مجلة "وجهات نظر"، نوفمبر/ تشرين الثاني 2002) استناداً إلى كتابين أمريكيين، هما: "الحروب غير المقدسة: أفغانستان، أمريكا، والإرهاب الدولي" للكاتب الصحفي جون كيلى، وغسيل الواقع: وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمخدرات والصحافة" للمؤلفين ألكسندر كوكبيرن وجيفرى سان كلير، حيث تقدّم "المجاهدون إلى قادتهم بعدة طلبات، منها ما تعلّق بمستقبلهم بعد انتهاء الجهاد الأفغاني. وعندما تأخر الرد عليهم أعلنوا نوعاً من "الإضراب عن الجهاد"، حيث توقفوا عن الجهاد، حتى حضر إليهم ممثل رسمي للمخابرات المركزية الأمريكية، وعقد اجتماعاً مع بعض قادة الفصائل، وأعلن أمامهم باسم حكومته أنه حمل في حقيته 2000 موافقة على منح الجنسية الأمريكية لأكفأ العناصر في تأدية مهام الجهاد. وأعلن مندوب الوكالة في تلك المناسبة عن قرب تسليم أول دفعة من البطاقات الخضراء Green Cards للأكثر استحقاقاً بين المجاهدين. ومن المفارقات أن واحداً من الذين حصلوا على البطاقة الخضراء في تلك المناسبة كان

الشيخ الضير عمر عبد الرحمن مفتي جماعات الجهاد المصرية، الذي حُكم عليه بالسجن المؤبد في الولايات المتحدة، وتوفي في وقت لاحق].

ويجدر التذكير هنا بأنه في مرحلة الهجر وطلاق البنونة التي فرضتها الولايات المتحدة والغرب عموماً على جماعات الإسلام السياسي أثناء مسرحية "الحرب على الإرهاب"، هبّت الأمة بأسرها لنجدتها، بمن فيها التيارات اليسارية والقومية، التي اتخذت منتسبها موقفاً "مبدئياً"، فأيدوا بقوة تلك الجماعات، الخشن منها والناعم على حد سواء، وتحالفوا معها ودافعوا عنها وعن معتقليها علناً، بل التحقوا بأذيالها ردحاً من الزمن وسلّموها زمام قيادة المعارضة الداخلية ضد "الديكتاتوريات" العربية، حتى بدت وكأنها المعارضة الوحيدة. بل وصل بعض اليساريين والقوميين إلى حد تأييد الإرهاب والإرهابيين والعمليات الإرهابية، وفي مقدمتها الهجمات ضد برجّي مركز التجارة العالمي في منهاتن، مع أنهم طالما كانوا، مبدئياً أيضاً، ضد الإرهاب، وذلك اعتقاداً منهم بأن الصراع أضحى صراعاً حضارياً بين الغرب والإسلام.

فيلسوف الربيع العربي وجيفارا الثورة المضادة

”فيلسوف الربيع العربي“، الفرنسي الصهيوني الواسع النفوذ برنار أونري ليفي، المعروف عالمياً باسمه المختصر BHL، الذي لعب دوراً رئيسياً في التدخل العسكري لحلف الناتو في ليبيا، عمل على تكرار السيناريو نفسه في سوريا بتطبيق ما أسماه ”نظرية القذافي“ على بشار الأسد - كما ذكرت مجلة ”لا بوينت“ الأسبوعية الفرنسية.

تهيد: الثورات العربية/ الربيع العربي

منذ مطلع عام 2011، درج مصطلحان رئيسيان فيما يتعلق بالانتفاضات الشعبية التي اندلعت في العديد من البلدان العربية، وهما: ”الثورات العربية“ و”الربيع العربي“. فهل المصطلحان مترادفان، أم مختلفان، أم متناقضان؟

لعلي أجازف بالوقوع في شرك التصنيف التعسفي إذ أضع الثورات العربية، التي بدأت بالمأثرة التونسية في 17 كانون الأول/ديسمبر 2010، وتلتها ثورة 25 يناير/كانون الثاني 2011 المصرية الكبرى، في أربع فئات رئيسية:

- الثورة المظفرة، كالثورتين التونسية والمصرية، لكن ليس بمعنى الانتصار النهائي والحاسم بالطبع، أي النجاح في إطاحة نظام الحكم المطلق والفساد القديم كلياً وإرساء نظام ثوري جديد كلياً كذلك وإجراء تحولات اجتماعية-اقتصادية-ثقافية عميقة، وإنما بمعنى إسقاط الديكتاتورية عن طريق انتفاضة شعبية سلمية وبقوة الملايين البشرية وقوة الإلهام بدون استخدام السلاح أو الدعوة إلى استخدامه. أما ما يجري من ركوب موجة مثل هذه الثورة لتغيير وُجْهتها أو اختطافها أو سرقتها أو تجييرها لمصلحة قوى معينة، وحتى تحويلها إلى ثورة مضادة، فهو قضية أخرى تحتاج إلى بحث آخر.

- الثورة المغدورة، كالثورة البحرينية، التي تأمرت وتكالبت عليها قوى الثورة المضادة وضربتها في المهمل، وتجاهلتها أو طمستها أو تواطأت ضدها الميديا، ناهيك عن التأييب والتحريض المذهبي عليها.

- الثورة المعدّبة، كالثورة اليمينية، أم الصابرين والمثابرين التي نذفت دماء غزيرة من شرايين أبنائها وأدهشت العالم بإصرارها على عدم استخدام السلاح أو الدعوة إلى استخدامه في البداية طوال الوقت حتى الإطاحة بالرئيس علي عبدالله صالح وقبل العدوان الهمجي على اليمن، مع أن كل فرد في اليمن يملك قطعة سلاح واحدة أو أكثر، من المسدس إلى المدفع والدبابة، كما هو معروف.

- الثورة المخترقة و/أو الموجّهة: "كالثورتين" الليبية والسورية، اللتين "صنعهما" حلف الأطلسي وحلفاؤه وعملاؤه وأدواته من الانظمة الرجعية العربية والقوى والتنظيمات السلفية الوهابية من شتى البلدان العربية والإسلامية والعالم منذ اليوم الأول وحوّلوهما إلى نزاع مسلح عالمي وإقليمي ومحلي وحرب ضروس بالوكالة.

أما مصطلح "الربيع العربي" فيمكنني القول إنه مصطلح غربي المنشأ تماماً. فبحسب "المركز اللغوي العالمي"، وهو موقع يرصد، من جملة أمور عديدة أخرى، المصطلحات والمفردات والأسماء الأكثر شيوعاً في العالم ويحدد العشرة الأوائل منها، فإن مصطلح "الربيع العربي" Arab Spring احتل المرتبة الأولى بين المصطلحات في عام 2011 (وبالمناسبة ربما يجدر التنويه إلى أن اسم أسامة بن لادن UBL احتل المرتبة الثانية بين الأسماء الأكثر شيوعاً على المستوى العالمي في العام نفسه!).

ومن المرجح أن يكون أول "نحت" أو استخدام لمصطلح "الربيع العربي" لوصف الحركات الشعبية في البلدان العربية التي اندلعت في أواخر عام 2010 وأوائل عام 2011 قد ظهر في 6 كانون الثاني/يناير 2011، في مجلة "فورين بوليسي"، حيث كتب مارك لينتس مقالاً بعنوان "ربيع أوباما العربي". وفي 14 كانون الثاني/يناير ظهرت الإشارة الثانية في افتتاحية صحيفة "كريستشين ساينس مونيتور" بعنوان "ربيع عربي أم شتاء عربي؟" وفي 26 كانون الثاني/يناير وردت الإشارة الثالثة في صحيفة "ديرشبيغل" في سياق مقابلة أجرتها الصحيفة مع الدكتور محمد البرادعي. وبحلول منتصف آذار/مارس أصبح المصطلح شائعاً في وسائل الإعلام

العالمية، ولكنه تکرّس تماماً إثر خطاب الرئيس الامريكي باراك أوباما الذي ألقاه في 19 مايو/أيار 2011 وخصّصه لشرح السياسة الخارجية الجديدة للولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في ضوء موجة الثورات العربية، حتى أنه أطلق عليه في وسائل الإعلام اسم "خطاب الربيع العربي للرئيس أوباما"، وفي هذا دلالة عميقة لا تخفى على المتابعين.

وأودُّ التأكيد هنا على أنه في جميع الاستخدامات الغربية وفي تلافيف العقل الغربي وردَ مصطلح "الربيع العربي" بالارتباط بمصطلح سابق، يُعرف باسم "ربيع براغ"، وهو الاسم الغربي للانقلاب على الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي الذي قاده ألكسندر دوبتشيك من داخل الحزب في عام 1968 (والذي فشل في حينه بسبب تدخل قوات حلف وارسو).

كما ينبغي التمييز بين مفهومي "الثورات العربية" و"الربيع العربي"؛ فالأخير مصطلح غربي سلبيُّ المضمون والإشارة التاريخية والمقاصد، بل إنني مستعد للذهاب إلى القول إن "الربيع العربي"، في سياق الحالات العيانية في البلدان العربية، يمكن أن يكون مرادفاً للثورة المضادة أو اسماً "كودياً" لها.

مَن هو برنار أونري [هنري] ليفي؟

وُلد برنار هنري ليفي، الشهير بالاسم المختصر "الحركي" BHL، لعائلة يهودية في مدينة بني صاف التي تُعتبر لؤلؤة الغرب الجزائري المطلّة على البحر المتوسط، والتي يعود تأسيسها إلى حقبة الاستعمار الفرنسي على الأرجح. وبعد مرور بضعة أشهر على ولادته في عام 1948، انتقلت عائلته إلى باريس. ووالده هو اليهودي الفرنسي الواسع الثراء أندريه ليفي، مؤسس ومدير شركة "بيكوب" للأخشاب التي قطعها من الجسد المدمى للجزائر المستعمرة.

يرسم ليفي لنفسه صورة "الرجل الشامل" (The all-round man)، وتساعده الميديا الغربية في نشر وتكريس هذه الصورة في العالم: صورة الفيلسوف والمفكر والبطل الثوري والمناضل الحركي والكاتب السياسي والفنان السينمائي،

ولكنه في الحقيقة، قبل وبعد وفوق كل ذلك، اليهودي الصهيوني حتى العظم.

ليفي فيلسوفاً ومفكراً:

اشتهر ليفي في الأوساط الإعلامية على نطاق واسع بأنه فيلسوف ومثقف وعالم سياسي، ولذا يطلق عليه في الأوساط الإعلامية الغربية لقب "فيلسوف الربيع العربي"، فماذا يقول عنه الوسط الثقافي الفرنسي؟

من المعروف أنه كان لدى فرنسا دائماً حلقات أو مجموعات من المثقفين أو علماء السياسة في الفضاء العام الفرنسي، ممن يلعبون أدواراً قيادية في الشؤون السياسية العملية، من قبيل ميشيل فوكو وجاك رانسيه وألن بادو ولويس ألتوسير وغيرهم، مثلاً لا حصراً، ولكن كثيرين من الوسط الثقافي الفرنسي لا يذكرون برنار ليفي في عداد مجموعات المثقفين العاميين المكرّسين في هذا الوسط، ناهيك عن أن يكون فيلسوفاً. بل إنه كثيراً ما كان محلّ سخرية بسبب ثقافته الشعثاء أو الفوضوية (sloppy) كما يسمونها. ولهذا فقد استفاد من وسائل الإعلام الأمريكية لنشر أفكاره وآرائه، فهو مناسب تماماً لدور المثقف العام في الولايات المتحدة، وتحديدًا "التفوه" بالأفكار التي تتلاءم مع النموذج السياسي الضيق والمحافظ بالمقارنة مع نموذج الأطياف السياسية الواسعة في بقية أنحاء العالم. ويعتقد العديد من أعضاء مجتمع الانتليجنسيا الفرنسيين أن هذا "الفيلسوف" تحوّل إلى "ناشط نزاعات بالقطعة"، أي من برنار هنري ليفي إلى BHL. ويردّ ليفي على منتقديه بأنهم لا يؤثرون على نرجسيته قيد أملة، وأن "الأنا" المتضخمة لديه "مقاومة للنار وضد الكسر".

ولعل أبلغ ما قيل في وصف هذا الرجل هو أنه "فيلسوف لم يسبق له أن قام بتدريس مادة الفلسفة في أية جامعة على الإطلاق، وصحفي يصنع "كوكتيلاً" يخلط فيه بين الحقيقي، والممكن، والمزيف كلياً، وصانع أفلام ترقية، وكاتب ليس له أثر أدبي، وأيقونة مجتمع تسيرّه الميديا، حيث يكون مظهر الأمور أكثر أهمية من جوهرها. إنه أولاً وقبل كل شيء خبير اتصالات ماهر، ورجل علاقات عامة بارع، ومنذوب تسويق لا يُشقُّ له غبار، وإن المنتج

الوحيد الذي يعرف كيف يبيعه بكل براعة وإتقان هو: نفسه، أي برنار هنري ليفي... كما أنه يغيّر ولاءاته السياسية كما يغير قمصانه. - الصحفيان الفرنسيان نيكولاس بيو وأوليفيه توسير في صحيفة "فرينتس إمبوستر".

ليفي قائداً "ثورياً": عراب الثورة الليبية

"أعتقد أن هذه الحرب [على ليبيا] شنها ثلاثة أشخاص: رجلاً دولة، وهما السيد ساركوزي والسيدة كلنتون، وأنا بكل تواضع." - برنار هنري ليفي بعظمة لسانه.

ففي 4 آذار/مارس 2011 عقد ليفي اجتماعاً خاصاً مع مصطفى عبد الجليل، وزير العدل السابق في حكومة العقيد القذافي، الذي بدّل ولاءه ليصبح رئيساً للمجلس الوطني الانتقالي، ومع أعضاء المجلس. وكان ليفي على صلة بعبد الجليل منذ البداية، يوم كان الأخير قائداً سرياً "للثورة الليبية".

في ذلك المساء اتصل ليفي بالرئيس ساركوزي بواسطة هاتفه الخليوي المباشر، وطلب منه استقبال قادة المجلس الوطني الانتقالي. وقد عُقد الاجتماع فعلاً في قصر الإليزيه بباريس كما هو معروف. أجرى ليفي اتصالاً بصديقه القديم نيكولاي ساركوزي وأكد له أن الثوار بحاجة إلى دعم جوي. وقال له إن الأعلام الفرنسية ترفرف في كل مكان، وإنه إذا سُمح بحدوث حمام دم، فإن الدماء ستلطخ العلم الفرنسي. ويبدو أن تلك العبارة العاطفية أثّرت في نفس ساركوزي، يا للوطنية الفرنسية! فاستجاب على الفور. وهكذا "باع" ليفي حرباً كما يُقال.

لماذا شغل ليفي نفسه بالإطاحة بنظام القذافي؟

في المؤتمر الوطني الذي نظّمه مجلس المنظمات اليهودية في فرنسا في عام 2011 اعترف ليفي صراحةً وبلا مواربة بأنه شارك في المغامرة السياسية في ليبيا لأنه يهودي ولأنه صهيوني ولخدمة إسرائيل: "لم أكن لأفعل ذلك لو لم أكن يهودياً"، قال ذلك أمام نحو 900 شخصية من المجتمعين في باريس، وأضاف يقول: "لقد رفعت علم الوفاء لإسمي والولاء للصهيونية وإسرائيل." وكان مجلس المنظمات اليهودية في فرنسا قد عقد مؤتمره

الوطني الأول تحت شعار "يهود فرنسا في الغد"، شارك فيه العديد من المثقفين وعلماء السياسة وعلماء الاجتماع والباحثين. وأوضح ليفي أمام المجلس الأسباب التي دفعته إلى الانخراط في القتال ضد نظام العقيد القذافي على مدى ثمانية أشهر، قائلاً إنه فعل ما فعل خلال تلك الأشهر القليلة لأسباب عدة، من أهمها أنه يهودي، وهو يعتقد أن اليهود ينبغي أن يكون لهم صوت أخلاقي يهودي فريد في المجتمع الدولي والسياسة الدولية:

"لقد شاركتُ في تلك المغامرة السياسية وساعدتُ على تحديد الجبهات المقاتلة لأنني يهودي. ولو لم أكن يهودياً لما فعلت ما فعلت. فشأني شأن جميع يهود العالم، كنت أشعر بالقلق. إن ما سأقوله لكم الآن قلته أمام حشود من العرب في طرابلس وبنغازي..."

فماذا قال ليفي لتلك الحشود من العرب في طرابلس وبنغازي وغيرهما من مدن ليبيا وقراها؟

لعلّ من اللافت للنظر، بل المثير للدهشة، أن ليفي لم يحاول إخفاء هويته أو تمويهها أمام "الثوار" الليبيين، ووقف فيهم خطيباً مفوّهاً بلسان غير لسانهم، وخاطبهم كمستشرق أو أنثروبولوجي، لكن بكامل أناقته المعهودة وقميصه الأبيض ذي الياقة المنشأة والمفتوح الأزرار العليا وبشعره الناعم المصفف في الخلف كموجة بحر، عازفاً على وتر القبيلة:

"في خطاب ألقيته في 13 أبريل/نيسان في الميدان الرئيسي في بنغازي أمام ثلاثين ألفاً من المقاتلين الشباب الذين يمثلون جميع قبائل ليبيا، بدأت كلامي بالقول: إن اسمي ليفي بن ليفي وإنني ممثل لقبيلة تُعتبر واحدة من أقدم القبائل وأنبُلها في العالم على الإطلاق" (يقصد بني إسرائيل طبعاً).

وقال ليفي إن حملة حلف الناتو العسكرية على ليبيا يمكن أن تجمع اليهود والمسلمين معاً - وهو مشروع يسميه "معركة حياته" - كقوله "حب حياته" -.

وتحدّث إلى الثوار والجهاديين عن ديانتهم، مؤمناً بأن التاريخ يمكن أن يتحرك لأن كاتباً يهودياً قدّم يد العون لبلد مسلم. وقال إنه يحلم منذ الستينيات بالمصالحة التاريخية بين أبناء إبراهيم (عن وكالة الصحافة الفرنسية).

تطبيق "نظرية القذافي" Qaddafi Theory على بشار الأسد

في مقال له في عموده الأسبوعي بمجلة "لابوينت" الفرنسية بعنوان "نهاية اللعبة في سوريا"، يذكر ليفي أن رموز المعارضة السورية الذين يتصل بهم يرون الآن على نحو متزايد أن التدخل العسكري على الطريقة الليبية ربما يكون الطريق الوحيد للإطاحة بنظام الحكم في دمشق.

وينهي ليفي مقاله بإعلان الحرب على الرئيس السوري بشار الأسد. وقد اعترف ليفي، الذي تبجح في كتابه الأخير بنفوذه القوي لدى الرئيس الفرنسي ساركوزي، بأنهما تأمرا معاً من أجل تهميش وزارة الخارجية الفرنسية كي لا تعيق تدخل حلف الناتو في ليبيا. كما يكشف النقاب عن الجهود السرية التي بذلها خلال الأشهر القليلة الماضية لإقناع الشخصيات السورية المعارضة بدعمه في تطبيق ما يطلق عليه "نظرية القذافي". ويقول ليفي إن تدخل حلف الناتو للإطاحة "بالباغية" الليبي قد أرسى "سابقة" في القرن الحادي والعشرين لتطویر عقيدة جديدة "لإسقاط الأنظمة الاستبدادية التي تطلق الرصاص على شعوبها". ويؤكد أنه سيتم إسقاط النظام السوري ضمن سيناريو على غرار السيناريو الليبي، مضيفاً أن كل ما تبقى في الدراما السورية هو "المشهد الأخير الذي لم يكتب بعد بشكل كامل". ويكشف النقاب عن أن جهوده وراء الكواليس بدأت قبل ستة أشهر من بدء الأحداث في سورية، باجتماع عقده مع نائب الرئيس السوري الأسبق رفعت الأسد. وربما يفسر هذا الخبر الظهور المفاجيء لرفعت الأسد في باريس حيث دعا إلى تنحي أسرة الأسد عن الحكم، ودعا الشعب السوري إلى امتشاق السلاح ضد النظام.

وأكد ليفي أن عدداً من الشخصيات السورية المعارضة وضباط الجيش الذين انشقوا عن النظام أبلغوه في اجتماعات ومناقشات عقدها معهم خلال الانتفاضة

بأنهم يؤيدون "التدخل الدولي". كما أكد من ناحية أخرى أن قوة إقليمية ناشئة اسمها "قطر" هي التي تقف وراء المبادرة الأخيرة لجامعة الدول العربية بشأن سوريا، وهي جزء من خطة مستلهمة مما أسماه "السابقة الليبية".

"إنها السابقة الليبية نفسها مرة أخرى، والقوة نفسها، لا بل القوى نفسها التي تخلق الأثر نفسه والنتائج نفسها. ويستغرب برنارد ليفي كيف لا يرى بشار الأسد هذا المصير و يرحل، أي أن الائتلاف نفسه الذي أطاح بالقدافي قادم هذه المرة للإطاحة به؟"

ولعلّ المعلومة التي يرى ليفي أنها الأكثر إثارة هي أن عدداً من الشخصيات المعارضة الذين تحدّث معهم قد غيّرُوا موقفهم وأيدوا التدخل الدولي. إذ أن التدخل الأجنبي كان "محرمًا" قبل الآن، وحتى في فرنسا كان ثمة معارضون سوريون ممن قابلهم أثناء قيامه بالتحضير لتنظيم مظاهرة تضامنية مع المحتجين المدنيين السوريين، وقالوا له عندئذ إنهم يفضلون الموت على استحضار "التدخل العسكري الدولي". ولكن مع توفر معارضين سوريين مرتبطين بقوى دولية وإقليمية ويطلبون بإلحاح، بل يستجدون التدخل العسكري الأجنبي، تأكّد ليفي أن "مصير نظام دمشق السقوط لا محالة". وبذلك أعلن الحرب على بشار الأسد رسمياً.

ويبدو أن ليفي، الذي يشبّهه البعض بضابط الاستخبارات البريطانية الشهير تي إي لورنس، المعروف باسم لورنس العرب، بينما يرى هو أنه بزّ صاحبه، حيث لعب أدواراً كبيرة في العديد من "الثورات الملونة" وجاب بلدان العالم، من أوكرانيا إلى البوسنة والهرسك إلى أفغانستان، والذي يقفز بحسب ما يقتضيه الموقف الآني من دور "الفيلسوف" برنار هنري ليفي إلى دور الناشط الحركي في الحروب بالقطعة BHL، لن يكتفي بكسر الحلقة السورية، فقد أخذ على عاتقه مهمة استنbat "الربيع الدائم" في السلسلة بأكملها، إلى أن يحرر العالم الذي لا يعجبه على طريقته ويبنى النظام "البرناري" الجديد على كوكبنا بأسره. إنه يؤمن بأن المثقف العام [يقصد نفسه] أصبح أكثر أهمية من أي وقت مضى، إذ أنه في الحالة الليبية مثلاً لم يكتفِ بكتابة المناشدة وتوقيع العرائض، كما يفعل المثقفون عادةً، وإنما أقدم على الفعل نفسه. إنه "تشي غيفارا" الثورة المضادة.

ليفي سينمائياً:

اختال السينمائي الجديد المدلل وهو يمشي مرحاً على السجادة الحمراء في قصر مهرجان "كان" لافتتاح عرض فيلمه الوثائقي "قسّم طبرق"، حيث قررت إدارة المهرجان لأول مرة إقامة عرض خاص له. وقبل عرض الفيلم سُمح له بعقد مؤتمر صحفي في سابقة غير معهودة كذلك في تاريخ المهرجان، حيث قال صحفيون ومتابعون للمهرجان إن تلك كانت المرة الأولى التي يتم فيها عقد مؤتمر صحفي قبل تقديم الفيلم، واحتجّ بعضهم خلال المؤتمر على هذه الطريقة غير المنطقية وغير المسبوقة. وحضر المؤتمر مندوبون عن "الثوار" الليبيين ومقاتلان ملتزمان يمثلان "الثوار" السوريين، أعلن أنهما وصلا للتو من ميدان المعركة في سوريا، التي لا يزال غبارها عالقاً بثياهما، في حركة درامية دعائية مفتعلة .

فيلم "قسّم طبرق" Oath of Tobrok

يتحدث الفيلم عن نجاح ليفي الباهر في ظفر الثورة الليبية ضد حكم العقيد القذافي. وهو فيلم وثائقي لبرنار هنري ليفي وعنه وعن أفاعيله "العظيمة" في ساحات الوغى للربيع العربي. إنه كل شيء تقريباً: المؤلف والراوي والسيناريست والمخرج والممثل الذي يلعب دور البطولة، ما عدا المنتج، وهو اليهودي (جيل هيرتزوغ).

لنبدأ بعنوان الفيلم "قسّم طبرق"، الذي أراد له ليفي أن يحاكي، عن قصد، "قسّم الكفرة" في الحرب العالمية الثانية، حيث أقسم جنود العقيد الفرنسي فيليب ليكليرك في منطقة الكفرة بجنوب ليبيا في 2 مارس/آذار 1941، بألا يلقوا أسلحتهم إلا بعد أن "تترف ألوان علمنا الجميلة فوق كاتدرائية ستراسبورغ"، أي بعد تحرير فرنسا من النازية وحكومة فيشي ورفع علم فرنسا الحرة. وبالمثل فقد أقسم "ثوار" ليفي الليبيون بألا يضعوا أسلحتهم إلا بعد أن يرفرف علم "ليبيا الحرة" المملون كذلك - خلافاً لقطعة القماش الخضراء السادة التي جعلها القذافي علماً لليبيا بلون كتابه الأخضر.

يروى ليفي في فيلمه كيف نجح فيلسوف ومثقف ثوري (يقصد نفسه) في إقناع رئيس فرنسي (ساركوزي) بدعم الثورة الليبية. ويرى أن فيلمه يصور كيف يمكن تجسيد الأفكار العظيمة على أرض الواقع لأول مرة في التاريخ من خلال التدخل العسكري، وأنه لذلك يريد تدخلاً عسكرياً ودولياً مماثلاً في سورية، مع أن جميع الحروب الاستعمارية في التاريخ كانت تتدثر بالأفكار العظيمة كذلك، من الحروب الدينية المقدسة إلى نشر الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان. ويقول إن فيلمه يتحدث عن كيف يمكن للمجتمع الدولي تغيير مسار الأمور ومنع وقوع مذابح وإنقاذ أرواح السكان المدنيين. ولا يأتي على ذكر أن المجتمع الدولي الذي استحضره إلى ليبيا ارتكب مجازر ذهب ضحيتها نحو 30 ألف قتيل و 70 ألف جريح، فضلاً عن تدمير العديد من المدن والقرى والمنشآت والبنية التحتية الضعيفة أصلاً في ليبيا.

ويذهب ليفي إلى الإدعاء بأن التدخل العسكري في ليبيا هو أول تدخل في التاريخ لا تكون المصالح الاقتصادية والاستراتيجية إحدى غاياته. ويزعم أن الحرب في ليبيا لم تكن حرباً استعمارية ولا من أجل النفط، بل معجزة تمثلت في اجتماع عدد من رؤساء الدول الذين ما زالت في قلوبهم حُرقة البوسنة، حيث قرروا أنه "من غير الممكن ترك بنغازي فريسة للدمار". وهو هنا يكذب بلا مواربة ويتحدث وكأننا لسنا شهداءً على الحدث الطازج الذي لم يجف الدم الذي سُفك فيه بعد، ولا الخبر الذي سال في الكتابة عنه بعد، ولا يزال في صدور الرجال ولم يصبح تاريخاً بعد. ويطمس بشكل متعمد وصارخ حقيقة الاتفاق الذي جرى بشأن تقسيم الحصص في الذبيحة الليبية بين دول حلف الناتو. واستناداً إلى معلومات يوردها الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل، فإن 30% من نفط ليبيا يذهب إلى فرنسا (شركة توتال) و20% لبريطانيا (شركة بريتش بتروليم)، وتطالب إيطاليا بحق مكتسب (شركة إيني)، وتلج الشركات الأمريكية على دخول قائمة الوارثين. كما تم توزيع المواقع على النحو التالي: قاعدة للأسطول السادس الأمريكي في طرابلس، ومركز مخابرات لبريطانيا في كل من بنغازي وطبرق، وتصرُّ إيطاليا على أن ليبيا تعتبر تاريخياً منطقة نفوذ لها (مقابلة مع جريدة الأهرام المصرية، 23 سبتمبر/ أيلول). وهذا ما دعا الأستاذ هيكل إلى الاعتقاد بأن الربيع العربي ما

هو إلا سايكس- بيكو جديد أشد بلوى.

ولعل الأكثر سفوراً واستهتاراً بالعرب أجمعين في ما ورد على لسان ليفي في الفيلم هو "المؤاخاة" التي يعقدها بين مسيرة الليبيين وثورتهم على نظام القذافي وبين مسيرة الصهيونية في فلسطين، والتطابق بين المعركتين اللتين "وُلدتا للدفاع عن الحرية"، على حد قوله.

ويشدد ليفي على أهمية ظهور ممثلي المقاتلين السوريين إلى جانبه لأن فيلمه مُهدى إليهم. ومن هنا تأتي دعوته المشاهدين إلى تصوّر حمص بدل مصراته ودرعا بدل بنغازي ودمشق بدل طرابلس، ويتمنى أن تكون الصور التي التُقطت بالأمس في ليبيا صوراً للغد في سوريا.

ليفي كاتباً سياسياً: سبعة أسئلة وأجوبة

في عددها الصادر بتاريخ 14 آب/أغسطس 2012، نشرت صحيفة لوموند الباريسية مقالاً لبرنارد هنزي ليفي بعنوان "طائرات من أجل حلب". ومن الواضح أن العنوان يشي بمضمونه، والمكتوب يُقرأ من عنوانه.

وفي مقاله ذاك يطرح ليفي سبعة أسئلة رئيسية يقول إن العطلة الصيفية للغرب يجب ألا تحول دون طرحها لأن "الدكتاتورية لا تأخذ عطلة" على حد تعبيره (يقصد النظام السوري)، وهو على عجلة من أمره لإسقاط نظام الأسد، ولذا فإنه يجيب عن تلك الأسئلة بنفسه:

1. السؤال الأول: هل يجب التدخل، وهل تنطبق على سوريا فقرة "مسؤولية الحماية" من قبل الأمم المتحدة؟

الجواب هو نعم قاطعة وغير مشروطة، ويرى ليفي أن "مسؤولية الحماية" تنطبق على الحالة السورية على أساس أن "القضية عادلة والنية سليمة" و أن السوريين يطلبون المساعدة، والأضرار التي تنجم عن عملية إنقاذ المدنيين ستكون أقل من تلك التي تسببها مدافع النظام السوري البعيدة المدى "التي تبعد المدن

المتمردة.“

ويقرر ليفي في مقاله أن حلب هي بنغازي أمس، وينبغي وقف جرائم النظام حالاً لأن وقفها ”مسألة منطق وأخلاق“، مستشهداً بالفيلسوف والطبيب الفرنسي جورج كانغليم، الذي انضمَّ إلى المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي، ويعتبره معلماً له و ”مقاوماً بفعل المنطق“، بدون أن يتوقف أحد عند حقيقة بدهية، وهي أن فرنسا ووطن كانغليم، وأنها كانت محتلة من قبل القوات النازية، ولكن ليفي ليس سورياً ولا ليبيا، وأن ليبيا وسوريا ليستا محكومتين من قبل قوات أجنبية، بل معتدى عليهما من قبل جيوش الغرب والإرهابيين، فأين مكان المنطق والأخلاق في هذا المقام؟

2. السؤال الثاني: كيف يتم التدخل؟ وكيف تتم معالجة الفيتو الروسي- الصيني المزدوج الذي سيصطدم به قرار التدخل؟

الجواب عند ليفي جاهز ويتمثل في خيار العمل خارج خطة كوفي عنان وخارج إطار سلطة مجلس الأمن! لا مشكلة، أي بالمبادرة إلى شن عدوان على سوريا حتى بدون غطاء أممي.

3. السؤال الثالث: ما نوع هذا التدخل؟

يجيب ليفي على هذا السؤال وكأنه خبير استراتيجي عسكري، فيقترح خطة من عنصرين أساسيين، هما: فرض منطقة حظر للطيران انطلاقاً من قاعدتي حلف الناتو في إزمير وانجريك؛ وفرض منطقة حظر للآليات (وهذه الخطة هي مشروع المنطقة العازلة نفسه المقترح منذ زمن).

4. السؤال الرابع: مَنْ يقف مع هذا التدخل؟

يجيب بأن أغلبية بلدان العالم تؤيد الإطاحة بالأسد، الذي يعتبره أكثر عزلة من القذافي: فهو برأيه منبوذ في العالم العربي ومكروه في أفريقيا وتتخوف منه إسرائيل، وله أعداء علنيون، وهم تركيا وحلف الأطلسي، وبالتالي فإن التحالف المعادي للرئيس الأسد أكثر عدداً وعدة وأشدّ بأساً من التحالف الذي بُني ضد

العقيد القذافي.

5. السؤال الخامس: ما الدور الذي يمكن أن تلعبه فرنسا في هذا السياق؟

الجواب: دور المبادر، ودور الميسر ودور المعماري؟ فصوت فرنسا قوي في المنطقة، وتتمتع بهيبة اكتسبتها من دورها في ليبيا، فضلاً عن الأواصر التاريخية التي تربطها بسورية وبما كان يسمى في الماضي بالمشرق. وفي هذا إشارة وقحة إلى الماضي الاستعماري العدواني لفرنسا ضد سورية والشرق، سواء أثناء الحروب الصليبية أو في زمن الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان في النصف الأول من القرن العشرين.

6. السؤال السادس: هل ثمة احتمال لاشتعال المنطقة بسبب احتمال انخراط

إيران وحزب الله في النزاع؟

يجيب ليفي بأن هذا يشكل خطراً إضافياً، لم يكن موجوداً في حالة ليبيا، وأنه يولّد لدينا نوعين من الشعور:

أولهما حيال هؤل التفكير في ما لو أن الانتفاضة ضد النظام السوري لم تحدث الآن، وإمّا ستحدث بعد سنة أو اثنتين، عندما يكون الحليف الإيراني قد دخل الحقة النووية التي ينشدها، لكانت عندئذ نهاية العالم.

ومثلما فعل الرئيس بوش جونيور في إطلاق اسم "محور الشر" على إيران والعراق وكوريا الشمالية، فإن ليفي أطلق اسم "مثلث الحقد" على محور إيران وسورية وحزب الله مستخدماً المنطق السوري الخادع الذي يجيده الفيلسوف التلفيقي، ويقرر أن ضرب مثلث الحقد الذي يهدد في نظره المنطقة والعالم بأسره من شأنه أن يؤدي إلى تقليص خطر اشتعال الحرب، لا إلى اشتعالها، ولن تكون نتيجته اندلاع الحرب، وإمّا "تبريد وحدة الطرد المركزي التي تُحصّر فيها حروب الغد" على حد تعبيره، وهذا هو النوع الثاني من الشعور الذي يولد انخراط إيران وحزب الله في النزاع.

7. السؤال السابع: ماذا بعد بشار الأسد؟ وما مصير الأقليات، ولا سيما المسيحيين؟

الجواب عنده بسيط، ويتمثل في إرسال قوة تابعة للأمم المتحدة أو قوة عربية

محض (لاحظ ثقته في الموقف العربي)، كما حصل في كوسوفو. ويستطرد قائلاً: إن قادة التحالف الذين سيرسلون "طائرات الحرية" لإنقاذ حمص وحلب والحولة يمكن أن يطلبوا ضمانات بشأن طبيعة الدولة المقبلة وأوضاع الأقليات، وهذه الضمانات من شأنها أن توفر الحماية الأكيدة لها. ومرة أخرى يستغفل ليفي عقولنا فيما يتعلق بما حدث في كوسوفو من مجازر إثنية مروّعة وذات طبيعة انتقامية وعواقبها الوخيمة حتى يومنا هذا.

أما خطر الإرهاب الذي زعم الغرب أنه شنَّ حرباً عالمية ضده منذ 11 سبتمبر/ أيلول 2001، فإنه لا مكان له في مقال برنارد هنري ليفي إلا في عبارات إنشائية بليغة "مُملكن الشياطين- أي تجعلهم ملائكة- وتشدد على "التآخي بين الثوار العرب والطياريين الغربيين- الذين يقصفون بلادهم- والمسؤولين الأوروبيين الأصدقاء للشعوب وليس للطغاة، وتؤكد على ظهور علامات على نضج شعب اكتسب من محنة المعارك عظمةً ونُبلاً واستنارةً وتحرراً من بعض شياطينه".

هكذا تحدث ليفي بصورة واضحة وصریحة ومباشرة لا مجال فيها للبس أو سوء فهم، ونُشر كلامه في كبريات الصحف الفرنسية ونقلتها كبريات وكالات الأنباء، فما الذي دهى البرناريين السوريين والعرب والمسلمين؟ فهل "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة"؟

خاتمة: سوريا بين زمنين

زمن برنار هنري ليفي: الذي يتهافت أتباعه ومريده، سوريين وعرباً ومسلمين، على طلب التدخل العسكري الأجنبي في سوريا، الذي لن يؤدي إلا إلى قتل وجرح عشرات الآلاف وتشريد الملايين من أبناء الشعب السوري، وإشعال حرب طائفية ومذهبية تفتك بالجميع، وتدمير البنية التحتية ووسائل الإنتاج كافة وتلويث البيئة وجعل الوطن مكاناً غير صالح للعيش فيه، وتفكيك الدولة السورية وتحطيم الجيش العربي السوري وتقسيم سوريا وضرب المقاومة ضد إسرائيل، وعلى رأسها حزب الله، وصولاً إلى إخضاع المنطقة بأسرها لهيمنة الامبريالية الصهيونية الصغرى. كل هذا يهون بنظر تلاميذ مدرسة الربيع العربي البرنارية مقابل إسقاط

نظام بشار الأسد، والجلوس على كرسي السلطة فوق الركاب والجلوس.

زمن جمال عبدالناصر: الذي كان بمقدوره استعادة سوريا بالقوة العسكرية إلى "حظيرة" دولة الوحدة عقب إعلان الانفصال في 28 سبتمبر/أيلول 1961. ولكنه لم يُقدم على هكذا خطوة على الرغم من التأييد الشعبي العام للوحدة العربية والقيادة الناصرية "من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر"، وذلك حرصاً منه على سوريا الدولة والجيش والشعب والمكتسبات الاجتماعية التي تحققت في زمن الوحدة. لقد فضّل عبدالناصر التضحية بالأم الحانية (الوحدة) من أجل أن تعيش الإبنة الغالية (سوريا). ففي الخطاب التاريخي الذي ألقاه غداة الانفصال، قال مخاطباً الأمة العربية بأسرها:

"إنني أشعر في هذه اللحظات أنه ليس من المحتّم أن تبقى سوريا قطعة من الجمهورية العربية المتحدة، ولكن من المحتّم أن تبقى سوريا.

إنني أشعر أن الذي يشغل بالي ليس هو أن أكون رئيساً للشعب العربي في سوريا، ولكن الذي يشغل بالي هو أن يبقى للشعب العربي في سوريا كيان وأن يُصان له كيانه، ولست أتصور أن أقبل - بأي حال من الأحوال - أن أرى فتنة تهدد الشعب السوري، أو خطراً يترتب به، أو شاغلاً يشدّه ويبعث طاقته عن أن تتجه بكل إمكانياتها إلى حراسة المكاسب الشعبية التي حققها في عهد الوحدة." من خطاب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في 5 شباط/فبراير 1961 بعد انفصال سوريا عن مصر.

أما في مناهج مدرسة برنار هنري ليفي وعلى ألسنة تلاميذه السوريين والعرب، فإنني لا أجد كلمة واحدة عن سوريا الوطنية المستقلة الموحدة التي شكّلت هاجساً عزيزاً لعبدالناصر.

لبردى ضفاف كثيرة: يومان في دمشق

(في زيارة قصيرة إلى دمشق، كيف قرأت الأوضاع في بدايات الثورة المضادة، أيار/ مايو 2011: انطباعات مبكرة قد لا تثبت صحتها، بعضها أو جميعها)

”سلامٌ من صبا بردى أرقُّ
ودمعٌ لا يكفكف يا دمشقُ
ومعذرة اليراعة والقوافي
جلال الرزء عن وصف يدقُّ“
من قصيدة ”نكبة دمشق“ لأمير الشعراء أحمد شوقي، 1926

تمهيد

عندما قصفت قوات الاحتلال الفرنسي دمشق بالطائرات في عام 1926 هز ذلك الحدث الجلل وجدان السوريين والعرب جميعاً، واستهول أمير الشعراء أحمد شوقي تلك الجريمة فكتب قصيدته الشهيرة ”نكبة دمشق“.

كان ذلك في عام 1926، أما اليوم فلم يعد بردى صافياً رقراقاً كما كان، بل بات محملاً بأشلاء السوريين ومخضباً بدمائهم، البريء منهم والمذنب، ولم يعد صباه رقيقاً وعليلاً، بل صار عاصفاً ولافحاً، ولم يعد لبردى ضفتان فقط، كأى نهر وكل نهر، بل أصبح له ضفاف عديدة، وِعرة وشائكة ودامية.

كانت خريطة الصراع آنئذ- عندما كتب شوقي قصيدته- بسيطة ومفهومة: قوات الاستعمار الكولونيالي الفرنسي في جبهة، وسوريا والعرب أجمعين في جبهة أخرى. أما اليوم فإن النكبة أشد هولاً وضخامةً، وخريطة الصراع أكثر تعقيداً وتداخلاً. النكبة اليوم ليست نكبة دمشق وحدها، بل نكبة سوريا كلها والعرب جميعاً، وخريطة الصراع أصبحت تضمُّ لاعبين عديدين، محليين وعرباً وإقليميين ودوليين.

يومان في دمشق

لعل الوقت القصير، لكن الثمين، الذي قضيته في دمشق في فترة الانتخابات البرلمانية في سوريا لا يسمح لي بتقديم تحليل متماسك للأوضاع الراهنة في هذا

البلد. ولذا فإن هذا المقال أقرب إلى أن يكون بمثابة وعاء لانطباعات ذاتية تكوّنت لدي من المقابلات والأحاديث المتفرقة مع مواطنين سوريين، والجولة على عدد من صناديق الاقتراع التي نظّمتها وزارة الإعلام السورية لأعضاء الوفود الأردنيين والعرب والأجانب من نشطاء وصحفيين ومحللين، والرحلة المفيدة والممتعة في مجلس الشعب مع كاتبين صديقين، التي رافقتنا فيها مديرة الإعلام في مجلس الشعب، وهي سيدة تتسم بالانفتاح الفكري والسياسي وعدم التعصب الحزبي، فضلاً عن الدماثة وحُسن الاستماع، ويبدو لي أنها تنتمي إلى تيار تجديد وإصلاح في حزب البعث الحاكم بإرادة الرئيس الأسد. وعملتُ على ترتيب لقاء غير رسمي، اتّسم بالصراحة والبعد عن الخطابات البروتوكولية إلى حد كبير ودار فيه حوار مفيد للغاية، مع رئيس مجلس الشعب في حينه.

وكُنّا قبل ذلك قد جُلنا في أرجاء مبنى البرلمان السوري العريق الواقع في قلب دمشق، وهو أحد المباني المسجّلة في قائمة التراث العالمي. وقد لفتت أنظارنا لوحة تزيّن أحد أروقته وتضم صور وأسماء أعضاء المؤتمر السوري الأول، 1919 - 1920، يتوسطهم رئيس المؤتمر هاشم الأتاسي- كان ذلك قبل أن تُرسم خطوط وتُغرز دبائيس سايكس- بيكو وسان ريمو على الخريطة العربية، وتُقام عليها دول ما أنزل الله بها من سلطان تُمترسنا خلف أسوارها وتلهّينا بتمجيدها وشغلنا بصنع أعلامها وسارياتها وتأليف أناشيدها الوطنية والتهافت لزعمائها والدعاء لهم بطول العمر والبقاء في الحكم، ولا نزال نتحدث عنها كدول عظمى، إما تكاذباً للمحافظة على مصالحنا داخل الأسوار المحصنة وإدامتها، أو تفكيراً رغبواً لإشباع توقنا المشروع إلى أن تكون لنا أوطان ذات شأن لا نخجل بها أمام العالم، وسعيّاً إلى تحقيق السلام النفسي كي لا نغرق في الكآبة ويدرنا الإحباط. وقد كُتبت تحت كل صورة اسم صاحبها واسم "القضاء" (وليس الدولة) الذي جاء منه: إبراهيم هنانو من حلب وعبد الحميد البارودي من حماة وعبد الرحمن الرشيدات من عجلون والشيخ رشيد رضا من بيروت ورشيد إبراهيم من الناصرة، وهكذا... وطن واحد وشعب واحد حقاً، لا شعاراً أجوف.

شكل الصراع...مضمون الصراع

يبدو لي أن الصراع الضاري الدائر في سوريا وعليها وحول مستقبلها ليس فحسب صراعاً عمودياً محدد الحواف بين نظام الحكم ككتلة واحدة في جبهة، وبين تحالف التدخل الخارجي المعادي له في الجبهة المقابلة: حلف الناتو، ولا سيما الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وتركيا، والأنظمة العربية الرجعية وعلى رأسها مشيخات الخليج، ولا سيما السعودية وقطر، وجماعات المعارضة المسلحة التي تزوّدها هذه الدول بشتى أنواع الأسلحة ومختلف أنواع العملات الصعبة المغموسة بالنفط، والجماعات السلفية الوهابية، ولا سيما تنظيم القاعدة، الذي بدأ الهجرة إلى "دار الحرب" الجديدة بإرسال كتائب المقاتلين والانتحاريين وخبراء التفجير والتفخيخ إلى "ساحة الجهاد الأعظم" في سورية؛ وإنما هو أيضاً صراع أفقي متداخل في بنية النظام الحاكم بين أطرافه ومكوّناته المختلفة. وهذا باعتقادي ربما يكون الشكل الأشد خطورة والأكثر ترشيحاً لحسم المعركة المحتمدة في البلاد. وفي هذا الصدد أمكنني ملاحظة ثلاثة تيارات أو مكوّنات رئيسية في جبهة الحُكم: التيار الإصلاحية، التيار المحافظ، والتيار النيوليبرالي، فضلاً عن المكوّن العابر للمكونات الأخرى:

- المكوّن الأول: يضم المؤيدين لإجراء إصلاحات ديمقراطية سياسية وقانونية في الدستور (انتخاب رئيس الدولة وتحديد مدة ولايته وإلغاء المادة الثامنة التي تنص على أن حزب البعث هو الحزب القائد للدولة والمجتمع)، وفي القوانين الرئيسية (قوانين الأحزاب والانتخابات والجمعيات)، وفيما يتعلق بمكافحة الفساد المستشري في جسم الدولة والحزب والأجهزة الأمنية؛ فضلاً عن الحرص على دعم المقاومة ضد إسرائيل، وحزب الله على وجه الخصوص، والتحالف الاستراتيجي مع إيران. ويجدر أن أشير هنا إلى أنه خلافاً لما هو حاصل في البلدان العربية التي شهدت ثورات أو انتفاضات شعبية أو ثورات مضادة في ما أُطلق عليه مصطلح "الربيع العربي" الملتبس والذائع الصيت، فإن الرئيس بشار الأسد هو الذي يتزعم هذا التيار الإصلاحي باعتقادي. ولهذا السبب بالذات، فضلاً عن أنه هو الضامن لعدم إشعال حرب أهلية، أرى أن الجبهة المعادية للدولة السورية تسعى إلى قطف رأس بشار الأسد بالذات وتصبُّ جام شعاراتها وهتافاتهما ضده تحديداً،

وليس ضد النظام، بل إن ثمة في الجبهة المناوئة مَنْ اقترح نائبه "السني" فاروق الشرع بديلاً عنه، على غرار "السيناريو اليميني".

- المكوّن الثاني: هو تيار المحافظين أو من يُطلق عليهم اسم "الحرس القديم". ويبدو أن هؤلاء لا يريدون أي تغيير أو إصلاح، ويحرصون على دوام الحال على ما هو عليه، أي دوام مناصبهم ومكاسبهم ونفوذهم، والاستحواذ على كعكة الحكم كلها، وهم يعصّون عليها بالنواجذ ومستعدون للذود عنها بالأسنان والأظافر، ليس في مواجهة المعارضة فحسب، بل حتى في مواجهة التيار الإصلاحية في الحكم، إلى حد الاستعداد للتمرد أو النزول إلى الشارع إذا لزم الأمر. ويحتاج هؤلاء بأنهم هم الذين حملوا على أكتافهم عبء بناء البلد وحمائته والدفاع عنه وأنهم وصلوا إلى سدة الحكم بكفاحهم. وهم الذين يملأون الميادين والشوارع تأييداً للنظام. وفيما يتعلق بالانتخابات البرلمانية فإنهم يؤمنون بأنهم يستحقون أن يحصدوا أغلبية المقاعد في البرلمان لأنهم يمثلون الأغلبية، فتعدادهم يربو على ثلاثة ملايين بعثي، في حين أن عدد أعضاء الأحزاب الأخرى، القديمة والجديدة، الموالية والمعارضة، مجتمعاً، لا يتعدى الآلاف في أحسن الأحوال، ويتساءلون: أليست هذه من أصول الديمقراطية التي تنادي بها المعارضة! وهذه ربما تكون حقيقة، لكن ثمة حقيقة أخرى لا يتم الاعتراف بها، وهي احتكار السلطة، في القانون والممارسة على السواء، لما يربو على أربعة عقود في مناخ من تجريف الحياة السياسية الحقيقية وإحكام القبضة الأمنية على مفاصل البلاد. وفيما يخص العملية الانتخابية نفسها، فالإلى جانب عدم تمكّن وزارة الداخلية من إجراء الانتخابات في ما يسمى "بالمناطق الساخنة" - وهو أمر مفهوم - فقد شابها الكثير من المخالفات، التي احتجّت عليها المعارضة السلمية الداخلية الإصلاحية، والتي لا تخلو منها أية عملية انتخابية في أية دولة عربية أو عالم ثالثة، إلى جانب تكرار بعض الأساليب القديمة في تقديم قوائم المرشحين البعثيين وحلفائهم من غير البعثيين في ما كان يُطلق عليه تاريخياً اسم "الجبهة الوطنية التقدمية"، وإن جاءت هذه المرة تحت اسم جديد، وهو "قائمة الوحدة الوطنية". ويذكر في هذا السياق أن الأسلوب و"الجبهة" كانا طوال عقود سابقة محل تنذّر من قبل آخرين، حيث شاعت تسميتها بـ "الجبهة الوطنية التقدمية لصاحبها حزب البعث

العربي الاشتراكي“. وذلك على الرغم من أن الرئيس الأسد أقدم، كما علمت، على خطوة جديدة وذات أهمية كبيرة تمثلت في انتخاب المرشحين البعثيين لعضوية البرلمان من قواعد الحزب، وليس بالتعيين من قبل القيادة العليا كما جرت العادة، وذلك في ظني بهدف الحؤول دون وصول بعض الوجوه القديمة إلى البرلمان و"إقناع" البعض الآخر بعدم الترشح، في محاولة لإقصائهم عن المشهد السياسي، مع تفادي وقوع صدام معهم.

- أما المكون الثالث، فهو تيار الليبراليين الجدد، الذين يشكلون فئة البرجوازية الطفيلية، وخاصة الكومبرادور المرتبطين بالمراكز الرأسمالية العالمية ودول النفط والغاز الخليجية العربية. وهؤلاء هم حلفاء "موضوعيون" للجهة المناهضة لنظام الحكم، وإن كانوا داخله الآن. وهذه الفئة الطفيلية هي المسؤولة عن تهميش وإفقار الريف السوري وضرب الصناعة الوطنية وتدمير الحرف الصغيرة، وبالتالي عن "أسباب" أو ذرائع انفجار الاحتجاجات الأولى. ويبدو أن الطبقات الشعبية في سورية بدأت تكتوي بنارهم مثلما اکتونا نحن في الأردن بنار أنشطتهم الطفيلية، من جراء خطط الخصخصة وبيع القطاع العام والمضاربة بالأراضي والتبعية للرأسمالية المتوحشة ونهب المال العام وازدياد الفقراء فقرراً والأغنياء غنى وتآكل الطبقة الوسطى واستشراء الفساد. ونحن هنا نعلم يقيناً وبالتجربة الملموسة أن الزواج بين البنس والسلطة لا يثمر سوى عائلة فساد واستبداد معادية لمصالح الجماهير الشعبية.

- يضاف إلى التيارات الثلاثة أنفة الذكر مكوّن عابر للمكونات الأخرى، يضم أشخاصاً يشغلون مناصب مختلفة على اتساع هرم السلطة، ممن لديهم علاقات أو تربطهم خيوط بواحد أو أكثر من أطراف التحالف المناهض، مالياً وسياسياً وأمنياً. وما قصة محافظ حمص السابق ومخطط البنية التحتية للمدينة والأنفاق التي استخدمتها المعارضة المسلحة لتهديب الأسلحة والأموال والرجال، والتي كُشف عنها النقاب ويتداولها المواطنون السوريون العاديون إلا قمة جبل الجليد.

خطط وسيناريوهات بديلة

بعد إحباط الخطة (أ)، التي استهدفت إسقاط النظام عن طريق شن حرب خارجية على سوريا بغطاء أممي على غرار السيناريو الليبي، بفضل الفيتو المزدوج الروسي- الصيني في مجلس الأمن وصلابة الموقف السوري على الأرض، لا يزال في جعبة التحالف المناهض لسوريا مزيد من الخطط والسيناريوهات: الخطة (ب): إشعال حرب أهلية- طائفية مذهبية؛ الخطة (ج): تدبير انقلاب عسكري- أممي على نار هادئة في حالة توفر عناصر النجاح لتنفيذه؛ الخطة (د): شن حرب استنزاف عسكرية واقتصادية طويلة الأجل، من خلال تنفيذ عمليات إرهابية بالتفجيرات والسيارات المفخخة والعمليات الانتحارية والهجمات العسكرية وعمليات الاختطاف وقطع الطرق وتخريب المنشآت، بهدف زعزعة أمن واستقرار المجتمع، وليس النظام فحسب. وينبغي ألا يغيب عن البال تدفق الأموال الخليجية التي لا تنضب إلى الجماعات المسلحة التي تتكاثر وتهاجر إلى سورية من مختلف البلدان، وما يرافقها من حملات إعلامية عربية وعالمية هائلة ومنسقة وما ينتج عن كل ذلك من تفاقم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية وحتى النفسية للمواطنين، من ارتفاع أسعار السلع الأساسية واحتكارها من قبل التجار وازدياد معدلات البطالة وتعمق الفقر وفقدان الأمان ومعه الأمل. ومن الواضح أن الخطة (د) هي التي يجري تنفيذها حالياً.

مقالان ساخران ودلالات جدية

لعل استعراضاً سريعاً لمقالين ساخرين نُشرا صبيحة الانتخابات في جريدة تابعة للدولة، وهو أمر لافت، (جريدة تشرين، 8 مايو/أيار 2012) يعطينا فكرة عن حجم التذمر في الأوساط الشعبية وبين السياسيين والمثقفين.

في المقال الأول بعنوان: "حكومتنا الموقرة...وعائلتنا الكريمة" يقول كاتبه إنه "بعد مشاورات ومداولات واستعراض الواقع من حولنا، وتطنيش المسؤولين عن النظر فيما آلت إليه أمورنا، وإقرار الجميع بمبدأ "فالج لا تعالج"، حيث لا توجد آفاق منظورة وغير منظورة لتحويل الجائعين إلى شعبانين، وتخلي الكاسيين عن مكاسبهم"، أقر مجلس العائلة بالإجماع خطة معيشية من ستة بنود تشمل

الطعام والإنارة والتدفئة واللباس والمواصلات والمتفرقات. وبموجب هذه الخطة العائلية المقترحة سيتم الاستغناء عن كل شيء تقريباً والاكتفاء بالزيتون والزيت والزعتر، شريطة دهن الرغيف بالزيت عن بُعد؛ والاستعاضة عن التدفئة بالبطانيات وعن نور الكهرباء بالشمعات؛ وشراء الملابس من البالة، مع الاستغناء عن الملابس غير المرئية (أي الملابس الداخلية والجوارب)؛ والتوقف عن ركوب سيارات التاكسي مع تشجيع رياضة المشي؛ والامتناع عن شراء الكتب والصحف، مع جواز استعارة الصحف القديمة "لأن القديمة مثل الجديدة من حيث مدحها لأداء الحكومة". وينص البند السادس والأخير على ضرورة "عدم تبليغ هذه الخطة للمسؤولين باعتبار أنهم عن إصلاحاتهم لاهون... وتحويلها إلى اللامسؤولين، عسى أن يقرأوا الفاتحة على أرواحنا."

وفي المقال الثاني بعنوان: "أغنية الحب الخائب بين الناخب والنائب"، تتناول كاتبته موضوع الانتخابات البرلمانية بسخرية لاذعة صبيحة التوجه إلى صناديق الاقتراع، فتقول إنها كانت تشعر بالحيرة حيال المرشح الذي ستمنحه صوتها، فراحت تتمشى في الشوارع وتتأمل أسماء وصور وشعارات المرشحين لعلها تهتدي إلى ضالتها. وهي وإن أطلقت سهام سخريتها على أصناف المرشحين، فإنها تسلط بين السطور ضوءاً خاطفاً على المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يكابدها الشعب: فهذا مرشح الاقتصاد الحر "أي رئيس نادي الواحد والأربعين" على حد قولها- وفي هذا إشارة إلى عصابة اللصوص من الليبراليين الجدد كما فهمتها- وذاك يصف نفسه بأنه المرشح الشامل، بينما هي تريد مرشحاً تعرف ما هو عمله واختصاصه بالضبط. فتتحول إلى مرشح ثالث، وهو صاحب محطة محروقات، ولكنها تتذكر أن قلب المواطن مروجع من ذكرى الكازيات وأصحابها وأزمة المازوت والبنزين الخانقة. وفي شارع آخر تتوقف أمام صورة مرشح يحمل شهادة ماجستير في الانترنت، ولكنها لا تثق في أنه سيتمكن في حال نجاحه من نقل البلد "من عصر الحكومة العاملة على الفحم إلى عصر الحكومة الإلكترونية". أما زميله من حملة الشهادات فإنه حاصل على درجة ماجستير في الإدارة، وسيقضي على الترهل الإداري والبيروقراطية. بيد أنها تشك في أنه يستطيع حل اللغز التالي: كيف يمكن إنفاق 500 مليون ليرة على إنشاء

كراج سيارات، اللهم إلا إذا كان ذلك الكراج مخصصاً للمركبات الفضائية القادمة من الكواكب الأخرى؟ (إشارة إلى الفساد ونهب المال العام). وتتوقف أمام صورة مرشح بشاربيّن معقوفين إلى أعلى كشوارب ”العقيد أبو شهاب“ ولكن من غير كلام تحت الصورة، وتتساءل عمّ سيفعل هذا المرشح بهذين الشاربين إذا جلس تحت القبة، هل سيمسك بالشارب الأيسر ويحلف أنه سيحل مشكلة العشوائيات أم يمسك بالأيمن ويُقسم أنه سيضع حداً لمشكلة الاستملاكات (التي أدت إلى نتائج اجتماعية واقتصادية وخيمه). وأخيراً لفت انتباهها إعلان يطلب فيه المرشح استئجار ثلاثة آلاف مندوب، يعني جيشاً كافياً لاقتحام قلعة حصينة، فأدركت أن البنزس ينوي التقدم لطلب يد السلطة، وهنا تكمن أم الكوارث.

وبعد أن تعبت قدمها من التجوال بين لافتات المرشحين وإعلاناتهم، وصلت إلى لافتة كُتبت عليها عبارة ”الأمانة والإخلاص“ فقالت في نفسها: ”هذه هي ضالتي“. توقفت أمام المحل واشترت سندويشة شاورما، لكن ليس من ”سيخ“ انتخائي (في إشارة إلى استخدام المال السياسي في الانتخابات).

ولا يخفى أن نشر مثل هذين المقالين في صحيفة تابعة للدولة على الرغم من أن مقص الرقيب ربما لا يزال يعمل، إنما يعكس في ظروف سوريا الراهنة مؤشرات خطيرة على حقيقة الأوضاع المعيشية القاسية للطبقات الشعبية وتجريف الحياة السياسية وأثر ذلك على مجريات الصراع في هذا البلد، أو ربما على وجود تيار يقوده الرئيس بشار الأسد ومعه الجيش العربي السوري لديه إرادة الإصلاح، وبالتالي السماح بالانتقادات الجريئة .

خاتمة

في مثل هذه الظروف تبرز الأسئلة الأكبر والأخطر: هل سيتمكن نظام الحكم في سوريا من الصمود؟ هل سينجو من هذه المطاردة الدموية التي يستमित فيها صيادو الائتلاف المناهض الذي يضم حلف الناتو والعثمانيين الجدد والمحميات النفطية العربية الرجعية والتيار الإسلامي الوهابي؟ إذا كان الجواب بنعم- وهو ما نرجوه وما يجب- فأى جناح أو تيار داخل نظام الحكم هو الذي سيصمد أو ينجو؟ وهل سيبقى المجتمع، ولا سيما الفئات المؤيدة للنظام أو الصامته أو المتربصة، صابراً على مثل هذا الوضع إلى أن يُحسم نهائياً لصالح الدولة السورية؟

من هنا أرى أن العامل الأكثر حسماً، من بين عدد لا حصر له من العوامل الداخلية والخارجية، سيعتمد بشكل أساسي على علاقات القوى داخل النظام نفسه ومواقف وسلوك التيارات المكونة له وعلى مواقف الحلفاء في عالم لا ثبات فيه إلا للمتغير.

عُود على بدء

ردّت عناصر من السلفية الوهابية رداً "بليغاً" على قصيدة شوقي "نكبة دمشق" التي ذكرنا مطلعها في مستهل المقال بشن عدة هجمات هدفت إلى تحطيم تمثال الشاعر العربي الكبير والفيلسوف أبي العلاء المعري، رهين المحبسين أحمد بن عبدالله بن سليمان (363 - 449 للهجرة) الذي كان قد خاطبهم قبل نحو ألف عام بكل رقة ورفق وحنو في رثائه للفقيه الحنفي الحلبي:

"خُفِّ الوطاء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد"

فسارَعوا إلى تلبية ندائه، لكن بمحاولة تحطيم تمثاله المقام على أديم البلدة التي احتضنته و نُسب إليها فخلّدها وخلّدتها، لأن التمثال صنم وعبادة الأصنام شرك بالله، ولأن المعري كافر وملحد، ولأن بعضهم ذهب إلى القول إن المعري من أسلاف عائلة بشار الأسد. هي إذن "غزوة مباركة" مرّبة ضد الشرك والكفر والإلحاد، ومساهمة في الثورة على حكم بشار الأسد، وهي حرب ضروس لا مجال فيها لتخفيف الوطاء على أديم أرض المعرّة.

حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابي يعودان إلى دوار اللؤلؤة

”.. ففكر في هذا وانظر هل يفى تعبك وتخريبك لجيشك وعسرك وإنفاقك الأموال وتجهيزك الرجال وتكلفتك الأخطار وتحملك المشاق لطبي، وأنا خالي الدرع سليم النفس، وهيبتك تنقص ثم لا تظفر من بلدي بطائل ولا تصل منه إلى مال أو حال...؟“ من رسالة أبي سعيد الجنابي إلى الخليفة العباسي المعتضد بالله.

مرّ أكثر من عام على انتفاضة دوار اللؤلؤة -الثورة المغدورة- في المنامة في شباط/فبراير 2011، التي قُمت بصورة دموية باستقدام قوات درع الجزيرة بقيادة السعودية (يسميه البحرينيون احتلالاً) وبالاستعانة بقوات أو عناصر أو خبرات أمنية من بلدان أخرى، من بينها الأردن (أعلن الأردنيون أن ذلك التدخل ”ليس باسمنا“). وبعدما ظنّ هؤلاء أن ”غزوة“ اللؤلؤة قد حققت النصر المبين على ”المرتدين“ الذين طالبوا بحقوقهم الطبيعية التي وُلدت معهم، بتجرؤهم على ولاة الأمر وشق عصا الطاعة لهم، وأنها سحقت الحركة الشعبية تماماً وإلى الأبد، شهدنا كيف انبعثت تلك الحركة من جديد في ذكراها الأولى.

استحضار التاريخ للعبرة، لا لإسقاطه على الحاضر

ابتداءً، لسْتُ من محبّي إسقاط التاريخ على الواقع الراهن في المقالات، فالتاريخ كما يعلم الجميع لا يعيد نفسه، لكنني هنا أسعى وراء ضرب الأمثال واستخلاص العبر وإبراز أهمية التاريخ، بامتداداته وظلاله التي تطوف في سماء حاضره وتحمل علاماته وبصماته، في حياة أي شعب وفي روحه على وجه الخصوص، وكيف يساعده بالتالي على استشراف مستقبله.

فما لا تعرفه الأطراف التي تدخلت في شؤون البحرين وشاركت في قمع الانتفاضة الشعبية (وهذا جهل) أو تُنكره (وهذا مرض) أن في البحرين شعباً له تاريخ ممتد وجذور عميقة وتراث غني في مقاومة التدخل والظلم وإرساء العدالة والمساواة، فضلاً عن التنظيم والتكتيك، منذ حمدان بن الأشعث في سواد الكوفة في الثلث الأخير من القرن الثالث للهجرة حتى سقوط دولة ”الألفة“ التي أنشئت في

البحرين والتي زاد عمرها على عمر العديد من الدويلات العربية الحديثة "المستقلة" التي تدخلت فيها مجتمعةً.

"الألفة" بين ثورة حمدان ودولة أبي سعيد

لعل نظرة سريعة على ما هو رئيسي في أفكار وتنظيم ودولة ثورة الفلاحين والحرفيين (الصناع)، الذين عُرفوا باسم القرامطة، تعطينا فكرة مختلفة تماماً عن الأفكار السائدة عنهم، بل نقيضاً للصورة التي رسمها لهم الخلفاء العباسيون وأتباعهم باعتبارهم "كفرة وزنادقة وخارجين عن الملة والجماعة وفُجَّار إباحيين مجرّدين من كل خلق أو ضمير، لا يراعون إلاّ ولا ذمة، وأبالسة في أثواب بشر."

فقد ذكرت مصادر عديدة أن حمدان بن الأشعث، الملقب بقرمط، وهو الداعية الثاني للحركة المعارضة للخلافة العباسية في سواد الكوفة، التي سُمّيت باسمه، وضع نظاماً مالياً منضبطاً لحركته، فبدأ أثناء العمل السري، بجمع "الفطرة" من أتباعه، وقيمتها درهم واحد عن كل شخص، صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى. ثم طلب منهم دفع "الهجرة"، وقيمتها دينار واحد عن كل من بلغ سن الرشد، وذلك لتأسيس دار الهجرة وصيانتها؛ وكان القادرون يدفعونها عن غير القادرين. ثم ما لبث أن طلب منهم دفع "البلغة"، وقيمتها سبعة دنانير؛ والبلغة معناها كمية الغذاء الضرورية لاستمرار الحياة. وبعد ذلك طلب منهم الخمس، أي خمس ما يملكون ويكسبون. ولما لمس حماستهم وقناعتهم التامة، انتهى بهم إلى نظام "الألفة". والألفة تعني "أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد، وأن يكونوا فيها أسوة واحدة ولا يفضل أحد منهم صاحبه أو أخاه في ملك يملكه، حتى أنه لم يبق في ملكية الفرد في الحركة إلا ثيابه وسلاحه".

هذا عن الثورة، أما في ما يتعلق بالدولة، فإن بعض المصادر التاريخية تشير إلى أنه في دولة البحرين القرمطية كان الزعيم مجرد "أول بين مثلاء" أو "أول بين أسواء"، على حد تعبير المستشرق الهولندي دي خويه وبندي جوزي، في مجلس للحكم يُطلق عليه اسم "العقدانية"، أي أهل العقد والحل، يتشاورون في كل صغيرة وكبيرة. وأما في ما يتعلق بالملكية فيصف المقريزي مجتمعهم على هذا

النحو: ”حتى أن الشاة إذا ذُبحت، يتسلم العرفاء اللحم ليفرقوه على من يُرسل لهم، ويُجَزُّ الصوف والشعر من الغنم ويُفَرَّق على من يغلزله، ثم يُدفع إلى من ينسجه عُبياً وأكسية وغرائر، ويُفتل منه حبال ويُسَلَّم الجلد إلى الدبَّاغ، ثم إلى خرازي القرب والروايا والمزاد. وما كان من الجلد ما يصلح نعالاً وخفاً عُمل منه. ثم يُجمع بعد ذلك كله إلى خزائن.“

ويذكر الرحالة ناصر خسرو الذي زار دولتهم في عام 442 للهجرة أنهم ”لا يأخذون عشوراً من الرعية، وإذا افتقر إنسان أو استدان، فإنهم يتعهدونه حتى يتيسر عمله، وإذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدة وآلات ويردَّ إلى الحكام ما أخذ متى يشاء ... وفي الحسا مطاحن مملوكة للسلطان تطحن الحبوب للرعية مجاناً، ويدفع السلطان نفقات إصلاحها وأجور الطحانيين ...“ وهذا يعني أن دولة القرامطة في البحرين كانت دولة رعاية اجتماعية على نحو لافت، بل إن بعض الدارسين المعاصرين يذهبون إلى وصفها بأنها كانت دولة ”اشتراكية“.

لم يكن أنصار دولة الألفة يخشون جحافل الجيوش، ولم تُجد معهم سياسة العصا والجزرة، ولم تردعهم أساليب التعذيب. ففي أولى معارك الخليفة العباسي المعتضد بالله مع القوات القرمطية، عاد جنوده الكثر يجرُّون أذيال الهزيمة على أيدي نفر قليل من المقاتلين القرامطة. ولما بلغه الأمر، استشاط المعتضد غضباً إلى حد أنه سبَّ جيشه: ”لعنة الله على نيّف وثمانين ألفاً يهزمهم ألفان وسبعمئة“. وعندما سُئل أحدهم عن سر انتصارهم ذلك، وهم القلة القليلة، أجاب: ”نحن نطلب نجاتنا في الثبات وهم يطلبونها في الهرب“.

وكان أبو سعيد الجنابي، عندما علم بقيام المعتضد بتجريد جيش عرمرم لمهاجمة البحرين، أرسل له رسالته الشهيرة التي قلب فيها كل احتمالات المعركة وانتهى إلى حتمية انتصاره وهزيمة جيش المعتضد:

”فو الله لو أنفذت لي جيشاً من الجيوش مع الثلج والريح والندى فيجيئون من المسافة البعيدة والطريق الشاق، وقد قتلهم السفر قبل قتالنا، فإنما غرضهم

أن يبدوا عذراً في مواقعتنا ساعة ثم يهربون ... وأكثر ما تقدر عليه أن يجيئوا فيستريحوا ويقيموا ويكونوا عدة لا قبل لي بهم، فيهزموني إذا قاتلوني، ولا يقدر جيشك على أكثر من ذلك. فما هو إلا أن أنهزم حتى قد بعدت عن هذا الموضع عشرين فرسخاً أو ثلاثين فأجول في الصحراء شهراً أو اثنين ثم أكبسهم على حين غرة فأقتل جميعهم. وإن لم يستو هذا لي وكانوا متحررين، فما يمكنهم الطواف خلفي في البراري، ثم لا يحملهم البلد في المقام ولا الزاد. فإن انصرف الجمهور، وبقي الأقل فهم قتلى سيوفي ... ففكر في هذا وانظر هل يفني تعبك وتغريبك لجيشك وعسكرك وإنفاقك الأموال وتجهيزك الرجال وتكلفتك الأخطار وتحملك المشاق لطلبي، وأنا خالي الدرع سليم النفس، وهيبتك تنقص ثم لا تظفر من بلدي بطائل ولا تصل منه إلى مال أو حال ...؟ ”

أما هؤل التعذيب الذي تعرّض له القرامطة، فإنه يظهر صارخاً في إحدى الحالات التي كتب عنها الطبري، حيث قدّم وصفاً تفصيلاً لتعذيب أول أسير قرمطي قبل مقتله: ”.. ثم أمر به فقلعت أضراسه، ثم خلّع بمدّ إحدى يديه فيما ذكر بكرة وعلّق في الأخرى صخرة وتُرك على حاله تلك من نصف النهار إلى المغرب، ثم قُطعت يداه ورجلاه من غد ذلك اليوم وضُربت عنقه وُصَلب بالجانب الشرقي، ثم حُمِلت جثته بعد أيام إلى الياسرية فُصَلب مع مَنْ صُلب هناك من القرامطة.“ ويقول المسعودي إن المعتضد كان يتفنّن في تعذيبهم كأن ”يسدّ أنف الأسير وأذنيه وفمه وينفخه ويبقيه على تلك الحال حتى تخرج روحه من دبره“. أما مأساة الحلاج في محاكمته وتعذيبه وصلبه وقتله فمعروفة للجميع.

وكان الكتّاب القرامطة يتمتعون بصلافة غير عادية أمام الإغراءات وتحمل مشهود له للحرمان وضنك العيش، إلى حد أن بعضهم أكل الحشائش البرية مع المواشي، كما فعل أبو حيان التوحيدي، أحد أكبر كتّاب عصره، وانتحر آخرون بعدما ضاقت بهم الدنيا بما رحبت. وإذا سقط قلم أو وهن ضمير، أو تصوّروا ذلك، انبرى كتّابهم وشعراؤهم لفضحه والتنديد به وتناوله بأقذع لسان. فهذا ابن لنكك يهجو المتنبّي، أعظم شعراء عصره، غير متهيب من شهرته ومكانته المرموقة وشاعريته العملاقة وسلطة لسانه، لأن الأخير رأى أن صاحبه تخلّى عن قضيتهم في

سبيل طموحه الشخصي، ويهاجمه بأبيات مقذعة، على ركاكتها، مع أن هناك من يعتبر أن المتنبي كان يخطط، على طريقته، لإقامة إمارة قرمطية:

”ما أوقح المتنبي فيما حكى وادّعاه
أبيح مالا عظيماً حتى أباح قفاه
يا سائلي عن غناه من ذاك كان غناه“.

وفي إحدى رسائله، يصف بديع الزمان الهمذاني، وهو أحد أشهر كتابهم، أصحاب الأقلام المأجورة من الكتاب على أبلغ وأعمق نحو: ”ما اتسعت دورهم إلا ضاقت صدورهم، ولا أوقدت نارهم إلا انطفأ نورهم، ولا زاد مالهم إلا نقص معروفهم، ولا ورمت أكياسهم إلا ورمت أنوفهم، ولا صلحت أحوالهم إلا فسدت أعمالهم، ولا فاض جاههم إلا غاصت مياههم، ولا لانث برودهم إلا صلبت خدودهم.“

ولم تستطع ظروف القمع الحالكة والتضييق وفرض القيود المشددة عليهم الحؤول دون توصيل آرائهم وأفكارهم بأشكال مختلفة. فعندما اتخذت السلطة المركزية في بغداد تدابير تعسفية بحظر نسخ وبيع وتداول كتب القرامطة وكتاباتهم، لجأوا إلى الكتابة الرمزية. ويذكر عدد من المؤرخين أن الوراقين في بغداد جمّعوا مرتين وأجبروا على تقديم تعهد مشفوع بالقسم بعدم بيع كتب الحلاج والتعاطي بها في المرة الأولى، وبالامتناع عن نسخ كتب الشلمغاني وأتباعه في الثانية. وكانوا قد جلبوا على عجل في عهد المعتضد وأقسموا أن يمتنعوا عن نسخ كتب الفلسفة والتعاطي بها.

وقد أكد إخوان الصفا بوضوح كاف كيف استخدموا التمييز: ”وجب علينا وصلح لنا أن نخفي ما نريد أن نكشفه ونستر ما نريد أن نوضحه بعلامات يتغلق معناها ويعتاص حلها ويعسر فتحها إلا على من هو من أهلها“. فما بالك اليوم مع ثورة الاتصالات وتقانة المعلومات ودخول الشبكة العنكبوتية إلى حجرات النوم والانتشار الواسع لمواقع التواصل الاجتماعي.

أما السلاح القديم الجديد، سلاح رمي الخصوم والمعارضين بالزندقة والإلحاد، فتكاد لا تسلم منه معارضة في التاريخ العربي الإسلامي. وهو حقاً سلاح لئيم، وعلى الرغم من أنه لم يلغ في لحم أحد كما ولغ في لحم القرامطة، ولم يشوّه صورة أحد مثلما شوّه صورتهم، فإنهم لم يستسلموا له ولم ينكمشوا ولم يصغّروا أكتافهم، وإنما فعلوا كل ما بوسعهم لكسب الأنصار والمتعاطفين من بين الفقراء والمستضعفين والمظلومين.

ففي رد أبي طاهر الجنابي، الزعيم الثاني لدولة البحرين القرمطية، على الخليفة المقتدر بالله الذي كان قد اتهمه بالكفر وارتكاب الفواحش، لم يفزع من تلك التهمة ولم يرتبك أو يضع نفسه في موضع الدفاع كمتهم، وإنما شنّ هجوماً معاكساً عليه وعلى حاشيته وأبواقه، مُعيداً السهم إلى نحر مُطلقه ومُلصقاً التهمة بصاحبها: ”خبرني أيها المحتج لهم والمناظر عنهم في أي حد من كتاب الله وأي خبر عن رسول الله إباحة شرب الخمر وضرب الطنبور وعزف القيان ومعانقة الغلمان، وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام واحتووها من وجوه الحرام.“

ثم يزيد أبو طاهر على ذلك بالسخرية من المقتدر وتسفيهه والخط من شأنه. وقد كانت تلك طريقتهم في تأليب العامة على السلطان وتشجيعهم على انتقاده، أي من خلال الانتقاص من هيئته وتبديد الهالة المحيطة به؛ فيسخر أولاً من تسميته بالمقتدر وأمير المؤمنين، مع أنه أضعف الخلفاء العباسيين، حتى إن بعض جوارى قصره كن يتمتعن بنفوذ سياسي في الدولة ويتدخلن في شؤون القضاء:

”أي جيش صدمك فاقتدرت عليه! أم أي عدو ساقك فابتدرت إليه! لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين“. وهكذا يُرينا تاريخ البحرين أن فيها شعباً ومعارضة عصيين على الترويض، ويُنبتنا بأن الطغيان والعدوان إلى زوال.

-III-

أوراق أردنية

- يعقوب زيادين: لو عادت به الأيام
- ناهض حتر: بطل تراجيدي إغريقي
- حسن نصر الله وقضايا التحرر الوطني
- هوامش على متن "هبة نيسان"
- سنتياغو الأردني: قصة موت معلن
- كولاج المطربة والرقيب: مشاهد وروايات
- طابور خامس على الدوار الرابع

يعقوب زيادين: لو عادت به الأيام

”..إلى منبع هذا الكتاب ومصبّه، وطني وأمتي اللذين حملاني حُباً وأنجباني حُباً، فحملتُهُما في أعماق ضميري ولم أقل لهما أُفٍ وحفظتُ جميلهما على رأسي وفي عيني ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.“

من إعلان ”استئذان بالمغادرة“ الذي تصدّر كتاب ”لو عادت بي الأيام“ للقائد الشيوعي المناضل الوطني والأممي البارز الدكتور يعقوب زيادين (أبو خليل) عند بلوغه التسعين.

في هذا التصدير المقتضب لخص يعقوب زيادين سيرته الممتدة بكلام بسيط وصادق: فقد عاش حياة تَمُور بالأحداث الجَلَل وحافلة بالمفارقات، أخطأ فيها وأصاب، أخفق ونجح، أكل خبز الشعير الحاف والكافيار الطازج، ونام على الحصر الوضيع في بيت الشعر وعلى السرير الوثير في فنادق النجوم الخمس، حفرتُ الزنازن والسجون أخايد في لحمه وعظمه وتنفّس هواء ”الحرية“ في بلد غير حر. خرج من قرية ”السماكية“ المقطوعة في الكرك، حاملاً فقر أهلها وبؤسهم ليصل إلى مقاعد البرلمان نائباً عن القدس التي هتفت باسمه وعلقت صورَه على جدران حاراتها العتيقة وانتخبته وأدخلته تاريخها على الرغم من سنوات القمع الوحشي وتحت سيف قانون مكافحة الشيوعية المكارثي. ويذكر الدكتور زيادين في كتاب ”البدائيات“ أن الجماهير الفلسطينية استقبلته بأهازيج المفتي الحاج محمد أمين الحسيني بعد تغيير الاسم:

”يعيش زيادين الأول

لما من السجن حوّل

زيّنته المدينة.“

عندما أكمل أبو خليل عشرينه التاسعة، وكان، مع ذلك، لا يزال واقفاً على قدميه ومحتفظاً بكامل قواه العقلية والنفسية، قرر بتواضع الكبار استئذان شعبه بمغادرة ”الحلبة“ السياسية. وعندما طرح عليه أحد الصحفيين سؤالاً افتراضياً: ماذا لو عادت بك الأيام؟ أجاب: ”لو عادت عدنا“، فهو لا يندم على لحظة

من حياته المريرة في زمن العز، ومستعد لإعادة سيرته الكفاحية بلا تردد. ولا أزال أتذكر تلك اللحظة التي رأيته فيها، لأول مرة طوال علاقتي اللصيقة به وملازمتي له في سنواته الأخيرة، وهو يذرف دمعين حارّتين صادقتين داراهما بسرعة، وهو يقرأ من نص الاستئذان بالمغادرة:

”لو عادت بي الأيام؟ أجل، لو عادت، عدنا. ولكنني أعلم أن الأيام لن تعود بي ولن أعود بها، اللهم إلا في شكل خبرة أو عبرة، فهذا من سنن الحياة ونواميس الكون وتصاريف الدهر. بصدور كتابي الأخير هذا وفي ما تبقى لي من زيت في سراج العمر، يليق بي وبكم أن أستئذنكم بمغادرة ”الحلبة“ السياسية مفسحاً الطريق لخطى الشباب الواثقة، يحدوني الأمل نفسه الذي وضع خطوتي الأولى على ذلك الطريق قبل نحو سبعين عاماً في أن يحملوا راية الحرية والعدالة والتحرير ويمضوا بها إلى غايتها لعَلَّهم يتمكنون من إنجاز ما عجز جيلنا عن انجازه برؤى خلاقة وأساليب مبتكرة ومقاربات جديدة تلائم عصرهم الجديد لاجتراح الحلول المختلفة لمعضلاته المختلفة..“

يُطرق رأسه للحظة، ثم يُطلق زفرة طويلة قبل أن يرفع رأسه على استقامته، وعيناه في عينيّ، ليقول لي بصوت رخيم إن نفسه باتت الآن مطمئنة، وهو متصالح معها ومتوحد مع ضميره، وإن روحه صافية ومستعدة للارتقاء متى حلّ النداء راضيةً مرضيةً.

ها هي إذن حياة يعقوب زيادين تفرد أوراقها كتاباً مفتوحاً أمام الأجيال القادمة.. لا يخشى شيئاً ولا يخاف أحداً، لا يندم على سطر من سيرته الكفاحية، لا يخفي أخطائه وعثراته، لا يتشدق ببطولات زائفة ولا يخترع لنفسه سيرة تجميلية.

إنَّ شخصية المناضل الوطني والأممي يعقوب زيادين وسيرته الكفاحية محلّ إجماع بين الجماهير الشعبية والقوى السياسية الوطنية في الأردن وفلسطين. وقد كُتِبَ عنها الكثير وقيل فيها أكثر:

- ففي تقديمه للطبعة الأولى من كتاب الدكتور يعقوب زيادين "البدايات: سيرة ذاتية، أربعون سنة في الحركة الوطنية الأردنية"، الذي صدر في السبعينيات من القرن المنصرم في بيروت وُمنع في الأردن طوال حقبة الأحكام العرفية وسيادة قانون مكافحة الشيوعية، أشار القاص والروائي محمود شقير إلى أن السيرة "الذاتية" للدكتور زيادين ليست تجربة ذاتية معزولة، وإنما مدخل إلى الحياة العامة والنضالات الوطنية والطبقية المريرة التي خاضها الشعبان الأردني والفلسطيني والشعوب العربية ضد الامبريالية والصهيونية ومن أجل التحرر والديمقراطية والتقدم الاجتماعي. ووصف محمود شقير الكتاب بأنه المحاولة الأولى لرصد بدايات تشكُّل الفكر الماركسي في مجتمع وصفه بأنه قبلي- ووصفه ناهض حتر بأنه نصف بدوي- نصف فلاح-ي- ورسم لوحة العلاقات الطبقيّة في المجتمع الأردني في إمارة شرق الأردن. واعتبرها "وثيقة من أهم وثائق التاريخ الوطني في الأردن، سُجلت سرديتها ببساطة وبدون حذقة أو غموض".

أما الروائي الراحل غالب هلسا فقد سلط ضوءاً "كشّافاً" على مسائل جديدة تميّز بها كتاب "البدايات". فقد اعتبره "إسهاماً حقيقياً في فن الكتابة العربية"، وهي مفارقة تصدر عن رجل مهنته الطب والعمل السياسي بخلاف ما تعودناه من رجال السياسة العرب الذين يعتبرون الكتابة الأدبية ثانوية ولا تمثل وسيلة للمعرفة والوعي الإنسانيين خارج إطار العمل السياسي المباشر. ويذهب غالب هلسا إلى الاعتقاد بأن "البدايات" "فهم جديد للكتابة، بل وفهم جديد للواقعية الاشتراكية، فضلاً عن أنه يشكل إضافة حقيقية في دراسة القيم الجمالية والإنسانية".

ثم يتطرق غالب هلسا إلى الأسلوب الذي كتب به يعقوب زيادين سيرته، فيشبهه بأسلوب أحد أعظم الروائيين في العالم، إيرنست همنجواي، الذي وُصف بأنه يشبه قمة جبل الثلج العائم، الذي لا يظهر منه فوق الماء سوى خمسه، بينما يختفي أربعة أخمسه تحت الماء. ويقول إن "إسلوب زيادين التلغرافي السريع يخفي وراءه أو تحته أربعة أخماس الدلالات النفسية والاجتماعية للأحداث، بالإضافة إلى الأحداث ذاتها". ويضيف أن جمالية هذا الأسلوب "تتخطى الحدث لتضعنا في

قلب عالم القيم. أما بالنسبة للمادة الحياتية التي يختارها زيادين، فإنه يلتقط منها ما هو جوهرى“.

فما هو ”الجوهري“ عند يعقوب زيادين برأي غالب هلسا؟
على هذا الجوهري يُعطي هلسا مثالين: الغربية المهينة، والجلال التراجيدي.

الشعور بالغربة: بعد خروجه من عالم معتقل الجفر الصحراوي الرهيب في عام 1965 بعد قضاء نحو عشر سنوات، إلى عالم ”الحرية“، واجه يعقوب زيادين عالماً مختلفاً تماماً، بل نقيضاً له. فبعد وصوله إلى عمان زاره العديد من الأصدقاء والأصدقاء والمعارف، وشتان بين زوار أمس وزوار اليوم على حد تعبيره، فقد جاء كثير منهم من باب المجاملة، وبدلاً من الحديث عن المثل العليا التي اعتُقل مع رفاقه وعُذبوا من أجلها، سمع حديثاً غريباً عن شراء البيوت والسيارات والأثاث والمشاريع التجارية غير الإنتاجية، وأخذ يقارن:

”قبل اعتقالى، وقد كنت طبيباً ونائباً في البرلمان، لم أكن أحلم باقتناء ثلاجة باعتبارها شيئاً كمالياً لا ضرورة له، فمن أين جاءت هذه الأموال وكل هذه المواد الاستهلاكية؟“ ويحييه أحدهم بما قلّ ودلّ، ملخّصاً له ببساطة وبلا رطانة سياسية حالة الغربة التي بدأ يشعر بها:

- ”ما لك يا دكتور ولهذا العذاب؟ أنظر إلى البيوت والقصور والجنان والأثاث الفاخر. كل هذا حدث في غيابك. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ ماذا نريد نحن أكثر منه؟ كل ما تعذبت من أجله نحصل عليه بسهولة!!!“

ويتأكد شعوره بالغربة بشكل أعمق عندما يلتقي بعائلته في برلين (الشرقية) بعد سنوات الفراق. ”ففي البيت وبعد مرور أيام معدودات، بدأت أشعر بالغربة، فقد تغيّرت سلوى (رفيقتة و زوجته) كثيراً، أصبحت عصية المزاج وحادة الطبع، تغضب لأي سبب.. ولسوء حظي بدأت أدرّس الأولاد اللغة العربية- كي لا ينسوا لغتهم- ولصعوبة تعلّمها أخذ الأولاد يكرهون اللغة العربية ويكرهونني أكثر منها حتى أصبح غيابي عن البيت ليلة أو ليلتين بسبب عملي في المستشفى في برلين

شيئاً مستحباً جداً يتمنون المزيد منه. لقد كنت أشعر بالإهانة حتى العظم.

الجلال التراجيدي: هنا يحسُّ غالب هلسا "بالجلال التراجيدي" الذي يميز سيرة يعقوب زيادين، وهو نفسه الذي يميز الأعمال الأدبية الكبرى. فالخروج إلى عالم "الحرية" الواسع ولقاء العائلة الحميمة بعد فراق طويل وقاسٍ "لا يغريه الحلم الرومانسي بالنهايات السعيدة بالسكونية. ولا يقوده الخروج من موقف معقد إلى الاسترخاء بل إلى بداية لفعل جديد." وهكذا لا يستكين المناضل المتجذر في عقل زيادين ووجدانه للقعود الوثير في محطات ما يسميه غالب هلسا بـ "السكونية"، ويمضي قُدماً في طريقه الكفاحي الصعب.

إن القيم الإنسانية في نظر غالب هلسا إذن تكمن في اكتشاف الإنسان أن معنى حياته يتجاوز ذاته ليُجعل من القضايا الوطنية والاجتماعية لشعبه وللإنسانية قضايا خاصة به، يخوض بها وفي سبيلها صراعاً ضارياً بين منظومة "القيم السكونية" ومنظومة "القيم المتحدية" الكفاحية.

وفي قصيدة "الغيوم على السطح عالية والسماء قريبة" قال الشاعر الراحل حبيب الزبيدي مستنكراً وطنه الجحود سدوم ومتشبتاً بوطن يعقوب زيادين:

"... يا سدوم الغريبة

يا سدوم التي عقرت ناقة الله

ما أنتِ أغنيتي يا جحود ولا لغتي

ولا أنتِ قافيتي يا جحود ولا وطني

وطني حيثما مرَّ يعقوب زيادين يحمل ألواحه وصلبيه

وطني يا سدوم:

الغيوم

على السفح عالية

والسماء قريبة

هنا:

قالت امرأة للغمامة

مُرِّي على ولدي

عندما تهطلين

ورؤي عظامه

هنا:

يئس الفقراء من العدل

منتظرين القيامة

لا ملامة يا وطني لا ملامة...

هنا:

لا كرامة للأنبياء

الغيوم على السفح باكية

والسما كئيبة“.

وكتبتُ في وداع المناضل الوطني والأممي يعقوب زيادين:

ليست مرثية: مَنْ يرثي مَنْ؟

أبا خليل،

لستُ أحاول هنا أن أرثيك، فَمَنْ يرثي مَنْ؟ وَمَنْ مَنَّا الأحوجُ إلى الرثاء، أنت أم نحن؟ بل أحاول أن أقول فيك بعض الكلام الذي أرجو أن يليق بك ويجدر، وأحدثك بلغة القلب الخضراء، لا بلغة السياسة العجفاء.

فقد عشتَ رافع الهامة كما اخترتَ، ورحلتَ كما شئتَ ومتى شئتَ واقفاً كسنديانة، أليس هذا لقبك أيها الكبير المتواضع، الذي لم تتضخم ذاته يوماً، فلم تتدحرج كرة نار أو تلج إلى قاع المصير البائس لعشاق الذات؟ لم تعرف الكراهية والحقْد، ولا حتى ما درجنا على تسميته بالحقْد المقدس، ولذا فقد تصالحت مع نفسك، فصفا ضميرك وهدأتُ روحك وفاضت، لحظة فاضت، مثل نسمة بلا أم. آمنتُ بالحتمية التاريخية عندما هرولَ كثيرون نحو إعلان البراءة منها. وحين ساد دين الليبرالية وأيقونتها ”نهاية التاريخ“، ظللتُ ترى بثقة نهاية الرأسمالية المتوحشة وأزمتها البنيوية حفارة قبرها.

بيد أنك حين رأيتَ بأم عينك كيف يعربد في أرضنا وعلى أجسادنا أمراء الزيت والقتل والطوائف لعصر ما قبل الدولة... كيف يأمر المايسترو الأعلى بتوحيد فتاوى التكفير ووصفات السوق الحر في مجلد واحد ودمج كتائب الليبراليين الجدد والوهابيين الجدد في فيلق واحد، فيطاع... وكيف يستقدم العرب أعداء أمتهم ويستعينون بهم لتدمير بلدانهم وتقسيمها قطع أراضٍ مفروزة مبتهاجين بصدقة المستعمرين والمحتلين، مهللين ومكبرين لخوض حروبهم بالوكالة... كيف تُنظَّم مهرجانات الذبح و"سيركات" الحرق والسبي على شاشات الفضاء، ويكون "النصر بالرعب" و"إدارة التوحش" ليسا سوى الطبعة الوهابية "للصدمة والرعب" و"الفوضى البناءة" الأمريكية... وكيف تتحول سباً العظيمة إلى خرابة وتُتخذ بلقيس الجمال والرقبي ركوبةً لبعير، ويمتزج صبا بردي ودمع أمير الشعراء بدم التلاميذ الطازج ورائحة لحمهم المشوي... وكيف تُمحي منجزات التاريخ الإنساني العريق الذي شهد إبداع الحروف والقوانين والفنون منذ فجر البشرية، احتفاءً بالعودة إلى التاريخ الصفر، التاريخ المدارس والحضارة الدارسة... عندئذٍ أبيت يا أبا خليل أن تكون شاهداً متفرجاً على هكذا عصر، فغادرتنا بهدوء!

أمس ودّعناك واستودعناك صدرًا حانيًا في التراب الذي أنبتك، بين سنابل شعير "السمائية" بجوار وفي حراسة جبل شيحان الذي لا يغفل أبداً، وتطلُّ عليك من الأفق الغربي عين جبل المكبر في القدس التي لا تنام. وغداً سيمرُّ بمرقدك القاصدون والعابرون ليقرئوك السلام، وسيقرأون على شاهد قبرك الندي: هنا يغفو يعقوب زيادين: مناضلاً كان.. شجاعاً كان... كان وكان وكان، لكن الأهم من هذا وذاك أنه: إنساناً كان.

ناهض حتر: بطل تراجيدي إغريقي....

[إلى أم ناهض ورنده ومعتز ومعتصم وشقيقاته وأشقاؤه: لقد كان حبيكم مفكراً ومناضلاً وطنياً وعروبياً وأمياً عنيداً وشخصيةً مميزة، ترك لكم إرثاً ثميناً يحق لكم الاعتزاز به وذكرى وارفةً تأوون إليها كلما فاض نهرُ أحزانكم.]

”مات عرار وكان يئن

أما الأردن فلا يحتمل الأحرار

وكان النصف الأول من عشق الأردن يستهلك النصف الثاني.“

بهذه الأبيات الثلاثة من قصيدة ”قمرٌ على البلقاء“ التي ألقاها في جنازته بنفسه، لخص ناهض مسيرته الكفاحية في وطنه- الأردن لا يحتمل الأحرار، والنصف الأول من عشقه يستهلك النصف الثاني- وترك لنا التفاصيل ”يسهرُ الخلق جرأها ويختصمُ“ - المتنبي.

من هو البطل التراجيدي؟

لقد كان ناهض حتر في حياته الصاخبة ومماته الفاجع نموذجاً للبطل التراجيدي الأرسطوي تتجلى فيه الخصائص التي رآها أرسطو في الأبطال التراجيديين الإغريق، وأكثر: شخصية عظيمة تنطوي على نبلٍ داخلي، ”مقدّر“ له، بأفعاله ومواقفه وأحكامه وأخطائه النابعة من مقاصد سليمة، أن يصل إلى نهاية مفاجئة تثير تعاطفنا وخوفنا؛ التعاطف لأنه يصادف حظاً سيئاً لا يستحقه، والخوف لأن انقلاب حظه يمكن أن يحدث لأيّ منا في أي وقت. إنه مع الناس ومنهم، لا هو فوقهم إلى حد الانفصال عنهم، ولا هو تحتهم إلى حد التأخر عن خطواتهم (يسير مع الجميع وخطوته وحده-سعدى يوسف)، ذلك لأنهم لن يأبهوا بمصيره في الحالة الأولى، وسيشعرون بأنه نال جزاءه في الثانية، بل إنهم يتماهون معه. ولذا فإنه يبعث فيهم كل هذا التعاطف مع قضيته وكل هذا الخوف من مآله. ثم يدرك، أو يعترف بأن ما يحدث له ناجمٌ عن أفعاله ومواقفه وأفكاره وأحكامه وميزاته. كما أنه يتّسم بكبرياء جارف واعتداد مفرط بالرأي والمعتقد وإيمان مطلق بما

يفكر به ويقول، ويلقى مصيراً أفسى مما يستحق بما لا يُقاس بمقاصده النبيلة. إنه ينتهي نهايةً تراجمية لأنه يهوي من علِّ بأفعال لا يمكنه العودة عنها، ولكنه يتقبَّل موته بكل شجاعة وشرف. إنه مثخن بالجراح الجسدية والروحية جراء معاناته وتجربته التي تفضي إلى نهايته التراجمية. وهو يتمتع بذكاء حاد يعينه على الاستفادة من أخطائه وبالتالي على الإصرار والمثابرة على السير نحو أهدافه بلا تردد، ويمتلك قدرات غير عادية ويتمتع بالشهرة وسعة الانتشار والمنزلة الرفيعة، مما يجعل نهايته أكثر تراجمية عند انقلاب حظه رأساً على عقب. إن "المثلبة" التراجمية المميّزة ليست عيباً في شخصيته، وإنما هي خطأ في "التسديد" على الهدف، أي في اتخاذ قرار خاطئ أو حسابات خاطئة، لكن بنوايا حسنة، نتيجةً لمنطقٍ معالجةٍ ذاتيٍّ أو عواملٍ خارجيةٍ لا يد له فيها ولا سيطرةً عليها.

ولعلّ من المعروف أن الاتساق من أهم سمات البطل التراجمي، أي أنه يتصرف ويتحدث بطريقة متسقة، لا مع شخصيته وحسب، بل مع تصورات الآخرين لسلوكه وكلامه، أي بما يتماشى مع نموذج الخاص للشخصية. وهو يتمتع بصفات بطولية: النبَل والإقدام وعدم التهيُّب من أي شيء أو أحد، ويصارع ضد مصيره باقتدار. ولأنه لا يقبل بنظرة متدنية للذات، وبسبب الخطأ الذاتي في الحكم، فإنه يفشل في هذا الصراع الوجودي الملحمي في نهاية المطاف.

هل هو إذن "مخيّر أم مسيّر" بالمصطلح الدارج؟ ما هو الشيء المسؤول عن المعاناة التي يكابدها في حياته، القدر أم الإرادة الحرة؟ لست هنا بالطبع بصدد الدخول في موضوع القدرية والجبرية، وأكتفي بالقول إن مأساته تنطوي على خيارات، أي أن لديه حرية الإرادة، ينتج عنها تناقضات تؤدي إلى نهاية "محتومة" - ليس بالمفهوم الديني طبعاً. كما تؤدي تراجميا البطل إلى تغيير مآله ومآل أهدافه، فيتحول، مثلاً، من منقذ لمجتمعه إلى ضحية. بيد أن ذلك لا يعني أن معاناته مجانية، ذلك لأنه يستمد الاستنارة من قلب المعاناة، ويصبح قادراً على معرفة ذاته ومكانه تحت الشمس جيداً.

ولا يقتصر تأثير مصير البطل التراجيدي على ذاته، بل يمتد إلى النطاق العام (الناس، المجتمع، البلد) والنطاق الخاص (العائلة، الأصدقاء المقربون). إذ يمكن للناس العاديين أن يستمدوا طاقة إيجابية من مأساته لأنها تطال مصائر الجميع، من الملوك إلى المعدمين؛ فالشخص العادي برأي آرثر ميلر (جو كيلر في مسرحية "كلهم أبناء") يمكن أن يكون شخصية تراجيدية طالما أنه يسعى إلى التمتع بهوية حقيقية وكرامة شخصية (السعي إلى هوية وطنية حقيقية وكرامة شخصية؟ هذه هي ضالّة ناهض طوال حياته الغنية). أليست سمات شخصية ناهض حتر شبيهة بسمات هذا البطل التراجيدي؟

من هو ناهض حتر؟ من الذي قتل ناهض حتر؟ ولماذا قُتل ناهض حتر؟ (تكرار الاسم مقصود)

* ناهض مفكر وكاتب وحرّكي في آن معاً، يُنتجُ فكراً سياسياً ويدوّنُه في كتب وبحوث ومقالات لا تُحصى، ويهبط به من علياء النظرية إلى طين الواقع ويجرّبه عيانياً، وعلى أساسه ينظّم نشطاء ويشكّل مجموعات وحرّكات ويُنشئ مؤسسات. يكتب بغزارة وبلا انقطاع ويحرص على نشر ما يكتبه، وكلما سُدّت نافذهُ تعبّر في وجهه، بحثً عن أخرى؛ مثابراً في القول والعمل، يكتب بأسلوبٍ خاصٍ به تماماً، لعله أشبهُ ببصمة الأصبغ والعين، بحيث يمكن لمتابعيه تمييزه من السطور الأولى- أنا مستعد للقول إن ناهض حتر أهمُّ كاتبٍ مقالٍ سياسي في الأردن على الإطلاق، وأحد أهم كتاب هذا اللون من المقال في العالم العربي بأسره. وبيتعد الكاتب بوعي عن الأسلوب الدائري المعتاد لكتابة المقال، أي الذي يعود في نهايته إلى حيث بدأ، ويعتبره نقيصة، ويكتب بالأسلوب المتنامي الصاعد الذي يشبه حركة التاريخ التي آمن بها. وهو يعبرُ عن أكثر الأفكار تعقيداً بأبسط العبارات وأجملها وأسلسها، بلا جملة ولا كلمة زائدة عن الحاجة- حاجة موضوع المقال وهدفه ونطاقه- يجترح الحلول ويبلورُ المواقف وينحُث المصطلحات المناسبة إذا لزم المقام.

* ناهض كينونة سياسية محض، ليس في قاموسه السياسي مداورةٌ أو مناورة، ولا خوفٌ من خصم، أو مجاملةٌ لصديق أو سكوتٌ عن حليف. لا يتذكر، وهو يكتب

أو يقول، شيئاً أو أحداً غير ما يكتبه أو يقوله، لا يهّمه ما سيقوله أو ما قد يقوله الآخرون؛ فالثقةُ الفياضة بالنفس والاعتدادُ الشامخ بالذات والإيمانُ المطلق بصحة ما يطرح تمّده بشعور "الاكتفاء الذاتي" إن صحَّ التعبير. إنه لا يخجلُ من أفكاره أو أطروحاته السياسية ولا يراوغُ في التعبير عنها مهما كانت صادمةً لغيره. يعيشُ الخوضَ في وحل النضال الواقعي اليومي العياني، ولا يخشى التلوّثَ بأوساخ فن الممكن، ولا يتردّدُ في البوح أو الفعل إذا اعتقد أن ذلك يعود على قضيته بالنفع.

* ناهض دائماً التنقل من مشروع سياسي، وحتى ثقافي، إلى آخر، لا يكلُّ ولا يملُّ ولا ييأس، وكلما كَبَا نهضَ (له من اسمه كلُّ النصيب، كما يُقال)، من اتحاد الطلبة الأردنيين، إلى اتحاد الشباب الديمقراطي الأردني، إلى الحزب الشيوعي الأردني في السبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم، إلى الجبهة الوطنية الأردنية في التسعينيات منه، إلى مناهضة العولمة الرأسمالية، إلى حركة اليسار الاجتماعي، إلى حركة المتقاعدين العسكريين، إلى مجلس العلاقات الخارجية في منقلب القرن الحالي، إلى مشروع المشرقية التقدمية الأخير، الذي قفزَ به قفزة كبرى إلى الأمام بعدما أدرك أن ماء الأردن، الذي طالما عشقهُ وتغنّى به و "قدّسه"، ضحل لا يحمل الغطّاس، وربما في محاولةٍ لإيجاد حلٍ "للمعضلة" المستعصية التي تحول دون إحداث التغيير الذي ينشده ويحلّم به في الأردن بمفرده ومن داخله، وذلك عن طريق وضعه في إطار مشروع المشرقية الكبير، وهو مشروع توحيدي في زمن التقسيم، الذي يكون فيه الأردن جزءاً من سوريا الكبرى والهلال الخصيب. وكان يحضّر مع رفاقه لعقد مؤتمره التأسيسي في دمشق بالذات وفي هذا الوقت بالذات الذي تتصدى فيه سوريا مع حلفائها لأبشع عدوان إمبريالي- صهيوني- رجعي إرهابي عليها في هذا القرن، وأصدر معهم جريدة إلكترونية ينسجم اسمها مع مشروعه المشرقي: "ميسلون". ولا يعود العجز عن حل المعضلة الأردنية إلى أسبابٍ ذاتية، أو إرادة الأشخاص أو عدم وجود مناضلين أو مخلصين أو حتى حاملين، وإنما إلى طبيعة تكوين الكيان السياسي الجديد ونشأته ووظيفته الجيو- سياسية الأمنية كدولة عازلة، ثم تحويله إلى كيان هجين، ثم إلى خزان ديمغرافي مفتوح لجهات الرياح الأربع، مع هندسة البلد والمجتمع لتحويلهما إلى كيان رث ومجتمع رث، لا يُنبث، ولا يُسمح بأن يَنبثَ الكبار في تُربتهما القاحلة.

* ناهض أحبَّ يعقوب زيادين (الأمين العام الأسبق للحزب الشيوعي الأردني) المعارض للنظام ووصفي التل (رئيس وزراء الأردن الأسبق الموالي للنظام) معاً- لا تستغربوا، فهذا هو ناهض، لا يجد في هذا الحب المرگب غضافةً أو تناقضاً - فقد قال بلسان الشاعر حبيب الزيوودي إنَّ فيه شيئاً من وصفي وشيئاً من زيادين، مستشهداً بأبيات الزيوودي:
”يا سدومُ الغريبةُ... التي عقرتُ ناقةَ الله
ما أنتِ أُغنيتي يا جحود ولا لغتي
ولا أنتِ قافيتي يا جحود ولا وطني
وطني حيثما مرَّ يعقوب زيادين يحمل ألواحه وصلبيه...“

أحبَّ وصفي التل واتَّخذه مثلاً أعلى، فلقي المصير نفسه، وعلى نحو مشابه: خطةٌ مُحكمةٌ وتقاطعٌ مصالحٍ لأطرافٍ عدةٍ وتطميناتٌ مضلَّةٌ وقاتلٌ محترفٌ: هناك..على درج فندق شيراتون القاهرة، قناصٌ أمريكي محترف hitman أشقر حليق ببدة وربطة عنق، وهنا..على درج قصر العدل، إرهابيٌّ أسمر بدشداشة وكوفية بلا عقال ولحية ”على السنة“ (دَعَكَم من خرافة منظمة أيلول الأسود، فقد كان أولئك الشباب مجردٌ كومبارس على مسرح الجريمة لتحميلهم آثام/ أو أمجاد حقبة كاملة).

* ناهض وثقَّ كلَّ الثقة بالبيروقراطية الأردنية، أو ما سُمي حينئذ بـ ”الدولة العميقة“، وأمنَ كلَّ الإيمان بأنها ستحمي البلد من خطر ”الدولة الموازية“- ثم الدولة فوق الدولة- التي أطلَّت برأسها، وأنها ستكفلُ عدمَ انكشاف ظهره لرجالها في أتون الصراع بين تيار ”الأردنة“ وتيار ”الأسرلة“ كما كان يسميه. لقد كانت ”الدولة“ الأردنية بلا عقل، فأراد ناهض أن يمنحها عقلاً، وكانت البيروقراطية الأردنية بلا فكر، فأراد أن يمنحها فكراً، وأضفى عليها نوعاً من ”الأناقة“ السياسية الوطنية، التي ليست من طبيعتها، إلا انها عندما خُيِّرت بين الرضى بتقليص حصتها من الفريسة/الأضحية (الأردن) وبين فقدان كل شيء عندما تحينُ لحظة الحقيقة الوشيكَة ويأتي الطوفان القريب، اختارت الأول، ”فأنكرت ناهضاً قبل صياح الديك وباعته بثلاثين من الفضة“، الأمر الذي ينسجم تماماً مع طبيعتها

الطبقية البنيوية الراسخة التبعية.

إنني اعتقد أن كل من أسهم في الحملة الممنهجة ضد ناهض حتر إنما هو شريك في التمهيد "لوجستياً" لاغتياله. فالقاتل المباشر، إمام المسجد والموظف في وزارة التربية والتعليم والعائد للتو من الحج الأكبر الذي استطاع إليه سبيلاً بلا عوائق قبيل ارتكاب جريمته البشعة، حيث تلاقت الأرواح في رحاب البيت الحرام كي تمارس طقوس القتل المقدس، ليس سوى كاتم صوت في يد القاتل الحقيقي: وهو كل من حَقَّنَه بالأيدولوجيا الوهابية ودرَّبَه على سلاح القتل واستخدمه لتنفيذ أهدافه السياسية، ومن أصدر الأوامر بالقتل وأعدَّ المسرح لقتله بالتحريض عليه والتجيش ضده وإصدار الفتاوى بهدر دمه والإيعاز باستباحته. فالقاتل المباشر لا يعرف من هو ناهض حتر ولا يعي أهميته ولا يأبه بفكره وثقافته ودوره، شأنه شأن من قتل فرج فودة وشكري بلعيد ومحمد البراهمي وحاول قتل نجيب محفوظ.

كما أسهمت قوى سياسية عديدة، يسارية وقومية وإسلامية، منذ فترة طويلة، في حملةٍ محمومة وواسعة النطاق استهدفت ناهض حتر، تارة باسم اليسار وأخرى باسم القومية وثالثة دفاعاً عن الوحدة الوطنية ورابعة ذوداً عن حياض الإسلام- وخاصة جماعة الإخوان المسلمين والتنظيمات الوهابية- وخامسة بسبب مواقف الصريحة والثابتة المؤيدة لجهة المقاومة، سوريا وحزب الله وإيران وروسيا، ضد الحرب الهمجية على سوريا، الأمر الذي ساعد على الانفراد به واستهدافه.

لقد حمل ناهض في رأسه وعلى كاهله مشروعاً ذا شقين، أثقل من أن يحمله رأس واحد وكاهل واحد، وعصياً على التنفيذ ومحكوماً بالفشل- لا لخطأ في الفكرة أو لنقص في صاحبها، وإنما لأن أخطاراً "تكتونية" تقف دون تنفيذه - وهو ما أسماه "مشروع المستحيلين"، أو "مشروع فك الارتباط المزدوج": فك الارتباط بين الأردن والضفة الغربية، وهو ما روجّه تحت العنوان الشهير: "دسترة قرار فك الارتباط" الذي ملأ الدنيا وشغل الناس؛ وفك الارتباط بين الأردنيين والنظام الحاكم، وهو ما صاغه تحت عنوان "بناء الحركة الوطنية الأردنية".

أما بالنسبة للشق الأول من مشروعه، فكُ الارتباط مع الضفة الغربية، فقد كان لديه اعتقاد راسخ بأنه بمثابة تحديث جوهري لمشروع كل من رئيسي الوزراء الأسبقين هزاع المجالي ووصفي التل، بما يواكب التطورات التي طرأت على القضية الفلسطينية عموماً وعلى وضع الضفة الغربية خصوصاً، وبأن مشروعهما كان سبباً في اغتيال الرجلين (اغتيال هزاع المجالي في آب/أغسطس 1960 في دار الرئاسة بعمان، واغتيال وصفي التل في تشرين الثاني/نوفمبر 1971 في فندق شيراتون بالقاهرة).

وقد أوضح ناهض في العديد من كتاباته ومقابلاته وندواته أنه طرح مشروع فك الارتباط مع الضفة الغربية كمشروع مضاد لمشاريع تصفية القضية الفلسطينية نهائياً على حساب الأردن وفلسطين معاً وشطب حقوق الشعب الفلسطيني، وفي مقدمتها حقّه في تحرير أرضه التاريخية والعودة إلى وطنه فلسطين، وأخطرها مشروع إقامة ما سُمي بـ "الوطن البديل" من خلال التوطين الناعم، ومفرداته الشائعة "التجنيس والمحاصصة والحقوق المنقوصة والمواطنة"، في إطار تحويل الأردن إلى "حوض سكاني" لاستيعاب جميع المهاجرين واللاجئين والمستوطنين من شتى أنحاء المنطقة، حيث يُسمح للأفاقين واللصوص والجواسيس وصائدي الفرص والمكافآت وغاسلي الأموال بالاستيطان والاستثمار والتملُّك بلا قيود أو شروط (مَن يشترط على مَن؟) والحصول على جنسية والوصول إلى المناصب العليا في الدولة. وأكد ناهض غير مرة أنه للحؤول دون وقوع هذه الكارثة الجيو-سياسية اجترح هذا الحل الذي أسماه "دسترة قرار فك الارتباط" لعام 1988، الذي أُسيء فهمه، عمداً أو سهواً، بوعي أو بدون وعي، فبات بالنسبة للعديد من خصومه والكثير من الناس العاديين اسماً كودياً للنزعة "الإقليمية"؛ فما إن تُذكر العبارة حتى تتور العواصف وتقوم الدنيا ويُرْمى صاحبها بالسهم "الإقليمي" الزُعاف (نسبةً إلى "إقليم"، وهو مصطلح متفشٍ في الأردن وفلسطين فقط ولا محلّ له من الإعراب في القاموس الأيديولوجي أو السياسي).

وأما الشق الثاني من المشروع، فك الارتباط بين الأردنيين والنظام الحاكم الذي أتبعهم له منذ أحداث أيلول/سبتمبر عام 1970، فقد نادى به وعمل في سبيله على بناء "حركة وطنية أردنية" مستقلة عن النظام، وهذا بيت القصيد، وهنا

مربط الفرس، وفيه مَكمن الخطر وتجاوز الخطوط الحمراء-وهي في الأردن كُثر. وفي هذا الإطار وُلدت المبادرة الشهيرة التي أعلنتها مجموعة من كبار الضباط العسكريين المتقاعدين في بيان أيار المدوّي وهدفت إلى خلق شكل تنظيمي للمتقاعدين العسكريين، ممن كانوا جزءاً عضويّاً من قاعدة نظام الحكم ودافعوا عنه ووفروا له الحماية، ولكنهم بدأوا يستشعرون الخطر على بلدهم وأنفسهم ومصالحهم المعيشية. وقد رأى ناهض أن حركتهم تنطوي على إمكانية الاستقلال عن النظام أو النأي بالنفس عنه على الأقل.

هذه محاولة متواضعة، لكنها دعوةٌ جادة إلى إنصاف الشهيد ناهض حتر بإطلاق مشروع ثقافي يُعنى بالفكر السياسي لهذا المقاتل الفكري الذي دفع حياته ببسالة ثمناً لحبه المستحيل للأردن، الذي قال عنه إنه "لا يحتمل الأحرار ويستهلك النصفُ الأول من عشقه النصفَ الثاني"، والذي صدقت نبوءته التراجيدية بشأنه.

حسن نصر الله وقضايا التحرر الوطني

أطروحة ناهض حترّ وسؤاله الكبير

لعلّ من أهم ما يميز الكاتب والصحفي والمناضل اليساري البارز ناهض حترّ هو الجرأة على اجترار الأفكار والحلول للمشكلات، بل العضلات، المزمّن منها والمباغت، وبناء المشاريع الفكرية والحركية، وسبر حركة الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، والتقاط الظواهر الأكثر أهمية وإضاءة الجوهرية منها، ثم طرح القضية التي يبلورها على الملأ كتابةً أو قولاً أو عملاً على شكل مشروع متكامل. هذا هو منهجه، ولا يهّمه أو يحبطه أو يثنيه عن عزمه شيء إذا ما اكتشف أن فكرته أو مشروعه أو موقفه لم تصادف نجاحاً. لا بأس، سيعدّل أو يبذل، ثم يمضي في طريقه الوعر الذي يعشق السير فيه.

ففي كتابه "حسن نصر الله وقضايا التحرر الوطني"،²⁰ على وجه الخصوص يستطيع القارئ أن يضع أصبعه على ما قصدت أنفأً. هنا يمكنه التعرف على تفكير ناهض حتر وهو يعمل: يعيش، يعاين، يسبر الأغوار، يلتقط جوهر الظاهرة، يبني قضية كبرى، وينطلق بها إلى الآفاق الممكنة. وهنا مثال واضح على "المسبار" الفكري لناهض حتر، حيث يلتقط بالمعنية لافتة ظاهرة جنينية أثناء ولادتها ونشوئها وارتقائها، ويبلورها في أفكار واضحة وبسيطة وعميقة، محفوفةً بالأسئلة الضرورية، ثم يطرحها بجرأة وبلا تلثم أو رطانة فكرية أو سياسية.

أما القضية الكبرى/السؤال الكبير الذي يطرحه في هذا الكتاب فهو: هل حزب الله "مجرد" حركة مقاومة إسلامية محدودة الأفق، أم حركة تحرر وطني مفتوحة الآفاق؟ ("التجريد" هنا ليس للتقليل من شأن كونه حركة مقاومة). ثم يستفيض في طرح الأفكار والأسئلة الفرعية الممهّدة والداعمة لأطروحته.

20- حتر، ناهض، حسن نصر الله وقضايا التحرر الوطني، شركة ميسلون للدراسات والإعلام، بيروت، لبنان، كانون الثاني/يناير

يبدأ الكاتب بتحديد الفرق الجوهرى حتى تُخوم الانفصال في بعض الحالات بين حركة المقاومة وحركة التحرر الوطنى؛ فالأخيرة تتضمن مفهوم المقاومة ضد الاحتلال ولكنها تتخطاه لتشمل مفاهيم أبعد من ذلك، من قبيل مقارنة مختلف أشكال الاستعمار وصون الاستقلال الوطنى وبناء الدولة الوطنية والتنمية المستدامة وتحقيق الديمقراطية الاجتماعية وإطلاق الحريات العامة والشخصية واحترام حقوق الإنسان، في حين أن حركة المقاومة قد لاتشمل المفاهيم آنفة الذكر، بعضها أو جميعها.

وفي هذا السياق يعطى الكاتب مثالين حديثين من بلداننا: المقاومة العراقية والمقاومة الإسلامية "حماس"؛ اللتين لم ترقيا إلى مستوى حركات التحرر، بل غرقتا في وحل الطائفية والمذهبية والإثنية. ويشير إلى أن حركات الإسلام السياسى عموماً اتّسمت بالعداء للقومية العربية التحررية- ولا سيما في عهد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر- وللشيوعية والاتحاد السوفيتى تحت راية محاربة الإلحاد، فضلاً عن تطابقها مع الاقتصاد الرأسمالى والنيوليبرالية. ولهذا لم تعرف هذه الحركات في بلادنا ما عرفته القارة الأمريكية اللاتينية من ما سُمى بـ"لاهوت التحرير". وبدلاً من ذلك، انحازت إلى جبهة الإمبريالية وانخرطت كفيلق محمول متقدم في صفوف جيشها- بلاك ووتر إسلامية- طوال فترة الحرب الباردة وحتى اليوم، من أيام تنظيم القاعدة في "الجهاد الأفغانى"، الذى انطلق بتوجيه من بريجنسكى وأدى إلى هزيمة الاتحاد السوفيتى في أفغانستان، إلى "الجهاد البوسنى" الذى مزّق يوغسلافيا دولةً وشعباً، إلى داعش والنصرة وأخواتهما ودولة الخلافة إلى "الجهاد السورى" في الحرب العالمية الوحشية على سوريا التى بلغت في هذا العام عشريتها الكالحة، والتى لا نظير لها منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، من حيث حجم العدوان وقوته وعدد الدول والأطراف المشتركة فيه وطول مدته وطبيعة أهدافه الاستعمارية وخطورتها.

بيد أن ناهض حتر يرى أن حزب الله مختلف في الجوهر عن هذه الحركات الإسلامية، وأنه يمثل حالة فريدة في عالم الإسلام السياسى العربى. لماذا يعتقد حتر أن حزب الله يمثل حالة أو ظاهرة فريدة ودرةً ثمينة تُغري بالتقاطها؟ لأن الحزب ولّد

في أتون مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وارتبط بثورة شعبية ودولة إسلامية معادية لإسرائيل- إيران- بل تدعو إلى زوالها ليل نهار، ومؤيدة للقضية الفلسطينية التي طالما تشدق العرب بأنها قضيتهم الأولى فأصبحت ما بعد الأخيرة، وترفع شعار تحرير فلسطين، كل فلسطين أرضاً وبحراً وسماءً، ومناهضة للإمبريالية الأمريكية "الشيطان الأكبر". كما ارتبط الحزب بمركز التحرر العربي الذي انتقل إلى دمشق بعد رحيل الرئيس عبد الناصر. خرج الحزب إذن من بيت النار متوهجاً قوي البنية والعزيمة، وبرّد سيفه على مهل في مراحل ثلاث مثلت سيرورته الكفاحية:

في المرحلة الأولى، ينشأ الحزب كحركة مقاومة وطنية ضد الاحتلال الإسرائيلي، ليس لها بُعد قومي تحرري، ويُجز مهمة تحرير الجنوب اللبناني في عام 2000. وفي الثانية يقدم نفسه كقوة ردع دفاعية لبنانية تزود عن استقلال لبنان على كامل ترابه الوطني بعد ملحمة الثلاثة وثلاثين يوماً في تموز/يوليو عام 2006. أما المرحلة الثالثة الحالية، وهي بلا أدنى ريب الأكثر أهمية وتأثيراً وإثارةً للجدل على المستويات اللبناني والعربي والاقليمي والدولي، فتتمثل في قراره التاريخي بالإقدام على المشاركة العسكرية العلنية في الدفاع عن سوريا في مواجهة العدوان الامبريالي الصهيوني الرجعي العربي النيو-عثماني، وقوى الإرهاب الوهابية.

في هذه المرحلة التي لا تزال جارية، يصل حزب الله إلى مفترق طرق عويص ونقطة تحوّل حاسمة. إذ أن انخراطه في الحرب السورية كتفّاً إلى كتف مع الجيش السوري والشعب السوري يضعه على أبواب مرحلة جديدة تماماً أو يُدخله فيها. كيف؟ بل كيف لا؟ إنه يقاتل ضد قوات إرهابية "إسلامية" ويدافع عن نظام قومي "علماني"؛ ويقف في خندق أممي متعدد الثقافات والطوائف والمذاهب والإثنيات يمتد من إيران إلى روسيا إلى الصين في مواجهة خندق عالمي تحتشد فيه جيوش إرهابية تكفيرية من نحو ثمانين دولة؛ وفي الوقت الذي يناصبه الإسلاميون العداً ويكفرونه ويقاتلونونه، فإنه يجد في العلمانيين والقوميين واليساريين التقدميين حلفاء له.

نصرالله وماركس وفيروز وجبران وسعادة

لست متأكداً ممّ إذا كان تضمين هذا الفصل في مقالي هذا في محله أم لا. غير أن ناهض حتر، وهو يخوض في الحديث عن حسن نصر الله، السيد الشيعي الوقور والقائد السياسي الفذ والمقاوم الباسل والزعيم بلا منازع، الجاد إلى أبعد حد والمشغول والمهموم إلى أقصى درجة، لا ينسى، في ثلاث مقالات من كتابه (ربما لأهميتها بالنسبة له)، أن يسلّط بقعة ضوء على علاقة روحية "افتراضية" بين حسن نصر الله الإنسان، المحبّ للفن والخير والجمال، صاحب الروح الشفافة والوجدان العميق والضمير الصافي، وبين فيروز وكارل ماركس وجبران خليل جبران وانطون سعادة. فيشير إلى مقابلة مع الفنان زياد الرحباني في موقع "العهد الإخباري" بتاريخ 16 كانون الأول 2013، يقول فيها زياد إن والدته تحب السيد حسن نصر الله. ويعلّق الكاتب بالقول إن هذا "الحب" لا بد أن يكون متبادلاً، فمن غير الممكن ألا تكون هناك صلة روحية بين اثنين من أرقى الشخصيات التي أنتجها المجتمع اللبناني. وإن كل ما جسّدته فيروز من وقفات شموخ وطنية وإنسانية على مسرح الفن جسّده نصر الله على مسرح الواقع، إلى حد يشعر معه الكاتب أن المقدمة الموسيقية لمسرحية "جبال الصوان" كتبت لمقاومي حزب الله نشيداً.

ومن تراث كارل ماركس ينقل حتر من كتاب "نقد الحاجة إلى ماركس" لسالم حميش نصاً قصيراً لاستمارة صحفية شخصية نُشرت في ستينيات القرن التاسع عشر، يقول فيها ماركس: "الصفة التي أحبّها أكثر من غيرها في الإنسان عموماً: البساطة، وعند الرجل: القوة، وعند المرأة: الضعف. فكرتي عن السعادة: الصراع، وعن الشقاء: الخضوع؛ لوني المفضل: الأحمر؛ طبقي المفضل: السمك؛ شعاري: يلزم الشك في كل شيء؛ حكمتي: لا شيء إنسانياً غريب عني." ويقارن بين هذه المقابلة مع ماركس ومقابلة أخرى مع السيد حسن نصر الله أجرتها جريدة "الأخبار" اللبنانية في 14 آب 2014 على هذا النحو: صحيح أن السيد حسن لم يتحدث عن الحب والمرأة وماشابه كما في مقابلة ماركس، ولكن القدر الممكن من الأقوال حول كرة القدم والأطعمة المفضلة والأماكن المفضلة في لبنان والفييس بوك والفضائيات والقراءات والتنقل السري وغيره يمثل إطلالة على دواخل

نصرالله الإنسانية. غير أن الرابط المدهش بين كارل ماركس وحسن نصر الله يكمن في أن التعقيد الاستثنائي للمهمات الفكرية والسياسية والقدرة الفذة على تنفيذها لا يصيبان الوجدان الشخصي لكل منهما بتعقيد مماثل. فماركس يحب المرأة ونصر الله يحب كرة القدم، وكان يلعبها حتى بعد أن وضع العمامة على رأسه ويحرص على مشاركة نجله الصغير مشاهدة المباراة النهائية للمونديال على الرغم من اكتظاظ أجدته الهائل وصرامتها الأمنية الفائقة.

ومع إعلان حسن نصر الله عن انطلاق مرحلة نوعية جديدة في الصراع الوجودي الدموي المديد في المنطقة، وهي مرحلة صراع الوجود الذي يحتّم على الحزب كسر فكي الكماشة- إسرائيل من الجنوب والإرهاب من الشمال- اللذين يُطبقان على وجوده في لبنان، وانتقال الحزب كقوة مقاتلة من المحلي اللبناني إلى المشرقي ثم العربي والدولي، يرى حتر أن السيد حسن نصر الله، المسلم الشيعي المقاوم، الذي أعلن للإرهابيين التكفيريين، بوحى من ضميره ووطنيته، أن "لكم دينكم ولي دين"، إنما يستلهم جبران خليل جبران المسيحي المسلم، فيردد كلماته مخاطباً "الأفقاء"- على حد تعبير اللبنانيين: "لكم لبنانكم بكل ما فيه من الأغراض والمنازع، ولي لبناني بما فيه من الأحلام والأمان"، مقتبساً من نص إنساني جميل وعميق بعنوان "لكم لبنانكم ولي لبناني"، لا أظن أن السيد حسن يأنف من تمثله:

"...لبنانكم مرافئ وبريد وتجارة، أما لبناني ففكرة بعيدة وعاطفة مشتعلة وكلمة علوية تهمسها الأرض في أذن الفضاء.

لبنانكم موظفون وعمال ومدبرون، أما لبناني فتأهب الشباب وعزم وحكمة الشيخوخة .

لبنانكم وفود ولجان، أما لبناني فمجالس حول المواقف في ليال تغمرها هيبه العواصف ويجلّها طهر الثلوج .

لبنانكم طوائف وأحزاب، أما لبناني فصيبة يتسلقون الصخور ويركضون مع الجداول ويقذفون الأكر في الساحات .

لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات، أما لبناني فتغريد الشحارير، وحفيف أغصان الحور والسنديان، ورجع صدى النيات في المغاور والكهوف .

لبنانكم كذب يحتجب وراء نقاب من الذكاء المستعار، ورياء يختبئ في رداء من التقليد والتصنع، أما لبناني فحقيقة بسيطة عارية إذا نظرت في حوض ماء ما رأته غير وجهها الهادئ وملامحها المنبسطة.

لكم لبنانكم وأبناء لبنانكم فاقتنعوا به وبهم إن استطعتم الاقتناع بالفقايح الفارغة، أما أنا فمقتنع بلبناني وأبنائه وفي اقتناعي عدوبة وسكينة وطمأنينة...“

كلام جميل وعميق يستدعي في الذهن خطبة سياتل الجميلة الحزينة الشهيرة حول العلاقة بين الرجل الأبيض الغازي والهندي الأحمر صاحب الأرض، التي أعلن فيها أن إله الرجل الأبيض ليس إله الهندي الأحمر، بل هما إلهان نقيضان. وكأني بناهض حتر يريد أن يقول ”لأفرقاء“ الأردنيين: ”لكم أردنكم ولي أردني“.

وبالطبع، لا يمكن لناهض حتر، الذي تبني مشروع المشرقية ونظر له وقاده وبدأ التحضير لإطلاق حركته رسمياً في مؤتمر تأسيسي كان سيعقد في عاصمة المشرق دمشق قبيل استشهاد، إلا أن يشيّد جسراً بين الزعيمين حسن نصر الله وانطون سعادة. فيسارع إلى وضع قدمي حسن نصرالله في ركاب المشرقية ويربطه بشكل ما بالمشرقية العروبية بالقول إن نصر الله يعبر عن حساسية مشرقية واضحة بإشارته الصريحة إلى أن التاريخ يُصنع اليوم في البلدان المشرقية (سوريا، العراق، لبنان، فلسطين، والأردن) التي بات نصر الله يراها في وعيه الاستراتيجي اليوم إقليمياً واحداً، وبالتالي ميداناً واحداً للصراع مع العدوَيْن اللدودَيْن الحليفَيْن: الكيان الصهيوني والقوى التكفيرية الإرهابية. ويذهب حتر إلى أبعد من ذلك فيرى أن حزب الله لم يعد حزباً لبنانياً وحسب وإنما يتحوّل، واقعياً وليس بالضرورة فكرياً، إلى حزب المشرق كله.

على أن مشرقية حسن نصرالله وحزبه التي يراها ناهض حتر لا تنتقص قيد شعرة من عروبتها التي تنفيها ماكينة البروباغاندا النفطية الضخمة وتلحق جميع الشيعة العرب بالشيعة ”الفرس المجوس“ على حد تعبير المنظمات التكفيرية. واللافت أن تلك الهجمة الأوركسترالية المنظمّة لا تقتصر على السلفيين الجهاديين والتكفيريين وما لَفَ لفهم من حركات الإسلام السياسي، بل شملت زمارين جدداً

من اليساريين والقوميين والليبراليين والعلمانيين العرب.

مقاربة حسن نصر الله لخطاب التحرر الوطني

يشير الكاتب ناهض حتر العلماني إلى أن السيد حسن نصر الله الإسلامي يتمتع بما يسميه نزعة علمانية وطنية واقعية. ففي الوقت الذي تشهد حركات الإسلام السياسي صعوداً شعبياً في ظل "الثورات الملونة"، وتبرر حقها في الحكم باسم الله في الأعالي وتُلبسه ثوب القداسة (الخلافة الراشدة)، يقول نصر الله إنه "لا يهم أمريكا أن يحكم في العالم العربي حزب إسلامي أو قومي أو حتى شيوعي؛ ليس مهماً أن تطيل لحيتك أو تحلقها، أن تلبس ربطة عنق أو لا تلبسها، المهم ما هي سياستك." ويترجم الكاتب هذا الكلام بعباراته الخاصة ليقول إنه بالنسبة للسيد حسن نصر الله الإسلامي لا يهم أن تكون إسلامياً أو يسارياً أو قومياً، المهم ما هي سياستك تجاه الحلف الأمريكي- الصهيوني- الرجعي العربي، والمهم هو الموقع السياسي الذي تنطلق منه وتنتهي إليه. إذن هذا هو المعيار السليم، الذي لا ينطق عن هوى، ويصدر عن ضمير شفاف، وهو معيار يقتضي توقُّر فضاء وطني وإقليمي ودولي لحوارات وتحالفات لا تقوم على الدين والطائفة، وإنما على الاصطفافات السياسية الفعلية. وهذا هو جوهر العلمانية بنظره؛ إذ أنه يعبر عن تحرر فكري وسياسي من الطائفية (من دون التخلي عن الطائفة كواقع اجتماعي سياسي) وعن انعتاق من رباط الدين بالسياسة (من دون التخلي عن الخيار الإسلامي الذاتي والحزبي) ويفتح آفاقاً لتسويات وطنية واجتماعية خارج نطاق النظرة الأحادية الاستئصالية للإسلام السياسي التي تقوم على التعصب والتمييز والإقصاء وإلغاء الآخر، كل آخر.

ويعتقد الكاتب حتر أن زعيم المقاومة يتحرك من "ساحة المقاومة" إلى "فضاء" التحرر الوطني. إذ يلحظ أنه في الوقت الذي تغادر فيه قوى إسلامية مواقع الليبرالية والأخونة إلى السلفية الإرهابية والمذهبية، ويسقط مفكرون إسلاميون قدّموا أنفسهم كعقلانيين، ومثقفون قوميون قدموا أنفسهم كديمقراطيين، في مستنقع النصر وداعش، وبينما يعتنق يساريون "الديانة" الليبرالية أو يلوذون بالصمت أو يقفون على الحياد حيال الكارثة الثقافية والأخلاقية والإنسانية التي

تحلُّ بشعوب البلدان العربية، وبينما تتمدد الظلامية ويسود الظلام، يدهشنا قائد المقاومة الإسلامية باختراقات فكرية سياسية تقدمية تمنحنا الأمل في تلاحم مشروع التحرر الوطني ومشروع المقاومة في مشروع موحد متكامل، وتكوين الكتلة الاجتماعية التاريخية القادرة على إنجاز مهمات التحرر الوطني.

ففي جدل التحرير والتحرر، أي تحرير الأرض والتحرر الوطني، كما أسلفنا، لا ينطوي مفهوم المقاومة بحد ذاته على مضمون اجتماعي سياسي، حيث يقتصر هدف المقاومة عموماً على تحرير بلد محتل أو أراض محتله بدون أن تطرح بالضرورة هدف اليوم التالي. فحتى وقت قريب كان فكر حسن نصر الله وحزبه يركز على مفهوم المقاومة كحركة كفاح مسلح ضد الاحتلال الصهيوني لأراضٍ لبنانية وعلى مجتمع المقاومة كبنية حاضنة للحركة بدون أية أفكار بشأن التحرر الوطني. غير أن التجربة البطولية المرة في سوريا وضعت الحزب وقائده في مواجهة استحقاق فكري رئيسي يتعلق بأولوية مفهوم الاستقلال السياسي والاقتصادي والتقدم الاجتماعي.

وفيما يتعلق بما أسماه "النزعة العلمانية الواقعية" لدى الحزب، يقرر حتر أن ثمة "علمانيات" وليس علمانية واحدة، وأنها ليست كلها إحادية وغريبة. ويعرّف العلمانية بأنها "صيغة فكرية سياسية يتحدد مضمونها وفقاً للضرورات القومية للمجتمعات. ففي المشرق، مثلاً، لا يشترط أن تقوم العلمانية على أساس الفصل الجذري والتام بين الدين والسياسة، وإنما على حيدة الدول الوطنية إزاء الطوائف والمذاهب والإثنيات، والقبول بالتعددية الدينية والمذهبية والثقافية على أساس حقوق المواطنة الفردية وحقوق الإنسان. وما انفك نصر الله يبتُّ إشارات علمانية بإلحاحه على تقديم أولويات المقاومة على الولاءات الدينية والمذهبية والفكرية والثقافية. وبعد إشعال الحرب الهمجية على سوريا، انغمس حزب الله، الإسلامي، ومقاتلوه، الإسلاميون، بشكل مباشر وبكل قوة في معركة الدفاع عن الدولة السورية القومية العلمانية التعددية. ويضرب مثلاً على ذلك القتال المستميت الذي خاضته والتضحيات الجسام التي بذلتها المقاومة التابعة لحزب الله الشيعي اللبناني دفاعاً عن بلدة معلولا المسيحية السورية. وما زال مشهد

التحية العسكرية التي أداها أحد المقاومين أمام تمثال لمريم العذراء فيها شاهداً على روح احترام التعددية في ثقافة المقاومة.

وهنا يلتقط حتر بعمق دلالات الفرق والمفارقة بين حدثين مهمين في سيرورة حزب الله، وإن كانا متباعدين زمنياً: الانتقال من القتال في البوسنة والهرسك، جنباً إلى جنب مع السلفيين الجهاديين والإرهابيين، إلى القتال في معلولا ضدهم، جنباً إلى جنب مع المسيحيين وجنود الدولة السورية العلمانية. تلك قفزة حملت حزب الله إلى موقع تقدمي آخر تجلّى في إعادة الاعتبار إلى المقاومة اللبنانية العلمانية والإشادة بنضال جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية "جمول" التي أطلقت شرارة المقاومة المجيدة ضد الاحتلال الإسرائيلي في عام 1982، الأمر الذي يستدعي إعادة كتابة تاريخ المقاومة في لبنان من منظور تعددي لا ديني، ويُعتبر ضرورياً لتلاحم القوى الوطنية على اختلاف مشاربها الأيديولوجية ومكوّناتها الاجتماعية وكياناتها السياسية من أجل تجذير ثقافة المقاومة والمواطنة في لبنان. وهذا يقع في صلب مقتضيات حركة التحرر الوطني.

ويخلص الكاتب ناهض حتر إلى الجزم بأن حسن نصرالله تبنّى خطاب التحرر الوطني، مستنداً إلى الكلمة التي ألقاها في 5 تشرين الأول/نوفمبر 2015 وتضمنت عدداً من مفاهيم حركة التحرر الوطني العربية التي طالما استُخدمت في أدبيات الأحزاب الشيوعية العربية، ويتساءل: مَنْ كان يتوقع أن سيبدأ معمّماً هو الذي سيوقظ الخطاب الشيوعي العربي من سباته؟ هذا يثبت برأيه أن العلاقة الجدلية بين الفكر الثوري والتاريخ الاجتماعي تسير حقاً في طرق متشعبة ووعرة، وأمکن في هذه الحالة العيانية أن يتجلى حضورها من خلال حدوث تحوّل نوعي نتج عن تراكم كمي في فكر قائد مقاومة "إسلامية"، أبعد ما يكون عن الشيوعية كأيدولوجيا- وإن كان منهجه في التفكير أقرب إلى المادي الديالكتيكي- فهل يا ترى خطر يبال ناهض حتر، على طريقته في هذا الكتاب، أن يمدّ رابطاً فكرياً في موضوع حركة التحرر الوطني بالذات بين حسن نصر الله ومواطنه المناضل والمفكر الشيوعي الكبير الشهيد مهدي عامل؟ هو لم يقل ذلك صراحةً في هذا الكتاب، ولم يقله لي يوماً، ولا أعرف ما إذا كان قد فكّر به أو عبّر عنه قبل أن

يلقى المصير نفسه الذي لقيه الشهيد مهدي عامل.

وفي هذا السياق من المهم الإشارة إلى أن نصرالله لا يحدد خندقى المجابهة التاريخية على أساس فسطاطي الإيمان والكفر، بل من منظور الصراع بين الاستعمار والتحرر الوطني. كما أنه لا يدعو المؤمنين إلى النضال من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية، بل من أجل حرية الأوطان والشعوب واستقلالها وامتلاك ثروتها. ولا ينظر إلى الصراع التاريخي الراهن بوصفه صراع حضارات وأديان ومذاهب وعقائد كما تفعل حركات الإسلام السياسي، بل بوصفه صراعاً بين قوى الاستعمار العالمي والشعوب الطامحة إلى التحرر الوطني، ويعلم أن دوافع وأهداف القوى الاستعمارية ليست الحقد على الإسلام، فثمة "إسلام" سياسي ظهير وحليف لها، ومسلمون أدوات ومطايا تستخدمهم لتدمير دولنا والسيطرة على شعوبنا ونهب ثرواتنا و"فتح" أسواقنا، بينما هم يتبجحون، كذباً أو جهلاً، بأنهم يخوضون حروب "الفتح" الإسلامي وحروب الردة و يقيمون الإمارات الإسلامية ودولة الخلافة في دار الهجرة على أي شبر من أراضي "الكفار" الذين هم بنظرهم في جاهلية القرن الحادي والعشرين يعمهون.

وفي مسألة أخرى من مسائل حركة التحرر الوطني العربية، يتطابق موقف حسن نصرالله من إسرائيل مع المفهوم التحرري الذي يرى أن إسرائيل مجرد أداة استعمارية لتحقيق أهداف استعمارية، وأن المجابهة معها هي مجابهة شاملة مع الإمبريالية وتابعيها وأدواتها الأخرى من أنظمة رجعية وقوى طائفية وإسلامية تكفيرية. وبعبارة أخرى، يؤمن حسن نصر الله بأن إسرائيل جزء من منظومة استعمارية متكاملة، ويستحيل الانضواء تحت هذه المنظومة ومجابهة إسرائيل في الوقت نفسه مثلما يتظاهر البعض من باب التحايل أو الاحتيال.

من هذا البحث يخرج الكاتب ناهض حتر بخلصة مفادها أن حسن نصرالله وحزبه، بعد انخراطهما المبدئي المكثف حتى النهاية في المعركة المصيرية الضروس للدفاع عن سوريا، ليسا كما كانا قبله. فالحرب السورية التي خاضها حزب الله في البداية دفاعاً عن المقاومة ولأغراض حماية مقامات ومقدسات شيعية،

أخذته إلى فضاء آخر، بدون أن تكون لديه "عدة فكرية" لاستيعاب مستجدات وتعقيدات الصراع في سوريا وعليها. ولكن نصرالله بذكائه وقيادته الفذة، وفوق ذلك بإخلاصة لضالة المؤمن-الحقيقة- استوعبها بسرعة وعالجها بجرأة. هكذا يتوصل الكاتب إلى استنتاجه الرئيسي بشأن القفزة النوعية لانتقال حسن نصرالله إلى خطاب حركة التحرر الوطني في جملة قضايا أساسية أتى على ذكرها في سياق الكتاب (النظرة إلى الصراع العالمي كصراع بين قوى النهب والعدوان الاستعمارية وبين الدول المستقلة، وهي نظرة تحكم القضايا الأخرى كالصراع مع إسرائيل وطبيعة التحالفات المحلية والإقليمية والدولية، وأولوية الاستقلال والدولة الوطنية والتنمية وصولاً إلى القبول الواقعي بنوع خاص من العلمانية على حد تعبيره). ويتوقف الكاتب عند القول بأن حسن نصرالله وحزبه لم يتمكنوا بعد من التوصل إلى الشق الثاني من أيديولوجية حركة التحرر الوطني، وهو الشق الاجتماعي.

ومن ناحيتي لا يمكنني الزعم بأن لديّ جواباً على السؤال المهم والتمين الذي ينبثق من مقولة ناهض حتر في هذا الصدد: هل توصل حسن نصرالله وحزبه الآن إلى الشق الثاني من أيديولوجية حركة التحرر الوطني أم لا، ولكنني أعتقد أنه لو كان ناهض بيننا اليوم لكان لديه جواب.

هوامش على متن "هبة نيسان"

شكّلت ما درج الأردنيون على تسميتها بـ هبة نيسان التي اندلعت في 17 نيسان/ أبريل 1989 حدثاً عظيماً وعلامة فارقة في تاريخ الأردن منذ عام 1970 من حيث أنها:

- عمّت أرجاء البلاد، من معان التي انطلقت منها جنوباً إلى إربد شمالاً؛
- قدّمت نحو 15 شهيداً وعشرات الجرحى ومئات المعتقلين، ناهيك عن "المختفين" والمطاردين نتيجةً لأعمال القمع التي مارستها قوات الأمن؛
- مثّلت أول احتجاج شعبي على بدء مرحلة التحول النيوليبرالي والتخلي عن الدولة الريعية؛
- كانت غير مسبوقة، وهذا هو الأكثر أهميةً ودلالة، من حيث أنها مثّلت أول صدام مباشر وعنيف ينشب بين نظام الحكم وقاعدته الاجتماعية من "الكتلة الشعبية الأردنية"، الأمر الذي سيشتكّل الإرهاصات الأولى لتغيير طبيعة العلاقة بين نظام الحكم والأردنيين في وقت لاحق.

المُخرجات: عناوين كبرى ومضامين صغرى

تكرّرت تراجيديا الأوزار والثمار التاريخية، إذ أن الجماهير المنتفضة التي صنعت الهبة والمناضلين الذين أيّدوها حملوا أوزارها، بينما قطفَ رجال السلطة والانتهازيون ثمارها. واستطاع النظام تحويل التحدي الكبير إلى فرصة ثمينة، وعمل على إعادة إنتاج نفسه، وخرج إلى الشعب بعباءة مقصّبة - اسماها التحول الديمقراطي- ومكّن من إعادة الجماهير المنتفضة- الناشز بنظره- إلى بيت الطاعة.

أما مناضلو الأحزاب والقوى السياسية المعارضة في الحقة العرفية، فقد تفاوتت ردود أفعالهم واستجاباتهم بعد مغادرتهم السجن والشارع وعودتهم إلى بيوتهم: فمنهم من سارَ على خُطى امرئ القيس وتخلّى عن الثأر لأبيه الملك القليل مقابل الاحتفاظ بجلده:

رضيتُ من الغنيمة بالإياب؛

"لقد طوّفتُ في الآفاق حتى

أو في حالٍ أحسن وضع اللوم على قومه وردّد قول العرجي:

”أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا
ليوم كربيهة وسداد ثغر“.

ومنهم من سار في أرفال الحلم الرومسي القديم ”من السجن إلى البرلمان“ - كنتُ أحدهم؛ ومنهم من التحق بصفوف النظام وأدرك قضة من كعكته؛ ومنهم من آوى إلى جبل يعصمه من ماء الطوفان الملوّث ولادّ بصمت الاعتكاف بانتظار مكر التاريخ.

لقد حلّت حقبة جديدة، بل عصر جديد، حاملاً معه ”ثقافة“ جديدة بدأت بتجريف الثقافة الوطنية التقدمية التي تدهورت وانحطّت لتحلّ محلها الثقافة الليبرالية، بل ”الثقافة“، وسادت أفكار العولمة الأوليغارشية و”فلسفة“ بئسة لا تزن قشرة بصلة ودين جديد اعتنقته نخب ثقافية وسياسية كثيرة، أركانه ”نهاية التاريخ“، أي انتصار الرأسمالية المتوحشة النهائي، و”صدام الحضارات“ بدلاً من كفاح الشعوب ضد الإمبريالية ومن أجل التحرر والتحرير والتنمية المستقلة. وطفق العديد من المثقفين يلهثون خلف الجوائز والمكافآت والانتشار في النوافذ الثقافية والإعلامية المضّاءة بالنفط والغاز، حيث ”يحدّد اللحن من يدفع للزمار“. ووصل الأمر ببعضهم في سنوات الحرب على سوريا إلى حد تأييد القوى الإرهابية الظلامية التابعة لمشغّلها العالميين والإقليميين.

مأزق الشيوعيين الأردنيين

شكّل الشيوعيون الأردنيون أغلبية المعتقلين السياسيين في سجن ”سواقة“ الصحراوي من أعضاء الأحزاب والتنظيمات السياسية، الذين كان من بينهم أيضاً أعضاء في الجبهتين الشعبية والديمقراطية وحزب البعث ومستقلون، بينما شكّل المنتفضون غير السياسيين الأغلبية العظمى في ”متن“ الهبة وكان الشيوعيون قبل فترة وجيزة من اعتقالهم قد أعلنوا وحدة هشة ومتوجسة بين أطراف الحركة الشيوعية الأردنية، ما لبثت أن تفككت بعد خروجهم، بل إن بوادر الوهن والتفكك ظهرت داخل السجن. وبدلاً من تحويل ذلك التحدي في السجن إلى فرصة، مثلما فعل النظام، وذلك بتعزيز الوحدة فيما بينهم وتدارس الأوضاع الناشئة واجتراح حلول جديدة للمشكلات الجديدة التي طرحها الحدّث والمرحلة، فقد تحوّلت الفرصة

المحتملة إلى مفوّتة.

رحلة موسكو الفاصلة

بعد الخروج من السجن، وبعد إجراءات الإفراج عن جوازات السفر المحتجزة ورفع حظر السفر، التي استمرت عقوداً إبان الأحكام العرفية، تلقّى الحزب دعوة من قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي لزيارة موسكو للتعرف على مشروع ميخائيل غورباتشوف الغامض حينئذٍ (بيرسترويكا وغلانوسست- أي إعادة البناء والشفافية) لِمَا زُعمَ أنه إصلاح وتجديد الاتحاد السوفييتي والاشتراكية، وعلّمنا هناك أنهم وجّهوا دعوات للأحزاب الشيوعية الأخرى للغرض ذاته، طبعاً بهدف مُضمّر وهو إقناع الأحزاب الشيوعية بالمشروع وتأييده، أو لإثارة حالة من الارتباك في صفوف الحركة الشيوعية العالمية، تحوّل دون اتفاقها على موقف موحد مناهض للمشروع وفضحه قبيل الانفجار العظيم القادم [الرأي الأخير بأثر رجعي].

أرسل الحزب وفداً من المكتب السياسي واللجنة المركزية إلى موسكو، كنتُ محظوظاً بمشاركتي فيه. في موسكو عُقدت حلقات دراسية لمدة أسبوعين في أكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، حاضرَ فيها عدد من أساتذة الأكاديمية من منظّري مشروع غورباتشوف، وطرحوا أفكاراً غامّة وردّدوا بعض "الآيات والأحاديث الماركسية" المبتورة من سياقاتها، واستشهدوا بشذرات معزولة من ماركس ولينين وغيرهما، ووزّعوا كتاب غورباتشوف المتهافت "البيروسترويكا: تفكير جديد لبلادنا والعالم" (حقاً؟) وكتيبات أخرى قليلة، أبرزها "وصية لينين السياسية"، وهي مجموعة الرسائل والمقالات التي زُعمَ أن لينين كتبها وهو على فراش المرض العضال الذي انتهى برحيله وأطلق عليها اسم "وصية لينين"، والتي قال باحثون روس مرموقون فيما بعد إنها رسائل مزوّرة، استخدمها كل من زينوفيف وتروتسكي ضد ستالين بهدف استبعاده من قيادة الحزب، وكذلك فعل خروتشيف بعد وفاته، ثم استخدمها غورباتشوف في "البيروسترويكا" لتحطيم الاتحاد السوفييتي والقضاء على الاشتراكية باسم لينين.

بعد تلك اللقاءات في الأكاديمية والجولات الحرة التي قمتُ بها بصحبة ومساعدة بعض طلابنا في العاصمة موسكو، وخصوصاً في شارع الفن "أرابات"، الذي أقام فيه شاعر روسيا العظيم بوشكين لفترة من الزمن. (قيل إن أصل الاسم عربي وهو "الرباط" لأن أجدادنا العرب المسلمين أيدهم الله بنصر من لُدنه ووصلوا إلى ذلك المكان واتَّخذوه رباط خيلهم، فسُمي بهذا الاسم). ويبدو أن غورباتشوف أراد لهذا الشارع أن يلعب دوراً شبيهاً بدور "هايد بارك" في لندن من حيث حرية الرأي والتعبير، لكن باتجاه واحد منظم، حيث شهدتُ بنفسي الهجوم الحاد والسخرية البذيئة والعداء الصريح للاتحاد السوفييتي وثورة أكتوبر الاشتراكية والحزب الشيوعي السوفييتي والزعماء الشيوعيين السوفييت واحدًا واحدًا، من لينين إلى تشيرننكو و غورباتشوف نفسه، وللأشترائية والماركسية ومنظرِّيها الأوائل، بمن فيهم، بل على رأسهم، ماركس وإنجلز غير الروس، الذين صوّروهم على شكل الدمية الروسية الشهيرة "متروشكا" وبناتها الشبيهات بها، بدءاً بماركس وانتهاءً بأصغرهن غورباتشوف الذي لم يسلم رأسه من الهجوم، طبعاً لأنه كان يجب أن ينتهي بانتهاء دوره. شهدتُ تشنيعات أشكالا ألواناً، بالرسم والخُطب والغرافيتي والموسيقى والغناء والمنشورات واللافتات، لوَّثت الهواء الذي تنفَّسته قصائد أعظم شعراء القومية الروسية بوشكين، التي وصفها النقاد بأنها "موسيقى في أشعار، وتمثيل في صور شعرية". لقد كان مشهد "أرابات" بمثابة بروفة "ربيع مسكوبي" مبكر.

أثناء فترة الزيارة لاحظتُ أن من "أضخم" الأحداث الشعبية التي دُقَّت لها الطبول كان افتتاح أول فرع لسلسلة مطاعم ماكدونالدز الشهيرة في موسكو في عهد غورباتشوف "الإصلاحي". طلبتُ من أحد طلابنا اصطحابي إلى هناك، فقادني إلى ساحة بوشكينسكايا بموسكو، مسرح الحدث. كان المشهد لا يصدَّق: آلاف مؤلفة من الناس يصطفُّون في طوابير "دودية" لم أستطع رؤية أولها، قيل لي إن العدد يصل إلى خمسة آلاف شخص يومياً يتدفقون من مختلف مناطق البلاد إلى العاصمة للحج إلى ماكدونالدز. أردتُ أن أتحدث إلى أحدهم، فذهبنا إلى آخر الطابور وأخذنا موقعنا فيه. كان أمامنا شاب وصديقته، سألتهما عن سبب وجودهما هناك، فأجابت الفتاة بنبرة لا تخلو من استخفاف بسؤالِي:

- ألا ترى؟ نريد أن نشترى ماك، ”بغ ماك“ Big Mac (الكلمة الأخيرة قالتها بالإنجليزية).

- ولكنكما ستقفان لساعات طويلة قبل أن تصلا إليه؟

فرداً الشاب بأنهما مستعدان للانتظار حتى صباح اليوم التالي من أجل ذلك.

- وهل يستحق الأمر كل هذا العناء؟

طبعاً طبعاً، كررها.

- مع أن الغربيين أنفسهم يصنفونه بأنه ”جنك فود“؟

- لا صدق، هذه دعاية شيوعية!

دعاية شيوعية؟ يا للهول! إلى هذا الحد انحدر بهم الأمر؟ قلت لمرفقي.

عدنا إلى أكاديمية العلوم الاجتماعية، مروراً بمكتب الحجوزات التابع للأكاديمية كي نشترى تذاكر دخول إلى مسرح البولشوي العظيم الذي طالما حلمتُ به، والذي تحقّق فعلاً. خلف الكاونتر دارَ حديث بدا غاضب اللهجة بين موظفتين، بينما كانت إحداهما تبيعنا التذاكر. بعد خروجنا من المكتب، سألتُ رفيقي الطالب عن فحوى الحديث، فقال إنهما تحتجان على سهولة توفير تذاكر الدرجة الأولى للأجانب من قبل الحزب الشيوعي، بينما المواطن السوفييتي لا يستطيع الحصول على تذكرة من أي درجة في شهر.

إذن ”المسألة“ تتعدى كونها رغبة في تذوّق وجبة ”بغ ماك مع فرينتش فرايز ولارج كوك“ جديدة عليهم، أو شراء تذكرة لمسرح البولشوي، بل ثمة وراء الأكمة سُغل دؤوب وممنهج.

بعد الأكاديمية والشارع باتّ واضحاً لي تماماً أن ”مشروع“ إصلاح وتجديد الاتحاد السوفييتي والنظام الاشتراكي ما هو إلا مشروع تفكيك الاتحاد السوفييتي والقضاء التام على النظام الاشتراكي. وعلينا أن نفكر ونحلل ونعدّ الخطط لمواجهة هذا الاحتمال وأن نتخذ موقفاً مناهضاً له. وأود هنا أن أؤكد أن رأيي هذا ليس حكمة بأثر رجعي، وإنما كَوْنْتُهُ وَقُلْتُهُ لعدد من أعضاء الوفد هناك وُعِدْتُ به إلى اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأردني الذي عُقد خصيصاً للاطلاع

على حصيلة زيارة الوفد الحزبي وتقييم استخلاصاته، حيث قامت القيامة، إذ دافع بعض الرفاق عن مشروع غورباتشوف باعتباره مشروعاً إصلاحياً حقيقياً، ورأوا أن ما قلته يجب ألا يُعمَّم، لأنه قد يؤدي إلى إشاعة الارتباك والإحباط في صفوف الحزب.

لا ريب في أن انهيار الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية الأخرى وتحولها إلى الرأسمالية بعكس اتجاه التاريخ، أو ربما باتجاهه حرفياً، أي نقطة النكوص في حركته اللولبية، كان له أثر "الصدمة والرعب" علينا، كما هو على الحركة الشيوعية وحركة التحرر العربي والعالمى بأسرها. ففي سنوات الكفاح المجيد، كان إيماننا بقضيتنا لا يتزعزع، بل يصل إلى حد يشبه "إيمان العجائز" بتعبير عمر بن الخطاب فلم نكن نخاف من القمع ولا نخشى اقتحام الصعاب ولا نتوانى عن التضحية في سبيل القضية، حتى تحولنا من مناضلين إلى مضحّين- وشتان بينهما- ولسان حالنا يلهج بالدعاء: "اللهم إنا لا نسألك حملاً خفيفاً بل ظهراً قوياً". آنئذٍ كان الاتحاد السوفيتي ظهرنا ودارنا الاستنادي المعنوي، وبانهياره كُسر ظهرنا. فشعرَ كثيرون بالإحباط واليأس، و"كفروا" بالاشتراكية والماركسية، وحتى بالتحرر الوطني، واعتنقوا ديناً جديداً، هو دين الليبرالية المعولم الذي "يُجِبُّ" كل ما قَبَّله، ولا نبي بعده!

العدالة الانتقالية: الحقيقة والإنصاف والمصالحة

في عام 2008 عُقدت ندوة في مقر منتدى اليسار الاجتماعي قدمت فيها ورقة مفصلة تَضَمَّت مشروعاً حول العدالة الانتقالية- على غرار تجارب جنوب أفريقيا وبعض بلدان أمريكا اللاتينية وحتى المغرب. وتتلخص فكرة المشروع- الذي يُقرأ من عنوانه- في إنشاء لجنة للحقيقة والإنصاف والمصالحة تتولى المطالبة بفتح ملفات انتهاكات حقوق الإنسان التي ارتكبتها السلطات بحق الأفراد منذ عام 1952 حتى تاريخ طرح المشروع، الذي يشتمل على الكشف عن الانتهاكات ومرتكبيها وضحاياها، وتقديم المتهمين بارتكابها إلى محاكمات عادلة، وإنصاف الضحايا وجبر الضرر، الذي يشمل اعتراف نظام الحكم بارتكاب الانتهاكات وتقديم الاعتذار للضحايا وإعادة الاعتبار لهم ودفن تعويضات لهم أو لعائلاتهم عمّا

لِحَقِّ بهم من أضرار. ويمكن في المرحلة الأولى الاكتفاء باعتراف النظام بالانتهاكات التي ارتكبت بحقهم وإعادة الاعتبار لهم والاعتذار للضحايا وعائلاتهم، وذلك كي لا تتكرر. وقد شرحتُ المشروع أمام نحو أربعين شخصاً جلَّهم من المناضلين القدامى الذين كانوا قد تعرضوا لانتهاكات مختلفة في فترة الأحكام العرفية. بيد أنه قوبل بعدم اهتمام شبه كامل، وأحياناً باستهجان وسخرية، حيث سألتني بعض الرفاق مستنكراً: هل تريد أن تقبض ثمن نضالك يا رفيق؟ وهكذا وضعتُ مشروعِي على رفوف النسيان ومعه الأمل في أن يأتي غيري لينفض عنه الغبار ذات يوم، أو يقترح مشروعاً آخر أفضل منه.

تسألونني ماذا بعد؟/ما العمل؟/ما هو الحل؟

لينين كان لديه جواب عبقرِي عن هذا السؤال أثبت التاريخ صحته: الثورة الاشتراكية في الحلقة الأضعف روسيا القيصرية، والإسلام السياسي في جعبته جواب إلهي مطلق: الإسلام هو الحل لكل شيء. أما أنا، بتواضع إمكاناتي وقلة حيلتي، فلا أملك جواباً، لكن التاريخ المُغيث ربما يخبئ لنا فسحة أمل كي لا يضيع عيشنا، ويصنع لنا مفتاحاً ذا نصلين لفتح باب يُفضي إلى حل لهذه المعضلة الوجودية التي يكابدها بلدنا:

الأول يتمثل في عدم الاستعاضة عن القاعدة الاجتماعية الأردنية القديمة المُقالبة "باستنبات" قاعدة اجتماعية جديدة رثّة من المهاجرين واللاجئين والمهجرّين والمجنّسين والموطنّين سياسياً وقناصة الفرص من فوائض الإقليم ومُخرجاته وبحسب مقتضيات خلق أزماته و "حلّها"؛ والثاني يتمثل في انطلاق حركة نضال وطني- طبقي مشترك تنخرط فيه "الكتلتان الشعبيتان الأساسيتان" الأردنية والفلسطينية للدفاع عن الأردن وفلسطين معاً، أي التشبُّث بتحرير فلسطين وعودة أصحابها الشرعيين إليها، وإفشال خطة إنشاء وطن بديل على أرض الأردن في ما يُسمى بـ "صفقة القرن" بغض النظر عن أية تسميات مخزّنة في جراب الحاوي الأمريكي.

باليه "حلم ليلة في منتصف الصيف": مسرح البولشوي

لعلّ ما ساعدني على تخفيف هول الصدمة والشعور بالهَمّ والغمّ الذي أصابني في رحلة موسكو أنني حققتُ حلمًا شخصيًا قديمًا، وهو زيارة مسرح البولشوي العظيم ومشاهدة فرقة الباليه الأولى على خشبته. وها هو الحلم يتحقق: الطفل البسيط ابن قرية بشرى في سهل حوران الذي درسَ حتى صف "التوجيهي" على نور السراج ثمرة أربعة وكتبَ وظيفة النسخ عشر مرات في كل مرة على الطبلية جامهًا على ركبتيه، و الفتى الذي ذهبَ إلى مدارس مدينة إربد سيراً على قدميه في الوحل بجزمة الكاوشوك ماركة "باتا"، والرجل الذي قضى سنوات شبابه مرتحلًا بين الزنازن والسجون أو مُلاحقًا ومتوارياً عن الأنظار أو محروماً من العمل والسفر في سجن كبير يُدعى الوطن، والقادم للتو من سجن دشنته هبة نيسان وحرّرتَه منه، يدخل مسرح البولشوي القيصري العظيم، يمشي الهوينى كي لا يعرّ صفو الجمال وسحر الموسيقى، مرتدياً "بدلة" وربطة عنق كما تقتضي "دكتاتورية" تقاليد المكان المعشوقة! لا أنسى تلك النشوة والهيام والشعور بانعدام الجاذبية الأرضية وأنا أتأمل جمال المسرح الأخاذ من الداخل، أبهتته وعبقّ تاريخه، أسقفه وجدرانه وطبقاته وشرفاته ولوحاته ونقوشه وأرضيته ومقاعدَه، وأنا أشاهد باليه مسرحية ويليام شكسبير الشهيرة "حلم ليلة في منتصف الصيف" بأداء فرقة باليه البولشوي الأولى، الأروع في الدنيا.

سنتياغو الأردني: قصة موت معلن

تهيد

”قصة موت معلن“، كما هو معلوم لديكم، اسم الرواية المعروفة للروائي وكاتب القصة القصيرة والصحفي الكولومبي الكبير والشهير غابرييل غارسيا ماركيز، الحائز على جائزة نوبل للآداب لعام 1982 ”على رواياته وقصصه التي يمتزج فيها المتخيّل والواقعي في عالم مركب غني يعكس حياة ونزاعات قارة بأكملها“. وسنتياغو نصار هو بطل الرواية القتل/الضحية، وقد ارتأيتُ- وهي من الخصال غير الحميدة في بلدنا- أن أسميه سنتياغو الأردني لغايات الرمزية الكثيفة المقصودة في هذا النص، وعلى هدي ماركيز في مزج الخيال والواقع.

حبكة القصة: النص الأصيل (رواية ماركيز)

هذه الرواية التي تدور أحداثها، بل قُل حدثها الوحيد إن شئتم، في إحدى قرى كولومبيا، تسجل وقائع مقتل الشاب سنتياغو نصار، الذي اتُّهم بأنه فضَّ بكاره أنجيلا فيكاريو. ففي ليلة الدخلة يكتشف العريس بياردو سانت رومان أن عروسه ليست عذراء، فيعيدها إلى بيت أهلها في الليلة نفسها. وحين يسألها شقيقها بيدرو وبابلو عن الفاعل، تخبرهما بلا تردد بأنه سنتياغو، فيقرران قتله لغسل عار شقيقتهما، ويقتلانه فعلاً في فجر اليوم التالي.

كان جميع أهالي القرية تقريباً يعرفون أن سنتياغو سيقتل هذا الصباح، إذ أن الشقيقين بيدرو وبابلو أعلنوا على الملأ أنهما يخططان لقتله، بيد أن أحداً لم يعمل على منع وقوع جريمة القتل، على الرغم من أنهم لم يصدقوا أن سنتياغو هو الذي قام بتلك الفعلة. بل إن القاتلين حرصا على الإفصاح عن نيّتهما والتباهي بها أمام الجميع، وفي أعماقهما نداء يكاد يقول: أليس بينكم من يمنعنا؟

فهذه بلاسيديا لينيرو، والدة سنتياغو، التي اكتسبت شهرة كبيرة في تفسير الأحلام في القرية، لا تستطيع أن تغفر لنفسها إساءة تفسير المنام الذي رآه نجلها سنتياغو في الليلة التي سبقت مقتله حول الأشجار والعصافير، والذي فسّرتَه على أنه

فأل حسن. وتلك ماريا اليخاندرا سيرفانتيس، بائعة الهوى الأنيقة ذات العينين اللتين تشبهان عيني اللبوة، أخذت تتناول الطعام بشراهة حزناً على وفاته، بينما قالت خطيبة بابلو برودنسيا كوتيس إنها لم تكن لتتزوج لو لم يغسل عار أخته. أما كلوثيلدي أرمنتا، صاحبة دكان بيع الحليب، الذي انتظر فيه الشقيقان لقتل سنتياغو، فكانت امرأة متبصرة، اكتشفت أن الشقيقين منهكان وأنهما سينفذان فعلتهما من باب الواجب ليس إلا، ولذا قدمت لهما زجاجة "رم" أملاً في أن يثملا وينسيا الأمر، وأما زوجها فلم يستمع إليها ولم يأخذ تحذيرها من خطتهما على محمل الجد، ففضى نحه من هول الصدمة عندما شاهد الطريقة الوحشية التي قُتل بها سنتياغو. وأخذ كريستو بيدويا، صديق الراوي وسنتياغو المشترك، يجري في أرجاء القرية بحثاً عن الأخير كي يحذّره، ولكنه لم يجده. وفي غمرة انشغاله بالتأهب لاستقبال المطران الذي سيزور القرية فجر ذلك اليوم، نسي كاهن القرية الأب أمادور أن يحذّر سنتياغو من خطة قتله. وفشل الكولونيل الكسول لزارو أبونتي في منع وقوع الجريمة بسبب انغماسه في لعبة دومينو. ويبلغ جزار القرية فوستينو سانتوس ضابط الشرطة المحلي بأن الأخوين فيكاريو تحدثا أمامه عن قتل سنتياغو، فيقوم بدوره بإبلاغ الكولونيل، الذي يأتي إلى دكان الحليب وينزع السكينين من يديهما ويكتفي بالطلب منهما العودة إلى منزلهما. ولكنه بعد مقتل سنتياغو أعرب عن اعتقاده بأنهما إنما كانا يقومان بعملية "بلف" ليس إلا.

في منزل سنتياغو استيقظ الجميع على صفير بوق القارب البخاري الذي يقلُّ المطران، ومن البوابة الأمامية للمنزل التي لم يكن يستخدمها إلا نادراً، والذي رافقته إليها الخادمة في ذلك الصباح، خرج سنتياغو متوجهاً إلى رصيف الميناء كي يكون، شأنه شأن بقية أهالي القرية، في استقبال المطران. صمت بوق القارب وصاحت ديوك القرية التي يقدمها الأهالي هدايا للمطران، لا ليأكلها بل لتُذبح له وتُقطع أعرافها كي يُحضر منها الحساء المفضل لديه. أغلقت الخادمة البوابة المشؤومة التي سيُعثر تحتها، لكن بعد مدة طويلة، على رسالة تحذّره من أن ثمة من ينتظره لقتله. كان العديد من الناس المحتشدين على رصيف الميناء يعتقدون أن سنتياغو سيُقتل، بينما كان هناك أشخاص عديدون آخرون يعتقدون

أنه ليس معرّضاً لخطر جدي.

في بيت ماريا البهيج، حيث الموسيقيون وحلبة الرقص وفتيات المتعة الخلاصات اللائي كن يسرّين عن الرجال غير المشبعين في ليلة الزفاف، كانت ماريا، يقول الراوي، تفضُّ بكارة جيل بأكمله، وكأن لسان حاله يقول: كيف يمكن لسنتياغو أن يفض بكارة أنجيلا إذن؟

ترحل أنجيلا فيكاريو من القرية في محاولة لدفن الفضيحة وشهودها وذكرياتها، ويزورها الراوي في مكان إقامتها الجديد بعد مضي مدة طويلة بقصد الحصول منها على إجابة عن السؤال اللغز العالق الذي لا يعرف جوابه أحد سواها: مَنْ الذي فعلها في تلك الليلة الغارقة في البعد والغموض؟ فتجيبه بصوت خافت ونبرة هادئة من خلف النظارة الطبية وعبر خصلات الشعر الرمادي التي خلفها الزمن: إنه سنتياغو. ومع ذلك، يقول الراوي، إن سنتياغو وأنجيلا لم يُشاهدا معاً في القرية أبداً. ويضيف أن أنجيلا كانت قد بكت في تلك الليلة المشؤومة، لا بسبب ضرب والدتها المبرح لها، وإنما لأن بياردو سكنها منذ اللحظة التي أعادها فيها إلى بيت أهلها، وظلت تكتب إليه الرسائل إلى أن أعادها إليها كاملة، لكن غير مفتوحة.

ولعل أشدّ ما أقلق قاضي التحقيق هو عدم توفر أية إشارة تلمّح من قريب أو بعيد إلى أن سنتياغو هو الذي فضّ بكارتها، وأن أنجيلا نفسها لم تحدد كيف حدث ذلك وأين حدث، ولكنها ظلت مصرّة على أنه هو الفاعل. ويعتقد الراوي شخصياً أن سنتياغو نصار "مات بدون أن يفهم موته".

بدأ العائدون من رصيف الميناء يتخذون أماكنهم في الميدان لمشاهدة الجريمة التي ستقع وكأنهم سيشاهدون فيلماً سينمائياً من أيامنا هذه. هرع كريستو بيدويا إلى داخل النادي الاجتماعي ليلبغ الكولونيل أبونتي بما حدث. بيد أن الكولونيل لم يصدقه في البداية لأنه كان قد انتزع السكينين من الأخوين فيكاريو، ثم أدرك أنه نسي السكينين الآخرين المكلمتين اللتين شحذاهما في سوق الجزارين

استعداداً لتنفيذ الجريمة المرسومة. وبسبب تباطؤه في الخروج من النادي، اقترفت الجريمة قبل أن يصل إلى المكان.

في تلك الأثناء كان سنتياغو في بيت خطيبته فلورا ميغيل، التي كانت قد سمعت بخطة قتله. وفكرت في أنه حتى لو لم يُقتل، فإنه سيرغم على الزواج منها كي تستردَّ شرفها. ولذا شعرت بالانزعاج والمهانة والغضب، وعندما وصل إلى بيتها سلّمتها صندوق رسائله، وتمنت له القتل، لا التوفيق- كما هي حال العاشقين المتحضرين الذين ينهون علاقتهم بأدب- ثم دخلت غرفتها وأغلقت بابها وربما أجهشت بكاء مرير حتى غرقت وسادتها بالدموع .

لقد أيقظت طرقات سنتياغو على باب بيتها جميع مَنْ فيه، وأبلغه والدها بأن الأخوين فيكاريو سيقتلانه، فردَّ سنتياغو بالقول: ”إنني لا أفهم شيئاً“، وغادر المنزل متوجهاً إلى بيته. صرخت به كلوثيلدي أرمنتا أن اهرُبْ أيها التعس، فانطلق راكضاً بخطى سريعة لكن لاهثة وقطع مسافة الخمسين ياردة إلى البوابة الأمامية لمنزله وأخذ يقرعها بقوة، لكن والدته كانت قد أوصدت الباب بالترس للتو كي تمنع القاتلين من الدخول وتحميه من المصير المعلوم لأن الخادمة كذبت عليها وقالت لها إن سنتياغو عاد إلى المنزل وإنه سعد إلى غرفته. فأمسك به الأخوان فيكاريو عند الباب وشرعا في طعنه بالسكاكين بطريقة بدا فيها ذبحهم للخنازير في حظيرة المنزل أكثر رحمة وأقل بشاعة بكثير. وبعد أن خرجت أحشائه من بطنه، جثا على ركبتيه، ثم نهض ومشى مسافة مئة ياردة حول المنزل ودخل من باب المطبخ، ثم هوى على الأرض ووجهه إلى أسفل مثل شجرة اقتلعتها من جذورها رياح عاتية.

النص الدخيل

تجدد الإشارة هنا إلى أن هذا النص حمّال أوجه، وهذا أمر لا يعيبه، وهو قابل للتأويل والتفسير بلا تابوهات، ويمكن أن يذهب فيه القارئ/القارئة كل مذهب. كما أن الرموز فيه كثيفة نوعاً وكثيرة عدداً ومشرفة نوافذها للريح من الجهات الأربع، ويختلط فيه النص الدخيل (هذا المقال) بالنص الأصيل (رواية ماركيز).

* فقصّة موت معلن يمكن أن تكون مجرد وقائع "جرّيمة شرف" عادية معروفة لجميع أهالي القرية قبل حدوثها، لكن دون أن يمنع وقوعها أحد. وقد تكون قصة موت دولة أو كيان أو فقدان هوية أو اندثار شعب أو فناء أمة حضارياً، معلومٌ للجميع ومتوقّع من الجميع، لكن بدون أن يمنع وقوعه أحد.

* وسنتياغو الأردني (عقلة أو خلف أو حمدان) ربما يكون ضحية أو مجرماً، بطلاً أو بيدقاً، مقداماً أو رعيديداً، متبصراً أو سطحياً، حكيماً أو متهوراً، يعرف كل شيء ولا يبالي به أو لا يعرف شيئاً مما يدور حوله، روحاً بوهيمية عاشقة للحياة أو ناسكاً محبطاً يتوق إلى الموت. وربما يمثل شخصاً عادياً أو جندياً مجهولاً أو معلوماً، أو بلداً أو وطناً أو شعباً أو قضية أو مستقبلاً أو أي شيء يخطر لك أو لا يخطر. ويمكن أن يجسّد الشهداء "الحاف" - كما الجنود الحاف- في مخيم "الرقبان" على الحدود الاردنية السورية الذين ارتقوا على أيدي الوحوش الوهابية المسيّرة دون أن يأبه بهم أحد، أو ربما التفت إليهم بعضهم بطرف عين بأثر رجعي لرفع العتب، وجاء كاتب هذا النص الدخيل متأخراً جداً، بعد تردد طويل وتقليب فكرة صلاحيته للنشر منذ ما بعد وقوع الجريمة الداعشية المروعة، لا لإنصافهم "بجوز كلام" - فهم في هذا ليسوا بحاجة إلى كلامه- وإنما طلباً لراحة ضمير قلق لا يملك من أدوات التعبير سوى الكلام.

* أنجيلا فيكاريو يمكن أن تكون عروساً عادية تلتخّ شرفها فباحثٌ بالحقيقة، أو كذبتٌ واتهمت سنتياغو للتغطية على الفاعل الحقيقي الذي ربما تكون قد أحبّته بجنون إلى حد إزهاق روح بريئة في سبيل حمايته، أو انتهك عرضها غاصبٌ جبار ارتعدت فرائصها من انتقامه، أو اغتصبت سفاحاً واختارت أهون الشّرّين، أو ربما كانت ضحية اغتصاب جماعي وخشيت أن يضيع شرفها بين القبائل التي "تنافخت شرفاً" مثلما فعل العرب للقدس عروس عروبتهم (في قصيدة مظفر النواب).

* بياردو سان رومان، ذو الخصر النحيل والعينين الذهبيتين، ابن العائلة الثرية و"العريس اللقطة"، و"النوفوريش" الذي اشترى بيت أرستقراطي عريق جار

عليه الزمان، فمات حسرةً على بيع إرثه وتاريخه، يمكن أن يكون مجرد أفاق وصائد مكافآت يرى في مصائب قوم عنده فوائد، أو غاسل أموال اختلسها من قوت شعبه وتزئّر بها وجالّ على الأمصار، فوجد ضالته هنا، أو عميلاً أو جاسوساً خان شعبه وباع وطنه للعدو، أو إرهابياً وتاجر أسلحة أضحى أمير حرب مفاوض بين عشية وضحاها، أو فوق هذا وذاك بغيراً يجلس على برميل نبط أو غاز، في يناه سيف الله المسلول وفي يسراه رزمة "البنكنوت" الأخضر، يدمر دولاً ويطوّع أخرى، يشتري منظمات دولية وأحزاباً سياسية وضمائر وميديا ومثقفين، يصنع الأقدار ويوزع الأرزاق ويبيع "قواشين" الجنة والنار الوهابية كيفما شاء (ما شاء هو، "لا ما شاءت الأقدار"، كما قال ابن هانئ الأندلسي في مديح المعز لدين الله).

*كلوثيلدي أرمنتا، صاحبة دكان الحليب الذي ينتظر فيه الشقيقان فيكاريو لقتل سنتياغو، يمكن أن تكون امرأة عادية تشاهد وتراقب ما يحدث أمام عينيها ومن موقعها، أو امرأة بصيرة ذات خبرة في معادن الرجال وقدرة على النفاذ إلى أعماقهم، أو زرقاء اليمامة التي ترى الشجر يمشي وتحذّر القوم، ولكنهم يعتقدون أنها تهذر ولا يصدقها أحد إلا بعد وصول الغزاة إلى داخل الحمى ووقوع الفأس في الرأس ثم اقتلاع العينين الزرقاوين الثابتين إلى الأبد.

* الأب أمادور، كاهن القرية الذي يعلم بخطة القتل ولكنه ينسى تحذير سنتياغو منها لأنه منشغل بترتيبات استقبال المطران الذي يمر بمحاذاة القرية دون أن يكلف نفسه عناء التوقف لإلقاء التحية على أهالي القرية المصطفين منذ بزوغ الفجر على رصيف الميناء وهم يحملون ديوكهم المهداة إلى مائدته، يمكن أن يكون رجل دين عادياً نسي في غمرة انشغاله في استقبال رئيسه أن يهتم بشؤون أحد أفراد رعيته أو مأموميه، أو مسؤولاً صغيراً أو كبيراً أو قائداً أعلى أو زعيماً أوحده لا يتورع عن سفك دم مواطنيه في سبيل كسب رضى المايسترو وبركاته، والبقاء في الكرسي بأي شكل أو وضعية، جالساً كان أو واقفاً أو مُقعياً أو منبطحاً على بطنه أو قفاه.

* أما الراوي- في رواية ماركيز- الذي قام بزيارة أنجيلا فيكاريو بعد مرور زمن طويل بهدف الحصول منها على جواب صادق ومؤكد عن السؤال اللغز: مَنْ الذي فضَّ بكارتها؟ فإنه يمكن أن يكون باحثاً أنثروبولوجياً أجنبياً سيقوم، بعد خمسين.. سبعين.. تسعين عاماً، بزيارة بحثية "للسكان الأصليين الأردنيين" لدراسة أوضاعهم عن كتب ومعرفة مآلاتهم: هل ما زالوا على قيد الوجود أم انقرضوا؟ أين يعيشون؟ هل وُضعوا في محميات طبيعية، أم اندمجوا في مجتمع/مجتمعات المهاجرين في بلاد الفرص الجديدة؟ أم انصهروا في الخزان الديمغرافي الكبير، الذي لا يدق أحد جدرانها من الداخل طلباً للخروج منه (غسان كنفاني)، بل على العكس من ذلك، يتسابق الناس على دق جدرانها من الخارج طلباً لدخوله؟ هل حافظوا على تراثهم الشعبي وهويتهم، أم فقدوها؟ أم مازالوا يحفظون أغاني الحصاد والبيادر والأعراس والحناء والطهور ويحافظون على طقوسها-الهجيني والدحية والجوفية والموَال والعتاب- أم أنها بادت وسادت محلها "ثقافة" هجينة مسخ لا تنتمي إلى شيء ولا ينتمي إليها أحد؟ هل بقي لهم متسع في صحن سلطة، قطعة بندورة أو خيار أو حتى بصلة يمكن تمييزها، أم أنهم ذابوا في طنجرة شوربة يستحيل فيها التعرف عليهم، ولا حتى تمييز طعمهم فيها؟

خاتمة

عندما يعثر الباحث الأجنبي على بعض السكان الأصليين ويقابل منهم عقلة الحفيد، يسأله عمّ إذا كان يحفظ شيئاً من الأغاني الشعبية التقليدية لأجداده، فيُطرق الحفيد برأسه طويلاً قبل أن يردّ بالقول إنه يتذكر أن جدته عيشة رحمها الله كانت تغني لأحفادها وحفيداتها مثل تلك الأغاني، ويذكر منها صدر بيت: "سَبَل عيونه ومَد إيدِه يحنُونه"، ولكنه لا يتذكر عجز البيت ولا يعرف معنى "سَبَل عيونه".

”كولاج“ المطربة والرقيب: مَشاهد وروايات...

وفيه: الراوي الأول، الراوي الثاني، الراوي الثالث، الرقيب عواد، المطربة أشجان، الرائد مراد، الجندي (أبو شبرية)، المعلق، وآخرون.

المشهد الأول: محمية الموجب

قال الراوي الأول إن الرقيب عواد من ذيبان خطرَ بباله ذات صباح من صباحات صيف عام 2014 أن يذهب سيراً على الأقدام برفقة شقيقه إلى محمية الموجب. وعلى الرغم من وعورة تضاريسها، فقد أغرته المحمية بالمشي لاستكشاف أسرارها حتى تاه في مجاهلها ونسي أسباب رحلته تلك ودوافعها وهدفها الأصلي. في بيت العزاء قصَّ شقيقه للمعزَّين من الأقارب وأهل القرية ما حدث لشقيقه، فقال إن عواد انتحى جانباً لقضاء حاجته وراء أكمة، ولكنه أطال المكوث، فلعب الفار في عبَّه، وراح يناديه بأعلى صوته ويبحث عنه في كل الاتجاهات إلى أن سمع أناته واستغاثته، فافتفى مصدر الصوت إلى أن وصل إليه، فوجد أن أفعى سامة قد لدغته. حاول الأخ الاتصال بالإسعاف بواسطة الهاتف الخليوي دون جدوى لأن المحمية كانت خارج التغطية، مما اضطره إلى ترك أخيه في الموقع والسير على قدميه إلى أن وصل إلى الطريق العام بعد ساعة ونيِّف، واتصل بأهله وأقاربه، الذين “فزعوا” لنجدته واتصلوا بدورهم بالسلطات طالبين إرسال طائرة مروحية لحرارة حالة الرقيب ولكونه عسكري. مرَّت ساعات ولم يستجب أحد لنداء الاستغاثة، وتفاقت حالة عواد واشتدت آلامه وتفشى سريان السم في شرايينه، وأخذ يتلوى ألماً ويتوسل المساعدة إلى أن غاب عن الوعي. وبعد لأيٍ أحضر أقاربه حماراً لنقله من قاع الوادي إلى أعلى التله بجانب الطريق العام، ثم في سيارة الدفاع المدني إلى أقرب مستشفى، ولكن روحه فاضت وصعدت إلى بارئها قبل الوصول إلى المستشفى.

المشهد الثاني: المدينة الوردية

قال الراوي (واحد ثاني)، الذي أكَّد أنه ليس مجرد راوٍ وإنما شاهد عيان كذلك، إن المطربة ”أشجان“ التي قال إنه حظي بمشاهدتها من قرب والتقط صورة

سيلفي نادرة معها بعد هبوط الطائرة المروحية العسكرية التي أقتتها من عمان إلى المدينة الوردية، والتي صرّحت لوسائل الإعلام أنها دفعت أجرتها عدداً ونقداً من حرّ مالها وعصارة حنجرتها الماسية، على العكس مما زعم المرجفون والفاسقون وأصحاب الأجندات الأجنبية من ديدان الأرض الأردنيين، (وتلا الآية الكريمة: يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا..). وأقسم أنها آية من آيات الجمال وأنها تفكُّ عن حبل المشنقة. وأضاف أنه سمع أن بعض الحُساد، وخاصة الحاسدات، يقول إنها سمينة قليلاً، ولكن ذلك ليس إلا من باب القول الشعبي المأثور "ما لقوش في الورد عيب، قالوله يا احمر الخدين" (قال طلاب أردنيون كانوا يدرسون في البلدان الاشتراكية إن الراحل ياسر عرفات "أبو عمار" كان يردده كلما "انزق" في النقاش معهم)، هذا فضلاً عن أن الراوي، بصراحة، يعشق النساء "المللزات" على أيّ حال.

وفي تأويل الوقائع، "عنعن" الراوي الأول روايته المتعلقة بالرقيب عواد، ونقل عن فلان وعن ابن فلان وعن أبي فلان. فقال أحدهم إن الرقيب ذهب إلى محمية الموجب كي يفكر في إيجاد حل لمشكلته العويصة كمعيل لخمسة أطفال وزوجة وأبوين مستئن، أكل وشرب وتعليم وطبابة ومواصلات وقسط الإسكان العسكري لبيته المكون من ثلاث غرف ومنافع متواضعة الذي بناه للعائلة في القرية. و"الي بسطحه أكثر شي" موبايلات الأولاد وبطاقات الشحن التي ليس لها نهاية. وقال آخر إن الوقت كان غُرّة رمضان والناس صيام، وأراد لعائلته أن تفطر على زفر، شأنها شأن بقية خلق الله من الصائمين، فيمم وجهه صوب المحمية كي يصطاد بعض الأرناب البرية أو ما تجود به الصدفة من طيور، على الرغم من أن الصيد فيها محظور، فاصطادته أفعى وحدث ما حدث.

لكن الراوي الثاني دحض أقوال الراوي الأول، وقال إن عواد رقيب متقاعد، وليس تحت السلاح، ويتقاضى راتبين، راتب التقاعد العسكري وآخر لقاء عمله حارساً أمنياً في أحد مولات عمان، ولكنه طمّاع وعينه فارغة. وهو فوق ذلك ليس من دافعي الضرائب كصاحب المول الذي أيّد الاحتجاجات ضد قانون ضريبة الدخل من تحت لتحت، على عكس عواد الذي لم يعبر عن موقفه الحقيقي ولم يتزحزح

من موقعة في الحراسة خوفاً من فقدان عمله أو حتى من حسم أجر يوم عمل من راتبه.

أما بالنسبة للمطربة أشجان، فقد حاجج الراوي الثاني بأن هذه المطربة العظيمة تستحق من الحفاوة والتكريم أكثر مما قوبلت به (نقلها على متن طائرة مروحية عسكرية وفتح خزنة البترا لها)، وقال: انظروا إلى ملامحها ودققوا في قسّمات وجهها النبطية، سترون أنها تشبه الملكة "شقيقة" زوجة الحارث الرابع ملك المدينة الوردية المنحوتة في الصخر التي زارتها المطربة، فمدينة البترا إذن مدينتها، ومدفن الحارث الرابع خزنتها، فعلام هذي الضجة الكبرى علاماً؟ كما استشهد بأراء العديد من الصحفيين الذين أكدوا أن هذا الأمر شائع تاريخياً في علاقة الفنانين والكتاب والمفكرين بالحكام والحكومات، وأن الدول التي تريد أن تحجز لها موقعا مرموقاً على خريطة العالم، تدفع الأموال من أجل إقناع المشاهير بزيارتها، وتُرتّب لهم برامج خاصة لزيارة معالمها الحضارية والثقافية والسياحية، على أمل أن تحظى منهم بلقطة قصيرة أو تعليق موجز.

المشهد الثالث: صحراء الجفر

يتدخل الراوي الثالث متأخراً، لكن منفِعلاً، لينبّه إلى أنّ حدثاً أدهى وأمرّ وقع للرائد المقدم مراد الذي ارتقى مع ثلة من رفاقه العسكريين شهداء في المذبحة الإرهابية التي اقترفها دواعش معروفون في مدينتي الفحيص والسلط، بعد أن قاد بنفسه عملية اقتحام المبنى المفخّخ. فقد نُقل الرائد مراد في عربة نقل الموتى إلى بلدته الجفر على بُعد نحو مئتي كيلو متر عبر الصحراء في عز قيظ الصيف، بدلاً من زفاهه مكرماً ومطوّقاً بأكاليل الغار على متن مروحية عسكرية تحلّق به بين صقور صحراء الجفر الحرة وتطوف فوق أطلال معتقل الجفر الشهير كي يتأكد قبل إيداعه مثواه الأخير من أن مركز الاعتقال الرهيب الذي كان السجين الشيوعي الدكتور يعقوب زيادين يعالج فيه آباءه وأجداده ويُجري لهم عمليات صغرى بسكين المطبخ في أواسط القرن المنصرم، قد أُزيل عن وجه الأرض إلى الأبد، وكي يطمئن على أن "مقناة" البندورة والخيار والكوسا التي زرعها المعتقلون، ودوالي العنب وأشجار الخوخ والرمان التي غرسوها في أرضه اليباب لا تزال تؤتي

ثمّارها يانعةً ومزدهرة، والفقاسة السحرية التي صنعوها وكانت تُخرج الحي من الميت- أي تُخرج الصوص من البيضة من دون وجود دجاجة كما اعتقد حراس السجن- لا تزال تعمل، والعُود الرنّان الذي صنعه الشيخ داود من خشب صنّاديق الشاي المستعملة وخيطان النايلون لا يزال محفوظاً في مكان يليق به وصالحاً للعزف على أوتاره.

ويستدرك الراوي الثالث ليقول إن مثل هذه الجريمة الإرهابية النكراء سُرعان ما يتم طمسها في زوبعة تجريم اغتيال الشخصية، لا اغتيال الشخص، وبرفع فزاعة الإرهاب الذي ”يدهم أوكتاه وفوهم نفّخه“.

هنا يتقدم المعلق ليذكّر بأن الاحتفاء بالمشاهير من الفنانين والمفكرين ليس من الأحداث النادرة في التاريخ، وأن فنّانين ومفكرين عظاماً نالوا أعلى درجات التكريم والاهتمام من قبل زعماء عظام:

- أم كلثوم وعبدالناصر

في خطاب التنحي الشهير الذي ألقاه الرئيس عبد الناصر غداة الهزيمة التي مُنيت بها مصر والعرب في حرب حزيران 1967، أعلن عبد الناصر تنحيّه عن منصبه، فخرجت ”بهية“ - مصر - عن بكرة أبيها لتقول لا للتنحي، وغنّت له سيدة الغناء العربي أم كلثوم قصيدة صالح جودت:

”قُمْ واسمعا من أعماقي

فأنا الشعب

إبقِ فانت السد الواقي لمنى الشعب

ابقِ فانت الأمل الباقي لغد الشعب.

قُمْ إنا جففنا الدمع وتبسّمنا

قُمْ إنا أرففنا السمع وتعلمنا

قُمْ إنا وحّدنا الجمع وتقدّمنا

قُمْ للشعب وبدد يأسه

واذكر غده واطرح أمسه

قُم وادفعنا بعد النكسة
وارفع هامة هذا الشعب.“

وعندما قرر عبد الناصر خوض حرب استنزاف ضد إسرائيل تحت شعار إزالة آثار العدوان، بادرت سيده مصر الأولى، وهو اللقب الذي أطلقه عليها الرئيس عبد الناصر واغتصبته جيهان السادات بعد رحيله، إلى الإسهام بفنّها في ما سُمي حينئذ بالمجهود الحربي من خلال القيام بجولة غنائية عالمية وعربية، حيث خصت ربيع حفلاتها بأكمله للمعركة القادمة. وقد استهلّت جولتها الأوروبية بحفل باريس الذي أقيم على مسرح أولمبيا في نوفمبر/تشرين الثاني 1967 وحضره الرئيس شارل ديغول، الذي أرسل لها لدى مغادرتها بلاده برقية قال فيها: ”لقد لمست بصوتك سيدي شغاف قلبي وقلوب الفرنسيين جميعاً.“ أترون مستوى التكريم والمكرّم والمكرّم يا رعاكم الله؟

وبمناسبة الحديث عن الرئيس ديغول واهتمامه بالفنانين والمفكرين، يذكر المعلق أن الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر ورفيقته حتى الموت سيمون دي بوفوار كانا يُعتبران من أبرز أيقونات انتفاضة الطلبة والعمال التي اجتاحت فرنسا في مايو/أيار 1968. ولذا قدّم أحد مستشاري ديغول لرئيسه نصيحة باعتقال الفيلسوف ”المحرّض“ سارتر إذا أراد وقف الانتفاضة، فجاء رد ديغول رمزياً وبمستوى سارتر: ”إن فرنسا لا تعتقل فولتير“.

- في رثاء عبد الناصر

وعندما رحل عبد الناصر في 28 سبتمبر/أيلول 1970 سجّلت أم كلثوم القصيدة المغربية في الحزن ”رسالة إلى الزعيم“، التي كتبها نزار قباني ولحنها رياض السنباطي ومنع بثّها أنور السادات، حيث ذكر مدير استوديو التسجيل في الإذاعة أن ”الست“ كانت توقف التسجيل وتجهش بالبكاء بين كل مقطع وآخر:

”زعيمنّا، حبيبنّا، قائدنّا،
عندي خطابٌ عاجلٌ إليك،

من أرض مصر الطيبة،
من الملايين التي قد أدمنتُ هواكُ،
من الملايين التي تريدُ أن تراكُ..
عندي خطابٌ كلُّه أشجانُ،
لكنني..

لكنني يا سيدي
لا أعرفُ العنوانُ..
يا أيُّها المعلمُ الكبيرُ،
نقسمُ باللهِ العليِّ والقديرِ
أن نحفظَ الميثاقُ،
ونحفظَ الثورة..

وعندما يسألنا أولادنا:

مَن أنتم؟

في أيِّ عصرٍ عشتُم؟

في عصرٍ أيِّ ملهم؟

في عصرٍ أيِّ ساحر؟

نجيبُهُم: في عصرِ عبدِ الناصرِ.. في عصرِ عبدِ الناصرِ.“

يتدخل المعلق: على رسلكم يا قوم، إن هذه إلا مقارنات ضيزى، لنعدُ إلى جوهر السياق، وهو صراع الأضداد الذي لا يتوقف بالريموت كونترول، والتناقضات الصارخة التي لا تُحل بتبويس اللحى، وحفرة الانهدام الكبير التي لا يمكن ردمها براحة اليد. وبوسعي هنا أن أضيف مشهدين تاريخيين لهما صلة بالموضوع على سبيل المثال:

المشهد الرابع: لندن ”أمتان“

تخبرنا زوجة لينين ورفيقته ناديجدا كروبسكايا أن إلتش، أثناء إقامته في لندن في مطلع القرن العشرين درس الحياة هناك، حيث كان يهوى الذهاب في جولات طويلة على أسطح حافلات الركاب، وأحبَّ ازدحام السير في تلك المدينة التجارية

الضخمة، والميادين الهادئة بمنازلها الأنيقة المحاطة بالمساحات الخضراء، حيث لا تسير سوى عربات الخيل الأنيقة. بالمقابل كانت هناك شوارع ضيقة حقيرة مكتظة بحبال الغسيل والأطفال المصابين بالأنيميا وهم يلعبون على عتبات البيوت التي تستأجرها الطبقة العاملة من مالكي العقارات في لندن. إلى تلك الأماكن كنا نذهب سيراً على الأقدام، وكلما شاهد إيتش تلك التناقضات المخيفة والهوة السحيقة بين الثراء والفقير، كان يصك أسنانه وينطق بالإنجليزية كلمتين: Two Nations "أمتان"، ومنها ربما استشرف حتمية الثورة الاشتراكية.

المشهد الخامس: قصة مدينتين

في رواية "قصة مدينتين" يصف تشالز ديكنز حادثة وقعت في باريس، حيث يدهس الماركيز سان إيفرموند ابن الفلاح الفقير جاسبار، ثم يلقي إليه بقطعة نقدية ثمناً لفلذة كبده. هنا يسارع مسيو ديفارج إلى مساعدة جاسبار، فيلقي إليه الماركيز بقطعة نقدية أخرى هو الآخر. ولكن، بينما يهيم سائق عربة الماركيز بالرحيل، يقذف ديفارج القطعة النقدية داخل العربة، مما يثير غضب الماركيز.

في تلك الليلة، يعمد جاسبار (الذي اختبأ أسفل عربة الماركيز وتبعه إلى قصره) إلى قتل الماركيز أثناء نومه، ويترك خلفه ورقة كتبت عليها: "انقلوه بسرعة إلى قبره، التوقيع جاك".

ومن المعروف أن المدينتين في رواية ديكنز هما باريس ولندن في نفس الفترة خلال عام 1775. وتُصوّر الرواية حياة البؤس والشقاء في الأحياء الفقيرة في مدينة باريس، وتسلب الضوء على اضطهاد الطبقة العاملة الفرنسية ومحتتها في ظل القمع الوحشي للارستقراطية الفرنسية خلال السنوات التي مهّدت للثورة الفرنسية.

ويقول ديكنز في مقدمته الاستهلاية: "في كلا البلدين كان السادة المهيمون على مخازن الدولة الخاصة بالخبز والسمك يعتقدون أن الأوضاع ستظل على حالها الراهن أبد الدهر، ذلك لأنهم كانوا يرون الواقع في حالة سكون، بيد أن كل شيء ما لبث أن تغيّر وتبدّل بسرعة منقطعة النظر.

هنا يتدخل الراوي الأول ليوضح أنه لا يتمنى أن يضطر ابن الرقيب عواد الأردني إلى القيام بما قام به الفلاح الفرنسي جاسبار فيختبئ تحت بردعة الحمار الذي نقل والده إلى المستشفى جثةً مسمومة ويترك لقاتله رسالة مشابهة موقّعة باسمه الحقيقي أو المستعار أو بدون توقيع يقول فيها: "ادفنوه بسرعة، فإكرام الميت دفنه". ولكنه يخشى فيما إذا استمر الحال على ما هو عليه أن يخرج مع أقرانه على الناس جميعاً شاهرين سيوفهم في "ثورة" للجوع والمهمشين والمستعبدن تهدم المعبد الليبرالي على رؤوس "المؤمنين والكافرين" أجمعين، وستكون "ثورة" لا تُبقي ولا تذر، وهي هواجس مرعبة عبّر عنها حتى أحد كبار المصرفيين الأردنيين أثناء اعتصام الدوار الرابع.

المشهد السادس: اعتصام الرابع- الليلة الأخيرة/الليلة الكبيرة

يشرح الراوي الأول كيف يصل الجندي المتقاعد عدنان القريات إلى الدوار الرابع بعمان قادماً من الطفيلة للمشاركة في الاحتجاج على الأوضاع المعيشية والاقتصادية التي يعاني منها كغيره من الأردنيين. ينضمُّ إلى صفوف المحتجين بصورة سلمية طبيعية، متزئراً بشريته التي لا تفارق خصره أينما ذهب، لا ليستخدمها ضد أحد، وإنما كممارسة اجتماعية ولزينة الرجل (كالجنيبة اليمينية). يُمسك به أحد رجال الدرك ويحاول تخليصها منه فيُصاب الأخير بجرح بسيط في يده، ويُعتقل عدنان بتهمة طعن الدركي، وتجري محاولة استغلال تلك الحادثة العرضية لإدانة المحتجين وفض الاحتجاج. تكتب ابنته كلاماً جميلاً عن والدها على فيس بوك توضح فيه الحقيقة البسيطة، وتُثبت براءته من تلك الفرية بعد وقت قصير. ولكن على الرغم من ذلك يزعم الراوي الثاني أن الرقيب عواد هو نفسه أبو شبرية الطفيلي الذي طعن الدركي بسلاح أبيض، مما أثار اضطراباً كبيراً بين صفوف المحتجين وأحدث انقساماً حاداً بين أنصار "الحراك السلمي الحضاري الصديق للبيئة" وبين جمهور الغاضبين الزاحفين من المحافظات الذين رفعوا سقف الشعارات والهتافات "العاقلة" حتى طالت المقامات العليا، الأمر الذي حداً بجماعات عديدة ومتنوعة الأطياف من المحتجين إلى الانسحاب ومغادرة المكان وإنهاء الاعتصام. وفي أرجاء الدوار الرابع حيث يقع مقر رئاسة الوزراء، دوى هتاف "يسقط يسقط راضي المفتي" وصل إلى مسامع الرئيس المطلوب إسقاطه مع قانون ضريبة الدخل،

الذي كان سبب المشكلة ومحور الحراك وهدفه. وبالفعل أُقيلت حكومة المفتي، وأعلن الرئيس المكلف عن نيته "سحب" القانون من مجلس النواب.

ونُقل عن مصدر وثيق الصلة أن المفتي، عندما طالت الاحتجاجات وتأججت واستشعر خطورتها توَّسل إلى "فوق" أن يُسمح له بسحب القانون من مجلس النواب تلبية لمطلب الجماهير الغاضبة، إلا أن طلبه رُفض لأن مَنْ يشعل شرارة الاحتجاجات يجب ألا يكون هو نفسه مَنْ يُطفئها. واعترف بعض وزراء الحكومة المُقالة بأثر رجعي أن القانون هبط عليهم من علٍ وجاءهم مترجماً من الخارج، وطلب منهم إقراره دون مناقشة أو اعتراض، بل إن معظمهم لم يطلع عليه.

هكذا إذن حُلَّت الأزمة، وخرج كل طرف رافعاً إشارة النصر، كلٌّ بحسب هدفه وغاياته، وانتهت "ثورة الطبقة الوسطى" التي أطلقت شرارتها النقابات المهنية بكل شرائح منتسبها، ثم خافت في أول الطريق، وكانت قد دعمتها الشركات، وأمدتها الجماهير الشعبية بزخم كبير، حيث شاركت فيها الحركات الشعبية في المحافظات ومجموعات شبابية يسارية صغيرة وقيادات وكوادر يسارية وقومية سابقة وحالية محدودة وأعضاء منظمات "إن جي أوز" ذات التمويل الأجنبي والعديد من المنظمات والجماعات الشبابية التابعة لأجهزة الدولة "الفوقا". وهكذا أيضاً توقف الحراك الشعبي وساد الهدوء وانصرف المتظاهرون راشدين ("انصرفوا راشدين" صيغة أمر دأب قادة الإخوان المسلمين على توجيهها لأعضائهم لإنهاء المظاهرات التي ينظمونها، كي يتفرَّقوا بهدوء وبدون مشاكل. وبالمناسبة لم يشارك الأخيرون في هذه الاحتجاجات على نحو فعال).

في تلك الليلة الأخيرة، الليلة الكبيرة على الدوار الرابع، وقبل أن تنفض الجماهير وتعود الأمور إلى سيرتها الأولى "والطيور إلى أعشاشها"، كان المشهد مهيباً: حشدٌ ضمَّ مختلف ألوان الطيف، كلُّ له صوته ولونه ومشرِّبه: هؤلاء من جبل عمان وعبدون ودابوق، وأولئك من جبل النظيف ووادي الحدادة وسحاب.. هؤلاء من الكرك ومعان والمفرق، وأولئك من الوحدات والبقعة والحصن.. يا لها من ثورة وردية أفسدت أريجها الفئات الرثة، يقول المعلق، وكي يحتفظ لنفسه ولنا بالطعم

الحلو والرائحة العطرة ارتأى أن يضيف إلى هذا "الكولاج" مشهد الختام بأوبريت
"الليلة الكبيرة" الرائع للكبار الرائعين صلاح جاهين وسيد مكاوي وصلاح السقا

وناجي شاكرو:

"قُبَّة سيدنا الولي دول نوروها

ما احلى البيارق والناس بيزوروها

قُبَّة سيدنا الولي .. بالجو عالية

ما احلى البيارق لما دَوَّروها...

الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كتيرة

ماليين الشوادر يابا من الريف والبنادر

دول فلاحين ودول صعايدة

دول من الكنال (القنال) ودول رشايده

دي الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كتيرة."

طابور خامس على الدوار الرابع

امتعض كاتب هذه السطور لما علمَ باتهام بعض المواطنين الأردنيين بأنهم ”طابور خامس“، فأنشأ يقول:

أصل الحكاية

”الطابور الخامس“ Fifth Column، كما هو معروف، مصطلح صكَّه الجنرال الإسباني إميليو مولا أحد قادة الانقلاب الفاشي على حكومة الجمهورية الثورية المنتخبة، وأشعل فتيل ما عُرف باسم الحرب الأهلية الإسبانية في عام 1936. وقد وُلد المصطلح من تحت إبط الجنرال مولا في تصريح أدلى به أثناء احتدام المعارك وقال فيه إن قواته التي تتألف من أربعة ”طوابير“ ستدخل مدريد، التي كانت تحت حكم الجمهوريين الشرعي، وإن ثمة ”طابوراً خامساً“ تابعاً له داخل المدينة، وهو متربص ومتأهب للانقضاض عليها في الوقت المناسب. ومنذ ذلك اليوم شاع المصطلح، واستخدمه الجمهوريون لوصم أعداء الثورة الفاشيين بقيادة الجنرالين فرانكو ومولا.

في الحرب العالمية الثانية استُخدم المصطلح من قبل دول الحلفاء ضد عملاء النازية. وما أن وضعت الحرب العالمية الساخنة أوزارها، حتى أُطلقت شرارة الحرب الباردة، وشرعت الحكومات الغربية، ولا سيما الولايات المتحدة، في استخدامه ضد الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية، وزرعت أجهزة استخباراتها جواسيس وعملاء من مواطني تلك البلدان الذين تعاونوا معها داخل بلدانهم، وفعل الاتحاد السوفييتي الشيء نفسه مع أعدائه. ثم توسَّعت الحكومات، ولا سيما في بلدان ”العالم الثالث“، في استخدام المصطلح/التهمة ليشمل المعارضين الوطنيين السلميين من مواطنيها، وهو ما دأبت السلطات في بلدنا على استخدامه ضد كل من ينتقدها أو يعارضها أو يبدي رأياً لا يعجبه في ممارساتها أو موافقها منذ أيام الزمن العُرفي حتى اليوم.

وفي "معمعان" جائحة كورونا العالمية- أو المعولمة- وبينما الناس جميعاً "يجوحون وينوحون"، ويكاد الواحد منهم أن "يفرّ من أخيه ومن أمه وأبيه ولكلّ منهم شأنٌ يُغنيه"، انبرى أحد المسؤولين السابقين لاتهام "خمسين- ستين واحد"- معروفين لديه- بأنهم "طابور خامس يريدون أن يحطّموا البلد". فَمَن هؤلاء الخمسين- ستين يا ترى؟ أليس من حق الأردنيين أن يعرفوهم كي يسارعوا إلى لفظهم من بين ظهرائهم ويخلّصوا الوطن الذي يريدون تحطيمه من شرّ أعمالهم؟ وهل يشي هذا التصريح بأن المقصودين هم الأشخاص المشاركون في الاعتصام الأسبوعي "للحراك" الشعبي الأردني تحت شعار "لا للفساد والاستبداد ونهب مقدرات البلاد"، الذي يُنظّم كل يوم خميس على الدوار الرابع؟ (الدوار الرابع يقع في جبل عمان بجوار مقر رئاسة الوزراء ومنه استمدّ الحراك اسمه ورمزيته ومجازيّته كذلك، والحقيقة أن المكان ليس على الدوار الرابع بالضبط، بل على بُعد حوالي نصف كيلومتر في موقف سيارات بالأجرة تابع لمستشفى الأردن، يفصله عن الشارع العام سور وطابور من رجال الدرك يحجبان رؤية المعتصمين عن العابرين، من مشاة ومركبات). ولكن السلطات والحراك توافقاً ضمناً على حل وسط بشأن المكان، بحيث تُحقّق السلطات هدفها بإبعاد الحراكيين عن موقع رئاسة الوزراء الحساس، بينما يحقق الحراكيون البقاء بالقرب من الدوار الرابع وتحت عنوانه الرمزي المكتسب، ويتميّزون عن المشاركين في المسيرات التي يقودها الإخوان المسلمون من أمام الجامع الحسيني في وسط البلد بعد صلاة الجمعة لغايات التوظيف السياسي للدين التي لا تخفى على حصيف. وفي هذا المكان يزاول الحراكيون أنشطتهم السلمية، من خطب وشعارات ولافتات وبيانات عالية السقوف، كما يسمونها، بل مخترقة للسقوف التي التزمت أو ألزمت بها قوى المعارضة السياسية، اليمينية واليسارية والقومية والإسلامية، منذ عقود طويلة؛ وتبادر ناشطات حراكيات، إلى جانب مشاركتهن الفعالة والمميزة في الأنشطة المعتادة للمعتصمين، بتوفير الكتب والقهوة السادة التي كنّ يضعنها على "بسطة" في متناول الجميع، بمن فيهم عناصر الأجهزة الأمنية الموجودون في ساحة الاعتصام.

ومن اللافت أن رقم الخمسين- ستين الذين اتُّهموا بأنهم طابور خامس كان قد بدأ بنحو ألف مشارك قبل ما يزيد على سنة. ثم أخذ بالتناقص التدريجي إلى أن وصل إلى ما هو عليه اليوم، وذلك نتيجةً لتنفيذ "استراتيجية القضم" الأمنية، التي استخدمت تكتيكات التهيب والترغيب، الخشنة والناعمة، الهادئة والصاخبة، القصيرة الأجل والطويلة الأجل نسبياً، والتشدد التعسفي في استخدام قانون الجرائم الإلكترونية لإصدار أحكام قضائية بسجن المحتجين السلميين (بالمناسبة)، بدأ عدد الخمسين- ستين المُشار إليه يتأرجح هبوطاً وصعوداً في "الخُمسان" الأخيرة، فمرةً يرتفع إلى سبعين- ثمانين عندما ينضمُّ إليه شباب حراك بني حسن أو غيرهم من المحافظات، وأخرى ينخفض إلى عشرين- ثلاثين عندما ينخر صقيع الليل عظام كبار السن وُضعاف المناعة من أمثالي.

فإذا كان هؤلاء هم المستهدفون بتهمة الطابور الخامس، وإذا كان مطلقوها على وعي بها، فإنها إذن لتهمة ضيزى وخبيثة لأنها قاتلة وتشكّل وصمة عار سياسية واجتماعية لمن يُتهم بها. كما أنها مثيرة للاستهجان حقاً، فمنذ الأيام الأولى لتفشي الوباء، لم أسمع أو أرى أو أقرأ عن أي أردني وقف ضد الإجراءات الحكومية أو انتقد الحكومة، بل على العكس من ذلك، ما لمستُ سوى التفاف الجميع حولها، حتى أن أشد المعارضين السياسيين المعروفين أعربوا عن مواقف مؤيدة لها غير مرة وأشادوا بها وصفَّقوا لها وتطوَّعوا للعمل معها وتبرَّع بعضهم بالجهد والمال للمجهود الصحي والاجتماعي، وحثُّوا الناس على الامتثال لتعليمات الحكومة التي اعترفوا لها، للمرة الأولى، بمزاولة "الولاية العامة"، وهي التي ما انفكُّوا يهاجمونها بسبب افتقارها لهذه الولاية ولأنها لا تملك من أمرها شيئاً في ظل الأوتوقراطية، بل أيَّدوا العمل بقانون الدفاع رقم 13 لعام 1992. فمن أين جاءت إذن تهمة الطابور الخامس هذه، وعلامَ استندت، وما هي مقاصدها؟ وهل يعلم مُطلقوها أنها من أقسى التهم لأن عقوبتها من أقسى العقوبات؟ فتهمة الطابور الخامس، كما هو معروف، تعني الخيانة العظمى، وعقوبتها بموجب قانون العقوبات الأردني هي الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة. وفي هذه الحالة، ألا يمكن اعتبار هذه التهمة تحريضاً على من توجَّه إليهم، مثلما كانت تهمة "الإساءة إلى الذات الإلهية" التي رُمي بها الكاتب الأردني المرموق ناهض

حتر بمثابة تحريض على اغتياله التراجيدي الذي نُفِّذَ بأيدي الإرهابيين التكفيريين على درج قصر العدل؟ وأنها تطال مجموعة متقدمة من كبار الضباط العسكريين المتقاعدين من المشاركين في الاعتصام وفي قيادته منذ انطلاقه؟

العودة إلى المنشأ: الطابور الخامس والإنتليجنسيا المقاتلة

متاريس الفلسفة والأدب

في كتابه المهم ” أنا إسبانيا: الحرب الأهلية الإسبانية والرجال والنساء الذين ذهبوا لقتال الفاشية“، قدّم المؤرخ البريطاني دافيد بويد هيكوك رواية تفصيلية حول دور العديد من الكتاب والفنانين الغربيين البارزين في مقاومة الانقلاب الفاشي بقيادة الدكتاتور فرانكو على النظام اليساري المنتخب في إسبانيا أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، و حول تأثيرها الكبير والمدهش على حياتهم وأفكارهم وكتاباتهم في خضم المعارك. فقد صوّر كيف كانت ثلّة من الكتاب والفنانين والصحفيين الإنجليز والأمريكيين يقاتلون من حرم جامعة مدريد، وقد اتّخذوا من مكتبة كلية الفلسفة والأدب متراًساً لهم، حيث كانوا يطلقون النار من النوافذ المسدودة بالكراسي ومجلدات الفلسفة الألمانية، في مشهد حيّ لعلّه كان سيُثَلَج صدر ماركس وإنجلز لأن فلسفتهم جاءت لا لفهم العالم فحسب، بل لتغييره أيضاً. وكانوا في استراحة المحاربين بين المعارك يهرعون إلى رفوف الأدب للتزوّد بالذخيرة الرومنسية من أشعار كولريديج ووردزورث. فكان الشاعر الشيوعي الإنجليزي الشاب جون كورنفورد الذي التحق بالألوية الأممية هناك يُطلق النار بحماسة من خلف متاريس الكتب، ليصف تلك الحرب الثورية بأنها ”مرعبة على نحو مُبهج!“

في تموز/يوليو 1936 اندفع عدد غفير من الكتاب والفنانين والمثقفين من بلدان شتى إلى امتشاق السلاح الحربي، فضلاً عن السلاح الثقافي، دفاعاً عن الجمهورية الإسبانية الثانية، كان من بينهم أسماء لامعة، من قبيل جون كورنفورد نفسه وجورج أورويل وإرنست همنغواي، وغيرهم من الأسماء التي شكّلت عصب مادة كتاب المؤرخ دافيد هيكوك الذي قدّم تحليلاً سياسياً إلى جانب الوصف الحيّ للمعارك وحكايات البطولة الرومنسية، حتى أنه لم يتوانَ عن القول إن الحرب

الإسبانية، بالنسبة لذلك الجيل من الكتّاب والفنانين، كانت تتسم بالجاذبية، وإن جاذبيتها كانت تكمن في تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود فيها، ووصلت إلى حد يجعلك تشعر بأن "كل كاتب بريطاني أصيل وجدّ طريقه إلى إسبانيا!" فهذا جورج أورويل يكتب في مذكراته المعنونة: "تحية إجلال وإكبار إلى كاتالونيا" Homage to Catalonia أن "كل مُعادٍ للفاشية في أوروبا أحسّ برعشة أمل". ويفسر المؤرخ هيكوك ذلك بقوله إن جيل أولئك المثقفين فاتّه المذاق العظيم للحرب العالمية الأولى، وكان يتوق إلى فرصة لإثبات شجاعته؛ فأولئك المثقفون لم يكونوا يقاتلون الفاشية فحسب، بل يدافعون عن إسبانيا نفسها.

بهذا الفكر، وبهذه المشاعر، وبهذا الشغف، ذهب العديد من كبار الكتّاب والفنانين التقدميين إلى إسبانيا للقتال ضد الفاشية دفاعاً عن الجمهورية الإسبانية الثانية، قبل أن تتبدل موازين القوى والمواقف والرؤى وتفتّر الحماسة ويتسلّل الإحباط الناجم عن استثناء سوسة الصراع الداخلي في صفوفهم.

لقد انتقلت معارك إسبانيا إلى الشوارع، ثم زحفت نحو متاريس الفلسفة والأدب في مكتبة الجامعة، وأصبح كورنفورد ورفاقه من فيلق المثقفين الأممي في مرمى الخطر وجهاً لوجه، وأصيب الشاعر المتحمس كورنفورد بجروح بالغة في رأسه بشظايا قذيفة اخترقت الجدار، نُقل على إثرها إلى المستشفى، حيث كتب أن "كل الحروب قبيحة، وحتى الحرب الثورية منها، لكن لا يزال لديّ قدر كبير من القوة." بعد شهر من تلك الحادثة، قُتل الشاعر الشاب في معركة ضارية مع القوات الفاشية ولم يكن بعدُ قد تجاوز الحادية والعشرين من العمر.

بعد مقتل كورنفورد، يقول المؤرخ، واصلَ الكتّاب نشاطهم، لكنهم لم يعودوا مُفعمين بالأمل السابق وبالشغف نفسه. وهنا يوضح هيكوك التحول السريع الذي طرأ على مزاجهم القتالي، ليس بسبب خسارة رفيقهم الشاعر الذي كان يتمتع بروح قتالية عالية ويحافظ على جذوتها متّقدة فحسب، بل بسبب انقسام الجبهة اليسارية المناوئة لليمين الفاشي الموحد والمتلاحم، واحتدام الصراع بين فصائلها المتحاربة. لقد واجه مقاتلو الجمهورية الإسبانية الثانية قوات الانقلاب

الفاشي المدعومة من النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين بمختلف أنواع الأسلحة والذخائر، وخصوصاً الطائرات الحربية التي قصفت قرية "غرونوكا" ودمّرتها عن بكرة أبيها على رؤوس سكانها المدنيين المسلمين والتي خلّدها الفنان العظيم بيكاسو في لوحته الشهيرة التي أسماها باسمها. ولم يواجهوا الطابور الخامس التابع لقوات الجنرال مولا داخل مدريد فحسب، بل كان بين صفوفهم طابورهم الخامس الخاص بهم، يتمثّل في التروتسكيين والفوضويين، لكن تحت راية وشعارات "ثورية"، وهي مناهضة "الشيوعية الستالينية غير الثورية" الحاكمة في مدريد.

فهذا جورج أورويل، الذي كتب مذكراته المشار إليها آنفاً تحت عنوان مهيب، قال فيها إن "كل معادٍ للفاشية في أوروبا كلها لا بد أنه أحسّ برعشة أمل"، سيعود بعد الحرب العالمية الثانية ليكتب رواية "مزرعة الحيوان" Animal Farm ضد الشيوعية بطلب من الاستخبارات البريطانية MI6 التي تبينّ فيما بعد أنه وقع في براثنها، وتعاونَ مع منظمة الحرية الثقافية الممولة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وذاك همغواي، الذي كان قد غضب من تخلي أحد رفاقه عن القتال بعد إعدام صديقه خطأً بتهمة التجسس، قائلاً: "ما معنى حياة رجل واحد في وقت كهذا؟"، يكتب مسرحيته الوحيدة "الطابور الخامس" في عام 1938 في مدريد تحت الحصار وبين زخات القذائف من الخارج ورمصاص القناصة التابعين للطابور الخامس وتفجيراتهم الإرهابية من داخل المدينة لفرط حماسته لتلك الحرب الثورية، وفيها يصف الحرب بأنها "كابوس يُقتل فيه البشر عن طريق الخطأ".

خاتمة: شاعران عظيمان في مواجهة الطابور الخامس الفاشي

في 16 أغسطس/آب 1936 قبضَ جنود الفاشية على الشاعر والمسرحي والفنان والموسيقي العظيم فيديريكو غارسيا لوركا واقتادوه إلى منطقة وادي غرناطة، حيث أعدموه رمياً بالرصاص وأخفوا جثمانه، الذي لم يُعثر عليه حتى اليوم، مثلما كان قد تنبأ هو نفسه بذلك:

”وعرفتُ أنني قُتلت
وبحثوا عن جثتي في المقاهي والمدافن والكنائس
فتحوا البراميل والخزائن
سرقوا ثلاث جثثٍ ونزعوا أسنانها الذهبية
ولكنهم لم يجدوني قط.“

ويبيكه بحرقة صديقه شاعر شيلي العظيم بابلو نيرودا في قصيدته ”إسبانيا في القلب“:
”انظر بيتي الميِّت
انظر إسبانيا المحطّمة
فمن كل بيت ميِّت تنطلق معادن مشتعلة بدلاً من الورود
من كل قوقعة في إسبانيا تصعد إسبانيا
من كل طفل ميِّت تصعد بندقية ذات عيون.
من كل جريمة تولد رصاصات ستستقر يوماً ما في قلوبكم
تسألني: ”لماذا لا يحيي شعرك لنا عن الأحلام والأغصان للبراكين العظيمة في موطنك؟“
تعال،
انظر الدماء في الطرقات تسيل !
تعال،
انظر الدماء في الطرقات تسيل !

فيواسيه الشاعر القاتل الحي لوركا بصوت الحرية وهو يقف شامخاً أمام فرقة الإعدام
وظهره إلى الجدار، مناجياً أسطورة إسبانيا وأيقونتها ماريانا:
”ما الإنسان دون حرية يا ماريانا؟
قولي لي كيف أستطيع أن أحبك إذا لم أكن حراً؟
كيف أهبك قلبي إن لم يكن ملكي؟“

- IV -

متاريس ثقافية

- الإنتليجنسيا في الحرب الثقافية: قادة أم بيادق؟
- بانوراما: في الثقافة والسياسة وشؤون أخرى
- غونتر غراس: ضربة شعرية موجعة

الإنليجنسيا في الحرب الثقافية: قادة أم بياثق؟

لعلّ من نافلة القول إن الثقافة ليست واحدة من الساحت التي تُخاض عليها الحروب فحسب، بل هي من المعارك الفاصلة التي تُخاض بها الحروب من قبل الدول والشعوب. ولا يمكنُ كسبُ أية حرب بدون استخدام ترسانة سلاح ثقافي مختزنة أو يتم تجهيزها لتلك الحرب، حتى لو كانت عدوانيةً وغيرَ عادلة وثقافتها زائفةً أو شريرةً أو متوحشة. وبالنسبة لحربنا الدائرة في مواجهة العدوان الإمبريالي- الصهيوني- الرجعي العربي وجحافل الإرهابيين التكفيريين من داعش والنصرة وسُلاتهما، فإن حَمَلَة هذا السلاح ومستخدميه هم المثقفون التقدميون الذين يجب أن يشكّلوا "كتيبة" أو "حامية" تتقدمُ الجيش أو ترافقه أو تحمي ظهره. وتضطلع هذه الكتيبة الثقافية بمهام رئيسية ثلاث: التصدي للعدو ثقافياً وفضح أهدافه الحقيقية؛ وتعبئة الشعب واستنهاضه لمقاومته؛ وبيانُ عدالة القضية الوطنية وشرحها للعالم، وخصوصاً الشعوب والحركات التقدمية، لكسب تأييدها. هذا بالإضافة إلى دور الإنليجنسيا الأساسي الدائم والثابت، وهو الدور الحضاري المتمثل في تكريس وإدامة إشغال مكان لائق للشعب/ الأمة في متن التاريخ، بدلاً من أن ينزاح، أو يُزاح، إلى هامشه كما هي حالنا اليوم. بيد أن السؤال الكبير هو: هل يقوم/ هل قام المثقفون في بلادنا بهذا الدور في الحروب العدوانية الأخيرة على سوريا والعراق وليبيا ولبنان، والجبل على الجرار؟ بل ألم يشغل كثيرون منهم في صفوف أعداء بلادهم وشعوبهم مقابل العطايا والهدايا والهبات والجوائز والمناصب، وعملوا أبواقاً دعائية لهم وزمّارين تحت الطلب؟

من المؤكد أن الزمن سيكشف عن كثير من الأمثلة والممارسات المشينة لمثقفين وكتاب وفنانين، منهم من يُعدُّ من الكبار- ولا أتحدث هنا عن السياسيين، فعن هؤلاء حدّث ولا حرج- على غرار ما كشفت النقاب عنه الباحثة فرانسيس ستونر ساوندرز حول دور وكالة المخابرات المركزية "سي آي آيه" في إدارة الحرب الثقافية الباردة بتشغيل أعداد كبيرة من المثقفين والكتاب والفنانين لصالحها في أوروبا والولايات المتحدة نفسها والعالم ضد الشيوعية والاتحاد السوفييتي إبان الحرب الباردة.

مثقفون أم زَمَّارون؟

ففي كتابها الشهير والمهم للغاية في هذه المسألة "مَن دفع للزَمَّار؟ وكالة المخابرات المركزية والحرب الثقافية الباردة"²¹ تؤكد الباحثة ساوندرز أنه بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية الساخنة أوزارها، وفي أوج الحرب الباردة، أعدت الولايات المتحدة برنامجاً سرياً للدعاية الثقافية في أوروبا الغربية بإدارة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (التي سترد من هنا فلاحقاً باسم "الوكالة"). وتؤكد ساوندرز أن السممة الأساسية للبرنامج هي الادعاء بأنه غير موجود، وأن "دُرَّة تاجه" هي منظمة/مؤتمر الحرية الثقافية Congress of Cultural Freedom، التي أدارها عميلُ الوكالة مايكل جوسلسون خلال الفترة من عام 1950 إلى عام 1967.

ومن المعروف أنه خلال تلك الفترة وصلت المنظمة إلى خمسةٍ وثلاثين بلداً وشغلت عشراتِ الموظفين ونشرتْ أكثرَ من عشرين مجلة مهمة وأقامت معارضَ فنية وامتلكت وكالاتٍ إخبارية ونظمت مؤتمراتٍ دوليةً رفيعة المستوى ومنحت جوائزَ لفنانين وموسيقين وكتاباً وأقامت لهم احتفالاتٍ عامة واحتفالاتٍ خاصة. لقد كانت مهمة منظمة الحرية الثقافية الأساسية تتمثل في إبعاد الانتليجنسيا في أوروبا الغربية عن الاستمرار في التعلُّق بأهداب الماركسية والشيوعية، باتجاه استيعاب "الطريقة الأمريكية" وتحقيق ما سُمي بـ "السلام الأمريكي" - Pax Americana؛ فبدأت الوكالة منذ عام 1948 بإنشاء كونسورتيوم يظلع بمهمتين: أولاهما تحصينُ العالم ضد ما أسمته "وباء" الشيوعية؛ وثانيتها تسهيلُ تمرير مصالح السياسة الخارجية الأمريكية.

ثقافتان.. مشهدان.. موقفان

بموجب الخطة الثقافية التي وضعتها "الوكالة" ونفذتها واجهتها الثقافية "منظمة الحرية الثقافية"، قررت الوكالة إفشال المؤتمر الثقافي للسلم العالمي الذي كان سيُعقد في فندق والدورف بنيويورك في 25 مارس/آذار 1949 عن طريق عقد اجتماع مضاد للمثقفين والكتاب التابعين لها في الفندق نفسه وفي الزمان نفسه.

21- فرانسيس ستونر ساوندرز، مَن الذي دفع للزَمَّار؟ وكالة المخابرات المركزية والحرب الثقافية الباردة، دار غرانتا بوكس للنشر، لندن، 2000.

وقد قدمت الباحثة ساوندرز في كتابها المشار إليه وصفاً تفصيلياً حياً للاجتماعين المتضادين المتعدين في مكان واحد وزمان واحد في مشهدين وموقفين متعارضين: حيث عُقد في قاعة طابق التسوية بالفندق ”المؤتمر الثقافي والعلمي من أجل السلم العالمي“ لماركسيين وشيوعيين أرادوا إرساء سلم عالمي دافئ بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بدلاً من الحرب الباردة، بينما عُقد على عجل في جناح العرسان في الطابق العاشر من الفندق نفسه اجتماعٌ مضادٌ لمجموعة صغيرة من المثقفين التابعين لمنظمة الحرية الثقافية بتوجيه وتمويل من الوكالة، كان هاجسهم وفزعُهم أن ”الحُمُر لم يعودوا ينامون تحت السرير، بل باتوا الآن ينامون في السرير نفسه“، أي في عقر دار الولايات المتحدة وأوروبا. وشكّلوا لجنة دولية مضادة لمؤتمر السلم العالمي، ضمّت أسماء كبيرة، من قبيل تي إس إليوت، أندريه مارلو، بيرتراند راسل، وحتى ألبرت شويتزر، الحائز على جائزة نوبل.

وقد بلغت ضراوة الهجوم على المؤتمر الرئيسي المنعقد في طابق التسوية حدّاً أصبح معه كلُّ مشاركٍ في المؤتمر أو مسانِدٍ له أو متعاطفٍ معه هدفاً للاتهام بالخيانة العظمى وعُرضةً للشك في وطنيته أمام الشعب. حتى أن مدير مكتب التحقيقات الفدرالي إدغار هوفر سيء الصيت أرسلَ أحد عملائه إلى دار النشر التي كانت تعتزم نشر رواية ”سبارتاكوس“ ليبلغها بأن مستر هوفر لا يريد أن يرى رواية هوارد فاست على رفوف المكتبات، وهذا ما تمّ.

وتجزم الباحثة ساوندرز، استناداً إلى معلومات ووثائق، بأن أسماء كبيرة لعدد كبير من الكتاب والفنانين والمؤرخين والعلماء والنقاد في أوروبا ما بعد الحرب العالمية الثانية ارتبطت بذلك المشروع، بطريقة أو بأخرى، بعلمهم أو بدون علمهم. وفي فصل بعنوان ”عندما يتعلم القريديس التصفير“ (تعبير عن الاستحالة) ذكرت الباحثة أن هيئات ثقافية بأكملها، وقفت ضد أنظمة بلدانها واستنجدت بأعدائها، ومن بينها المجر كمثال صارخ في تلك الفترة، عندما طلب نظام الحكم الاشتراكي مساعدة السوفييت للتصدي للثورة المضادة التي فُجّرت في ذلك البلد، والتي ربما كانت إرهابيةً مبكرةً للثورات الملونة اللاحقة. فقد أصدر اتحاد الكتاب المجريين في عام 1956، بإيعاز من منظمة الحرية الثقافية، ”مانيفستو“ عاجلاً، أشبه بنداء

استغاثة عبر اللاسلكي من جبهة القتال، وركيك الصياغة لا يليق حتى بالعملاء الصغار من غير المثقفين. وقد أُذيع المانيستو من راديو بودابست بهذا النص:

”انتباه، انتباه، انتباه، أعزأؤنا المستمعون، سنذيع عليكم الآن بيان اتحاد الكتاب المجريين: ”هنا اتحاد الكتاب المجريين، إلى جميع الكتاب في العالم، إلى جميع العلماء، إلى جميع اتحادات الكتاب، إلى كافة الجمعيات العلمية، إلى نخبة المثقفين في العالم، إننا نناشدكم المساعدة والدعم. لم يعد لدينا وقت، وأنتم تعرفون الحقائق. لا حاجة لأن نقدم لكم تقريراً خاصاً، ساعدوا المجر، ساعدوا الشعب المجري، ساعدوا الكتاب والعمال والفلاحين المجريين، ساعدونا نحن الانتلجنسيا. النجدة! النجدة! النجدة!“²²

يمثل هذه الروح المتهالكة في تقديم الخدمات الثقافية لدول العدوان تعاملً العديداً من المثقفين والكتاب العرب مع العدوان الهمجي المتعدد الجنسيات على سوريا، حيث هبوا لتأمين الغطاء الثقافي لوحشية هذا العدوان، متدثرين برداء ”ثورات الربيع العربي“²³ وألبسوه لبوس الحرب ”الأخلاقية“ الواجبة ضد ”الديكتاتورية“ في سوريا ومن أجل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان التي لم تعرف طريقها إلى بلدانهم يوماً. ورأوا أن أنجع سبيل إلى ذلك هو شخصنة القضية ومذهبتُها وجعلها ”قضية العرب والمسلمين المركزية“، بدلاً من فلسطين، فرفعوا شعار الإطاحة بالرئيس بشار الأسد ومصاحف المظلومية المذهبية على رؤوس الرماح الوهابية. وقد تبنى أولئك المثقفون تلك السردية الليبرالية- الوهابية وتبجحوا بالبطانة السياسية الجوفاء وصاغوها شعراً ونثراً وخطباً عصماء في الميديا ووسائل التواصل الاجتماعي، وتسبقوا، بل تطاحنوا أحياناً و”تواشوا“ (وشى بعضهم ببعض) في سبيل نيل الجوائز الثقافية والأدبية والفنية المحلية والعربية والعالمية، من قبيل ”بوكر“ العربية و”كتارا“ وسواهما- حيث تنهال تهاني النفاق الثقافي المعلنة للفائزين بها، بينما يقلل أولئك المهنتون من شأن زملائهم ويعبرون عن

22- المصدر نفسه

23- لمزيد من الإضاءة على موضوع ”الربيع العربي“ أنظر مقالي في هذا الكتاب بعنوان: ”فيلسوف الربيع العربي وجيفارا الثورة المضادة“،....“

عدم استحقاقهم لها في جلسات النميمة الثقافية المغلقة- أو طمعاً في نشر مقالٍ أو قصيدة أو قصة مدفوعة الأجر في الصحف والمجلات الشهيرة الممولة بالبترو دولار، أو تلقى دعوة لندوة وسفرة من أحد مراكز البحوث المقتنعة المدعومة بالتمويل الأجنبي أو الخليجي، أو الظهور على إحدى الشاشات الفضائية التي يمتلكها ويوجهها مايسترو التمويل والتشغيل ويحدد أحوالها وعازفها.

هنا يجدر التذكير بسيل البيانات السياسية المحللة أحياناً بقشرة ثقافية رقيقة التي أصدرها مئات المثقفين والكتاب والفنانين العرب والسوريين، فضلاً عن العديد من المنظمات الثقافية العربية تأييداً لدول وقوى العدوان وتنديداً بسوريا التي تتصدى للعدوان.

فمنهم من خرجت بياناته تعجُّ بالكاذيب والأضاليل السياسية ضد بلده، لكنها مُموهةٌ بعناوينٍ "ثقافية" من قبيل "ضد عالم اليوم"، وحاول الظهور بأنه يستند إلى "تحليل طبقي"، لكنه زائف وتعسفي، لإضفاء "صبغة" (بفتح الصاد) فكرية على معارضة ليبرالية تدّعي الانتماء لليسار، فعمدَ إلى المساواة بين روسيا والولايات المتحدة، واعتبرهما "دولتين إمبرياليتين متدخلتين في الشأن السوري"، وذهب إلى القول إن الأمم المتحدة نفسها متواطئة مع "النظام" ضد "ثورتهم" التي تحطمت على جدار النظام الدولي القائم، وكأن النظام الدولي الأحادي القطبية هو النظام العادل والمطلوب استرجاعه بدلاً من النظام العالمي الجديد الذي بدأت بشائره تلوح في الأفق على أرض سوريا بدم ولحم جيشها وشعبها ودعم حلفائها وأصدقائها.

ومنهم من افترى فرية مكشوفة حول "الصمت الرسمي العربي وتلكؤ المؤسسات الثقافية العربية إزاء ثورة الشعب السوري". إذن ما ذا تُسمّى أطنانُ البيانات والمقالات والآداب والفنون والمسلسلات والأفلام المتهاففة التي "صُنعت" خصيصاً ضد سوريا منذ اليوم الأول، أي منذ أن أطلق "فيلسوف الربيع العربي وجيفارا الثورة المضادة" برنار هنري ليفي مشروع "الثوري" الجوّال باسم "نظرية القذافي" وتطبيق النموذج الليبي على سوريا؟

كما أنّ منهم من استنكر موقف سوريا التاريخي من "قضية العرب الأولى"، ورفض "رفضاً مطلقاً الزجّ باسم فلسطين وقضيتها والمتاجرة بدم أبنائها" من قبل الدولة السورية. وارتدى رداء ثقافياً ليقول إن موقفه السياسي المعادي لسوريا هذا يأتي استناداً إلى وحفاظاً على "الإرث الثقافي الفلسطيني المنحاز للحريات عبر روافعه التاريخية، بما يليق به كمشروع تحرري حملته وأغنّته وعمّقت جوهره أسماءً مثل إدوارد سعيد وغسان كنفاني ومحمود درويش." والحقيقة أنني لم أفهم سبباً "للزج" بأسماء هؤلاء الراحلين الثلاثة الكبار في البيان، اللهم سوى التمسّح بهم وربما الإيحاء للجمهور المستهدف بأنهم - أي الراحلين - من بين الموقعين عليه.

ومنهم من شجب بشدة امتناع بعض المثقفين الأردنيين عن إدانة سوريا، بل حتى صمتهم، وأعلن أن "الصمت الذي يعتصم به هؤلاء عن "جرائم النظام" ضد الشعب السوري لا يمثّله، ولا يمثل عموم الكتاب والمثقفين، ولا يمكن تفسيره إلا باعتباره انحيازاً للنظام". وسخر بعضهم من شعار "الممانعة والمقاومة" البراق لكن الفارغ من المحتوى الحقيقي برأيهم. وحدّثوا من أنهم لن ينتظروا حتى يصل عدد الشهداء إلى مئة ألف كي يعلنوا موقفاً صريحاً مما يجري في سوريا.

جدل الثقافي والسياسي

إلى جانب المواقف المعلنة لبعض المثقفين المعادين لسوريا، وللتستّر على المواقف الحقيقية المضمرة لبعضهم الآخر، انتعشت وتفشّت في الوسط الثقافي "أطروحة" الثقافي ضد السياسي القديمة المعلوكة، وطفّت على السطح رطانة "تثقيف السياسة لا تسييس الثقافة"، التي يوحى راطونها، باستعلاء مصطنع، بأنهم لا ينتغون سوى مرضاة النقاء الثقافي وتجميل وجه السياسة القبيح، وذلك "بالنأي بالنفس" عن وحل السياسة. والحقيقة أن كلّ كاتب راجح العقل يعلم في سريرته أن فصل الثقافي عن السياسي في تاريخ الأمم هو فصل تعسفي و"بروباغاندا" سياسية يمينية كذلك، لكنها محجّبة ببرقع ثقافي. كما أنه أشبه ما يكون بإطلاق قبلة دخانية لإخفاء مسرح العمليات و"تغبيش" رؤية "المقاتلين" وإقناع البيادق بأنهم يدافعون عن "قضية" ويرفعون لواءها وشعارها، وهو هنا "فصل الثقافي عن السياسي"؛ فلا معركة بدون عصابة تخوضها، ولا عصابة بدون "قضية" وشعار

تتلطى خلفهما مهما بلغت بشاعة أهدافها المضمرة. إن الفصل بينهما ليس سوى خرافة مكارثية ومحض هراء، وإن السجال بشأنه ترفً سقط بالتقادم منذ انتهاء الحرب الباردة وكشّف القناع عن دور وكالة المخابرات المركزية في الحرب الثقافية الباردة بشكل موثّق من قبل العديد من الكتاب والباحثين الغربيين أنفسهم، ومن بينهم فرانسيس ساوندرز التي أستشهد بأقوالها هنا في أكثر من مقام.

عظّمة نيرودا وفضيحة نوبل

غير أنّ شاعر شيلى وأمريكا اللاتينية الكبير بابلو نيرودا، الذي انتزع جائزة "نوبل" انتزاعاً، لم يكن ليفكرّ في إبعاد رفرفات أجنحة شعره البيضاء المحلّقة عن طين السياسة وعدم تلوينها به. ففي مطلع عام 1963 تلقّت منظمة الحرية الثقافية معلومة مسرّبة (مع أن من المفروض أن تكون معلومات لجنة الجائزة ومداولاتها سرية مطلقة ومنيعة وحصينة لا يُسمح بتسريبها لكائن مَن كان، شخصاً أم جهة) تفيد بأن شاعر شيلى الثوري العظيم نيرودا، الذي قال عنه ماركيز إنه "من أفضل شعراء القرن العشرين في جميع لغات العالم"، مرشّح لنيل جائزة نوبل للآداب لعام 1964. عندئذٍ هبّت عاصفة جهنمية في وجه الفكرة، ونُظمت على الفور حملة عالمية شعواء في أوساط المثقفين بهدف حرمانه من نيلها. وقد ركّزت الحملة على التزامه السياسي كعضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الشيلي، وأنهم بأنه استخدم شعره كأداة للعمل السياسي وللدفاع عن الشمولية والستالينية، وأنه حصل على جائزة ستالين عام 1953 عن قصيدته الموجهة إلى جوزيف ستالين، ووصفوا شعره بأنه "عبودية شعرية". وقد أسفرت تلك الحملة التي أدارتها وكالة المخابرات المركزية عن حرمان نيرودا من الجائزة، وتقرّر منحها إلى كاتب يساري غير شيوعي كبير وشهير، فوقح الاختيار على جان بول سارتر، الذي رفض بدوره تسلّمها كما هو معروف. بيد أن عظّمة نيرودا وموهبته الفذة وأحقّيته كشاعر وإنسان وثوري وعاشق لوطنه ومدافع عن مصالح شعبه انتصرت أخيراً على "حبّكة" منظمة الحرية الثقافية في عام 1971، عندما انتزع تلك الجائزة عن ملحمته الشعرية العظمى "النشيد الشامل" التي غطّت تاريخ أمريكا اللاتينية العظيم.

بيان الندم

بينما كان نيرودا في أوج تألقه الثقافي والسياسي، وقبل ذلك بثلاث سنوات، في أواخر عام 1967 وأوائل عام 1968، شعر الزعيم الجبار لمنظمة الحرية الثقافية مايكل جوسلسن بالإرهاق العقلي والجسدي جرّاء ما اقترفت يده من فظائع "ثقافية" بحق كبار المثقفين مع وكالة التجسس الأمريكية، ومن يدري، لعلها صحوهٌ ضمير النزوع الأخير، فأصدر البيان الآتي الذي وقّعه معه 17 شخصية ثقافية:

"نودُّ أن نعلن على الملأ معارضتنا للتمويل السري من قبل وكالة المخابرات المركزية للمطبوعات والمنظمات الثقافية وعن إيماننا بأن التمويل المنتظم من قبل هذه المنظمة لا يمكن إلا أن يضرَّ بصِدقية هذه المطبوعات والمنظمات ثقافياً وأخلاقياً."²⁴

وفي عام 1978 مات مايكل جوسلسون كئيلاً وحيداً بعد أن تخلّى عنه جميع الذين تعاونوا معه سابقاً، حتى أنه أخفق في أن يجد لنفسه عملاً. فإذا كانت تلك نهاية مايكل جوسلسون، رجلِ الجبروت الذي شغّل أو خدع أو استغلّ أو سيّر عن بعد أو اضطهدَ أو حطّم أو تلاعبَ بعدد كبير من ألمع الكتاب والفنانين في الولايات المتحدة وأوروبا والعالم، فما هو مآل المثقفين العرب الذين يلهثون خلف تابعي جوسلسون المعاصرين وتابعي التابعين؟

24- فرانسيس ستونر ساوندرز، من الذي دفع للزمار: وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والحرب الثقافية الباردة، ص 425، غرانتا بوكس، لندن 2000.

بانوراما: في الثقافة والسياسة وشؤون أخرى²⁵

في المقال السابق أشرت إلى أن الثقافة ليست واحدة من الساحات التي تُخاض عليها الحروب فحسب، بل هي من المعارك الفاصلة التي تُخاض بها الحروب، وأنه لا يمكنُ كسبُ أية حرب بدون استخدام ترسانة سلاح ثقافي مختزنة أو يتم تجهيزها لتلك الحرب. وفي الحروب الوطنية الكبرى، حيث تتعرض البلدان للاحتلال أو العدوان، ينقسم المثقفون الذين يمتشقون سلاحهم الثقافي إلى قسمين رئيسيين: مثقفون وطنيون تقدميون يدافعون عن بلدانهم وشعوبهم، وآخرون زَمَّارون يعزفون اللحن لمن يدفع لهم ثمنه حتى لو كان العدو المعتدي أو المحتل. وتاريخ الشعوب، ومن بينها شعوبنا، يعجُّ بهؤلاء وأولئك:

فهذا شاعر أسبانيا العظيم لوركا يتلقى بشعره رصاص فرقة الإعدام الفاشية وهو يقف شامخاً وظهره إلى الجدار، مناجياً أسطورة إسبانيا وأيقونتها ماريانا بهذه الايات (وردت في مقال سابق):

”ما الإنسان دون حرية يا ماريانا؟
قولي لي كيف أستطيع أن أحبك إذا لم أكن حراً؟
كيف أهبك قلبي إن لم يكن ملكي؟“

وهذا شاعر شيلي العظيم نيرودا يُشهر سلاح الشعر في وجوه جنود انقلاب الدكتاتور بينوشيه عندما اقتحموا بيته باحثين عن السلاح فيه، ويقول لهم إن ”الشعر هو سلاح الوحيد“. وبعد مرور نحو أربعين عاماً على وفاته تبين أنه مات مسموماً.

25- سأستخدم في هذا المقال تكتيكاً أجهتُ بتسميته ”تكنيك التداخل“ overlapping technique، إن صحَّ التعبير، أي عندما تتداخل الأشياء أو الموضوعات أو الأفكار لتشتمل على جزء من الشيء نفسه أو الموضوع نفسه أو الفكرة نفسها، وليس كله. وهو مختلف عن ”تكنيك التقاطع“ intersectional الذي يعبر عن تقاطع الموضوعات والأفكار والأشياء في نقطة واحدة ثم افتراقها. كما أنه مختلف عن تكنيك ”تيار الوعي“ stream of consciousness الذي شاع في الأدب والرواية بشكل خاص في القرن المنصرم.

فما هو موقف كتاب الأردن من العدوان على سوريا مثلاً؟

منذ إشعال فتيل الحرب على سوريا، دارت على الجبهة الثقافية في رابطة الكتاب الأردنيين رحى معركة مرعبة بشأن الموقف من العدوان على سوريا بين وداخل التيارين الرئيسيين اللذين يتداولان قيادة الرابطة تقليدياً: التجمع الثقافي الديمقراطي المناهض لسوريا والمؤيد للثورة المضادة منذ البداية، وتيار القدس الذي انقسم في الموقف منها. وقد مارس الأعضاء المناهضون لسوريا من كلا التيارين ضغوطاً شديدة لاستصدار بيان صريح وشديد اللهجة شبيه بمايفستو بودابست عام 1956، يتضمّن إدانة "لنظام" وتأييداً "لثورة" في سوريا، بينما رفضت مجموعة صغيرة من تيار القدس، إصدار مثل ذلك الموقف وحالت دون صدوره فعلاً. وفي وقت لاحق نُظّم اعتصام أمام مقر الرابطة في جبل اللوييدة دعماً للثورة المضادة. وعشية انتخابات عام 2017 نشب خلاف حاد آخر داخل تيار القدس نفسه إزاء القضية نفسها، وذلك عندما اقترح أحد قادة التيار "تكتيكاً انتخابياً" قال إنه يكفل فوز التيار بالانتخابات، وتضمّن الاقتراح تحذيراً صارماً لأنصار التيار من التطرُّق من قريب أو بعيد، سواء في البرنامج الانتخابي المكتوب أو الدعاية الانتخابية الشفوية لقائمة مرشحي التيار، وتحت طائلة خسارة الانتخابات، إلى قضيتين: الموقف من العدوان الهجمي العالمي على سوريا، واغتيال عضو الرابطة وتيار القدس الشهيد ناهض حتر على يديّ أحد الإرهابيين التكفيريين من حلفاء وأدوات دول العدوان على درج قصر العدل في عمان، بتخطيطٍ ودعم وتواطؤٍ وتسهيل من عدة جهات استخبارية وسياسية داخلية وإقليمية التقت عند نقطة تقاطع المصالح. وتوزّع المشاركون في الاجتماع الأخير للأمانة العامة لتيار القدس ومرشحيه للهيئة الإدارية للرابطة الذي عُقد ليلة الانتخابات، بين مؤيد لذلك "التكتيك" ومبرِّر له وصامتٍ إزاءه ورافض له ومهاجم لرافضيه. بيد أن الهزيمة المُرّة التي مُني بها التيار في تلك الدورة أثبتت مدى تهافت تكتيكات وألاعب الموارد والغمغة والتقية ونتائجها الكارثية عندما يتعلق الأمر بالمبادئ الأساسية لأية جماعة سياسية أوثقافية.

تحديث: من المؤسف أن مثل ذلك "التكتيك" المتهافت تكرر في انتخابات رابطة الكتاب في سبتمبر/أيلول 2019، حيث تم تجاهل الموقف من أهم ثلاث قضايا تواجه شعبنا وأمتنا في المرحلة الراهنة وتهدد مستقبلهما وذات علاقة مباشرة بحرية الرأي والتعبير والتجمع السلمي، وهي: الموقف من استمرار العدوان العالمي على سوريا؛ ومؤامرة الوطن البديل وتحويل الأردن إلى مجرد حوض ديموغرافي؛ والحراك الشعبي المتواصل ضد طغمة الفساد والنهب والتبعية. أما التجمع الثقافي الديمقراطي وحليفه التيار القومي اللذان فازا في انتخابات الهيئة الإدارية للرابطة، فقد وصل بهما سوء الحال إلى حد الوقوف مع السلطة ضد إضراب المعلمين غير المسبوق منذ عقود والذي حظي بدعم شعبي وطلائي كامل، في بيان مضحك أشبه بلعبة "الثلاث ورقات".

وفيما يتعلق برطانة "تنقيف السياسة أم تسييس الثقافة؟"، فإن من المعروف في أوساط رابطة الكتاب الأردنيين والمثقفين عموماً أنه منذ السنوات الأولى بعد تأسيسها في عام 1974، ما فتئ جدل، بل قُل سجال، السياسي والثقافي يستيقظ قُبيل كل انتخابات كعنوان وسلاح استقطاب في المنافسة/المعركة لتحقيق الفوز/النصر فيها.

وفي مثال مغاير يتعلق بدور الإنتليجنسيا في مجابهة الفكر الظلامي التكفيرى الذي اجتاح المنطقة برمتها، بادرَ أربعة كتاب ماركسيين أردنيين في عام 2015 بتوجيه نداء على النقيض من "مانيفستو بودابست"، "إلى المفكرين والعلماء والمؤرخين والأدباء والفنانين والمبدعين حدّروا فيه من أن الإرهابيين التكفيريين يشنّون غزواتهم المتوحشة في سوريا والعراق، مدجّجين بالسلاح والمال والجّهالة، قادمين إلينا بالذبح والحرق والسبي وأسواق النخاسة والجزية والتهجير. ويعمدون إلى إحراق عيون الكتب وكنوز المخطوطات النادرة وتدمير الأوابد والنفائس التاريخية والحضارية والأثرية في محاولة لمحو منجزات التاريخ الإنساني العريق لشعبنا، الذي شهد إبداع الحروف والقوانين والفنون منذ فجر البشرية، وذرّها في رمال "الثقافة" الصحراوية القاحلة- بل اللاتقافة- وصولاً إلى إلغاء العقل." ودعا الكتاب الأربعة في ندائهم إلى إنشاء جبهة ثقافية تقدمية واسعة في مواجهة الفكر الظلامي

التكفيري، وأطلقوه في ندوة برابطة الكتاب الأردنيين ثم نشره على شكل حملة²⁶ في موقع "الحوار المتمدن" للتوقيع عليه، غير أن عدد الموقعين عليه من المثقفين الأردنيين لم يتجاوز العشرين (عدد أعضاء رابطة الكتاب الأردنيين وحدها يناهز الألف).

كيف يحدث ذلك في بلادنا؟ وما الذي يفعله المثقفون إذن؟ وما هو دورهم؟ أسئلة طرحها الرئيس بشار الأسد بإلحاح في ندوة حوارية مع عدد كبير من المثقفين العرب في القصر الجمهوري في تشرين الأول/أكتوبر 2017. ولعلنا نلتمس الجواب عنها لدى الكاتبة الدكتورة ناديا خوست بالمختصر المفيد: "لا توجد ثقافة بدون مجتمع؛ ولذلك تُنجد الثقافة الوطن؛ ولذلك يخترقها العدو أو يسدّد عليها النار."²⁷

ويبدو أن أغلبية مثقفينا يتعاطون مع ثقافة لا علاقة لها بالمجتمع. ونظراً لأن الثقافة الوطنية التقدمية هي التي تُنجد الوطن وتصنع له درعاً يحميه، فقد سدّد العدو رصاصاته على قلبها وأصابها في مقتل.

براءة واستنكار: "أم" مكسيم غوري و"أم" مظفر النواب

لم تقتصر "الطقوس" المكارثية السوداء التي مورست ضد الشيوعية على الولايات المتحدة، بل انتشرت في العديد من الدول القمعية التابعة لها، ومن بينها بلدي الأردن. فطوال فترة الأحكام العرفية منذ انقلاب القصر على أول وآخر حكومة شرعية منتخبة برئاسة سليمان النابلسي في عام 1957، ظلّ قسم مكافحة الشيوعية في دائرة المخبرات العامة يُرغم الشخص المعتقل، تحت وطأة التعذيب أو الإكراه أو الابتزاز أو استغلال الضعف الإنساني أو الظروف الشخصية، على الإدلاء بالمعلومات التي لديه، أو التي يريدها المحقق، عن التنظيم الحزبي والاعتراف

26- الحوار المتمدن، حملة التصدي للفكر الظلامي التكفيري، 21 أبريل/ نيسان 2015.

http://ehamalat.com/Ar/sign_petitions.aspx?pid=711&fbclid=IwAR2BHYCMfCeCMYAtoS7WIG5lc-DGKJo4U0GjPbHp9J6-XGEng6w6Xo2_J1C8

27- د. ناديا خوست، الثقافة والحرب، الموقف الأدبي، العدد 577، أيار 2019.

بأسماء رفاقه وتوريطهم، ثم يُطلب منه نشر إعلان في إحدى الجرائد اليومية شبه الرسمية تحت عنوان: ”براءة واستنكار“، هذا نصه:

”أنا فلان الفلاني (الاسم من أربعة مقاطع) أستنكرُ الحزب الشيوعي الأردني الهدّام وأعلن ولائي وإخلاصي لجلالة الملك المعظم وحكومته الرشيدة.“

وهذا، كما ترون طقس يشبه طقوس المكارثية، بل مستمد منها، مع شرط إضافي، وهو أن المستنكر في الأردن كان يُرغم على دفع ثمن الإعلان في الجريدة من جيبه الخاص ويتكبّد عناء توصيله الى مقر الجريدة بنفسه، ثم توصيل نسخة من الجريدة التي تحتوي على الاستنكار إلى المقر الرئيسي السابق لدائرة المخابرات العامة في منطقة العبدلي، المعروفة في الأوساط الشعبية والحزبية باسم ”فندق أبو رسول“ (على اسم احد مؤسسيها ومديرها محمد رسول الكيلاني) وذلك بهدف كسر المعتقل وتحطيم الروح المعنوية لرفاقه وتخويف الأفراد العاديين من الاختلاط به وعزله عن بيئته الاجتماعية. ومن هنا كان أهمُّ ”درس“ تنظيمي في الصمود يتعلمه العضو الجديد في الحزب هو قصيدة البراءة الشهيرة للشاعر الشيوعي العراقي الكبير مظفر النواب:

”يا بني أرضي الجلب يرضع من حليبي

ولا ابن يشمر لي خبزه من البراءة

يا بني ياكلني الجرب عظم ولحم

وقموت عيني ولا دناءة

يا بني ها الأيام يفرزنها القحط أيام محنة

يا بني لا تثلم شرفنا

يا بني يا وليدي البراءة تظل مدى الأيام عفنة

تدري يا بني بكل براءة

كل شهيد من الشعب ينعاد دفنه
وخليّ إيدك على شيبى واحلف بطاهر حليبي
كطرة كطرة وبنظر عيني العميته
قلّي ما يندار رجمي وانتِ أمي وذاك حزبي
وعز أبوي الما لواني وما لويته
قلّي ما أهدم حزب بيدي بنيته.

كما كانت رواية "الأم" لمكسيم غوركي بمثابة المنشور الأول الذي يقرأه العضو الجديد في الحزب. وليس من باب الصدفة أن تكون الأم- أم مظفر وأم غوركي- عنصراً أساسياً مشتركاً في قصيدة النواب ورواية غوركي، وأن تمثل "ثيمة" واحدة وتحمل رسالة واحدة لكليهما: الأم تشجع ابنها على الثورة والصمود إلى حد الموت، وليس على التماس الخلاص الفردي. فيلجيا غوركي ليست أمّاً لبافل فحسب، بل هي أم لرفاقه الثوار أجمعين، تحبهم وتحنو عليهم وتوزع المنشورات التحريضية التي يصدرونها، وتتحول من أم لا همّ لها سوى حماية ابنها من التعرّض لتبّعات النضال إلى أم للعمال والحزب وأيقونة لكفاحهم الطبقي وناطقة باسمهم:

- "إن كلمات ابني هي كلمات شريفة لعامل لم يبيع نفسه، وستعرفونها من جراتها؛
- اعملوا من أجل الحرية، فهي تطعمكم الخبز وتهبكم الحياة.
- الذين يستحقون لقب الانسان هم أولئك الذين يندرون أنفسهم وحياتهم من أجل تحطيم القيود التي تغلّ عقل الإنسان."

بيد أن وكالة المخابرات المركزية لم تكتفِ باستخدام القبضة الخشنة في مكافحة الشيوعية، بل استخدمت براءة فائقة قفّازها الثقافي الناعم- منظمة الحرية الثقافية- لاختراق الماركسيين والشيوعيين السابقين والتروتسكيين على وجه الخصوص، وتوظيفهم في مشروعها. ففي مؤتمر "سويت العرسان" المشار إليه في المقال السابق، تم استخدام مثل هؤلاء ضد مؤتمر الشيوعيين والماركسيين الرئيسيين،

وكان من أبرزهم سدي هوك الذي وصفته الباحثة ساوندرز بأنه كان شيوعياً فقيراً ومثقفاً كبيراً، وكتب مقالات عديدة عن الماركسية، أهمها "لماذا أنا شيوعي"، طُرد بسببها من جامعة نيو يورك. وبعد محاكمة تروتسكي الشهيرة بتهمة الخيانة في عام 1939، ما اعتبره هوك من أخطاء ستالين النظرية والسياسية، وكغيره من مثقفي نيويورك، بدأ إيمانه بالشيوعية يتزعزع وأصبح معادياً للحزب الشيوعي علناً، وتحوّل "هوك" الثوري إلى "هوك" المحافظ. ويجدر الإشارة هنا إلى أن من أبرز أولئك التروتسكيين "المتحوّلين" اليوم إليوت أبرامز، الذي أصبح من صفوف المحافظين الجدد وعملاً مع الرؤساء ريغان وبوش وترمب، وهو المسؤول عن خطة الإطاحة بالرئيس الشرعي لفرنزويلا البوليفارية نيكولاس مادورو.

مثل هذه التحولات/القفزات من اليسار إلى اليمين حدثت في بلداننا في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي ومنظومة البلدان الاشتراكية، حيث "كفر" العديد من الماركسيين والشيوعيين بالماركسية والشيوعية والاشتراكية وآمنوا بالدين الجديد الذي بشر به كل من هنتنغتون وفوكوياما، وتحوّلوا إلى ما سُمي باليسار الليبرالي، أو حتى إلى ليبرالين جدد. وسارع بعض الأحزاب والمنظمات الشيوعية والماركسية إلى القطع مع الماضي بتغيير أسمائها أو إنشاء كيانات أخرى لا تمتُّ إلى الشيوعية والماركسية والاشتراكية بصلة، أو أنشأوا منظمات غير حكومية NGOs بتمويل أجنبي وفقاً لمواصفات وشروط الممولين. وأعرب كثيرون منهم عن ندمهم على سنوات الجمر التي قضوها في ميادين الكفاح وعلى ما فاتهم من نعم الرأسمالية وطبّياتها. وقد وصل الأمر ببعض اليساريين والقوميين إلى حد الوقوف ضد سوريا مع قوى العدوان عليها، بل مع قطعان الإرهابيين التكفيريين القادمين من أقاصي الأرض وأدانيها. ففي كتابه الجديد الذي يُنشر في حلقات على شبكة فولتير،²⁸ يشير تيري ميسان على سبيل المثال إلى كل من رياض الترك زعيم الحزب الشيوعي السوري- المكتب السياسي وجورج صبرا وميشيل كيلو، الذين تعاونوا مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي التروتسكي Social Democrats الذي يعمل تحت إشراف وكالة "سي آي آيه"، والذي كلّفهم بتأييد حركة الاخوان المسلمين المسلحة في مطلع الثمانينيات من القرن المنصرم. ومن المعروف للجميع اليوم أن هذه

28- تيري ميسان، أمام أعيننا، شبكة فولتير، 2019.

المجموعة ساندت العدوان على سوريا وتحالفت مع المعتدين عليها، بمن فيهم الإرهابيون، منذ اليوم الأول، وحتى هذا اليوم.

وبالفعل، فقد دعمت السلطات في الأردن "تنظيم الطليعة المقاتلة"، الجناح المسلح لجماعة الإخوان المسلمين السوريين في ذلك الوقت، في ما عُرف بأحداث حماة، وأنشأت لهم قواعد للتدريب والتسليح والإمداد على الأراضي الأردنية. وقد اعترف الملك الراحل حسين بذلك الدور على شاشة التلفزيون الرسمي واعتذر عنه وأنحى باللائمة على رئيس وزرائه مضر بدران، وقال إنه فعل ما فعل من دون علمه شخصياً.

النشاط الأدبي لمنظمة الحرية الثقافية باللغة العربية

أنشأت المنظمة عشرات الفروع لمنظمة PEN (نادي القلم) في شتى بلدان العالم، ومنها بلدان عربية كلبنان والسعودية ومصر وليبيا والمغرب والأردن. كما أصدرت مجلات عدة مهمة، منها كومنتري، نيو ليدر، بارتيزان، العلم والحرية، وإنكاونتر اليسارية الطابع التي استقطبت أقلاماً لامعة وأسماء كبيرة. وباللغة العربية أصدرت مجلتي "شعر" و"حوار" ومجلة "المختار" Readers Digest المترجمة إلى العربية.

ففي عام 1957 أسّس مجلة "شعر" الشاعر الكبير يوسف الخال، الذي لُقّب بـ "بطريك قصيدة النثر"، مع عدد من كبار الشعراء الحداثيين ورواد الشعر الحر وقصيدة النثر، كان منهم أدونيس، جبرا ابراهيم جبرا، شوقي أبو شقرا، أنسي الحاج، خليل حاوي، محمد الماغوط وبدر شاكر السياب، الذين أقاموا صالوناً ثقافياً أسبوعياً كل يوم خميس باسم "خميس شعر" في فندق بلازا بالحمرا لمناقشة قضايا، من قبيل قصيدة النثر، الشعراء التمزوين، النقد البنيوي، اختراق جدار اللغة، تأسيس كتابة جديدة، والقصيدة المدوّرة. وتوقفت المجلة في عام 1964، ثم استؤنفت في عام 1967، واستمرت حتى خريف عام 1970.

أما مجلة "حوار" 1962 - 1967، فقد أسسها وترأس تحريرها الشاعر توفيق الصايغ في بيروت، وكانت المجلة الأولى التي نشرت رواية موسم الهجرة إلى الشمال للكاتب السوداني الشهير الطيب صالح. وبعد مرور أربع سنوات توقفت عن الصدور بعد انكشاف فضيحة تمويل المجلة من قبل وكالة المخابرات المركزية. ففي 21 مايو/أيار 1967، نشرت جريدة النهار اللبنانية البيان الذي أعلن فيه الصايغ إيقاف صدور المجلة: "لا عدد 28، أنا أقفلت المجلة، دفعتُ رواتب الموظفين، وأهدي أثاثها إلى مؤسسة ثقافية أحبها. وعصراً حَضَرْتُ بياني للصحف." ثم ودَّع بيروت إلى الولايات المتحدة، حيث عمل محاضراً في جامعات عدة. وفي صبيحة 3 نوفمبر/تشرين الثاني 1971، ضربته سكتة قلبية في مصعد العمارة التي يقطنها وقضى نحبه.²⁹

وكانت مجلة "حوار" قد منحت جائزتها للعام 1963 إلى الأديب المصري الكبير يوسف إدريس، ولكن الأخير رفضها بعد تلقّيه مكاملة هاتفية من سامي شرف مدير مكتب الرئيس عبدالناصر نقل إليه فيها سؤالاً مهذباً من الرئيس: هل يقبل يوسف إدريس جائزة من مجلة تمولّها وكالة "سي آي آيه؟"³⁰

ويقتضي الإنصاف القول إنه لم يتوفر لدي أدلة كافية على أن أولئك الشعراء الحدائين الكبار، أو بعضهم، كانوا على علم بتلك العلاقة مع الوكالة، ولعلّ قصة يوسف إدريس وعبدالناصر تقتضي تعميق البحث في هذه المسألة لجهة إنصافهم.

النشاط الموازي للوكالة النقطة الرابعة و"النافعة"

على خطّ موازٍ اقتصادي-اجتماعي- "إنساني" عمّل برنامج النقطة الرابعة Point Four، وهو برنامج مساعدات تقنية للبلدان النامية أعلنه الرئيس الأمريكي هاري ترومان في خطاب تنصيبه في 20 يناير/كانون الثاني 1949. وقد استمدّ اسمه من

29- جريدة الدستور المصرية، 2 أبريل/نيسان 2017.

30- المصدر السابق.

الهدف الرابع/النقطة الرابعة من أهداف السياسة الخارجية الواردة في خطاب الرئيس. ويتضمن البرنامج أربعة محاور أو نقاط: التأييد المطلق للأمم المتحدة؛ كسب تأييد الشعوب عن طريق الإصلاح الاقتصادي؛ تقوية الدول المعادية للشيوعية؛ وتقديم المعونات لتحسين أحوال بلدان العالم الثالث تحت مظلة حلف الناتو.

كانت النقطة الرابعة في برنامج الرئيس ترومان هي الأهم والأكثر تأثيراً في السياسة الخارجية، لأنها نسجت الغطاء "الإنساني" لتحقيق الهدف الإمبريالي الأمريكي، حيث تضمنت أفكاراً ووسائل جديدة مكّنت الولايات المتحدة من زيادة نفوذها وتدخلها في دول العالم المختلفة من خلال سلسلة من برامج المساعدات الغذائية والصحية ومشاريع البنى التحتية كالمياه والطرق وغيرها.

في الأردن تعاونت وزارة الأشغال العامة، التي كانت تُعرف باسم "النافعة" مع برنامج النقطة الرابعة. وقد طالّ قريتي بشرى من النقطة الرابعة نصيب، حيث تقرّر شق وتعبيد طريق بشرى بأموال المساعدات التي قدمتها النقطة الرابعة، بدلاً لطريق الامبراطوريات العظمى القديمة، الذي يصل بشرى بمدينة اربد ويمضي شرقاً إلى وادي الشلالة وباب البويب والرمثا، وصولاً إلى سوريا ومنها إلى تركيا. كانت طريق بشرى مرصوفة بحجارة سوداء بركانية ملساء عريضة ومرتفعة عن مستوى الأرض المنبسطة ذات التربة الطينية الحمراء العميقة الخصبة - ولذلك سُميت بـ "البقعة" - التي تتوسط سهول حوران، واشتهرت بزراعة الحبوب التي شكّلت سلة غذاء الامبراطورية الرومانية، ولهذا سُميت بـ "إهراءات روما"، وبالخضروات والفواكه الصيفية "المقائي" الغنية والممتدة على مدّ البصر والتي شُبّهت بها حتى البحور (نقول فلان جعلّ من البحور مقائي). وسهول حوران هي التي تغنّى بها شاعر الأردن الأول عرار وأوصى بإيداعه ثراها:

"إذا يا صاح جاء الموت يوماً لكي يمضي بروحي للسماء
بحوران اجعلوا قبري لعليّ أشمُّ أريجها قبل الفناء."

وقد استُخدمت تلك الطريق مَعبراً ومَهْرَباً لجيوش الامبراطوريات في الحربين العالميتين الساخنتين، ومَرَّ بقربها خط إيدن العسكري البريطاني الشهير (نسبةً إلى وزير خارجية بريطانيا إبان الحرب العالمية الثانية أنتوني إيدن).

لقد تم تجريف الطريق القديم تمهيداً لشق طريق جديد على الطريقة الأمريكية الجديدة التي أدهشت الناس وقتئذ- استخدام ”البيس كورس“- وعمل فيه أهالي القرية على حساب ”النافعة“. واستغرق إكماله فترة طويلة نسبياً لأن مشروع شق الطريق الجديد تطلَّب إزالة الطريق القديم بقلع حجارته الكبيرة المغروسة في الأرض. ولعلَّ في ذلك إشارة رمزية إلى إزاحة الامبراطوريات القديمة كي تحلَّ محلها الامبراطورية الجديدة الصاعدة والمنتصرة بلا معارك أو خسائر تُذكر. وتُرك خلالها التلاميذ الذين كانوا يذهبون إلى إربد وهم يغوصون حتى الرُكب في وحل ”البقعة“ بجزمات الكاوشوك ويستعينون بالغدران التي تشكَّلت على جانبي الطريق الموحلة لتنظيفها قبل دخول الصفوف المدرسية في المدينة وقد تجمَّدت عروقهم وازرقت أطرافهم وظهرَ حرَجهم أمام زملائهم من أولاد المدينة الذين كانوا يتمتعون بامتياز المشي على الأسفلت.

”الريفية“ واليونيسكو

أما ”اليونيسكو“ فقد كان لها شأن آخر ولعبت دوراً إيجابياً مغايراً لأدوار النقطة الرابعة و”يو إس أيد“. ففي عام 1956 أنشأت في قرية حوارة بمحافظة اربد ”دار المعلمين الريفية -حوارة“، التي كانت تُعرف باسم التحبُّب الشعبي ”الريفية“، على غرار مركز ”سرس الليان“ بمحافظة المنوفية في مصر، بإشراف التربوي الكبير والشخصية المرموقة والمحبوبة للمجتمع المحلي الدكتور فخر عاقل السوري الجنسية، الذي قدَّم لعنقود القرى الست التي شملها المشروع (بشرى، سال، الصريح، الحصن، وإيدون بالإضافة إلى حوارة نفسها)، خدمات مبدعة ومدهشة لا تُقدر بثمن استقرت في الوجدان الشعبي، وتركت بصمات لا تُمحي من ذاكرة مَنْ بقي على قيد الحياة من أهالي هذه القرى.

فبالإضافة إلى عملها الرئيسي في مقرها الخاص بتأهيل المعلمين تمهيداً لتعيينهم في مدارس التربية والتعليم، كانت "الريفية" بمثابة قافلة ثقافية شاملة متنقلة تجوب القرى الست بحمولتها الثقافية المتنوعة: تعقد دورات محو الأمية أو تعليم الكبار، وتوفر لهم الاحتياجات التعليمية كالكتب المدرسية والقرطاسية مجاناً؛ وتسيّر مكتبة متنقلة إلى تلك القرى، حيث كانت ترسل شاحنة مغلقة بيضاء اللون بداخلها رفوف خشبية مليئة بكتب متنوعة، عربية ومترجمة، في الرواية والشعر والفن والتاريخ والفلسفة. حيث تتوقف في الحارات في يوم محدد من أيام الأسبوع، وتفتح لنا خزانة كنوزها لنستعير منها مجموعة من الكتب على أن نعيدها في مثل ذلك اليوم من الأسبوع التالي. ولا أزال أذكر تلك اللحظة التي فتحت فيها "خزانتها" أول مرة ورأيتُ كتباً كثيرة مرتّبة على رفوف في وضعية الوقوف إلى جانب بعضها بعضاً، وليست كالكتب المدرسية القليلة التي كنا نضعها على الطبلية أو في "النملية" فوق بعضها بعضاً. كما كانت تقدّم مسرح العرائس، الذي لا أنسى حالة الدهشة الصارخة التي "انتابنتني" عندما شاهدتُ للمرة الأولى ذلك النوع من المسرح الذي قدّمه شخص من خلف ستارة في الساحة الترابية للمدرسة الابتدائية وألهبَ خيالنا، والتمثيلات المُسلّية والهادفة التي كانوا يُشركوننا في أدائها، والعروض السينمائية على قطعة قماش بيضاء معلقة على جدار مبنى المدرسة باستخدام آلة سحرية (بروجيكتور) أثارت عجبنا وفضولنا؛ وتوفّر التوعية والخدمات الصحية، حيث كانت توزّع البلاطات والطوب على المنازل التي تحفر حفرة امتصاصية خارج غرف المعيشة، لبناء مرحاض "عربي"، وتقيم مسابقات لأفضل مرحاض في القرية. وأذكر أن مرحاض أحد معلمينا الأستاذ ابراهيم فاز بالجائزة الأولى، وكان يستحقها فعلاً لأنه قطنَ إلى إنارة مرحاضه بوسيلة أسهل، حيث قام بتكيب "زر بيل" وبطارية داخل المرحاض، بينما كنا نضطر إلى حمل فانوس عند الذهاب والإياب ليلاً؛ وتنظّم المسابقات الرياضية في مختلف الألعاب المتاحة؛ كما توفر مختلف خدمات الإرشاد الزراعي للفلاحين. لقد قامت "الريفية" الجميلة بكل تلك الأدوار الثقافية والاجتماعية قبل أن تدخل الطريقة الأمريكية على يدي مؤسسة فورده وتحوّلها إلى كلية مجتمع community college وفقاً للنظام الأمريكي.

يمكنني القول إن الأنشطة التربوية - الثقافية المتعددة الأشكال التي قامت بها "الريفية" المحبوبة في قريتي بشرى كانت نقطة بدايتي في مشوار الحياة الثقافية، فهي التي شكّلت وعيي الأول وبواكير انفتاحي على عالم أفسح من عالمي المحدود في ظروف قرية صغيرة مقطوعة عن المدينة في الشتاء وتفتقر إلى الكهرباء، بكل ما يرتبط بها من منتجات "الحضارة"، والتمديدات الصحية والهاتف المنزلي، وقدّمتني إلى عوالم الكتاب والمسرح و"السينما"، وعلمتني شغف المطالعة في وقت مبكر على كرسي الحمام وسراج الكاز، يدفعني الالتزام بإعادة الكتب التي استعرتها في الأسبوع السابق، وزوّدتني بأمضى سلاح يمكن أن يتسلّح به الإنسان: سلاح الثقافة.

لا بديل عن السلاح الثقافي

لقد أدركتُ وكالة المخابرات المركزية أن مشروع مارشال والنقطة الرابعة و "يو إس أيد" وحدها لا تكفي لتحقيق الهدف المرسوم، وهو إزاحة الشيوعية من طريق الرأسمالية- ليس بالسهولة التي أزيلت بها طريق بشرى المرصوفة بالحجارة السوداء الملساء التي لا تلين- فاتّجهتُ إلى الجبهة الثقافية العريضة وعملت على تقديم النموذج الرأسمالي ثقافياً، أي إرسال ثقافتها في سلة مساعداتها، فأنشأت منظمة الحرية الثقافية آنفة الذكر. وقد ذكرتُ في مقال سابق أن المنظمة تمكنت من تشغيل كتاب وفنانين كبار كجوايسيس، من بينهم الشيوعي السابق والروائي الشهير جورج أورويل، مؤلف روايتي "مزرعة الحيوان" و "1984"، الذي عمل مع المخابرات البريطانية MI6 وسلّمها قائمة بأسماء 35 شخصاً من الوسط الثقافي من المتعاطفين مع الشيوعية، ومن بينهم جون شتاينبك، مؤلف رواية "عناقيد الغضب" (وهو الاسم الكودي الذي استخدمه شمعون بيريس للعدوان الإسرائيلي الوحشي على أهالي قرية قانا بجنوب لبنان حتى بعد لجوئهم إلى معسكر قوات "اليونيفيل").

في مطلع السبعينيات من القرن المنصرم، وفي ظل تنامي نفوذ جماعة الإخوان المسلمين في قسم المناهج التربوية ثم على رأس وزارة التربية والتعليم، وفي سياق برنامج مكافحة الشيوعية "زُرعت" رواية "مزرعة الحيوان" المذكورة آنفاً في منهاج

اللغة الإنجليزية للصف الثاني الثانوي (التوجيهي). ومن خلال عملي كمعلم في المدارس الثانوية في أوائل السبعينيات من القرن الماضي وتدريسي للرواية لاحظتُ لحسن الحظ أنه لا المعلمون، بمن فيهم الإخوان المسلمون، ولا الطلاب أدركوا مقاصد الرواية، بل تعاملوا معها على أنها من قصص الحيوان للأطفال، أو ككتاب على غرار "كليلا ودمنة"، وبالتالي لم يستطيعوا الاستفادة منها لتحقيق الهدف المنشود "للوکالة"، وهو تعبئة الأجيال المتعاقبة ضد الشيوعية. غير أنهم استفادوا من ألف شيء وشيء عن طريق سيطرتهم الطويلة الأمد على وزارتي التربية والتعليم والأوقاف والجامعة الأردنية، أولى وكبرى الجامعات الأردنية الحكومية. ولعل من مفارقات السخرية السوداء أنه تم اعتقالني من كلية الحسين بعمان وأنا أدرّس هذه الرواية في إحدى شُعب صف التوجيهي، وذلك على خلفية مطالبتني، مع زملاء آخرين، بإنشاء نقابة للمعلمين الأردنيين في أواخر عام 1975 ومطلع عام 1976، لم يشارك فيها الإخوان المسلمون مع أنهم كانوا قد بدأوا بالتكاثر في المدارس، بل كانوا ضد تلك المحاولة انطلاقاً من تحالفاتهم وتفاهماتهم القديمة القوية مع نظام الحكم. وقد قضيتُ سبعة عشر شهراً في زنازن دائرة المخبرات العامة بالعبدلي، تحت إشراف قسم مكافحة الشيوعية الذي قال لي رئيسه ذات مرة في التحقيق إن قلب نظام الحكم أهون عليه من السماح بتأسيس نقابة للمعلمين، والذي سيرقى إلى رتبة جنرال ويصبح مديراً للمخبرات العامة، ربما بسبب ذلك الموقع، وسيلعب دوراً أساسياً في صراع البلاط على اختيار خليفة الملك المحتضر في مستشفى "مايو كلينيك"، وسيُعزل بعد ذلك بفضيحة مدوية ويحاكم بتهمة اختلاس مبالغ طائلة من أموال الدولة. أما نقابة المعلمين فقد سُمح بإنشائها في عام 2011، بعد حراك باسل ودؤوب تكلّل بالنجاح. تمّ ذلك بعد مرور نحو أربعة عقود على محاولتي الأولى مع زملائي واعتقالي بسببها وفصلي من العمل ومنعي من العمل في أي مكان ومن السفر إلى أي مكان - وليس فقط إلى "الاتحاد السوفيتي ودول ما وراء الستار الحديدي"، كما كان يُكتب على جواز السفر الأردني.

خاتمة: درس للمثقفين العرب

وأخيراً، تُبرز الباحثة فرانسيس ساوندرز حقيقة مُرة وصلدة وصادمة، هي ثمرة جهد كبير وبحث معمق غير متحيز، لتقول:

”خلف نوستالجيا الأيام الذهبية” للمخابرات المركزية الأمريكية تكمن حقيقةً أشد تدميراً، وهي أن الأشخاص الذين قرأوا دانتى وذهبوا إلى جامعة ييل، وتعلموا الفضيلة المدنية، هم أنفسهم الذين جنّدوا نازيين، وتلاعبوا بنتائج الانتخابات الديمقراطية وأعطوا حبوب الهلوسة إلى مبعوثين غير واعين، وفتحوا بريد آلاف المواطنين الأمريكيين، وأطاحوا بحكومات ودعموا ديكتاتوريات، وخططوا مؤامرات اغتيال، وهندسوا كارثة خليج الخنازير... باسم ماذا فعلوا ذلك أو دفاعاً عن ماذا؟ سأل أحد النقاد، فجاءه الجواب: بالتأكيد ليس دفاعاً عن الفضيلة، بل من أجل الإمبراطورية.“³¹

غونتر غراس: ضربة شعرية موجعة

في عددها الصادر في 4 نيسان/أبريل 2012 نشرت صحيفة "سودوتشي زيتونج" الألمانية قصيدة نثر للشاعر الألماني الشهير "غونتر غراس" بعنوان "ما ينبغي أن يُقال"، وجّه فيها نقداً صريحاً وبلغته مباشرة إلى إسرائيل في مناسبة تسليمها غواصة نووية من قبل بلده ألمانيا، وعُدّت حدثاً نادراً ومهولاً في ألمانيا على وجه الخصوص وفي الغرب والعالم على وجه العموم، بعد صمت طويل حافظَ عليه حتى بلغَ من العمر عتياً.

"غونتر ويلهلم غراس" المولود في عام 1927، روائي وشاعر وكاتب مسرحي وفنان جرافيك ونحات، يُعدُّ من الكتاب الأكثر شهرة في ألمانيا حتى تاريخ نشر قصيدته الشهيرة المشار إليها آنفاً- توفي في أبريل/نيسان 2015. وقد حاز غراس على جائزة نوبل للآداب لعام 1999 "على الدور الذي نهض به أدبه كضمير أخلاقي لبلاده بعد الحرب العالمية الثانية وكمجسّد "للكفارة" الوطنية عن جرائم النازية المشينة. فوصفته الأكاديمية السويدية لجائزة نوبل بأنه الكاتب الذي تُصوّر حكاياته المرحة السوداء الوجه المنسي للتاريخ. ويُصنّف أدبه بأنه جزء من الحركة الفنية المعروفة باسم "التصالح مع الماضي". ويشار إلى أن روايته الأبرز، The Tin drum، التي وصفتها الأكاديمية السويدية بأنها تُعتبر الولادة الثانية للرواية الألمانية في القرن العشرين، تغطي الفترة الممتدة بين العشرينيات والخمسينيات من القرن المنصرم، وقد أفاضت الرواية في فضح جرائم النازية.

لماذا صمتَ غراس؟

سكّ غراس عن الكلام غير المُباح جُلَّ عمره، حتى نيسان/أبريل 2012، عندما بلغ الرابعة والثمانين من العمر وأراد أن يتكلم، كان في فمه ماء آسن يستحيل عليه أن يتلعه لأن ذلك سيكون بمثابة انتحار بتجرُّع السم، فقرر أن يبصقه. لم يكن بوسع غراس الكلام، لأن سيفاً بتاراً كان مصلتاً على عنقه، وتهمة النطق جاهزة ومعروفة، وهي "معاداة السامية"، بكل ما تنطوي عليه هذه التهمة من ترهيب في ألمانيا تحديداً وفي أوروبا والغرب عموماً. وكان يدرك أن أصله الألماني

والجريمة التي التصقت ببلاده ولطّخت سمعتها وتاريخها، وظلّ كابوسها يلاحقها في صحوها ومنامها "الهولوكوست اليهودي" سيمنعان إسرائيل والعالم من قبول الحقيقة التي سينطق بها.

” لماذا ألوذ بالصمت؟ لماذا صمتُ طويلاً
عمّا يُمارَس بكل وضوحٍ من ألعاب حربٍ
لن نكون فيها، نحن الناجين، في أحسن الأحوال
وفي نهاية المطافٍ أكثر من هوامش“

لماذا نطقُ غراس؟

يجيب غراس في متن قصيدته عن هذا السؤال الكبير والحاسم، فيقول إنه قرر أخيراً أن يبصق الماء الذي يملأ فاه، وأن ينطق "الجوهرة":

- لأنه أحسّ بأن صمته الذي ظل جزءاً من صمت العالم بأسره ليس سوى كذبة كبرى مخجلة تُدينه أكثر مما تشرفّه؛

- لأن بلاده التي ما انفكت تنوء تحت كابوس "الهولوكوست" ستسلّم إسرائيل غواصة أخرى تحمل رؤوساً نووية، كصفقة أو كفّارة أو تعبير عن تأنيب الضمير الوطني والشعبي، بهدف تدمير بلد آخر -إيران- وإبادة شعبه، مع أنه لا يملك قبلة نووية، في حين أن إسرائيل تملكها منذ زمن بعيد، ولا يجروء أحد على ذكرها لأن الخوف أصبح سيد الأدلة؛

- لأن بلاده ألمانيا ستصبح بذلك متواطئة في ومصدرة لجريمة شاملة متوقعة، يستحيل العودة عنها إذا وقعت ولا يمكن أن تمحوها الأعذار أو الذرائع لأنها ستكون قد أبادت شعباً كاملاً، وهو الشعب الإيراني، وأشعلت حريقاً عالمياً هائلاً لا يمكن إطفائه أو التحكم بآثاره أو حتى التنبؤ بنتائجها؛

- لأنه بلغ الرابعة والثمانين من العمر، ولم يبقَ في محبرة الكتابة سوى قطرات حبر قليلة وفي سراج العمر إلا نقطة زيت. وإذا لم يقل ما ينبغي أن يقال الآن وهنا - في هذه اللحظات وفي ألمانيا- فقد لا يتسنى له قوله أبداً لأن أوانه يكون قد فات، لأنه سئم من نفاق الغرب، ويحدوه الأمل في أن يسهم قول الحقيقة في تحرير آخرين من ربقة الصمت، وفي دفع المتسببين بالخطر إلى نبذ العنف

والامتناع عن العدوان باستخدام السلاح النووي. وبهذا فقط يمكن برأيه تقديم المساعدة للفلسطينيين والإسرائيليين على السواء، بل للعالم بأسره.

ردود الفعل

لا غرو أن تكون قصيدة "غراس" قد قدحت زناد حريق هائل وأثارت عاصفة هوجاء أو تسونامي جارف، كما وصفه بعض المعلقين في داخل ألمانيا وخارجها، من أوساط اليمين واليسار على السواء، ناهيك عن الغضبة العرمرية الصهيونية، إلى حد إعلان الحكومة الإسرائيلية غونتر غراس شخصاً غير مرغوب فيه، بعد أن كان يُشار إليه على أنه يمثل "ضمير ألمانيا" و"معلم ألمانيا". ونُشرت مقالات وتعليقات هجومية لا حصر لها في معظم صحف العالم، حتى أن صحف الإثارة والموضة أدلت بدلوها في شأن هذا "المارق".

إن هذا الهجوم الكاسح على غراس ليس غريباً ولا هو بجديد في مثل هذه الحالة، لكن الجديد والأهم واللافت هو ارتفاع أصوات تتراوح بين متفهمة ومتعاطفة ومتضامنة ومؤيدة علناً له، وتجرؤ أصحابها على الدفاع عنه:

فهذا "كلاوس شنايك"، رئيس أكاديمية الفنون في برلين، يرى أنه يجب أن يُتاح لكل إنسان حرية التعبير بصراحة وانفتاح عن آرائه، وينبغي عدم إدانته ونعته بأنه "عدو لإسرائيل"، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بمؤلف الرواية الألمانية الشهيرة The Tin Drum التي تدور حول الحرب العالمية الثانية ونشوء النازية. ويعرب شنايك عن قناعته بأن إلصاق تهمة العدا للسامية بغونتر غراس وإدانته عليها أمر غير سليم. وشدّد شنايك على أن غراس عبّر عن قلقه بشأن التطورات الخطيرة في منطقة الشرق الأوسط، وأن العديد من الأشخاص يشاطرونه قلقه.

ويؤكد الباحث الأمريكي "غلين بترسين"، رئيس قسم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع في كلية "كوتي باروخ" على مسألة بديهية، لكنها من المحرمات في الشروط الغربية المتعلقة بالهولوكوست، وهي أن الاختلاف مع وجهة نظر الآخر لا تعطيك الحق في الادعاء بأنه لا يجوز له أن يعبر عن معتقداته. ويقول إن إدانة غراس ما هي

إلا "نوع من قتل الرسول لأنك لا تريد أن تسمع الرسالة".

أما الكاتبة كريستينا باترسون فتطرح سؤالاً استنكارياً: "إذا لم يُسمح لحائز على جائزة نوبل للآداب بالكلام، فمن هو المسموح له بذلك إذن؟"، وتضيف أن غراس محق في القول إن موقف الغرب من الترسنة النووية الإسرائيلية ينطوي على قدر كبير من النفاق. ولعلّ الموقف الأشد وضوحاً والأكثر جرأة وأهمية في تأييد غونتر غراس ما عبّر عنه فنان ألماني شهير هو المغني "مايكل مونتيكروسا" وفرقته الموسيقية، في أغنية شعبية بعنوان مباشر وصريح: "غونتر غراس على حق... الحرب العالمية باطل".

هل كانت القصيدة مفاجئة؟

رغم المفاجأة التي أدهشت العالم وسقطت كقنبلة على رأس إسرائيل والأوساط الصهيونية والمؤيدة لها، فإن القصيدة لم تولد بنفخة واحدة من روح العدم، وإنما كان لها مقدمات أو إرهاصات تُنبئ بقرب ولادتها:

- ففي مقابلة أجرتها معه صحيفة "شبيغل أون لاين" وصف غراس عمليات "الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية لحساب المستوطنين اليهود" بأنها عمل إجرامي، ولا ينبغي وقفها فحسب، بل يجب إعادة الأرض إلى أصحابها.

- وفي سيرته الذاتية "تقشير البصل" التي نُشرت في العام 2006، كشف غراس النقاب عن حدث جلل في حياته، حيث كان قد جُنّد، وهو في السابعة عشرة من العمر، في سرايا الحرس النازي Waffen SS التابعة للحزب النازي، والتي شكّلها هتلر في نهاية الحرب العالمية الثانية. ولم يكن كشف غراس عن تلك الحقيقة بحد ذاتها هو المثير بالنسبة لبعضهم، فمئات الآلاف من الشبان الألمان جُنّدوا طوعاً أو كرهاً - في صفوف تلك الوحدات المسلحة، بل المثير هو إخفاؤه تلك الحادثة طوال تلك الفترة، وهو الذي كان قد انتقد الآخرين على ماضيهم النازي، وكان يُنظر إليه على أنه يمثل "كفارة" وطنية ويعدّ داعية للنقد الذاتي.

- نشر غراس قصيدة رثاء قبيل نشر هذه القصيدة في "ذي نيويورك ريفيو أوف بوكس" بعنوان "كلمات وداع"، نعى فيها صديقه المحرر "هيلموت فريلينغ هاوس". وتكاد القصيدة تمثل تمهيداً لصدور "البيان الأول" أو إلقاء "القنبلة الأولى" ضد إسرائيل في قصيدته المعنونة بـ "ما ينبغي أن يُقال":

"مَنْ لي بعد اليوم أول من يستشعرُ
وبكل كياسةٍ يمتنع عن القولِ
إن وراء الأكمة شيئاً لا يُرى
لكنه يغزورق بالكلمات."

القيمة الفنية للقصيدة؟

ظهرت عشرات الترجمات لهذه القصيدة النثرية السياسية المباشرة في الصحافة العالمية والعربية إلى لغات عدة، وقد أدليتُ بدلوي وقُمت بترجمتها من اللغة الإنجليزية عن نصين صدرا عن وكالة "أسوشيتدبريس" وصحيفة "ذي غارديان" المعروفتين. وتتألف القصيدة من تسع فقرات غير متساوية في عدد الأبيات. كما قمت بترجمة نص أغنية مايكل مونتيكروسا "غونتر غراس على حق... الحرب العالمية باطل" عن نص مترجم إلى اللغة الإنجليزية، وتتألف الأغنية من أربع فقرات متساوية في عدد الأبيات. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه يصعب على مَنْ لا يتقن اللغة الألمانية- فكيف الحال بمن لا يتكلمها مثلي - أن يحكم على القصيدة من الزاوية الفنية. علاوةً على أن الشعر المترجم بصفة عامة يفقد الكثير من مسحاته الفنية والجمالية. بل إن الشاعر الأمريكي روبرت فروست يعرفُ الشعر بأنه "ما نفقده في الترجمة". فكيف إذا كان مترجماً من لغتين؟ أي أنه فقد من روحه قطعتين ومن جماله مسحتين؟ يضاف إلى ذلك أن الترجمات التي صدرت حتى الآن للقصيدة تولّتها وسائل الإعلام في حينه كي تفي بتوقيعات صدورها ومقتضيات سبقها الصحفي، وليس من بينها ترجمات أدبية متخصصة، فضلاً عن أن القصيدة نثرية سياسية مباشرة.

خاتمة

لماذا اختار "غراس" أن يعبر عن موقفه السياسي في قصيدة، مع أنه كان باستطاعته أن يكتب مقال رأي؟ لأن الشاعر والروائي والفنان غونتر غراس، بصفته هذه، هو الذي أراد، مع سبق الإصرار والتعمد، أن يلفت أنظار شعبه وبلده والعالم، خصوصاً شريحة المثقفين والكتاب والفنانين، إلى موقفه، وأن يجتذب اهتماماً خاصاً يدوم أطول مدة ممكنة، فالمقال السياسي يضيع في بحر المقالات المتلاطم، وما أسرع ما يُنسى وما أسهل ما يتم الرد عليه أو دحضه أو نسفه بفدلكة السياسيين وكتّبة المصالح وسطوة الميديا الصهيونية.

لقد أراد غراس لموقفه هذا أن يدوم في وجدان شعبه والعالم بعد رحيله، فصاغه في ضربة شعرية موجعة، كشاعر وأديب وفنان، وليس ككاتب مقال. وهو ما أعطاه كل هذه الأهمية وولّد كل هذا الغضب والسخط من جانب الأبنواق الثقافية والسياسية الصهيونية.

القصيدة القنبلة التي فجّرها غونتر غراس في وجه إسرائيل بعد صمت دام عقوداً:

ما ينبغي أن يُقال

"لماذا ألوذ بالصمت؟ لماذا صمتُ طويلاً

عمّا يُمارس بكل وضوح من ألعاب حربٍ

لن نكون فيها نحن الناجين، في أحسن الأحوال

وفي نهاية المطاف، أكثر من هوامش

إنه الحق المزعوم في الضربة الأولى

التي يمكن أن تُبئد الشعب الإيراني المقهور من متشدقٍ،

والموجّه صوب التهليل المنظم،

لماذا؟ لأنهم يشتهون، فقط يشتهون

في أنه يصنع في بلده قنبلة.

لماذا أمتنع نفسي من ذكر البلد الآخر
الذي يملك منذ سنين قدرات نووية
تتنامى سرّاً وبلا رقيب أو حسيب
لأن التفتيش عنها ممنوع؟

أحسُّ بأنَّ صمت العالم الذي يظللُّ صمتي
كذبَةٌ تُدينني، وعسفٌ إذا لم أمتثل له
بانظارى العقاب.
فالحُكم المعتاد جاهزٌ للصدور:
أنت يا للهول "عدو السامية"

والآن لأنَّ بلادي التي واجهت مرةً تلو مرةٍ
جرميتها التي لا نظير لها
ستسلّم إلى إسرائيل،
في صفقة تسميها الشفاه الرشيقة "تعويضاً"،
غواصةً تحمل رؤوساً نووية لا تُبقي ولا تذرُ
موجهةً إلى بلد لم يثبت أن لديه قبلة نووية واحدة،
لكنَّ الخوف يريد أن يكون سيدَّ الأدلة؛
ولأنَّ الخوف يريد أن يكون سيد الأدلة،
فإنني أقول ما ينبغي أن يُقال.

ماذا اعتصمتُ حتى الآن بالصمتِ الغريبِ؟
لأنني اعتقدتُ أنَّ أصلي
الملطخَ بالمثالب التي لا تُمحي
سيمنع إسرائيل من تقبُّل الحقيقة الصريحة،
مع أنني تربطني بها وشائج وددتُ أن تدوم.

لِمَ لم أبُح من قبلُ بهذه الحقيقة؟

لم انتظرتُ حتى الآن،
بعد أن هَرِمْتُ
ولم يبقَ لي في محبرة العمر سوى القطرات الأخيرة،
كي أقول إن القوة النووية لإسرائيل
تُعَرِّضُ السلام العالمي الهشَّ للخطر؟
لأنَّ ما ينبغي أن يُقال اليوم
ربما يكون فائتاً غداً،
ولأننا نحن الألمان المثقلين بأحمال الذنب
ربما نصبح المصدرين لجريمة منتظرة
لا يمكن التكفير عنها بالأعدار المعهودة.

أعلنُ الآن أنني لن أصمت بعد اليوم
لأنني سئمتُ نفاق الغرب
وآملُ أن يحرر هذا البوح آخرين من ربة الصمت
وأن يدفع المتسبب بالخطر إلى نبذ العنف
والإصرار على مراقبة دائمة بلا عوائق
للقدرة النووية الإسرائيلية
والمنشآت النووية الإيرانية
من جانب هيئة دولية مقبولة من الطرفين

بهذا فقط يمكن أن نساعد الفلسطينيين والإسرائيلين
بل البشرية أجمع
في هذا الجزء المسكون بالجنون من العالم
الذي يعيش فيه الأعداء جنباً إلى جنب،
وأن نساعد أنفسنا في نهاية المطاف.“

الأغنية المؤيدة علناً لموقف غونتر غراس في بلد محكوم بعقدة "معاداة السامية"
ويجرّم أية إشارة بسوء إلى جرائم إسرائيل:
غونتر غراس على حق... الحرب العالمية باطل
غناء: مايكل مونتيكروسا

"غونتر غراس على حق..."

الحرب العالمية باطل.

عمّ ينبغي أن نتحدث؟

عن جذور البغضاء وسوء الفهم

عن العمى والغضب

عن النزاعات ونوايا الشر

ينبغي أن نتحدث

غونتر غراس على حق...

بالحقائق ينبغي أن نبوح،

بعقل متحرر وصادقٍ

مستعدون للسير في الطريق

إلى السلم والتفاهم

إلى الاحتراف بالإنسان

إلى وحدة البشرية البهيجة.

غونتر غراس على حق... تجارة السلاح باطلٌ

وخطرٌ يصبُّ الزيت على نار الحرب،

يعزز الاستعداد للقتل

يولّد نزعات الإجرام

فلنعزّز الاستعداد للعيش معاً

وحلّ مشكلاتنا معاً

إني أرى الناس في كل مكان،
إنهم لا يريدون الحرب
بل شيئاً وشباناً يريدون السلم والحب،
كرامة العمل لا ربة الفقر
حرية الإنسان والوشائج التي تربطنا
وتمنحنا السعادة.“

-v-

رباعية المئوية

- العقد الاجتماعي وما أدراك ما العقد الاجتماعي
1. من "دولة" عازلة إلى كيان هجين: دورة حياة
 2. في الحالة الرثة: عندما تصبح "شتى" بديلاً للهوية الوطنية
 3. في الدولة "الزومبي": المهمة المستحيلة
 4. مانيفستو اللحن الأردني الأخير: مقارنة مقارنة

العقد الاجتماعي وما أدراك ما العقد الاجتماعي³²

(ملحوظة تتعلق بالمصطلح: لأغراض هذا المقال فقط سأستخدم مصطلحاً غير بحثي وربما غير سياسي، وهو "الدولة الفوقا"، لاعتقادي بأن في دولة الأردن "دولت" وأن ثمة كتلة/تيار/جماعة/ متماسكة عابرة "للهويات الفرعية" المحلية والمرجعيات الخارجية، وذات هيكلية ما تعمل على نحو منسّق وممنهج ودؤوب، تغلّغت في مفاصل الدولة وشرابيتها الرئيسية كافة. ولإنجاز مهمة بسط سيطرتها التامة والنهائية على الدولة بأكملها، فقد عملت وتعمل على مراحل/أطوار مترابطة ومتصلة تفضي إحداها إلى الأخرى: دولة داخل دولة، دولة موازية، دولة فوق الدولة، ومن ثم الدولة بأكملها. ومن هنا فلاحقاً سأستخدم مصطلح "الدولة الفوقا" بمعنى "دولة فوق الدولة"، هذا على افتراض أنه بقي لدينا "دولة تحت"، والطرافة من وراء القصد.)

"أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جرّأها ويختصم"
أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبّي

بهذا النَّفس أطلق شعراء و"ناثرو"(من النثر) "الدولة الفوقا" شعار الحاجة إلى عقد اجتماعي جديد وأداروا ظهورهم لأفراد الشعب وتركوهم يسهرون جرّاه ويختصمون. إلا أن هؤلاء الشعراء، بحكم تكوينهم ودورهم الوظيفي وعقليّتهم، غير قادرين على التنبؤ كأبي الطيب ولا ينطقون إلا عن هوى وبوحي من خالقهم. هكذا طرحت الدولة الفوقا شعار العقد الاجتماعي الجديد ومضت في سبيلها دون إفصاح عن ماهية/مفهوم هذا العقد، مع الإيحاء بأنه يمثل مفتاح الحل

32- العبارة إشارة مقصودة إلى عبارة "الستينيات وما أدراك ما الستينيات" التي أطلقها الرئيس المصري الأسبق الدكتور محمد مرسي في خطابه الشهير في استاد القاهرة وهاجم فيه عهد عبدالناصر، الذي لولاه لما تحرّر الأب الفلاح البسيط المستغل من ربقة نظام القنانة (قانون الإصلاح الزراعي) ولما أتيح للإبن الحق في التعليم العام المجاني، وبالتالي متابعة تعليمه العالي، وفي نهاية الرحلة تأهيله للجلوس على كرسي رئاسة أكبر وأهم بلد عربي بعد مرور أكثر من أربعة عقود على رحيل رجل "الستينيات وما أدراك ما الستينيات" جمال عبد الناصر - بالطبع دون إغفال العوامل الحاسمة الأخرى في المحطة الأخيرة. وفي ذلك الخطاب، هاجم مرسي الرئيس السوري بشار الأسد، وتعهّد بإرسال الجيش الوطني المصري، الذي خاض أربعة حروب كبرى ضد العدو الإسرائيلي، وقدم عشرات الآلاف من الشهداء المصريين دفاعاً عن الأمة جمعاء، إلى سوريا لإطاحة النظام الوطني السوري وإسقاط رئيسه.

السحري لأزمات الأردن المزمنة ومآزقه المستعصية، بينما كثر "الهرج" بين الناس وطفقوا يختلفون فيما بينهم بشأنه، تأييداً أو رفضاً أو تفسيراً أو تأويلاً:

- فمنهم من يئس من العثور عليه، فراح يردد أبيات شاعر الأردن عرار التي استهلها بذكر الهبر، شيخ النور، ومسقط رأسي قرية بشرى وجارتها حوارة:

يا هبر لا بشرى ولا حوارة	يطربها عزفك بالقيثارة
يا هبر حسب الأمة الحمارة	حكومة برّاجة بصّارة
يا هبر استقللنا الكرتوني	أخرجني كما ترى عن ديني
"فدرتُ بين الناس كالمجنون	أسألهم عنه فما دلّوني

إلا على قعوار والخمّارة."

- ومنهم من يدعم هذا المشروع ويروّجه باعتباره عنواناً "للإصلاح" - المُبهم وحمّال الأوجه- الذي بدأت المطالبة به منذ اندلاع ما سُمي "بالربيع العربي". ويرى هؤلاء أنه يستجيب لمستجدات الحياة ويواكب تطورات العصر ويسدُّ الثغرات التي تكتنف الدستور.

- ويعتقد الرافضون لمشروع العقد الاجتماعي الجديد أن التيار المؤيد له يتألف ممن يصفونهم بأنهم أنصار الوطن البديل ودعاة الحقوق المنقوصة والمحاصصة والتجنيس والمعارضين لفكرة "دسترة/قوننة" فك الارتباط مع الضفة الغربية" التي اجترحها الكاتب والصحفي الشهيد ناهض حتر- وربما ذهب ضحيتها- وتبنّتها أوساط واسعة من الأردنيين في السنوات الأخيرة، ومنها العشائر الأردنية وحركة المتقاعدین العسكريين. ويضيف هؤلاء إلى قائمة داعمي المشروع أولئك الباحثين عن ملاذات أمنة من المستثمرين العرب والأجانب، ممن يستطيعون شراء الجنسيات والإقامات، واللاجئين والمهاجرين من مخرجات الأزمات والحروب الإقليمية، وكل من له مصلحة في التوقيع على العقد الجسدي. ولعلّ من الهواجس المقلقة للتيار الرافض لهذا المشروع أن الداعمين له يقرأون في فنان المشروع المفتوح فرصة تاريخية لا تُفوّت أو مُلكاً عضواً لا ينبغي التفريط به، كما يرون فيه

إصلاحاً مستحقاً طال انتظاره أو إنصافاً على "مظلومية" مزمنة تُثقل حملها أو صيداً ثميناً أرهقهم التربص به، ولذا فإنهم سيعضون عليه بالنواجذ.

- أما الهاجس الأكبر والأخطر الذي يستحوذ على عقول الأردنيين الراضين لمشروع العقد الاجتماعي الجديد فيتمثل في الاعتقاد بأن أهداف هذا المشروع ليست اقتصادية- اجتماعية محض كما هو مطروح، بل هي تمهيد لتحقيق أهداف سياسية- استراتيجية للإمبريالية وإسرائيل، عنوانها ماُعرف باسم "صفقة القرن" التي طرحها الرئيس ترمب وجوهرها، بغض النظر عن تسميتها، التصفية النهائية للقضية الفلسطينية وإنشاء وطن بديل/أوطان بديلة في الأردن، وعلى حسابه، ففي نهاية المطاف كلُّ الصيد في جوف الفرا.

- ومن بين الراضين للعقد الاجتماعي الجديد، ثمة من يرى أن الدستور الأردني هو العقد الاجتماعي الطبيعي، ولا حاجة بنا إلى دستور موازٍ ومنهم مسؤولون كبار سابقون؛ فقد أعرب نائب رئيس وزراء سابق، في مقابلة صحفية، عن استغرابه طرح فكرة "العقد الاجتماعي الجديد" في هذا الوقت بالذات، واعتبرها أمراً مثيراً للريبة، وقال إنه سمع شخصيات سياسية وازنة في الأردن تدعو إلى عقد اجتماعي جديد بعد ذلك، بل إن بعضهم تجاوز هذه الفكرة للحديث عن "بناء هوية وطنية جديدة"، أطلق عليها اسم "الهوية الجامعة"، على اعتبار أنه لا وجود أو لا لزوم لهوية وطنية أردنية.

- ويرى آخرون أنه يمكن العودة إلى دستور عام 1952، فهو يفى بالغرض. بيد أن هذا الدستور لم يعد هو نفسه بعد أن أُدخلت عليه تعديلات جوهرية جمّة أفرغته من أحكام أساسية فيه، أهمها وأخطرهما على الإطلاق تحويل نظام الحكم النيابي الملكي إلى نظام حكم أوتوقراطي، وُضعت بموجبها جميع السلطات بيد الملك.

- أما ممثلو التيار الشعبي للأردنيين الذين يرتابون في مقاصد مشروع العقد الاجتماعي الجديد فإنهم يرون فيه مشروعاً لإنشاء وطن بديل على أرض أجدادهم

وعلى أنقاض "دولتهم"، فيستنجدون بتاريخ "افتراضي" أو بالمخيال الشعبي، ويقولون إن بين الأردنيين، أهل البلاد الأصليين، والهاشميين القادمين من الحجاز عقداً اجتماعياً قديماً أبرم عند مجيء الأمير عبدالله إلى بلادهم، وموجبه قبلوا به أميراً للبلاد على أن يحكم بمشيئة أهلها، ولكن الطرف الثاني (الهاشميون/الأمير عبدالله) اليوم ينقضون ذلك العقد، ولذا فإن الطرف الأول (الأردنيون/أهالي البلاد الأصليون) يدعون إلى إعادة العمل به، وإلا فسيكونون في حلٍّ منه.

بيد أنني، بحدود اطلاعي المتواضع، لم أعر على أية وثيقة مكتوبة أو اتفاق موقع، ولا حتى شفوي، بين الهاشميين والأردنيين أو بين الأمير عبدالله وممثلين للأردنيين بهذا الشأن، بل عُقدت مؤتمرات واجتماعات لوجهاء وممثلي الأردنيين، كمؤتمر "السلط" في آب 1920، ومؤتمر "قم" في نيسان 1920، ومؤتمر "أم قيس" في أيلول 1920، وصدر عنها قرارات/وثائق وطنية مكتوبة، ليس بينها أي اتفاق أو تفاهم أو وثيقة بين الأردنيين والهاشميين، أو بينهم وبين الأمير عبدالله. ومن الواضح إذن أن تلك المؤتمرات التي عُقدت والقرارات/الوثائق التي صدرت عنها جاءت جميعاً قبل قدوم الأمير عبدالله من الحجاز إلى "شرق الأردن" وتنصيبه أميراً للبلاد، بل قبل أن يكون اسم الأمير "الافتراضي"، الوارد في الوثيقة التي صدرت عن مؤتمر "أم قيس" وتضمّنت أحد عشر مطلباً للأهلين، مطروحاً أو معروفاً لدى المجتمعين الموقعين عليها والذين طالبوا "بتشكيل حكومة عربية وطنية مستقلة" مرّجبة من لوائى الكرك والسلط وقضائي عجلون وجرش".

وحتى بعد وصول الأمير عبدالله إلى عمان قادماً من معان في 2 آذار/مارس 1921، لم تُعقد أية عهود أو عقود رسمية بين الأمير وأهل البلاد الأردنيين. وفي هذا الصدد يجدر الإشارة إلى أن خير الدين الزركلي، الذي عمل في حكومة الأمير منذ البداية وكان قريباً منه وحاضراً في تلك المناسبة، أورد في مذكراته³³ تفاصيل وقائع حفل ترحيبي بالأمير أُقيم في عمان في عصر اليوم التالي "أمام ملعبها التاريخي" (ربما يقصد المدرج الروماني). وكان عريف الحفل الشيخ كامل القصاب، الذي تحدّث

33- الزركلي، خير الدين، عمان في عمان: مذكرات عامين في عاصمة شرق الأردن 1921-1923، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان

عن وجوب تبادل العهد بين الأمير والحضور، وخاطبه بالقول: "لقد عاهدتكم الأمة على التأييد والالتفاف طالما حافظت على المصلحة القومية وسعيت إليها، وهي تنتظر ما ستُعاهدها أنت عليه." بيد أن الأمير طلب أن تكون كلمته آخر الكلمات، ربما كي يتمكن من الإلمام بالصورة الكاملة وتحضير رده على ما يقوله الخطاب. وبعد انتهاء جميع الخطابات المنظومة والمنشورة (شعراً ونثراً)، وقف الأمير وحدهم عن أن الله لن يتركهم وشأنهم وأن ملكهم (شقيقه فيصل) لن يتخلى عنهم، إذ أن له في الغرب أصدقاء ذوي نفوذ وكلمة مسموعة سيحققون لهم أمانهم. وتجاهل عن عمد واضح وبلهجة غاضبة ما ورد في كلمة الشيخ القصاب بخصوص العهد، بل قال إنه ما جاء إلا بدافع الحمية وإن والده تحمّل الكثير في سبيل الأمة وإنه يبذل الأنفس والأموال من أجل الوطن، وطلب منهم السمع والطاعة وعدم الشك والريبة فيه، و"إذا أمروا بالتقدم يجب أن يتقدموا أو بالتأخر يجب أن يتأخروا، فإن الآمال بيد مليكهم". كانت تلك الفعالية إذن حفلاً خطابياً محضاً، لم يشهد أية عهود أو اتفاقيات أو معاهدات أو بيعة بين طرفين، لا خطياً ولا شفويّاً، وإنما مجرد إعلان من قبل عريف الحفل عن استعداد الحضور لإعطاء عهد للأمير بدعمه والالتفاف حول قيادته بشرط المحافظة على المصلحة القومية والسعي إليها، لكن الأمير تجاهل العهد والشرط والأمر كله. وكان الأمير عبدالله قد ردّ على رسالة متصرف السلط مظهر رسلان، الذي سأله عن سبب مجيئه إلى شرق الأردن، بالقول إنها زيارة "احتلالية". وهذا يعني أنه لم يكن هناك أي عقد اجتماعي بين الأردنيين والأمير عبدالله أصلاً كما يظنون، بل كان الأمر أشبه بسلطة الأمر الواقع de facto بدعم ورعاية "الصديقة بريطانيا العظمى".

العقد الاجتماعي أو مبادئ الحق السياسي القديم: جان جاك روسو

من بين أثافي نظرية العقد الاجتماعي الثلاثة الكبار توماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو، كان الأخير هو الأبرز والأوسع انتشاراً والأعمق تأثيراً في نفوس الجماهير في عصره. حتى بات اسمه واسم كتابه متلازمين، لا يُذكر أحدهما بدون أن يُذكر الآخر، وصار يوصف كتابه بأنه "إنجيل الثورة". كان روسو منحازاً كلياً وبلا تحفُّظ للفقراء والمسحوقين والمهمّشين الذين عاش بينهم ومثلهم وكان واحداً منهم بالفعل. طالب بحقوقهم ودعا إلى المساواة وإلغاء التفاوت الطبقي،

وحرّضهم على الثورة ضد الاستبداد والملكية المطلقة، وإقامة الجمهورية على أنقاضها. لقد بلغ روسو وكتابه من الأهمية والتأثير ما حدا بالمورخ الاسكتلندي توماس كارلايل إلى الإشادة به في مواجهته للعالم أجمع بهذه العبارات الساطعة القاطعة:

”لقد استطاع العالم إجبار ذلك البطل على التشرذم والنوم على السطوح، واستطاع اتخاذه أضحوكة يُسخر منها كما يُسخر من البلهاء والمجانين، وتجويعه وتركه يتضور جوعاً كالوحش المسجون، فهل استطاع العالم منعه من إضرام الثورة وإشعال الأرض ناراً (بعد ثلاثين عاماً؟) لقد وجدت الثورة الفرنسية إنجيلها في كتابات روسو.“

إن العقد الاجتماعي عند روسو هو بمثابة ميثاق يتنازل بموجبه الفرد عن نفسه للجماعة، والفرد جزء من هذه الجماعة، وبذلك يضع العقد الاجتماعي نهاية لعهد فطرة الإنسان الفرد، ويعمل على إنشاء المجتمع، حيث تصبح السيادة والسلطان من حق المجموع ككل، وليس من حق فرد واحد، عندما يتنازل كل فرد عن حقوقه للمجتمع كله. ويجب أن يكون التنازل حقيقياً وحرّاً ولا غنى عنه لأنه هو وحده الذي ينقذ حرية المواطنين ويؤمّن المساواة فيما بينهم. وعندما يقرر كل فرد بشكل حر أن يريد ما تريده الإرادة العامة، فإنه لا يفعل سوى ما يريده هو نفسه.

كما أن صيغة العقد التي افترضها روسو وطبيعته تحمّلان المساواة التامة إلى جانب الحرية لأن الأفراد عندما يردّون أنفسهم إلى المجتمع إمّا يعودون إلى نقطة الصفر، فتتحقق المساواة التامة بينهم، كما أن اتحادهم يكون كاملاً بشكل مطلق ولا يسمح بأفضلية أحد على أحد.

ويعرّف روسو الإرادة العامة *general will* بالقول: ”إن للمجتمع السياسي شخصية معنوية ذات إرادة، هي الإرادة العامة، التي تنحو دائماً نحو تحقيق وصيانة الرفاهية للمجتمع، وهي مصدر القوانين، وتتكون من جميع الأفراد في علاقتهم

بعضهم ببعض، ويتَّسم حكمها بالعدالة. وهنا يميّز روسو بين الإرادة العامة وبين إرادة الفرد وإرادة المجموع؛ إذ يعتبر إرادتي الفرد والمجموع نوعاً من الأنانية. وفي نظريته عن الإرادة العامة يجمع روسو بين السيادة sovereignty والحرية، ويحاول إيجاد مفهوم جديد للسيادة تمتزج فيه الحرية بالسلطة؛ إذ يرى أن الشعب هو السيد وأن سيادته لا تُباع ولا تُشترى وهي غير قابلة للتصرف. ولا يمكن للشعب أن يتنازل عن السيادة، فهي وحدة واحدة غير قابلة للتجزئة؛ إن السيادة تعبير عن الإرادة العامة الكلية للشعب، وهي بالإضافة إلى ذلك معصومة من الخطأ. وبالنسبة لروسو لا سلطة تعلو على سلطة الإرادة العامة.

ويمكن القول بلا لبس أو تردد أن جوهر مفهوم العقد الاجتماعي عند "أبو العقد الاجتماعي" جان جاك روسو يتمثل في مناهضة الاستبداد وفي الإطاحة بالحكم الملكي المطلق، وإعطاء السلطة، كل السلطة، للشعب حتى من خلال تنازل كل فرد عن سيادته وإرادته للإرادة العامة. فهل يمكن أن يكون مفهوم العقد الاجتماعي الذي يتبناه نظام الحكم في الأردن هو المفهوم "الروسوي" هذا؟ بالطبع لا، اللهم إلا إذا كان النظام يريد أن يقوم بمهمة الإطاحة بنفسه! فما هو العقد الاجتماعي الجديد الذي يريده نظام الحكم إذن؟

العقد الاجتماعي الجديد: البنك الدولي

يتحدث تقرير المرصد الاقتصادي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا المعنون بـ: "نحو عقد اجتماعي جديد"، البنك الدولي 2015،³⁴ عن مشكلات التنمية في بلدان المنطقة فيقول إن تلك البلدان تتبّع منذ استقلالها نموذجاً واحداً تقريباً للتنمية. فالدولة هي التي تقدم خدمات الرعاية الصحية والتعليم للجميع مجاناً. ويجري دعم أسعار المواد الغذائية ومنتجات الوقود. وقد وصل هذا الدعم إلى 10 في المئة من إجمالي الناتج المحلي. وكان القطاع العام هو القطاع الرسمي الرئيسي لخلق فرص العمل والتوظيف. ويغمز التقرير من قناة مقايضة القمع

34- تقرير المرصد الاقتصادي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: نحو عقد اجتماعي جديد، مجموعة البنك الدولي، أبريل/

بالرفاه الاجتماعي الذي توفره الدولة بالقول إن "صوت المواطنين كان خافتاً مقابل سخاء الدولة".

وأمام سطوة الأرقام الصلدة لم يستطع التقرير تجنّب الاعتراف بأن "العقد الاجتماعي القديم" حقق نتائج ناجحة نسبياً على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي. ففي العقد الأول من القرن الحالي، بلغ معدل النمو الاقتصادي 4-5% سنوياً، وكانت معدلات الفقر منخفضة وآخذة في التراجع. وبلغت معدلات إكمال التعليم الابتدائي في المنطقة 100% تقريباً، وكانت معدلات الالتحاق بالتعليم الثانوي والعالي، ولاسيما بين النساء، مرتفعة وآخذة في الازدياد. وسجلت المنطقة أسرع تراجع في معدلات الوفيات بين الأطفال الرضع في العالم. لكنه يستدرِك ليقول إنه على الرغم من استمرار القطاع العام في تمويل وتوفير خدمات الرعاية الصحية والتعليم، فإنه "عجز عن تحقيق الجودة والإنصاف!!"

ولا يلبث التقرير أن ينتقل بسرعة وبشكل تعسفي واضح إلى الحكم على العقد الاجتماعي القديم بالفشل، مستشهداً باندلاع ما سُمي بـ "ثورات الربيع العربي" في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا التي تبعتها احتجاجات سياسية في البحرين والمغرب والأردن، والتي يعتبرها من أوضح العلامات على أن ذلك العقد الاجتماعي لم يكن يحقق ما كانت تتوق إليه شعوب المنطقة.

وكي يمهدّ لطرح حلوله لهذه المشكلات وبدائله، يقول تقرير البنك الدولي إنه من الضروري قبل ذلك تفهّم السبب في أن العقد الاجتماعي القديم بلغ حدوده القصوى. ويقرر أنه إذا كان من الواضح أن العقد الاجتماعي القديم الذي كانت فيه الحكومات تشكل المصدر الرئيسي للتوظيف قد تحطّم، فمن غير الواضح بالقدر نفسه ما إذا كانت الحكومات قادرة على الاستعاضة عنه بعقد جديد يكون دور الحكومة فيه هو تسهيل قيام قطاع خاص "مفعم بالحيوية وقادر على خلق الوظائف وفرص العمل". ولتحقيق ذلك، سيتعيّن على الحكومات أن تُجري تعديلات كبيرة في سياساتها وممارساتها بشأن القطاع الخاص. ومن أهم هذه التغييرات ضرورة تشجيع المنافسة في الصناعات المحلية كي تتمكن الشركات

حديثه العهد من النمو وخلق الوظائف المنتجة.

ويطرح التقرير سؤال ما العمل في وضع كهذا؟ ويضيف أن العقد الاجتماعي القديم، مع أنه كان ناجحاً فيما مضى، لم يعد مناسباً لتلبية احتياجات الجيل الحالي من المواطنين. ولا مناص من إرساء عقد اجتماعي جديد. فما هي طبيعة هذا العقد الاجتماعي الجديد؟

يجيب التقرير عن هذا السؤال بالتفصيل:

أولاً، بدلاً من توفير الوظائف في القطاع العام، يجب على الدولة أن تشجع المنافسة في القطاع الخاص وأن توفر المساواة في الفرص أمام رواد الأعمال جميعاً. ومن الجدير بالذكر أن هذا التحوُّل يشير إلى دور مختلف اختلافاً كبيراً لكل من الدولة والقطاع الخاص.

ثانياً، بدلاً من تقديم خدمات عامة متدنية الجودة، سواء كانت مدعومةً أو مجانية، تقوم الدولة بإحلال تحويلات نقدية (مُوجَّهة) محل الدعم، ويدفع كل فرد أسعار السوق. ولا ينسى التقرير هنا "مواساة" الفقراء ووعدهم بأنهم بهذه الطريقة يستطيعون الحصول على الخدمات الخاصة التي لا يحصل عليها في الوقت الحالي إلا الأغنياء والمقتدرون. وتُستخدَم النفقات العامة في تمويل السلع ذات النفع العام، مثل مرافق البنية التحتية والتحويلات النقدية.

ويخلص التقرير إلى إعلان نعي العقد الاجتماعي القديم والجزم بأنه استوفى الغرض منه ورحل عن دنياه الفانية، وأن من الصعب تصوُّر كيف يمكن للمنطقة أن تحل مشكلاتها القائمة منذ وقت طويل دون تبني عقد اجتماعي جديد في دنيا البنك الدولي الباقية. ولا يفوته أن يذرف دمعة زائفة على فقيدهم شعوبنا العقد الاجتماعي القديم، فيقول إن بلدان المنطقة، مثلما استطاعت تحقيق تقدم ملموس لمواطنيها مع العقد الاجتماعي القديم، يمكنها أن تفعل الشيء نفسه مع العقد الاجتماعي الجديد، أي عقد البنك الدولي، الذي يتبناه نظام الحكم في الأردن المغترب عن وطنه والمنفصل عن شعبه.

رُباعية المئوية: 35

35- "المئوية" عنوان الاحتفالية الرسمية بذكرى مرور مئة عام على إنشاء إمارة شرق الأردن Transjordan في عام 1921، التي سيصبح اسمها المملكة الأردنية الهاشمية في عام 1946، وستُضم إليها الأراضي الفلسطينية التي عُرفت باسم الضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية، في عام 1950. التي احتلتها إسرائيل في عام 1967، ولا تزال تحتلها حتى اليوم.

1. من "دولة" عازلة إلى كيان هجين: دورة حياة

"جوز كلام" قبل الكلام

"يا سامي باشا لا نطيع

ولا نعدّ عيالنا

لعيون مشخص والبنات

ذبح العساكر كارنا.

حُداء من "هيّة" الكرك، 1910³⁶

منذ منقلب القرن المنصرم كان يمكن أن يصبح الأردن بلداً مثل سائر البلدان، وكان يمكن أن يتطور المجتمع الأردني تطوراً طبيعياً وأن تكون له قوانينه الاجتماعية والاقتصادية الموضوعية الخاصة به كغيره من المجتمعات. فقد كان الأردنيون يزرعون أرضهم ويربّون الماشية ويطوّرون الحرف الملائمة لاحتياجاتهم. وكانوا ينتجون غذاءهم ويحققون الاكتفاء الذاتي من المواد الغذائية الأساسية، ولا سيما الحبوب، ويصدّرون الفائض منها عبر مينائي حيفا وبيروت. وشأنه شأن غيره من شعوب الأرض، كان للشعب الأردني تراث متعدد العناصر:

فقد أسهم الأردنيون في الكفاح الوطني والعربي منذ مطلع القرن العشرين، حيث أشعلوا انتفاضة الكرك (الهيّة) ضد الاستعمار العثماني في عام 1910، أي قبل تأسيس إمارة شرق الأردن بإحدى عشرة سنة؛ ووقفوا ضد خطر الهجرة اليهودية الى فلسطين في مؤتمر أم قيس، 1920؛ وتصدّوا لمدرعات وطائرات الانتداب البريطاني في ثورة البلقاء، 1923؛ ودحروا ثلاث غزوات وهابية في الأعوام 1922 و 1924 و

36- ثورة الكرك بجنوب الأردن التي عُرفت باسم "الهيّة" والتي قادها الشيخ قدر المجالي احتجاجاً على حملة إحصاء النفوس تمهيداً للتجنيد الإجباري لأبناء البلاد وإرسالهم للقتال في الأطراف البعيدة للإمبراطورية العثمانية، وعلى مصادرة الأسلحة من الأهالي وزيادة الضرائب المتنوعة. وسامي باشا هو سامي الفاروقي الذي جرّد الحملة على الكرك بعد منطقة حوران وجبل العرب. وأما مشخص فهي زوجة الشيخ قدر، التي كانت مع شقيقتها بندر أول معتقلتين سياسيتين في البلاد؛ إذ جرى اعتقالهما بسبب دورهما المهم في "الهيّة". وكانت بندر حاملاً، ووضعت مولودها في الحبس، فأسمته "حابس"، وهو المشير حابس المجالي، قائد معارك القدس في اللطرون وباب الواد في مواجهة القوات الصهيونية في حرب عام 1948 والذي سيصبح قائداً للجيش الأردني فيما بعد.

1928 وصلت إحداها إلى مشارف عمان على الرغم من أن المعتمد البريطاني رفض إعطاء الأوامر لطائراته ومدرعته بصد الغزاة الوهابيين، ووقف متفرجاً بانتظار نتائج المعركة. وغادر الأمير عبدالله "المقر" في عمان مع حاشيته ورجاله عشية الغزوة وأقام في قرية صويلح لمدة ثلاثة أيام "لإصابته بوعكة وحاجته إلى خلوة"، ولم يعد إلا بعد رحيل القوات الوهابية المهزومة؛ ورفضوا المعاهدة البريطانية-الأردنية الأولى في المؤتمر الوطني الأول عام 1928؛ وأسقطوا حلف بغداد الاستعماري وألغوا المعاهدة البريطانية-الأردنية الثانية وعربّوا الجيش؛ واجتروا بطولات وبذلوا دمًا زكياً دفاعاً عن القدس وفلسطين رغماً عن إرادة قيادتهم العسكرية البريطانية في عام 1948، وأمام الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وأجزاء من مصر وسوريا في عام 1967؛ ودحروا العدوان الصهيوني في معركة الكرامة في عام 1968؛ وناضلوا من أجل الحرية والديمقراطية وضد الامبريالية، وقدموا في سبيل ذلك أبطالاً وشهداء، من قدر المجالي إلى كايد المفلح إلى صايل الشهبان ومئات غيرهم.

وحتى بعد أن اقتطعه الثنائي الاستعماري سايكس وبيكو من جسم أمه سوريا، ظلّ الأردن وطناً له شعب وهوية. كان يمكن أن يتخذ لنفسه مساراً طبيعياً في التطور لو تُرك في حال سبيله، و كان يمكن ان يظل جزءاً من سوريا الطبيعية مثلاً لولا العمليات التعسفية المصمّمة والمنسّقة التي قامت بها الكولونيالية البريطانية والحركة الصهيونية والإمبريالية الأمريكية من بعد، و طالت جسده وروحه، وحوّلته قسراً إلى دولة عازلة ذات وظيفة جيو- سياسية أمنية بهدف إنجاح المشروع الاستعماري- الصهيوني، أي الدولة اليهودية الخالصة في فلسطين وعليها.

لكنني لن أردد الآن نسخة أردنية من قول زعيم الوطنية المصرية مصطفى كامل المأثور: "لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً"، والذي استحقّ أن يرثيه أمير الشعراء شوقي في عام 1908 في قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

"المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في ماتم والداني..."

غير أنني مستعد للقول: إنني لا أرضى اليوم، ولم أرض بالأمس، عن وطني الأردن بديلاً، وهو أمر يمكن إثبات صدقته بسهولة، إذ تشهد عليه رحلة دامت نحو أربعة عقود من السجون والزنازن والعذابات والفصل والحرمان من العمل

والسفر و"الاختفاء" وخوف الأطفال وقلقهم الدائم، وتؤكد عبارات الإشادة "بالوطن العظيم" و"الشعب الأبوي" التي نطقتُ بها في عشرات الخطب الشفوية والمقالات المكتوبة العلنية والسرية في حقبة الأحكام العرفية المباشرة، في الوقت الذي لم يكن الأردن يحظى بالاعتراف به "كوطن بذاته" من قبل العديد من المكونات السياسية:

- فالإسلاميون الوهابيون، وعلى الرغم من أنهم أكلوا من خيراته وشاركوا في حكمه، لم ينظروا إلى الأردن كوطن، فالأوطان عندهم ليست سوى أوثان، والدنيا فسطاطان: دار كفر ودار إسلام، أما الوطن الحقيقي فهو دار الإسلام في أي مكان، والأفغاني الوهابي أقرب لهم من الأردني العربي والمسلم غير الوهابي.

- والقوميون لم يكونوا يعترفون بالكيانات القطرية، وبالتالي لا يقاربون مشاكل الوطن ولا يرون حلولاً لها إلا بتحقيق الوحدة العربية، مع أن فصيلاً منهم - حزب البعث- حرص كل الحرص على حكم قُطرين كبيرين من تلك الكيانات القطرية لعقود وأصبحت عدوِّين لدودين في بعض الفترات.

- ومنتسبو فصائل منظمة التحرير الفلسطينية لم يروا الأردن والأردنيين إلا بعدسة المصالح الفلسطينية، سواء في أوقات المصادمة أم المسالمة، بل نظروا إلى الأردن كصحراء قاحلة قاموا مشكورين بتعميرها وإلى الأردنيين كبدو همج، ولم يعترفوا بوجود حركة وطنية أردنية على الرغم من أن العديد من الأردنيين انخرطوا في صفوف فصائل المنظمة، وخلطوا بين نظام الحكم والشعب الأردني.

- أما الموالون لنظام الحكم فكانوا يرون في الأردن دولة حصرية لهم وبقرة صرّوع حلوب ومزرعة خاصة لحكامه مسيَّجة بالأسلاك الشائكة ومحاطة بالألغام ومحروسة بالنواير كي لا تسوّلن لأحد نفسه الأمارة بالسوء بالتسلل إليها وإزعاج أصحابها أو تعريض مصالحهم للخطر.

وأود أن أؤكد أنني لا أهدف إلى إثارة غضب محب أو تشقيّ كاره ولا إلى التقليل من شأن الأردن أو تعظيمه؛ وأن ضالتي في هذه الأطروحة هي ما أعتقد أنها

الحقيقة ولا أبتغي غيرها، على الرغم من ترددي الشديد والطويل في عرضها. هكذا أرى المقدمات، وهكذا أرى النتائج التي تفضي إليها بلا تابوهات ولا بيع أوهام ولا تستر على الداء، متمنياً أن أكون على خطأ في ما أذهب إليه.

تنويه لا بد منه

أود أن ألتمس العذر لكون ورقتي هذه غير مستوفية لشروط البحث، وذلك لأن موضوعها، المتعلق بالانتقال من دولة-إمارة عازلة (Buffer Emirate- State)- الفصل الأول من البحث- إلى كيان هجين (Hybrid entity)-الفصل الثاني- أو من طور إلى طور آخر، أو من وظيفة إلى وظيفة أخرى للدولة العازلة، وبالتالي من هوية وطنية تعسفية إلى هوية لاوطنية هجينة أو إلى اللاهوية أو إلى "هويات قاتلة" (أمين معلوف)، هو بحدود علمي موضوع جديد، وسبيله غير مطروق والسير فيه ربما يكون محفوفاً بالمخاطر والعقبات والأشواك والحفر والمتاهات والمنزلاقات التي ربما تقود إلى فشل البحث، والخوض فيه أشبه بفلاحة أرض بكر لم يشقها محراث من قبل أو بالزراعة تحت الجليد. وقد حاولت ما وسعني الجهد والوقت أن أبحث عن مراجع أستعين بها في مسعاي، واستنجدت بأصدقاء لي في الخارج، حيث أرسلوا لي مشكورين بعض الكتب المهمة والحديثة الصدور عن الهوية وعن الدولة العازلة بشكل منفصل، ولا شيء تقريباً حول الكيان السياسي الهجين، وعلى الرغم من ذلك، لا أنكر أن هذا الموضوع ما برح يؤرقني ويلح عليّ، وأنا متشبت بالمضي فيه قُدماً لما يكتسيه من أهمية بالغة، سواءً من الناحية البحثية، أو من الناحية السياسية، لجهة تأثيره الحاسم على كل من الأردن وفلسطين، كياناً وشعباً ومصيراً واستقلالاً وسيادةً وتحريراً وهويةً وحقوقاً وطنية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

وانطلاقاً من هذه الأرضية، فإن هذه الورقة أقرب إلى أن تكون هيكلًا عظيمًا لبحث مقبل، يضم مكونات أساسية وعناوين موضوعات مقترحة للتفكير والتأمل والحوار. وإنني أنظر إليه على أنه مشروع بحث متفاعل ينتظر الشروط والصيغة العلمية كي يكتمل. وأقصد بمشروع البحث المتفاعل أنه يمكن للآخرين أن يسهموا فيه بقدر ما أسهم فيه أنا أو ربما بأكثر وأفضل. وهو بهذا المعنى

مطروح للتبني والشراكة. ويحدوني الأمل هنا في أن يجد اهتماماً كافياً من جانب المتخصصين والباحثين والمفكرين والمعنيين عامة، من سياسيين وحزبيين وحقوقيين وأعضاء في هيئات "المجتمع المدني" لمناقشته وإثرائه، أو حتى دحضه وتفنيده، في ورشات عمل أو حلقات دراسية، أو في الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي.

الفصل الأول: الولادة والطفولة.. الشباب والكهولة

المشهد الأول: سؤال الهوية

" في مايو/أيار 1960، غادر المؤرخ أرنولد جيه توينبي قندهار وقطع بسيارته نحو 90 ميلاً على طرق معبدة حديثاً حتى وصل إلى لشقر غاه، وهي مدينة حديثة التخطيط عُرفت على المستوى المحلي باسم "نيويورك أفغانستان". وعند ملتقى نهري هيلمند وأرغنداب قبالة آثار "قلعة بيست" القديمة، عاش سكان "لشقر غاه" البالغ عددهم ثمانية آلاف نسمة فقط في منازل أُقيمت على طريقة الضواحي الأمريكية تفصلها ممرات عشبية فسيحة. وقد ازدهت المدينة بمسجد من المرمر وبأحد أفضل المستشفيات وبالمدرسة المختلطة الوحيدة في البلاد وبالمقر الرئيسي لسلطة وادي هيلمند، وهي مشروع سد متعدد الأغراض بتمويل من الولايات المتحدة".

وقد قادت هذه الحداثة غير المتوقعة أرنولد توينبي إلى التأمل في مقوله سوفوكليس الشهيرة: "قدراته المادية تفوق أحلامه".

ففي المنطقة المحيطة بقندهار اختفت أفغانستان التقليدية، وأصبحت منطقة سلطة وادي هيلمند قطعة من أمريكا حُشرت في خريطة أفغانستان... حيث أن العالم الجديد الذي جرى استحضاره وزرعه في الصحراء على حساب نهر هيلمند يجب أن يكون بمثابة أمريكا في قلب آسيا... وبعد أحداث 11 سبتمبر/أيلول 2001، حيث التقطت عدسات الشبكات الإعلامية العالمية صوراً لكل شبر في أفغانستان، بدا هذا البلد أبعد نقطة على وجه الكرة الأرضية عن تأثير الثقافة الأمريكية.³⁷

37- Cullather, Nick, Damming Afghanistan: Modernization in a Buffer State, The journal of American History,

من ناحيتي أعتقد أن مقولة سوفوكليس الأنفة الذكر ربما انطبقت على الحقبة التي وصل فيها الشيوعيون الأفغان إلى سدة الحكم في بلادهم والإنجازات الحداثية والتقدمية الكبرى التي حاولوا تحقيقها وحققوا بعضها، وأهمها في مجال التعليم، وخصوصاً تعليم البنات، وعلى الوجود السوفييتي في أفغانستان، الذي هُزم أمام الحلف الامريكي- الباكستاني- العربي- الوهابي، الذي أُطلق عليه اسم "الجهاد الأفغاني". وقد استند الحلف المذكور والنصر الذي حققه إلى أساس داخلي صلب، وهو تخلف المجتمع الأفغاني، حيث الحداثة والتقدم الاجتماعي أكبر من أحلامه، وهو ما حدّر منه سوفوكليس.

مفاهيم/ تعريفات ذات صلة

الهوية: مصطلح مظلّة يُستخدم في العلوم الاجتماعية لوصف كيف يعي الفرد نفسه/ كيف تعي الجماعة نفسها ككيان متميز ومنفصل عن غيره، وكيف يريد هذا الفرد/ هذه الجماعة من الآخرين أن يروه/ يروها.

أشكال الهوية:

الهوية الشخصية: هي الطريقة التي يُعرّف الشخص بها نفسه من حيث فردانيته واختلافه عن الآخرين، وقد يشمل ذلك عوامل من قبيل العمر والنوع الاجتماعي والجنسية والثقافة والانتماء الديني والمصالح والمواهب والسمات الشخصية وشبكات العائلة والصدّاقة. إن الطريقة التي يرى الشخص نفسه بها، بالعلاقة بمن حوله، وبما يجعله متفرداً، تعتبر من جوانب الهوية الشخصية. ومن المعروف أن جزءاً من هويتنا الشخصية يُعطى لنا عند الولادة، من قبيل النوع الاجتماعي والجنسية والتاريخ الوراثي. بينما تتشكّل جوانب أخرى من هويتنا الشخصية خلال السنوات الأولى من تطورنا، وتستمر في التطور خلال حياتنا مع النمو والبلوغ واتخاذ الخيارات وإقامة العلاقات وبناء هوية متطورة لأنفسنا.

الهوية الاجتماعية: تتعلق بكيفية عملنا ضمن أوضاع اجتماعية مختلفة عديدة، وعلاقتنا بطائفة من الأشخاص الآخرين. فالفئات الاجتماعية قد تشمل العائلة والجماعات الإثنية والجنسية والارتباطات الثقافية والجنسية والأصدقاء والعمل. فهي جزء مهم وقيّم من حياتنا اليومية. إن كيفة رؤيتنا لأنفسنا بالارتباط بالجماعات الاجتماعية هي التي تحدد هويتنا الاجتماعية.

الهوية الإثنية: تشير إلى شعور الشخص بالانتماء إلى جماعة إثنية. وتُستمد الهوية الإثنية من إدراك أن أفكار الشخص وتصوراتهِ ومشاعره وسلوكاته تتسق مع تلك التي يتمتع بها أفراد الجماعة الإثنية الآخرون. فالهوية الإثنية تُقر بأن الشخص لا ينتمي إلى جماعة معيّنة تتشارك في الأصل الإثني فحسب، وإنما في الممارسات الثقافية العامة أيضاً.

التعسف: مصطلح يُطلق على الخيارات والأفعال والإجراءات التي لا تُتخذ استناداً إلى مبدأ أو منطق، وإنما إلى الهوى والغرض أو أية صيغة غير منطقية بقرار فوقي لخدمة أغراض المتعسف، شخصاً كان أم حكومة أم دولة أم مجموعة دول. وبهذا المعنى يأتي وصف القرارات أو التدابير أو العقوبات أو الاعتقالات أو السياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بأنها تعسفية، وهذا يشمل الهوية.

الدولة العازلة Buffer state: لعل التعريف المشترك والأكثر شيوعاً بين معظم المصادر هو أنها "دولة تقع جغرافياً بين دولتين أو قوتين أخريين متنافستين أو متعاديتين".

وقد استُخدم مصطلح "الدولة العازلة" أول مرة ليصف أفغانستان، التي كانت عاقلة بين الإمبراطوريتين البريطانية والروسية في أواخر القرن التاسع عشر، حيث شكّل التلاعب بالدول العازلة كأفغانستان وإمارات آسيا الوسطى عنصراً في "اللعبة الكبرى" الدبلوماسية، التي لعبتها بريطانيا وروسيا القيصرية للسيطرة على الممرات الجبلية الاستراتيجية التي تصل إلى الهند البريطانية. كما أن مفهوم الدولة العازلة جزء من نظرية توازن القوى التي دخلت التفكير الاستراتيجي

والدبلوماسية الأوروبي في القرن السابع عشر.

الكيان الهجين Hybrid Entity

”الهجين“ في علم الأحياء هو ما ينتج من تزاوج أنواع أو سلالات أو أصناف مختلفة. والمعنى واحد في الجوهر في المجالات الأخرى كاللغة والثقافة والميكانيك والقوات العسكرية والشركات وغيرها.

والكيان الهجين هو الفضاء الذي يضم خليطاً من ذوي الهويات ”السائلة“ (أي التي تتغير بتغير السياق الاجتماعي للفرد) والمهجنة من المهاجرين واللاجئين والكوزموبوليتيين والحدائثيين وما بعد الحدائثيين وغيرهم من أولئك الذين ليسوا هنا ولا هناك ولا في أي مكان في عالم اليوم.

موت الدولة العازلة:

”الدولة العازلة وُلدت لتموت“

تانيشا إم فزال³⁸ Tanisha Fizal

في كتابها المعنون بـ ”موت الدولة: السياسة والجغرافيا في الغزو والاحتلال والضم“، ترى تانيشا فزال أن الدولة يمكن أن تموت وأن موت الدولة يتخذ أحد الأشكال التالية:

- فقدان السيطرة على السياسة الخارجية لصالح دولة أخرى؛
- الانهيار الداخلي للدولة أو فشلها [الدولة الفاشلة]؛
- تغيير النظام أو الغزو أو التقسيم؛
- فقدان السيادة لصالح دولة أخرى.

وقد يحدث موت الدولة العازلة إذا قُطعت عنها أجهزة التنفس الاصطناعي، أي عند انتهاء أو الاستغناء عن دورها الوظيفي الجيو-سياسي-الأمني، وبالتالي رفع

38- Fazel, Tanisha M, State Death: The Politics and Geography of Conquest, Occupation and Annexation. (3) Princeton University Press, 2007

مظلة الحماية عنها، أو تغيير وظيفتها.

ومع أن عدداً من الباحثين الذين تستشهد بهم تانيسا فزال، متفقون على أن سيادة الدولة العازلة وحتى وجودها برمتها يصبحان عرضة للخطر أو الزوال ما لم تحافظ على حيئتها، فإن فزال تعتقد أن مصير الدولة العازلة مرهون بسلوك الدول المتنافسة أو المتعادية وليس بسلوك الدولة العازلة نفسها. إذ أن كل دولة من الدول المتنافسة تخشى من احتمال أن يستولي خصمها على الدولة العازلة. ويخلق هذا الخوف نزعة استراتيجية تؤدي إلى نتيجة عنيفة، وهي موت الدولة العازلة.³⁹

كما أن موت الدولة العازلة هو المصير الأكثر رجحاناً لأن الدول المتنافسة المحيطة بها لا تستطيع أن تقطع على نفسها التزامات ذات صدقية أو أن تفي بالتزامها بعدم الاستيلاء عليها يوماً ما إذا اقتضت ذلك ضرورات أمنها القومي أو مصالحها الاستراتيجية العليا.

وتذهب نازال إلى القول إنه في عالم اليوم، الذي يشهد هيمنة القوة الكونية الأعظم، إذا حدث تغيير جذري (تحول) في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية أو في أولوياتها أو أفضلياتها، فإن موت الدولة العازلة يمكن أن يصبح أمراً متوقعاً وعادياً.

ملخص الفكرة الرئيسية

تتمثل الفكرة الرئيسية لهذا الفصل في أنه نظراً لأن الدولة العازلة تنشأ بقرار سياسي، وتكون "منذورة" لأداء وظيفة جيو-سياسية-أمنية محددة، فإن جميع البنى التي تنشأ في تلك الدولة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تكون، أو تصبح، على صورة الدولة، أي بنى تعسفية وغير طبيعية، بمعنى أنها لا تولد قوانين اقتصادية-اجتماعية-ثقافية تعمل وتتطور بشكل "طبيعي" ومستقل عن أي فرد أو جماعة أو سلطة، وإنما تكون مصطنعة وموجهة بقرارات

سياسية فوقية. ويسري ذلك على مختلف مجالات الحياة العامة وعلى سلوك وعقلية الفرد والجماعة ومنظومة القيم السائدة. وهو ما يلقي بظلاله التعسفية والمشوّهة (بكسر الواو المشددة) على هوية الفرد والجماعة معاً. ويتجلى ذلك في مناحٍ عديدة:

• في التاريخ والجغرافيا:

قد يتم تلفيق تاريخ غير حقيقي للبلد وسكانه وقيادته السياسية بما يخدم مصالح نظام الحكم وغرسه في عقول الأجيال بشتى الوسائل، ولا سيما المناهج التربوية والتعليمية ووسائل الإعلام وأجهزة الثقافة الرسمية، مع المثابرة، بالمقابل، على محاولات طمس كل تاريخ آخر، أو تاريخ كل آخر. ويصبح التاريخ السياسي للبلد هو تاريخ قيام الدولة العازلة، ويجري رسم تصوّر جمعي كاريكاتوري للدولة يقوم على أنها دولة ذات أهمية بالغة ولها دور إقليمي وعالمي بذاتها ولذاتها، تلعب مع الكبار لعبة صغار، ويدخل في روع الأفراد والجماعة أنهم مواطنو دولة عظمى راسخة على خريطة العالم.

حتى الجغرافيا لا تسلم من التعسف، إذ يجري استخدام التاريخ الطبيعي للمكان الذي تأسست عليه الدولة العازلة لإيهام سكانها بأن هذه الدولة بحدودها السياسية الحالية ونظام الحكم السياسي الحالي كانت موجودة منذ تشكّل حفرة الانهدام الكبير! ويقترن ذلك بتجاهل تام للمسألة الأساسية والأكثر أهمية في هذا الشأن، وهي تواصل علاقة الإنسان بالمكان بعيداً عن التماهي مع نظام الحكم، فجميع الأماكن قديمة قدم استقرار الكرة الأرضية، والمكان لا يبرح مكانه.

• في السياسة والاقتصاد والحكم:

لعل من أبرز خصائص الدولة العازلة ماهية "العقد الاجتماعي" الناظم للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، أو بين نظام الحكم والشعب (أي المواطننة والحقوق والواجبات بصورة أساسية). ففي مثل هذه الدولة يختفى مفهوم المواطننة وحقوق المواطن وواجبات الدولة ليحل محله مفهوم الراعي والرعية، الحاكم والمحكوم، ولي الأمر والنعمة والعبد المأمور والمنعم عليه. وعادةً ما تكون الدولة

ريعية، يسود فيها أسلوب العطايا والهبات والمكرمات في شتى مناحي حياة المجتمع والأفراد، في التعليم والصحة والخدمات الأخرى. ويغدو بمقدور الحاكم أن يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، رضاه منبع الغنى والجاه، وسُخطه جالب الفقر والذل والإقصاء. وتعود إلى الحياة، لكن بثوب عصري، عقلية الماضي المندثر، حيث يصفق السلطان بيديه مرتين هاتفاً: ”يا غلام أعطه ألف ألف درهم/ أو أيها الحاجب إضرب عنقه“، فيكون له ذلك. ولا تُحسب الكفاءة من أسس الظفر بالمناصب العليا، وحتى فرص العمل والترقية والمكتسبات الطبيعية في قطاع الدولة على وجه العموم.

كما أن التعسف يطاول الاقتصاد، إذ يجري إضعاف و/أو القضاء على النشاط الإنتاجي في المجتمع، كالزراعة والصناعة والحرف وغيرها، وإنعاش الأنشطة الطفيلية في العقارات والأسواق المالية وأعمال السمسرة. وفي ظل نظام العولمة الرأسمالية، تقع الدولة العازلة، شأنها شأن الدول التابعة للمراكز الرأسمالية، في تناقض صارخ، إذ يجري إطلاق حرية السوق وحركة رأس المال والسلع بلا حدود أو قيود، بينما يستمر كبت الحريات الأساسية وانتهاك الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للجماهير بلا هوادة، سواء في القوانين أو/و الممارسات.

• ”تصنيع“ التراث:

لا تنفك الدولة العازلة تحاول القضاء على التراث الشعبي السابق لإنشائها وخلق تراث جديد كلياً، يبدأ اعتباراً من تاريخ إنشائها كما أسلفنا، متجاهلةً أن التراث بالذات لا يمكن صنعه أو خلقه أو تليفه، وإنما هو حالة تطور معقدة وموغلّة في الزمن ومتراكمة ومستمرة. كما تحاول فرض التراث ”الجديد“ عبر مختلف الوسائل التي تمتلكها أو تسيطر عليها كالترفيه والتعليم والإعلام والثقافة.

وحتى الفن الشعبي الذي ليس له مؤلف ولا بداية ولا نهاية، كأغاني العمل والأعراس والحناء والحب، يجري استبداله ليحل محله “فن“ مزرّ هابط المستوى أو يتغنى بأمجاد وهمية أو حتى بمكاسب حقيقية تُمنحُ ثمناً للدور السياسي للدولة العازلة.

كما يجري مسح المخيال الشعبي بصورة منهجية، كي لا يبقى منه سوى الخرافة والتخلف وتمجيد الاستبداد؛ ويجري إلغاء العقل لحساب النقل وتسود روح القطيع على حساب الفكر الحر، وثقافة "اليونيفورم" بدلاً من الثقافة النقدية التعددية الخلاقة.

• شخصية الفرد

نتيجةً للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تخلقها الدولة العازلة على نحو تعسفي، تتشكّل وتشيع بين الأفراد شخصية تتسم بالتعقيد الشديد، فهي مزيج من، وليست مقتصرة على، شخصية الانتهازي، المنافق، الباطني، القناص، قصاص الأثر، المزدوج/المتعدد المعايير، الخانع لمن هو فوقه والمتنمّر على من هو تحته في السلم الوظيفي والاجتماعي، الواشي الذي يعرف من أين تؤكل الكتف ومتى تؤكل، غير المستعد للتضحية في سبيل وطنه وأرضه عندما يجدُّ الجُد، بل مستعد للتضحية بهما وبكل ما يتشدد به في النهار في سبيل منفعتة الشخصية في الليل.

ختام الفصل الأول

يمكن القول إذن إن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التعسفية التي تخلقها الدولة العازلة هي التي تشكل هوية الفرد والمجتمع، وبالتالي تولّد هُويةً أو هُوياتٍ تعسفية مشوّهة على صورتها وهيئتها.

وهكذا نرى أن ثمة معضلة هوية في الدولة العازلة، تستحق وينبغي التصدي لها وفك عُقدها وإزالة غموضها على الرغم من أن التصدي لهذه المعضلة نوع من المغامرة التي يمكن أن تطيح بسمعة الباحث وصدقته، لأن هذا البحث يحتاج إلى مصادر عديدة ومتنوعة وإلى أدوات بحث جديدة قد لا تكون بحوزتي ومقاربة جديدة ربما لا أقدر عليها، ولكنني طامع في أجر الاجتهاد على كل حال.

ثمة إذن أربعة أسئلة رئيسية في هذا الفصل:

- هل هناك هوية في الدولة العازلة؟ وإذا كان الجواب بنعم، ما هي هذه الهوية؟

- هل يمكن أن نطلق على المجتمع الذي "يتشكّل" في أو بفعل الدولة العازلة، التي أشرتُ إلى بعض خصائصها آنفاً، تسمية/صفة/مصطلح "المجتمع العازل"؟ وما هي سمات المجتمع العازل؟ وإذا كان هناك "مجتمع عازل"، هل يكون مجتمعاً منبثاً، كما قالت العرب، لا أرضاً قَطع ولا ظهرأً أبقى؟

- هل هناك حل لمعضلة هوية الدولة العازلة والمجتمع العازل أو سبيل للخروج من مأزقها؟

- هل قَدَرُ الدولة العازلة ومصيرها أن تموت؟ وإذا كان الجواب بنعم، فما الذي يحدث للهوية في حال موتها؟ هل تموت هي الأخرى؟

وبعد، إذا قبلنا في هذه الأطروحة بمقدمة مفادها أن الأردن بنظام الحكم الحالي دولة عازلة، فإننا سنقبل الوصول إلى نتيجة مفادها أن سمات الدولة العازلة، جميعها أو بعضها، التي وردت في هذه الورقة، تنطبق عليه.

الفصل الثاني: الشيخوخة والاحتضار والموت

المشهد الثاني: سؤال المصير (بلغة إنسانية)

المريض الثمين يحتضر، بل هو في الحقيقة في حالة موت سريري، "يعيش" بواسطة الأجهزة. المستشفى الذي يتولى "معالجته" ينتظر القرار المصري بالموافقة على الضغط على زر الحياة- أو زر الموت بالأحرى- لفصل الأجهزة، بينما الورثة مختلفون في ما بينهم ومنقسمون إلى فسطاطين: العاطفيون الذين يحبونه لأنه كان يُشعرهم بأنه الأب الحاني عليهم وأنه كان كريماً معهم "في حياة عينه" على قاعدة للذكر مثل حظ الأنثيين، وبالتالي فهم متضررون من وفاته ولديهم أمل بالله كبير في أن يتعافى، وما على الله سبحانه ببعيد؛ والواقعيون المنتظرون على أحر من الجمر الذين لا يأبهون بالعواطف ويستعجلون القدر للحصول على حصتهم من الميراث على قاعدة المساواة العصرية، ويؤمنون بأن الحيّ خير

من الميـت وأبقي، ولذا فهم منتفعون من وفاته. لكن المستشفى لن ينتظر إلى الأبد، فالمرضى يحجز حيزاً واسعاً، والأهل والعشيرة والزوار من شتى الأرجاء، محبين ومبغضين ومحايدين ومراقبين ومتربصين، يحتشدون في جناح المريض وعلى بوابات المستشفى وفي أروقتة ليل نهار، يملأون المكان ويعيقون العمل ويُرَبكون الخطط والبرامج ويلحقون الضرر بمصالح المستشفى. ولذا فإن الإدارة تلجأ على الحسم وتضغط باتجاهه، وتلجأ إلى أنها قد تلجأ في النهاية إلى التدخل بتشكيل "كونسلتو" لاتخاذ قرار بخروج المريض من المستشفى لأسباب إنسانية، لأنه في حالة ميؤوس منها، ولأنه يكابد العذاب، وكلما طال بقاؤه طال عذابه، ولم يعد بوسعهم أن يفعلوا له شيئاً سوى الدعاء وطلب الرحمة، وهو أمر ليس من اختصاصهم على أية حال.

بيد أن الأهم من ذلك كله في الحقيقة هو أن نخبة من علماء العالم المتعولمين معتكفة في المختبر ومنهمكة في العمل على مشروع استراتيجي هائل للهندسة الجينية، وعاكفة على "تخليق" مولود جديد هجين "هايبريد" بديل للمريض المحتضر، ويستحيل أن يكتمل الجنين وأن ينزل الطفل الجديد "البازغ" إلا بإزاحة العجوز الأفل، أليست هذه دورة الحياة الطبيعية؟

المشهد الثاني نفسه (بلغة سياسية): المآلات البائسة

"أوشكتُ أن أعطي هذا المقال عنواناً مزدوجاً: الهويات القاتلة أو كيف نروّض الفهد. لماذا الفهد؟ لأنه يقتل إذا طاردناه ويقتل إذا تركناه طليقاً، والأسوأ أن نتركه في الطبيعة بعد أن نكون قد جرحناه. ولكنني اخترتُ الفهد لأننا نستطيع أن نروّضه أيضاً". أمين معلوف.⁴⁰

كنت قد أشرتُ في الفصل الأول إلى إمكانية "موت الدولة" العازلة، بحسب تعبير تانيسا فزال، وإلى أن موته يتخذ أشكالاً متنوعة، كالانهيار الداخلي للدولة، أو فشلها، أو تغيير نظام الحكم فيها، أو الغزو الخارجي، أو تقسيمها، أو فقدان السيادة الوطنية لصالح دول أجنبية.

40- معلوف، أمين، الهويات القاتلة، ترجمة د. نبيل محسن، دار ورد للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ص. 126.

وتبيّن أن مصير الدولة العازلة لا يتوقف على سلوكها فحسب، وإنما على سلوك الدول المتنافسة أو المتصارعة عليها، حيث تخشى كل منها أن تخضع الدولة العازلة لسيطرة خصومها أو تدخل في مجال نفوذها. وربما يخلق هذا الخوف الدائم نزعة استراتيجية تقود إلى فعل تكتيكي عنيف، بوضع محصول الدولة العازلة برمته في قلب الرchy، أي موتها.

كما تبين أن موت الدولة العازلة يصبح المصير الأكثر رجحاناً لأن الدول المتنافسة أو المتصارعة أو المتحاربة لا تستطيع أن تقطع على نفسها عهداً صادقة بعدم الاستيلاء عليها، وحتى لو فعلت، فإنها لا تستطيع الإيفاء بتلك العهود إذا اقتضت ضرورات أمنها القومي ومصالحها الاستراتيجية العليا ذلك.

وفي عالم اليوم الذي يشهد جموحاً منفلتاً من عقاله لدى الدول الإمبريالية العظمى لإدامة هيمنتها على العالم، وخاصة منطقتنا، من ناحية، والذي تشهد فيه الرأسمالية أسوأ أزمة بنيوية وجودية، اقتصادية ومالية، ناهيك بالأخلاقية، في تاريخها، ما يدفعها إلى البحث عن حلول لأزمته، أو مخارج مؤقتة منها على الأقل مهما بلغت من وحشية وجنون من ناحية أخرى، فإن موت الدولة العازلة لا يصبح ممكناً فحسب، بل ربما حتمياً أيضاً.

وفوق كل ما ذكر، يجدر التأكيد على أنه إذا قررت القوى المهيمنة على الدولة العازلة إنهاء دورها الوظيفي الجيو-سياسي-الأمني أو الاستغناء عنه أو إجراء تغييرات جوهرية "راديكالية" في مساره بما يتسق مع التغييرات التي تطرأ على استراتيجياتها ومصالحها العليا ومقتضيات أمنها القومي وأولوياتها السياسية والاقتصادية، وتضافرت معها عوامل محلية وإقليمية، فإن من المتوقع أن يأتيها ملك الموت حتى لو ظنَّ بعض أهلها أنها في بروج مشيِّدة أو أنها آوت "إلى جبل يعصمها من الماء".

واستناداً إلى ما سبق، فإنني أرى أن جميع شروط/أسباب موت الدولة العازلة المشار إليها آنفاً، وهو ما يشير إليه البعض بمصطلح "تفكيك الدولة"، بحدود

فهومي، تتوفر هنا والآن: أي في الأردن وفي الوقت الراهن:

ففي ظل التطورات الراهنة وظهور ملامح التعددية القطبية وانفجار الأزمة البنيوية للرأسمالية العالمية (التهديدات) من جهة، والثورات المضادة أو "الربيع العربي" وتكالب التحالف الإمبريالي- الصهيوني- العثماني- العربي الرجعي- الوهابي (الفرص)، ترى القوتان المهيمنتان على الأردن، اللتان تتحكمان بمصيره، وهما الولايات المتحدة وإسرائيل، في هذه التطورات فرصة نفيسة، قد لا تتكرر ولا تُعوّض، لأن تفرضاً حلاً "تاريخياً"- أي نهائياً- لمشكلة إقامة "الدولة اليهودية الخالصة" وتصفية "تاريخية" كذلك-أي نهائية- لقضية الشعب الفلسطيني برمتها. كما أنهما تخشيان أن تفلت تلك الفرصة من أيديهما في حالة تكريس التعددية القطبية في العالم، ولذا ربما قررتا إنهاء الدور القديم للأردن وتغيير وظيفته، وهما تتداولان اليوم أمر تحديد ساعة الصفر وتستعدان لقطع أجهزة التنفس الاصطناعي عنه.

ونظراً لأن "الجينات" أو النواة الأساسية لكل كائن أو كيان أو ظاهرة تُرافق حاملها من المهد إلى اللحد، أي أنها تحمل بذور فنائها في ذاتها- بالطبع مع السماح بتغيّر المتغيّر- فإن الدولة العازلة، أو شكلها أو طورها الحالي، ذات الوظيفة الجيو- سياسية- الأمنية ستموت على الأرجح، مع ولادة المخلوق الجديد المنبثق منها، والذي سيحمل بدوره جيناتها أو بذورها إلى المستقبل.

وهكذا سيتم "تخليق" كيان هجين "هايريد" يستعيز عن الهوية الوطنية بهوية كوزموبوليتية أو بهويات فرعية قاتلة كما يسميها بحق أمين معلوف. وبدلاً من "الشعب" ستكون هناك مجاميع سكانية منعزلة أو متناحرة أو متربصة أو حتى متحاربة. وبدلاً من الوطن ستكون هناك جغرافيا "سَلَعِيّة" تقطن فيها تلك المجاميع السكانية ويُنشئ عليها الليبراليون الجدد العابرون للكيانات قصورهم ومزارعهم المسوّرة ومشاريعهم التجارية المربحة وقواعد انطلاقهم إلى العولمة المتوحشة، بينما يبني عليها الفقراء والمستضعفون سجونهم ويكابدون بؤسهم ويخسرون حتى أحلامهم. وسيكون المولود الجديد تابعاً تماماً لوالده وخالقه

ومعتمداً كلياً عليه وموجَّهاً "بالريموت كونترول" من قبله.

أسئلة الخاتمة بالبنت العريض:

- هل أذفت لحظة الحقيقة (moment of truth)؟ أستطيع المجازفة بالقول، كارهاً لا بطلاً ونذيراً لا بشيراً، إن الأردن، "كدولة" عازلة، "اعتاش" على الدور الوظيفي الذي أنيط به، وهو الدور الجيو- سياسي- الأمني، يواجه اليوم لحظة الحقيقة الصادمة، حيث يتقرر الآن إنهاء ذلك الدور أو تغييره بشكل دراماتيكي أو نقله إلى طور جديد أو مرحلة جديدة، مما يعني موت الدولة القديمة، وإن كان بدون إعلان نعيها رسمياً.

- هل سيجري حل المعضلة الصهيونية- الإمبريالية بتصفية القضية الفلسطينية على حساب فلسطين والأردن معاً؟ هل سيكون ذلك عن طريق الكونفدرالية أو الفدرالية أو البنيوكس أو غير ذلك من المشاريع وأشكال "الحل" الصهيوني التي نعرف بعضها وقد لا نعرف بعضها الآخر؟ ليس الشكل هو المهم، بل المهم هو الجوهر، والجوهر يتمثل في إقامة الوطن القومي اليهودي "النقي" (يهودية الدولة) كمركز صهيوني يهودي مهيمن ومحيط أردني- فلسطيني- عربي تابع، وحرمان كل من الفلسطينيين والأردنيين من وطنهم القومي إلى أمد غير منظور، إن لم يكن إلى الأبد.

أما فيما يتعلق بقمة هرم الهيكل للكيان الهجين، فقد تجري المحافظة على الهيكل الحالي، وقد يجري الاستغناء عن دوره جزئياً أو كلياً؛ وربما يُرسم في الخريطة خط هنا و/أو خط هناك كجائزة للمنفيدين المتحمسين. هذا أمر تقرره القوى المهيمنة على البلد والقابضة على روحه وصاحبة العقد والحل فيه، ولا سيما الولايات المتحدة وإسرائيل، صاحبنا المختبر الغامض الذي أشرنا إليه آنفاً.

ربما يقول البعض، وهم على حق، إن هذه الأطروحة بمثابة نعي للدولة، وإن المسألة باتت تتعلق باختيار صيغة النعي وترتيبات مراسم الجنازة: هل ستكون الصيغة وقورة وبليغة أم هزيلة وركيكة أم فجة وعنيفة؟ وهل ستقام لها جنازة

لاثقة ومهيبية يُعزف فيها لحن الرجوع الأخير ويبنى على قبرها ضريح من رخام ومرمر، أم جنازة عابرة ومتعجلة، حيث إكرام الميت دفنه وخير القبور الدوارس؟

وربما يتساءل آخرون: هل هذا قدر مكتوب؟ أليس ثمة من مخرج، من فسحة أمل، كي لا يضيق العيش؟ ربما، لكنه مخرج افتراضي في ما أظن، يتمثل في توفر شرط حل التناقض المعقّد وتحقيق التطابق في العلاقة مع الأصدقاء السابقين- الخصوم الحاليين (موضوعياً)- في الكتلتين الشعبيتين الأساسيتين: أي فك الارتباط بين الأردنيين ونظام الحكم، وفك الارتباط بين الفلسطينيين وسلطتي أوصلو وحماس، شريطة عدم دخول الأخيرين في عهدة النظام، والدخول في حالة اندماج اجتماعي طبيعي على أساس طبقي- وطني، وهو مخرج يحتاج تحقّقه إلى توفر ألف شرط وشرط لا أعرفها ويحتاج التأكد منه إلى نبوءة لا أمتلكها، أو معجزة ليست من اختصاص البشر. ربما يغويني أن أعيد إلى الأذهان نموذجاً "ذهيباً" من تاريخنا الحديث، تجلّى في حقبة الخمسينيات والستينيات، أي منذ ضم الضفة الغربية إلى الأردن في نيسان 1950 حتى أيلول 1970، حيث اندمج الشعبان في نسيج اجتماعي واحد إلى حد كبير، فهل يمكن أن يتكرر ذلك؟ ليس بوسعي الإجابة عن هذا السؤال المعقد، ولكن ينبغي التنبّه إلى أن البحث يجب أن يحذّر غواية الباحث، فقد جرت مياه كثيرة تحت الجسر، والتاريخ يكرر نفسه مرتين: الأولى كمأساة والثانية كمهزلة" كما جاء في تعليق ماركس على مقولة هيجل.

الفصل الثالث: لم يكتب بعد

أما الفصول التالية، التي لم تُكتب بعد، فإنني أعتقد أنها ستتناول تركيبية المجتمع الجديد، أو الخزان الديموغرافي، الذي سيقام على هذه البقعة الجغرافية، وهو "مجتمع الهجرة" من شتى أصقاع الإقليم (هل له علاقة بدار الهجرة الأولى في يثرب، أي من دار الكفر إلى دار الإسلام، مع أن الحديث النبوي يقول إنه لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيّة؟). وأما سؤال هذا الفصل فسيكون على الأرجح: "هل هذا المجتمع طبّق سلّطة، أي أنّ مكوناته مفروزة، أم قدر حساء، أي أنّ مكوناته مخفوقة معاً؟ الجواب بالطبع في جعبة "الخالق"- وفي بطون مراكز الفكر الاستعمارية "think tanks" التابعة له، فهو الذي سيقدر محددات وطبيعة

وخصائص ذلك المجتمع، أو تلك المجتمعات بالأحرى، على هذه الجغرافيا التي ستكون منزوعة التاريخ والهوية والتراث، والتي لن يأبه الخالق حتى باختيار اسم لها، مع أنه لن يعجز عن اختراع ألف اسم واسم عندما يرسم الخريطة الجديدة في ستة أيام ويستوي على العرش، كما بدأت سيرتها الأولى.

2. في الحالة الرثة: عندما تصبح "شتى" بديلاً للهوية الوطنية

”كم وعظّ الواعظون منا
فانصرفوا والبلاء باقٍ
وقام في الأرض أنبياءٌ
ولم يزل داوُك العيَاءُ”
من ديوان ”اللزوميات“ لرهبين المحبسين أبي العلاء المعري.

الأطروحة/ المقاربة

سؤال أساسي: لماذا وصلنا إلى هذه الحال من الانحطاط التاريخي؟
جواب محتمل: ابحث عن الكيانات الرثة.
الانحطاط التاريخي والكيانات الرثة: أيهما السبب وأيها النتيجة؟ أم أنهما
يشكلان حلقة جهنمية؟

الحالة الرثة: هل هي قابلة للفهم؟

أكد أجزم بأن حالة ”الرثثة“ أو ”الرثوة“ في بلداننا تنطبق، بتفاوت، على كل شيء تقريباً: الفرد والمجتمع، الحاكم والمحكوم، الطبقة والفئة والشريحة، الطائفة والمذهب، القومية والإثنية، الاقتصاد والسياسة، الثقافة والفن، الموالاة والمعارضة، النخبة والعامّة، التطور والتخلف، العلمنة والديننة، التطرف والاعتدال، اليمين واليسار، الثورة والثورة المضادة، أنا وأنت وهو وهي.

ولعلّ من نافلة القول إننا لا نستطيع تفسير واقعنا وما يدور حولنا وفيها ولنا وضدنا، أو استشراف مستقبلنا، ما لم نفهمه، فكم بالحري تغييره كما أراد ماركس؟ هل أدعي أنني أفهمه؟ بالتأكيد لا، ولكن يحدوني أمل خافت في أن بذرة حياة ما زالت كامنة تحت ركام هذا الواقع اليباب، وربما تثبت ذات حقبة.

مصطلح "الرت" lumpen معجمياً:

- رديء المتاع، سقط البيت

كلام غث رث: سخيف وساقط

رث الهيئة: قبيح المنظر - معجم المعاني الجامع.

- رث الثوب وغيره (رثاءة ورثوثة): بلي. رثت هيئة الرجل: قُبحت وهانت. وهو أرثٌ وهي رثاء، أو رث ورثيث، أو رثة ورثيثة- المعجم الوسيط.

- الفرد المقتلع من طبقته الاقتصادية والاجتماعية التي تحدد هويته المعتادة - قاموس ويبستر.

- الجلف والغبي - قاموس أكسفورد.

ثلاثة مفاهيم: البروليتاريا الرثة، البرجوازية الرثة، والإنتليجنسيا الرثة

لمحاولة الإجابة عن السؤال المطروح آنفاً، ولا أقول للإجابة عنه، أجد من المفيد تسليط خيط من الضوء على المفاهيم الثلاثة المذكورة التي تقع في صلب المقاربة:

1. البروليتاريا الرثة: Lumpen Proletariat

تشير كلمة "الرت" lumpen إلى المعاني التالية:

- الشخص المقتلع من طبقته الاجتماعية والاقتصادية التي ينتمي إليها عادةً؛

- الشخص الذي يكون موقعه الاجتماعي "دون الطبقات"، وحتى دون "الطبقة العاملة"؛

- الشخص الذي لا يفكر، وغير المصقول "وغير المتنور"، والذي لا يهتم بتغيير نمط حياته. ويعتبر ماركس أن مثل هؤلاء الأشخاص يقفون إلى جانب الأغنياء، لأنهم مستعدون لكسر الإضرابات والمظاهرات والاعتصامات، وكسر العظام والرؤوس وأي شيء مقابل المال. بيد أن هؤلاء كثيراً ما يكونون الفئة التي ترغب الحركات الثورية الحديثة في الوصول إليها في الوقت نفسه.

أما مصطلح "البروليتاريا الرثة"، فهو- كما هو معلوم- مصطلح صَّغَهُ كارل ماركس كي يصف شريحة من الطبقة العاملة التي لا تحقق وعياً طبقياً، ولذا لا تُسهم في الإنتاج المفيد اجتماعياً، وغير مفيدة في النضال الثوري، بل ربما تشكل عقبة في سبيل تحقيق الفرز الطبقي. وحدد ماركس مصطلح "بروليتاري" "proletarian" في كتاب "الأيدولوجيا الألمانية" ثم تم تطويره وتفصيله وتوضيحه في أعمال أخرى له .

ففي كتابه "الثامن عشر من برومير لويس بونابرت" قدّم ماركس وصفاً/تعريفاً للبروليتاريا الرثة على هذا النحو:
- إلى جانب "المتهتكين" (roués) الذين لديهم وسائل عيش مشكوك فيها، وأصول مشكوك فيها، وإلى جانب الفروع المدمّرة والمغامرة للبرجوازية، هناك الأفاقون والجنود المسرّحون وخريجو السجون والأرقاء الفارّون... وغيرهم.
- وباختصار، هم الجماهير غير المحددة وغير المندمجة والملقاة على قارعة المجتمع هنا وهناك، والتي يسميها الفرنسيون بـ "البوهيمين"، أو الأفاقين والمغامرين والجوّالين.

وفي كتابه المشار إليه آنفاً يصف ماركس "البروليتاريا الرثة" بأنها فصيل من طبقة شكّلت قاعدة السلطة السياسية لـ لويس بونابرت في عام 1848. وبهذا المعنى حاجج ماركس بأن بونابرت تمكّن من تنصيب نفسه فوق الطبقتين الرئيسيتين، البروليتاريا والبرجوازية، وذلك عن طريق اللجوء إلى "البروليتاريا الرثة" كقاعدة مستقلة للسلطة، في الوقت الذي كان في الحقيقة يعزز المصالح المادية "للأرستقراطية المالية".

بل إن ماركس يعتبر لويس بونابرت نفسه من الفئات الرثة، من زاوية أنه، كجزء من الأرستقراطية المالية، ليس له مصلحة مباشرة في الإنتاج.

ويرى أن البروليتاريا الرثة ليس لديها أي دافع للاشتراك في الثورة، بل يمكن في الحقيقة أن يكون لها مصلحة في المحافظة على التركيبة الطبقيّة الراهنة لأن أفراد

هذه الفئة/الشريحة يعتمدون في خبزهم اليومي على البرجوازية والارستقراطية. وبهذا المعنى يعتبر ماركس البروليتاريا الرثة من قوى الثورة المضادة.

ويذهب ليون تروتسكي في وجهة النظر هذه إلى أبعد من ذلك، حيث يتصور أن البروليتاريا الرثة عرضة بشكل خاص للتأثر بالأفكار الرجعية. ففي مجموعة مقالاته المعنونة بـ "الفاشية: ما هي وكيف نحاربها"، يصف استيلاء موسيليني على السلطة على النحو الآتي: "من خلال الفاشية بالوكالة، تُحرك الرأسمالية جماهير البرجوازية الصغيرة التي فقدت صوابها، وعصابات البروليتاريا الرثة المنتزعة من طبقتها والمنزوعة من أخلاقها، وعدداً لا يحصى من البشر الذين أوصلهم رأس المال المالي نفسه إلى حالة البؤس والجنون."

ها نحن في بلداننا نرى بأمر العين كيف أن التنظيمات الظلامية التكفيرية الوهابية، أي الفاشية الدينية العابرة للحدود، وهي النسخة الإسلامية للفاشية الغربية، تقاتل بالوكالة عن الامبريالية والرجعية النفطية والعثمانية الجديدة، وكيف "تتفنن" في قتل البشر وتدمير الحضارة وتنفيذ أيديولوجيا "نهاية التاريخ" التي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وأخذ علماء الاجتماع الماركسيون، وحتى بعض غير الماركسيين، يستخدمون تعريف ماركس أنف الذكر للإشارة إلى من يعتبرونهم "ضحايا" المجتمع الحديث، ممن يعيشون خارج نطاق نظام العمل - الأجور، من قبيل المتسولين، أو الأشخاص الذين يكسبون عيشهم بوسائل غير محترمة: كالبغايا والقوادين ومروجي المخدرات واللصوص والأفاقين... ولكنهم يعتمدون في معيشتهم اليومية على الاقتصاد الرسمي.

ويستخدم البعض أحياناً عبارة "ما دون الطبقات" under class كترديد لمصطلح ماركس "البروليتاريا الرثة".

2. البرجوازية الرثة: من تجربة أمريكا اللاتينية

أطلق أندريه غاندر فرانك مصطلح "البرجوازية الرثة" على البرجوازية الكومبرادورية المتعاونة مع الامبريالية، وهو يعتبرها الفاعل المحلي الرئيسي المسؤول عن منع نمو اقتصادات أمريكا اللاتينية.

وتستند المحاججة التي يسوقها فرانك إلى الاعتقاد بأنه في القرن التاسع عشر انغمست كل دولة في أمريكا اللاتينية في حرب أهلية وانقسمت على نحو مشابه لما حصل في الحرب الأهلية في الولايات المتحدة، أي أن كلا الطرفين المتحاربين "برجوازيان"، ولكنهما جناحان مختلفان للبرجوازية: التجار ومُلاك الأرض من جانب، وقطاع من البرجوازية شبيه إلى حد ما بما يسمى أحياناً "البرجوازية الوطنية" من جانب آخر.

بيد أن ثمة من انتقد هذه المحاججة وقال إن سيمون بوليفار كان أعلم من فرانك بأوضاع بلاده عندما أطلق عبارته الشهيرة: "اسمحو لنا ببناء عصورنا الوسطى الخاصة بنا!" ويتبنى بعض الباحثين في بلدان العالم "الثالث" هذه المحاججة، ويقولون إنها تنطبق على بلدان الشرق، أي أن الاستعمار لم يسمح لنا ببناء عصورنا الوسطى الخاصة بنا، وبرجوازيتنا الوطنية الخاصة بنا، فكانت الثمرة "عصوراً وسطى" رثة وبرجوازية تابعة رثة.

البرجوازية الرثة.. التنمية الرثة

يطلق فرانك على التخلف التنموي underdevelopment مصطلح "التنمية الرثة" Lumpen Development، ويتحدث عن الخطوط العريضة للتنمية الرثة، أو التخلف التنموي بالقول:

"إن التركيبة الكولونيالية الطبقية هي نتاج خلق اقتصاد تصدير استغلالي للغاية في أمريكا اللاتينية يعتمد على المركز "المتروبول"، الذي قيّد السوق الداخلية وخلق المصالح الاقتصادية للبرجوازية الرثة (المنتجون والمصدرون للمواد الخام). وهذه المصالح تخلق بدورها سياسة التخلف التنموي أو التنمية الرثة للاقتصاد

ككل. ويقول فرانك باستحالة قيام ثورة برجوازية في أي بلد من العالم إذا كان جزءاً لا يتجزأ من النظام الرأسمالي. ولذا فإنه يعتقد أن أمريكا اللاتينية أمام أحد خيارين: إما استمرار التخلف، أو التحرر من النظام الرأسمالي برمته عن طريق الثورة.

ويعرّف سمير أمين التنمية الرثة بأنها: "نموذج لأداء اقتصادي تفرضه احتكارات المراكز الإمبريالية على الدول الواقعة تحت سيطرتها أو الدائرة في فلكها دون أن يكون لجموع الشعب نصيب في ثمار التنمية، ويرتبط بذلك صعود طبقات تُعنى بأنشطة بدائية (كالبازار)، ولا تسهم في التنمية، فضلا عن صعود اليمين الديني غير القادر على مواجهة تحديات من أبرزها تدهور التعليم وحركة البحث العلمي."

هذا التعريف ينطبق على اقتصادات بلداننا التي تهيمن عليها "رأسمالية المحاسب" - بحسب مصطلح سمير أمين - والبرجوازية الكومبرادورية، وكلاء الشركات المتعددة والمتعدية الجنسيات، والنيوليبراليون من عبيد السوق الحر والتبعية التامة للإمبريالية، أي البرجوازية الرثة؟

3. الإنتليجنسيا الرثة

الإنتليجنسيا: فئة اجتماعية تنخرط في العمل الذهني وتأخذ على عاتقها مهمة التوجيه أو النقد أو لعب دور قيادي في رسم الثقافة والسياسة في المجتمع. بيد أن دورها في تطوير المجتمع الحديث ليس دائماً تقدماً، ويُسهم في تحقيق مستوى أعلى من التقدم، بل يمكن أن يسهم في حركة التخلف أحياناً.

ولذا فإن ثمة شريحتين من الإنتليجنسيا: الأولى ثورية، وهي التي ذُكر أن قيصر روسيا نيكولاي الثاني كان يكرهها إلى حد أنه أراد شطب هذه الكلمة من اللغة الروسية، والثانية رثة، وهي التي يحتقرها "قيصرة" بلداننا إلى حد أنهم يخصصون موازنات كبيرة لشرائها وإفساد ضمائر ممثليها.

والإنتليجنسيا الرثة شريحة من الإنتليجنسيا لا تقدم إسهاماً مفيداً للمجتمع، أو لا تتمتع بالذائقة أو الثقافة الرفيعة، أو لا قيمة لها، أو لا حول لها ولا قوة، أو تتبع للبرجوازية الرثة أو برجوازية "المحاسب"، فتصبح هي نفسها "إنتليجنسيا المحاسب" إذا جاز لي استعارة المصطلح من الفيلسوف سمير أمين. أليست "إنتليجنسيانا" كهذه؟

هنا لا مفرّ من التساؤل عن دور المثقفين العرب والمسلمين في التصدي للفكر التكفيري الوهابي، بل في قضية العقل والتنوير عموماً؟ هل لهم دور موحد؟ بالطبع لا، أليس ثمة فيلق من المثقفين تابع لجيش الإرهاب؟ وجوقه من الزمارين الذين يؤدون الألحان التي يطلبها من يدفع لهم من رعاة الفكر الفاشي المقدس وأعداء العقل والحياة؟ هؤلاء هم الإنتليجنسيا الرثة.

ويذهب سمير أمين إلى القول إن مبدأ الحاكمية ككل، بطبعته الانعزالية (أي اختيار الانسحاب من الدولة والمجتمع) والجهادية (العمل من أجل الاستيلاء على الحكم بالقوة المتوحشة "المقدسة") هو منتج للانتيجنسيا الرثة.

"الثورة" الرثة

ها نحن في عقر دارنا نرى بأمر العين كيف تتقدم التنظيمات الوهابية الإرهابية الصفوف وتعتلي ناصية المسرح وتقدم نفسها "كثورة/ثورات" شعبية، وهي ليست سوى فاشية دينية عابرة للحدود، ونسخة إسلامية للفاشية الغربية، لكن مُسرّبة بالقداسة، تقاتل بالوكالة عن الامبريالية والرجعية النفطية والعثمانية الجديدة، و"تتفنن" في قتل البشر وتدمير الحضارة وحرق الآداب والفنون وعلوم الأولين والآخريين ومحو التاريخ لتنفيذ أيديولوجيا "نهاية التاريخ" البائسة والباطلة باستخدام استراتيجيات "إدارة التوحش" (أبو بكر ناجي).

هنا والآن: بيت القصيد

أما هنا والآن، في الأردن وفي هذه المرحلة، فإنني أجازف بهذه الرؤية/المقاربة، ويحدوني الأمل في أن يثبتَ بطلانها!!!

استناداً إلى تجديد مظهر الدور الوظيفي الجيو- سياسي- الأمني الذي أنيط بالنظام السياسي في بلادنا منذ ولادته، حيث "الجينات" أو التُوَيَّات الأساسية لكل كائن أو كيان أو ظاهرة ترافق حاملها من المهد إلى اللحد، وبالنظر إلى نتائج الهندسة البشرية الاجتماعية الدقيقة التي أُجريت للمجتمع والأفراد والتي اكتملت تقريباً، يمكنني تكرير القول إن لحظة الحقيقة المُرة قد أزفت.

وكما ذكرت في الجزء الأول من هذه الرباعية، فإن لحظة الحقيقة تتمثل في فرض حلٍ للمعضلة الصهيونية- الإمبريالية بتصفية القضية الفلسطينية على حساب فلسطين والأردن معاً، وإن جوهر هذا الحل يتمثل في تكريس الوطن القومي اليهودي "النقي" (يهودية الدولة)، في دولة استعمارية واحدة- إسرائيل- ومستعمرتين أردنية وفلسطينية- الأردن وسكان الأرخييل البري الفلسطيني على ما تبقى من أراضي الضفة الغربية- وإقامة مركز صهيوني مهيمن ومحيط عربي رجعي تابع.

وللانتقال بالدور الوظيفي للأردن من المرحلة الأولى/ الطور الأول/المستوى الأول، أي ما يمكن تسميته بـ "الدولة- الإمارة" العازلة Buffer Emirate-State (أنظر الجزء الأول من الرباعية) إلى المرحلة الثانية/الطور الثاني/المستوى الثاني، أي "الكيان الرث" Lumpen Entity، أو ما أسمَّيه "شتى لاند" (أرض الشتَّى) من باب السخرية السوداء، لكن المعبرة عن لحظة الحقيقة (الإشارة هنا إلى عبارة "شتى المنابت والأصول" الأثرية للملك الراحل حسين والواسعة الانتشار بين الناس)، فإنه يجري الآن، بشكل حثيث، خلق كيان هجين "هايبريد" لمجتمعات مهاجرين يتزاحمون في خزان ديمغرافي لن يدقَّه أحدٌ من الداخل طلباً للخروج منه (خزان غسان كنفاني)، بل سيدقُّه كثيرون من الخارج طلباً لدخوله. وسيكون كياناً لا هوية وطنية له، بل هوية كوزموبوليتية أو هويات فرعية قاتلة (أمين معلوف)؛

ولن يكون فيه "شعب"، بل مجاميع سكانية رثّة لا حدود لثرائتها، منعزلة أو متربصة أو متناحرة؛ ولن ينظر إليه ساكنوه "كوطن" بل كجغرافيا "سَلَعِيّة" تتناثر على سطحها تلك المجاميع السكانية كحبات الرمل في ظل هيمنة ائتلاف "تيار الأسرلة" العريض من الليبراليين الجدد، والوهابيين الفاشيين العابرين للأوطان والكيانات، والفارّين من أتون الحروب والكوارث من أرجاء الإقليم، والأفاقين والجواسيس وغاسلي الأموال وصائدي الفرص، وهم جميعاً من الفئات الرثّة التي لا وطن لها سوى مصالحها الخاصة . وستكون هناك سلطة غاشمة تابعة توفّر لهؤلاء جميعاً نعمة "الأمن والأمان"، مبتهلين إلى العلي القدير أن يديها عليهم، وتحميهم من "الخطر المحتمل" للفقراء والمهمّشين الذين سيضطرون إلى مقايضة "البقاء" بالحياة، داعين الله عزّ وجلّ شأنه أن يُجبرهم من الأعظم (على حدّ تعبير سعيد أبو النحس المتشائل- إميل حبيبي).

خاتمة: أسئلة

بدلاً من الخاتمة، واتساقاً مع الخط العام لهذه المقاربة- أي انعدام اليقين- أود أن أطرح بضعة تساؤلات غير مغلقة وغير حصرية:

- هل الدولة الرثّة/الكيان الرثّ هي التي تضمّ أو تخلق كلّ شيء رثّ، أم أنه عندما يكون كلّ شيء رثّاً: الحكم، المعارضة، المجتمع، الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية، الاقتصاد، منظومة القيم... إلخ، تُخلق دولة رثّة/كيان رثّ؟ إنها حقاً حلقة جهنمية!
- بناءً على هذه المقاربة، التي ترى/تزعّم أن الدولة رثّة والمجتمع رثّ والعقل رثّ وكلّ شيء فيها رثّ في رثّ- أي معيّن للتغيير الثوري، إن لم يكن ثورةً مضادة- هل يُعتبر تغيير هذا الواقع ممكناً؟ وما نوع هذا التغيير وطبيعته وجوهره؟ ومَن ذا الذي سيضطلع بمهمة التغيير وكيف ومن أين وبماذا يبدأ؟
- أم أن هذه المقاربة (مقاربتني) هي الأخرى رثّة والخيارات رثّة والمتاهة مُحكمة والخروج منها يحتاج إلى انتظار غوث التاريخ، وهذه هي الطامة الكبرى، لا الجيو- سياسية فحسب، بل التاريخية- الوجودية- الحضارية؟ أي أن هذا هو بعينه الخروج من التاريخ، ليس من متنه وحسب، بل حتى من هامشه كذلك؟
- في هكذا سياقات، ما هو يا ترى محلّ "الهوية الوطنية الأردنية" من الإعراب

في الكيان الرث المرتقب، أي "شتى لاند"؟ أقصد هل ستكون هناك هوية وطنية أردنية؟ يؤسفني أنني لا أرى في الأردن المستقبل، أعني على هذه البقعة الجغرافية الحالية، أنه ستكون هناك هوية وطنية أردنية ولا هوية وطنية فلسطينية ولا أية هوية "وطنية"، بل ستسود هويات "شتى" الرثة حتى العري والقاتلة حتى العظم. وأنا بهذا لا أزعم أنني أبعد نظراً من أحد، لكنني أرى شجر أسطورة اليمامة يمشي نحو أسوار القلعة التي قرضت أساساتها جردان الغزاة، ويؤمنني أن أرى شجر الأردن وهو يذبل ويبس ويموت، ليصبح حطباً لمواقد اللصوص، لكن يحدوني أمل غامض، ربما يكون وهماً، في أن يصبح سماداً لغراس جديدة ذات يوم غير منظور. هنا يلجأ المرء إلى "لامية العجم" لمؤيد الدين الطغرائي كي لا يضيق به العيش:

"أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيّق العيش لولا فُسحة الأمل."

وكي لا يضطر إلى اللجوء إلى "لامية العرب" للشنفرى، باحثاً عن أرض أخرى ومجتمع آخر (الطبيعة والحيوان بدلاً من قومه والبشر):

فَأِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمِيلُ	أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ
وَشُدَّتْ لِيَطِيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ	فَقَدْ حَمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ
وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرَفَاءُ جِيَالٌ.	وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ: سَيْدٌ عَمَلَسٌ

ربما كانت أبيات الشنفرى هذه بحاجة إلى شرح طويل ومعقد أو ترجمة دقيقة إلى اللغة العربية الحديثة، كما هي "حالة شتى الرثة".

3. في الدولة "الزومبي": المهمة المستحيلة

رَبْطُ الكلام

هذه هي الورقة الثالثة/ الفصل الثالث في سلسلة الأوراق/الفصول التي تعكس- للأسف- رؤية متشائمة حول ما أعتبرها "أم القضايا" التي يواجهها الشعب الأردني، أي القضية المصرية/الوجودية والمعضلة المستعصية المتعلقة بمستقبل الأردن ومآل الأردنيين، والتي إذا لم يتصدَّ لها المثقفون الثوريون والمفكرون والسياسيون الوطنيون والتقدميون ويجتروا لها الحلول عاجلاً لا آجلاً قبل فوات الأوان- إن لم يكن قد فات فعلاً- فإن مستقبل بلدنا ربما يتلعه "الثقب الأسود".

أما الورقتان السابقتان (الأولى بعنوان "من دولة عازلة إلى كيان هجين: دورة حياة"⁴¹، والثانية بعنوان "في الحالة الرثة: عندما تصبح "شتى" بديلاً للهوية الوطنية"⁴²) فإنهما تستعرضان كيف أنه عقب إنشاء الدولة- الإمارة وتنصيب أحد أبناء الشريف حسين بن علي الأمير عبدالله من الأسرة الهاشمية القادمة من الحجاز، أي من خارج حدود الدولة الجديدة المزعم إنشاؤها ومن غير أهلها الأصليين، على رأس ما اسماه الانتداب البريطاني "إمارة شرق الأردن"، بدأ انتقال، بل قُل النقل التعسفي الممنهج للكيان الوليد، من موئل لمجتمع "طبيعي"⁴³ ذي نمط إنتاج "طبيعي" وعلاقات إنتاج ووسائل إنتاج "طبيعية" متسقة معه، كمجتمع زراعي يزرع الأرض ويربي الماشية ويصنع أدوات إنتاجه اللازمة ويصدر فائض منتجاته عبر مينائي حيفا وبيروت، إلى كيان "عازل".

لم تكن الأرض التي أُقيمت عليها "الدولة- الإمارة" الجديدة مجرد صحراء قاحلة وخالية من السكان- "أرض بلا شعب"- كما يعتقد أو يردد كثيرون، على غرار المقولة الصهيونية الشهيرة عن فلسطين، ولم يكن سكانها رعاة إبل همج بلا حواضر ولا حضارة أو جذور تاريخية، بل أناس شاركوا في التاريخ السياسي القديم والمعاصر للدولة والمنطقة.

41- مجلة الطريق اللبنانية، العددان السادس والسابع، 2013

42- الحوار المتمدن، وهكذا، 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2017

43- استخدمت كلمة "طبيعي" في هذا السياق بمعنى "غير مصطنع"

وكان يمكن أن يتطور المجتمع الأردني تطوراً "طبيعياً" وأن يستمر في ذلك، شأنه شأن العديد من شعوب الأقطار العربية التي أُخضعت للاستعمار الكولونيالي الغربي، والتي قسّمها واقتسمها مارك سايكس وفرانسوا بيكو، لو لم يتدخل المبعض الاستعماري بإجراء جراحة هندسية اجتماعية له - أشبه ما تكون بعملية تغيير النوع الاجتماعي للفرد، في عملية حرجة للغاية ومدروسة بإحكام ويجري تنفيذها خطوة خطوة لكن بشكل دؤوب، وذلك بهدف خلق كيان عازل لخدمة الأغراض الاستراتيجية والجيو- سياسية للامبراطورية البريطانية وتمهيداً لإقامة المشروع الاستعماري في المنطقة بتنفيذ الوعد الإلهي الأول "وعد بلفور" بإنشاء "وطن قومي لليهود" في فلسطين عن طريق الهجرة والاستيطان والاحتلال والإحلال وتهجير أهلها الأصليين منها بالقوة، ومن أجل استيعاب مُخرجات ذلك المشروع الاستعماري- الصهيوني في فلسطين لاحقاً، كما هو معروف للكافة.

هذا في المرحلة الأولى/الطور الأول، وأما في المرحلة الثانية/الطور الثاني، فقد شهد الأردن عملية حثيثة لتحويله إلى كيان هجين "hybrid" وخران ديمغرافي مفتوح للاجئين والمهاجرين من مخرجات أزمات الإقليم من "شتى المناخات والأصول" (العبرة الأثرية التي ترددت في خطابات الملك الراحل حسين رداً على سؤال: مَنْ هو الأردني؟ الذي طرحه الكاتب الشهيد ناهض حتر)، ثم إلى دولة "رثة" "lumpen" والعمل بشكل مبرمج ومستمر على تحويل المجتمع الأردني إلى مجتمع رث، بطبقاته وفتاته الاجتماعية، بما فيها الإنتليجنسيا؛ وأحزابه السياسية ومنظماته النقابية، موالاةً ومعارضةً، يساراً ويميناً ووسطاً؛ ومنظمات المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية التي تتلقى تمويلاً أجنبياً، أي باختصار: محاولة "ترثيث" أو تشويه التركيبة الاجتماعية برمتها.

أما الورقة الثالثة هذه فتزعم أن الأردن ينتقل أو يُنقل تعسفياً، لكن بشكل ناعم وعلى نحو ممنهج، إلى طور "الزومبي"، ويجري تحويله إلى "بلد أوف شور" -off shore country على غرار شركات "الأوف شور" في الملاذات المصرفية الآمنة.

وهنا ربما يكون من النوافل الإشارة إلى أن مصطلحات: "عازلة، هجين، رثة، وزومبي" الواردة في هذه الورقة ليست شتائم ولا يُقصد بها التقليل من شأن الأردن كوطن للأردنيين، عزيز ولا بديل له، بل هي مصطلحات وصفية، قد لا تجد قبولاً لدى بعض الباحثين أو الوطنيين الأردنيين- ربما من قبيل "الإنكار" denial- وإنما تعبر عن مقتضيات بحثية لتوضيح الحالات/الأطوار التي مرّ بها الأردن منذ تأسيسه حتى اليوم بحسب رؤيتي المتواضعة.

وأخيراً، أود أن أنبّه إلى حقيقة شبه غائبة في هذا الشأن، وهي أن الأغلبية الساحقة من المناهضين لمضمون صفقة القرن، في داخل البلاد وخارجها، تركز على جانب واحد من الصفقة، وهو تصفية القضية الفلسطينية، ولا تلتفت إلى الجانب الآخر منها، وهو مشروع إنشاء "الوطن البديل" في الأردن وعلى حسابه بشكل رئيسي، الأمر الذي يستحيل معه إفشال صفقة ذات وجهين مترابطين في دياكتيك التحرر الوطني، فضلاً عن أنه سيفتح أبواب الاجتهادات الملتبسة أمام "المجتهدين"، "الضالين" منهم و"غير الضالين".

الدولة/الكيان الزومبي *Zombie State/Entity*

منذ سنوات طويلة ما انفكت "المعضلة الأردنية"- ما هو مستقبل الأردن- تلحّ عليّ وتحيرني، ماهيتها ومقاربتها، ناهيك عن حلّها. وطفقتُ أبحث عن مصايح أو شواخص أسترشد بها في طريق الوصول إلى حل المعضلة، ولكنني أنتهي في جميع محاولاتي، حتى الآن، إلى طريق مسدود ونقطة مظلمة، ثم أبدأ من جديد، متشبثاً بأهداب الأمل.

في هذه الورقة/هذا الفصل أحاول فهم أو تفسير هذه المعضلة مستفيداً من مقاربتين: الأولى لكريس هارمان، والثانية لسمير أمين.

المقاربة الزومبية (كريس هارمان وأليكس نايت)

"المقاربة الزومبية": نسبةً إلى شخصية زومبي الشهيرة المتداولة، وهو المخلوق الميت- الحي المجرد من المشاعر الإنسانية والشريير والوحش القادر على إيذاء

والتدمير. ويتصل هذا التعبير- إن صحَّ استخدامه- بمصطلح/مفهوم "رأسمالية الزومبي" الذي اجترحه المفكر الماركسي البريطاني كريس هارمان لفهم رأسمالية القرن الحادي والعشرين في كتابه المعنون بـ "رأسمالية الزومبي: الأزمة العالمية وماركس"⁴⁴. ولا يتطابق هذا المصطلح مع تعبير "الرأسمالية المتوحشة" الدارج برأيي. وأود أن أشير هنا إلى أن الاستفادة من مقارنة هارمان لا تعني أنني أتفق معه في كل ما ذهب إليه في كتابه آنف الذكر، وخصوصاً ما يتعلق بديل رأسمالية الزومبي الذي يقترحه، والذي سأطرق إليه لاحقاً.

في مقابلة مع موقع "سوشاليسست ووركر"⁴⁵ يتحدث هارمان عن كتابه هذا ويلقي مزيداً من الضوء على ماهية "رأسمالية الزومبي"، فيقول إن بعض المعلقين يستخدمون مصطلح "بنوك الزومبي" لوصف الحالة التي يتوقف فيها النظام المصرفي عن العمل ويصبح له آثار عكسية على كل شيء حوله. فال مصرف الزومبي برأي هارمان لا قيمة له، إلا أنه يستمر في العمل بسبب دعم الحكومة له. ومن هنا يصبح للموتى تأثير مهول على الأحياء. وقد أشار ماركس إلى أن الرأسمالية هي هيمنة الميت على الحي والماضي على الحاضر، كما أشار إلى كيفية هيمنة منتجات عمل الأشخاص على حياتهم وحياة غيرهم. وعرفَّ الأزمة الرأسمالية بأنها ليست مجرد أزمة مالية، وإنما هي السمة الأساسية للرأسمالية.

ورداً على سؤال حول تأثير الأزمة الاقتصادية على الأيديولوجية النيوليبرالية، أجاب هارمان بأن النيوليبرالية هي أيديولوجيا تُستخدم بشكل رئيسي لتبرير الاعتداءات على حقوق العمال؛ إذ أن الهدف الوحيد للرأسمالية هو إنتاج فائض القيمة وتوسيع حدود عالمها.

44- Zombie Capitalism: Global Crisis and the Relevance of Marx، ترجمته إلى العربية غادة طنطاوي بعنوان: "رأسمالية الأزمة: دراسة في الاقتصاد العالمي المعاصر". وكريس هارمن، صحافي وكاتب وناشط سياسي بريطاني، وعضو في اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي. عمل رئيس تحرير لجريدة Socialist Worker ومجلة International Socialism وألف العديد من الكتب وعشرات المقالات حول الماركسية وقضايا الاشتراكية.

45- سوشاليسست ووركر، 27 يونيو/حزيران 2009،

ويعتبر هارمان أن مفهوم "الاغتراب" عند ماركس هو جوهر "زومبية" الرأسمالية، حيث يحدث هذا الاغتراب من خلال عملية إنتاجية تجبر العامل على بذل طاقته في إنتاج سلع "غريبة" عنه. ويقتبس من ماركس أن سيطرة رأس المال على العامل هي سيطرة الأشياء على الإنسان (التشيؤ) وسيطرة العمل الميت على العمل الحي لهدف واحد هو مراكمة فائض القيمة وتوسيع عالم هذا الوحش الميت-الحي، أي رأس المال. فالعمال لا يملكون السيطرة على ما ينتجونه وكيف ينتجونه وكم ينتجون منه وما سيحدث للمنتج بعد إنتاجه. ولذا فإن منتجاتهم تبدو غريبة عنهم، وتتمتع بقوة خاصة بها ومستقلة عنهم.

انطلاقاً من ذلك يعتقد هارمان أن مصطلح "رأسمالية الزومبي" مناسب لاستخدامه لوصف المرحلة الراهنة من الرأسمالية.

أما فيما يتعلق بالبديل الذي يطرحه هارمان، فهو يرى أنه بما أن الزومبي يجب أن يُقتل، ولكن يستحيل قتله بالطرق التقليدية، فلا بد من اجترار حل مبتكر. وفي الوقت نفسه يعتبر أن بناء الاشتراكية وإحلال الأختيار محل الأشرار بهذه البساطة- يقصد الحل اللينيني- باتّ من الماضي لأننا نحن أيضاً شركاء في ومتواطئون مع رأسمالية الزومبي، بل نحن زومبيون كذلك. ولذا فهو يعتقد أن الجبهة الأمامية في هذه المعركة هي في رؤوسنا، وليست خارجنا. فنحن معنيون بالتغيير الاجتماعي الشامل، وهو أمر غير ممكن إلا من خلال تنظيم وبناء مجتمعات الرعاية والدعم التي تتيح خوض المعركة على جبهتين: تحدي أنفسنا، وتحدي النظام. ويقرر هارمان أن القيمة الأساسية التي نقاتل من أجلها هي "الحياة". ومن هنا فإن هدف حركة مكافحة الزومبية هو خلق عالم نتعلم فيه كيف نقدّر قيمة "الحياة" ونحترمها كمصدر للقيم كافة، وأن البديل المقترح لرأسمالية الزومبي هو عكسها تماماً: أي ما يطلق عليه مصطلح "الراديكالية الحية"!

بيد أن هذا البديل "المبتكر وغير التقليدي" الذي يقترحه هارمان هو الآخر بديل زومبي، فهو يستبعد الحل الاشتراكي، البديل النقيض الحقيقي للرأسمالية، باعتباره

من زمن فات، كما أنه حل مثالي مصوغ بعبارات مبهمة وملتبسة، بالإضافة إلى أنه لا يقتل الزومبي، بل يُبقى عليه "لحيًا" (أي في حالة اللاحياة واللاموت) لأنه لا يريد أن يلعب في ملعبه، وهو بذلك يرمي الكرة في ملعب ضحاياه.

* "طيف يخيم على أوروبا، إنه طيف الشيوعية" - ماركس وإنجلز
في المانيفستو، 1848

* "شبح يخيم على أوروبا، إنه شبح الزومبية" - أليكس نايت، 2012⁴⁶

بالعبارة الأخيرة بدأ أليكس نايت مقاله المعنون بـ: "وصول رأسمالية الزومبي" - العبارة الافتتاحية الشهيرة للبيان الشيوعي الذائع الصيت الذي كتبه كارل ماركس ورفيقه فريدريك إنجلز في عام 1848، مع الاختلاف الكلي بين مضموني العبارتين؛ ففي الأولى طيف الشيوعية "الملاك" هو الذي "هدد" أوروبا الرأسمالية "الشیطان"، ولذا قال ماركس وإنجلز في المانيفستو إن قوى أوروبا القديمة كلها اتّحدت ضد هذا الطيف/الملاك في حلف "مقدس"، بينما في العبارة الثانية فإن شبح الرأسمالية "الزومبي" هو الذي يهدد أوروبا وشعوب العالم بأسره.

وفي مقاله سالف الذكر يقتبس أليكس نايت من افتتاحية المجلة الراديكالية البريطانية "تريبولنس" أن الليبرالية الجديدة، وهي المشروع الأيديولوجي والسياسي المهيمن للنخب الرأسمالية على مدى العقود الأربعة الماضية، فشلت وحلّت محلها "الليبرالية الزومبية". ويقرر "نايت" أن النيو-ليبرالية ميتة ولكنها لا تدرك موتها. ومع أن مشروعها لم يعد له معنى، فإن منطق ذلك المشروع لا يزال مستمراً في دوس وتحطيم كل ما تطأه قدماه، تماماً مثل زومبي، أي أنه بشع ومثابر وخطير. وإذا لم تنهياً أرضية مشتركة جديدة ومتسقة لاستبداله، فإن هذه الحالة ستستمر طويلاً، وستظل جميع الأزمات الكبرى، كتلك المتعلقة بالاقتصاد والمناخ والغذاء والطاقة، بدون حل، وسيُفسح المجال للجمود والانحدار إلى أجل طويل. هذه

46- استخدمت هنا مفردتين مختلفتين: "طيف" و"شبح" مقابل مصطلح واحد باللغة الإنجليزية: spectre لغايات التمييز الجوهرى اللازم بين الحالتين.

هي "لأحياة" الزومبي الذي يتَّسم، وفقاً لمجلة "تيريبولنس"، بصفات أربع:

- ميت، ولكنه لا يزال يمشي؛
- خطير ويستطيع قتل الناس عن طريق التوحش؛
- لا يتمتع بالتفكير الهادف أو التخطيط طويل الأجل، بل يتصرف بالغريزة؛
- يستمر في العمل حتى وهو يتحلل، وغير قادر على التحسن وعصي على الصلاح، وينبغي قتله؛

ويضيف كريس هارمان صفة خامسة، وهي أنه يستحيل قتله بالوسائل التقليدية، ولذا ينبغي اجترار وسائل مبتكرة للتخلص منه.

ألم تصل "الدولة/الكيان" اليوم إلى حالة الزومبي هذه؟

يؤكد نايت أن الحياة في ظل الرأسمالية هي مجرد عمل واستهلاك وديون وعزلة وخواء عاطفي وروحي على نحو متزايد، حيث نفقد الصلة بأهم مصدرين للمعنى في حياتنا، وهما: العلاقة مع بني البشر والعلاقة مع الطبيعة. ويعتقد أن نهاية الرأسمالية قد أزلت لأن الاقتصاد لم يعد يستطيع النمو أكثر بعد اليوم، وذلك لسببين رئيسيين: أولهما أن الأرض بما رحبت لم تعد تتسع لها [أي للرأسمالية] ولا تستطيع استيعابها لعدم كفاية الموارد وتفاقم الإضرار بالبيئة. وثانيهما أن الحركات الاجتماعية في العالم طفح كيلها وأخذت ترفض المزيد من استغلال البشر للبشر، أو بالأحرى استغلال اللابشر للبشر.

ويذكرنا نايت بانهيار الأسواق المالية العالمية في سبتمبر/أيلول 2008 حين اتخذت إدارة بوش الإبن قراراً بالتدخل في السوق، وهو ما يتعارض مع "دين" السوق الحر ويُعتبر من "الكبائر" في تعاليمه، مما اضطره للجوء إلى ما يشبه "فقه الضرورة" في الإسلام بالقول إنه "تخلَّى عن مبادئ السوق الحر من أجل إنقاذ نظام السوق الحر ككل". ويرى نايت أنه منذ الأزمة المزلزلة التي وقعت في عام 2008 لم تعد الرأسمالية على ما يبدو مهمة بإنقاذ نفسها في الأجل الطويل، أي بخلق الظروف اللازمة لإعادة إنتاج نفسها. ولذا فإن رأس المال، بدلاً من البحث عن حلول "مشروعة" لهذه الأزمة، أو حتى التظاهر بالاعتراف بوجودها، يتوحش ويقذف بكل شيء في أتون الفوضى كي يحقق مكاسب محدودة وأنية أو قصيرة

الأمد، حتى لو تم ذلك على حساب "تسميم البئر الذي يشرب من مائه".

المقاربة الطبقيّة (سمير أمين):

تدفق موجات الهجرة واللجوء المخطّطة و"صناعة" الأوطان البديلة

في الفصل المتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية من مقاله المعنون بـ "الثورة من الشمال إلى الجنوب" ⁴⁷ Revolution from North to South يحلل المفكر الماركسي الدكتور سмир أمين دور الهجرات والمهاجرين في تشكيل شعب ما أو بلد ما وهندسة تركيبته ورسم مستقبله لحقبة طويلة قادمة، ليبين أن الثقافة السياسية التي نشأت في الولايات المتحدة لا تشبه نظيرتها في فرنسا، مثلاً، إبان الثورة الفرنسية وعصر التنوير. فقد كان لهذين الحدثين التاريخيين - الثورة الفرنسية وعصر التنوير - أثر أساسي، لا على تاريخ فرنسا وحدها، بل على التاريخ السياسي لأوروبا عموماً. ومردُّ ذلك إلى أن الشكل الخاص من البروتستانتية الذي جلبه المهاجرون إلى "الأرض الجديدة" - أمريكا - هو الذي أعطى شرعية للكيان الجديد، واستند المهاجرون إلى تلك الشرعية الإنجيلية لتبرير عمليات الإبادة الجماعية لسكان أمريكا الأصليين واعتبروها مهمة أوكلمها الله لهم وقميصاً ألبسهم إياه الرب إلى الأبد. ثم سعت الولايات المتحدة إلى توسيع نطاق مهمتها "الإلهية" خطوة خطوة ليشمل العالم بأسره.

ويشير الدكتور أمين إلى الدور المهم الذي لعبته موجات الهجرة المتتالية إلى الوطن التاريخي لأصحاب الأرض التاريخيين - الذين أطلق عليهم رحالة الكولونيات اسم "الهنود الحمر" - في تعزيز الأيديولوجيا الأمريكية، ويقول: صحيح أن المهاجرين لم يكونوا مسؤولين عن ظروف الفقر والقمع التي دفعتهم إلى شد الرحال إلى الوطن الجديد، لكن هجرتهم دفعتهم إلى التخلي عن النضال الجماعي من أجل تغيير الأوضاع المشتركة للطبقات أو الفئات المتضررة في أوطانهم الأصلية، وإلى تبني أيديولوجيا النجاح الفردي في وطنهم المتبني (البديل). وقد حالّ تبني

47- أمين، سмир، "الثورة من الشمال إلى الجنوب"، مونثلي ريفيو، المجلد 69، العدد 3، يوليو/تموز-أغسطس/آب 2017، ترجمة

هذه الأيديولوجيا دون اكتساب الوعي الطبقي. لكن مع مرور الوقت كان أولئك المهاجرون يبدؤون بإدراك واقعهم الطبقي. وما إن يبدأ وعيهم الطبقي بالتشكّل، حتى يجدوا أنفسهم في مواجهة موجة جديدة من المهاجرين تُجدد الفشل في اكتساب الوعي الطبقي والسياسي المطلوب، ناهيك عن النضال الطبقي. وفي الوقت نفسه شجعت هذه الهجرات على تشكيل المجتمع الأمريكي في مجتمعات محلية communities أو "جماعات فرعية" متفرقة، فالنجاح الفردي لا يشترط عدم الاندماج في تجمعات البلد الأصلي (بلد المنشأ)، بل لعله يتطلبها، لأنه من دون هذا الاندماج تكون العزلة الفردية هشة وفاقدة للدعم. إن تعزيز هذا البُعد من أبعاد الهوية - الذي يستدعيه ويشجعه النظام (System) الأمريكي - يؤدي إلى الإضرار بالوعي الطبقي وبإمكانية تكوين "المواطن"؛ إذ أن أيديولوجيات الجماعات الفرعية لا يمكن أن تكون بديلاً للأيديولوجيا الاشتراكية في نضال الطبقة العاملة.

وفي ختام مقاله يؤكد الدكتور أمين على أن "نظام العولمة النيوليبرالية دخل مرحلته الأخيرة؛ وأنَّ قُرب انهياره أصبح واضحاً، كما يظهر في عدد من الأحداث الهامة، من قبيل خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي (بريكزيت)، وصعود أشكال مختلفة من الفاشية الجديدة، وفوز ترمب في معركة انتخابية ضروس (أعتقد أنها ليست بين الديمقراطيين والجمهوريين أو بين تيار ترمب و"المؤسسة" - The Establishment وحسب، بل أيضاً بين الدولة القومية الفاشية والعولمة الأوليغارشية، وإذا ما سمحت موازين القوى الداخلية والخارجية بانتصار تيار ترمب في هذه المعركة، فإن نهاية العولمة النيوليبرالية - لا نهاية التاريخ - هي المرشحة لأن تُطرح على جدول أعمال التاريخ!!

ويرى الدكتور أمين أن نهاية هذا النظام الغامضة تفتح باباً أمام حالة ثورية محتملة في شتى أنحاء العالم. لكن هذه الإمكانية لن تصبح واقعاً إلا إذا عرفت القوى اليسارية الجذرية كيفية اغتنام الفرص السانحة وتصميم وتنفيذ "استراتيجيات هجومية جريئة تقوم على إعادة بناء الطابع الأممي للعمال والشعوب في مواجهة الطابع الكوزموبوليتي لرأس المال المالي للقوى الإمبريالية."

ويعتقد أمين أنه إذا لم يحدث ذلك، ”فإن القوى اليسارية ستكون شريكة في المسؤولية عن الكارثة التي ستقع لا محالة“.

ماذا عن حالة الأردن؟

مسترسداً في تناولي لحالة الأردن بهذا التحليل الديالكتيكي العميق للآثار السلبية لتدفق موجات اللاجئين والمهاجرين على الدول والشعوب والمجتمعات في الحالة التي اختارها الدكتور سمير أمين- أي حالة الولايات المتحدة الأمريكية- يمكنني أن أرى بوضوح أن موجات اللاجئين والمهاجرين والمهجرين المخططة والمسيسة والموظفة من قبل الدوائر الإمبريالية والصهيونية التي اجتاحت الأردن، سواء بشكل ناعم أو خشن، منذ تأسيس الدولة- الإمارة حتى الآن، تدفع هؤلاء إلى تبني أيديولوجيا قصص النجاح الفردي في بلد الفرص، وتشكيل جماعات/ مجتمعات -communi ties وهويات فرعية في الأردن، بلد الهجرة واللجوء المتبني/ البديل. كما أنها تمنع تبلور وعي طبقي راسخ وتؤدي إلى التخلي المزدوج عن النضال الجماعي من أجل تغيير الأوضاع المشتركة للطبقات أو الفئات التي تعيش على هذه الأرض، أي على مستويين: داخل مجتمعات اللاجئين والمهاجرين والمهجرين أنفسهم من ناحية، ومع مجتمع أهل البلاد الأصليين (الأردنيون) من ناحية أخرى.

ونظراً لأن القوى الإمبريالية والصهيونية المهيمنة على الأردن لا ترى فيه، ولا تريد له أن يكون، إلا كياناً ”منذوراً“ لاستيعاب مخرجات النزاعات والحروب الإقليمية التي تشعلها- ممراً لها أو مُستقراً- وتفرض عليه دور الترخيم على المشروع الاستعماري الصهيوني الاستيطاني المتمثل في إسرائيل، وما دام النظام الحاكم يقبل القيام بهذا الدور أو لا يقاومه، فسيستمر تبني استراتيجيات اللجوء والهجرة والتهجير ويستمر معه تفكيك الدولة والمجتمع وانحدار البلاد المتسارع نحو الكارثة.

الدولة ”الزومبية“ تطلُّ بقرنيها في الأردن: سر الاستباحة والحماية

في ”دين“ النيو- ليبرالية الذي يعتنقه النظام الحاكم في الأردن يحتل الاستثمار صدارة أركان العبادات، ويُعتبر المستثمرون طلائع الفتحة. وعلى هذا الأساس ولغايات تشجيع الاستثمار وخلق البيئة الملائمة والمريحة للمستثمرين الأجانب

من مبشري الدين الجديد، أعلنت السلطات عن نيتها اتخاذ إجراءات وسن قوانين جديدة لتيسير تقديم أقصى الإغراءات وأجلّ الخدمات، وعلى رأسها بوجه خاص منح الجنسية الأردنية أو الإقامة الدائمة في الأردن.

فبموجب الإجراءات الجديدة يُمنح المستثمر الأجنبي الجنسية الأردنية في أيّ من الحالات التالية: إيداع وديعة بقيمة 1.5 مليون دولار لدى البنك المركزي الأردني؛ شراء سندات خزينة بقيمة 1.5 مليون دولار؛ شراء أسهم في شركات أردنية بمبلغ 1.5 مليون دولار؛ الاستثمار في الشركات الصغيرة أو المتوسطة بمبلغ مليون دولار؛ إنشاء وتسجيل مشروع استثماري برأسمال 1.5 - 2 مليون دولار. ويُمنح المستثمر الإقامة الدائمة عند شراء عقار لا تقل قيمته عن 200 ألف دولار.

كما تُمنح الجنسية الأردنية أو الإقامة الدائمة لزوجات المستثمر وبناته العازبات والأرامل والمطلقات اللواتي يعشن في كنفه وأولاده الذين لا تتجاوز أعمارهم 18 سنة ووالديه اللذين يعولهما. هذا فضلاً عن تقديم طيف واسع من التسهيلات في منح التأشيرات والإعفاءات المتعلقة بدخول السياح والمرضى وعائلاتهم ومرافقيهم.⁴⁸

إنشاء وحدة خاصة لحماية الاستثمار

لدعم الاستثمار وتشجيعه وتوفير كافة أشكال الحماية الأمنية له وتوفير البيئة الجاذبة له، فقد تقرّر تشكيل وحدة خاصة من قوات الدرك كوحدة "مستقلة" تُعنى بتنفيذ وتأمين وتلبية كافة أشكال الحماية والتغطية الأمنية للاستثمار.

وستباشر الوحدة الأمنية الخاصة عملها من خلال التواصل اليومي وعلى مدار الساعة مع كافة المستثمرين عبر قاعدة بيانات خاصة بهم، ومن خلال غرف عمليات منتشرة في الأقاليم وبخطوط ساخنة. وسيركز عمل تلك الوحدة على الجانب العمليّ من خلال نشر دوريات أمنية ثابتة ومتحركة في التجمعات الصناعية وحولها بحسب المقتضيات الأمنية، إضافة الى الجانب الاستخباراتي.

”وستكون الوحدة بمثابة حلقة وصل بين المستثمرين والجهات الأمنية والإدارية الأخرى لتنسيق الجهود وتنفيذ كافة الواجبات والمتطلبات التي يحتاجها المستثمر، إلى جانب دورها في التواصل مع جميع الوزارات والهيئات الرسمية المعنية في مختلف المحافظات.

ولعلَّ مَنْ يقرأ النص الكامل للقرار الحكومي الطويل العريض يُخيَّل إليه أن انقلاباً خطيراً دُبِّرَ بليلاً، ولا بد من إعادة العمل بالأحكام العرفية وقوانين الطوارئ سيئة الصيت، وأن الأمر يتعلق بحماية الوطن من الأعداء أو الأمن القومي من العابثين به. وأن مجلس الأمن القومي سيظل في حالة انعقاد دائم لإنقاذ المستثمرين الأجانب الحِملان المسالمين الطيبين من بين أنياب المواطنين الذئاب المفترسين.⁴⁹

إن قضية اجتذاب الاستثمار الأجنبي وإغراء المستثمرين الأجانب ببسط السجاد المنسوج من جلود الأردنيين ونثر الورود المستتبته من رموش عيونهم تحت أقدام أولئك المستثمرين، وتأمين الحماية الصارمة المدجَّجة بالإجراءات الردعية والعقابية لهم، تبدو بالنسبة ”للدولة الفوقا الزومبية“ كأنها قضية حياة أو موت دونها نِصال السيوف وضرب الرقاب، لماذا؟ لأن الاستثمار الأجنبي يمثل سر معادلة الاستباحة والحماية، استباحة الوطن ومواطنيه، وحماية المستبحين من المستباحين، ولأن الاستثمار الأجنبي ما هو إلا طريق العبور القانوني والسلاح الناعم الأشد فتكاً لفرض الهيمنة الكاملة على الأردن، وهو ليس سوى الاسم الكودي للتجنيس وبيع الجنسيات ومنح الإقامة لكل من هبَّ ودبَّ، من أفاقين وجواسيس ولصوص وغاسلي أموال وقنَّاصي فرص، من أجل تحقيق الهدف النهائي المتمثل في إقامة ”أوطان“ بديلة أو موازية أو احتياطية لمخرجات الصراع العربي - الإسرائيلي والحروب الإقليمية على هذه البقعة الجغرافية المعروضة للبيع بأسعار مغرية.

49- انظر النص الكامل لقرار مجلس الوزراء، الدستور، 21 شباط/فبراير 2018.

ولهذا ألهبت هذه القضية مشاعر الأردنيين واستفزتهم وولدت ردود فعل غاضبة ومواقف حادة من جانبهم،⁵⁰ ففاضت حناجرهم بالهتافات والشعارات اللاذعة التي طالت الملك وزوجته والبطانة، أي "عالية السقوف" كما تصفها الصحافة والناس هنا لتفادي الوقوع في تهمة "إطالة اللسان"، التي يُعاقب عليها بالسجن لمدة ثلاث سنوات- ناهيك عن قروسطية التعبير ووحشية إيحاءاته التاريخية (إطالة اللسان تستدعي قصه) وضد "الفساد والفاستين ومختلسي المال العام والمسؤولين عن إفقار الشعب وعملاء إسرائيل". وتداعوا إلى عقد اجتماعات عشائرية وشكلوا لجاناً شعبية صدرت عنها بيانات متعددة طالبت باستعادة الأراضي والواجهات العشائرية والأحراش والأراضي الحرجية وشواطئ البحرين الأحمر والميت وأراضي الحزام الحدودي، وقالت إن الأراضي التي تمت مصادرتها بكتاب من رئيس الوزراء ورئيس الأركان تحت ذريعة تملكها من قبل القوات المسلحة الأردنية هو تحويل وتخويل خطير جداً وباطل ومرفوض رفضاً قاطعاً لأنه يصادر حقوق العشائر التاريخية والوطنية وينم عن شكل من "التطهير العرقي والاحتقار الرسمي" للأردنيين وتهميشهم وإقصائهم، فضلاً عن أنه قرار "يقحم الجيش في صراع محلي وينقله من خندق محبة الأردنيين والأردن وتمثيلهما والدفاع عنهما إلى خندق الدفاع عن الفاسدين وحمايتهم. وهذا بالتحديد نذير الكارثة الحقيقية بالنسبة للأردنيين لأن أفراد الجيش من أعلى رتبة إلى أدناها هم أولادهم وأباؤهم وإخوانهم، ولذا فإنهم يعتبرون المساس به من المحرمات. ومن هنا جاء اتهامهم "للفاسدين والخونة والعملاء والجواسيس" - الذين كان الشهيد ناهض حتر يطلق عليهم اسم "تيار الأسرلة" - بأنهم يريدون "تلويث رمزية الجيش الأردني والقضاء عليها وإحداث شرخ بين الأردنيين وجيشهم"، واعتبروا ذلك مؤامرة خطيرة تستهدف المعادلة الذهبية الأردنية برمتها: الوطن والجيش والشعب.

وفي معرض رفضهم قرار مصادرة الواجهات العشائرية وإصرارهم على إعادتها إلى أصحابها؛ ورفض عمليات التجنيس السابقة والحالية المستمرة؛ والمطالبة بعدم السماح "للغرباء والمستثمرين" بالتملك لأن ذلك برأيهم غسيل أموال وليس

50- المواقف والاجتماعات والبيانات والكتابات الواردة هنا مصدرها وسائل التواصل الاجتماعي.

استثماراً، اتخذ المجتمعون ممن وصفوا أنفسهم بأنهم ”أحرار القبائل والعشائر الأردنية“ موقفين غاية في الرمزية، الأولى بإعلان اعتماد يوم 2 أيار/مايو 2018 من كل عام ”يوماً للأرض الأردنية“؛ والثانية باعتبار مصادرة الأراضي والواجهات العشائرية بمثابة ”وعد بلفور جديد بأيدي عربية متصهينة“.

ففي الأولى إشارة في العقل الجمعي الأردني، الواعي أو الباطن، إلى يوم الأرض الفلسطينية المغتصبة من قبل الصهاينة، ليقولوا إن الأرض الأردنية تُساق إلى المصير نفسه في سوق اغتصاب الأوطان كذلك. وفي الثانية إشارة مباشرة إلى التشابه بين ما تضمّنه وعد بلفور القديم من إعطاء فلسطين وطناً قومياً لليهود القادمين من مختلف أصقاع الكرة الأرضية وبين ما يتضمنه وعد بلفور ”الجديد“ من إعطاء الأردن وطناً بديلاً ”لكل من هبّ ودبّ“ على حد تعبيرهم.

وذهب البعض إلى حد اعتبار قضية العشائر الأردنية قضية ”سكان أصليين“، شأنهم شأن شعوب ما سُموا بالهنود الحمر في أمريكا الشمالية و”الأبوروجينز“ في أستراليا وسواهم من الشعوب والقبائل الأصلية في أمريكا اللاتينية وأفريقيا ممن حُرّموا من هويتهم الحقيقية وأسماء موائلهم الحقيقية. بل إن آخرين أخذوا يستعيرون اسم ”الهنود الحمر“ لاستخدامه في وصف الأردنيين.

وكان الشاعر الراحل حبيب الزبدي من أوائل الذين عبّروا شعراً عن مثل هذا الوصف:

”يا رب بيّن لي الحرام من الحلال
القرميدي في روسيا يذكر بالثلوج وبالرعاة على الجبال
القرميدي في إسبانيا رمز البنفسج في السلال
لكن للقرميدي في بلد الهنود الحمر معنى واحداً :
السهم في جرح الغزال .“

ويختم الشاعر الزبدي قصيدته بالوقوف على أطلال وطنه مؤبناً الأردن والأردنيين:
”السلام على وطن

نحن نكتبه في السطور
ونشطه في الصدور
السلام على وطن
لن يظل لأحفادنا فيه إلا القبور
من حق حزنك أيها الهندي أن تبكي (سدوم) وأن تمرّ على خرائبها
وأن تبكي على الطلل الأخير
من حقك أن تطالب هذه الدنيا بتقرير المصير.

حديث المظلوميات

على هذه الخلفية المتفجرة يأتي حديث المظلوميات الذي يستخدم المقاربة البحثية الموضوعية الرصينة شكلياً، ولا سيما حول المظلوميتين الأردنية والفلسطينية، الذي تتبناه بعض الأوساط السياسية والثقافية العابرة للأيدولوجيا، يسارية وقومية وإسلامية وليبرالية، وملخصها: استحواذ الأردنيين على وظائف الدولة العليا وسيطرة الفلسطينيين على قطاع التجارة والاقتصاد. وعليه يرى هؤلاء أن حل هذه المعضلة يكمن في "تصحيح" تلك المعادلة "القطبية"، لكن كيف يتم تصحيحها؟ لا يفصح أصحاب هذه "الأطروحة" عن ذلك ويبقى المعنى الحقيقي في بطن الشاعر ولكنه يشي بالمحاصرة والوطن البديل، فيلجأ بعضهم إلى الحل القومي وتحقيق الوحدة العربية الشاملة، أو إلى وحدة سوريا الكبرى على الأقل، بينما يستدعي البعض الآخر الحل الإسلامي ودولة الخلافة، فالأوطان في عقيدتهم أوثان تستحق التحطيم برفقة التكبير. وأما بالنسبة لليبراليين الكوزموبوليتيين، فإن الوطن هو حيث ينتعش البنفس ولا يقف في طريقه عائق. بيد أن هذه المقاربة- أطروحة المظلوميات- سواء كانت واعية أم غير واعية، ليست في نهاية المطاف سوى أيديولوجية للمحاصرة والانقسام والتقسيم، ووصفة للحرب الأهلية وتمهيداً لتدمير الجيش وتفكيك "الدولة"، ومنع أو إجهاد الوعي الطبقي العابر للهويات الفرعية القاتلة، وبالتالي النضال الطبقي المشترك، وخصوصاً بعد أن عرفت الإمبريالية والرجعية العربية النفطية والنيوليبرالية كيف تنفذ مثل تلك الأغراض وخَبرت الأدوات اللازمة لتنفيذها: وهي تمويل وتجنيد وتسليح وتوظيف فيالق الإرهابيين "الجهاديين" والمرترقة لتحقيق غاياتها.

خاتمة

لقد أوضحت هذه الورقة أن كلتا المقاربتين، "الزومبية" (هارمان ونايت) و"الطبقيّة" (سمير أمين) توصلتا إلى ما يشبه الإنذار النهائي للبشرية، مفاده أنه إذا لم يحدث تغيير ثوري حقيقي، فإن الكارثة ستقع، وسيصبح العالم مكاناً غير صالح للحياة.

وسيكون وقع الكارثة ونتائجها وتداعياتها أشد هولاً على الدولة الزومبي الميئة - الحية، كالأردن. وبعد تنفيذ ما يُعرف باسم "صفقة القرن" بصرف النظر عن تسمياتها التي ستمحو الأردن وفلسطين معاً من الأطلس السياسي، لا يمكنني ادعاء الحكمة، لا الآن ولا بأثر رجعي، حيال ما سيكون عليه الحال في ما أحب أن أسميه حتى الآن وطناً ولا يمنحني إلا وهماً. ولا يمكنني التكهن في هذه اللحظة بشأن الأوراق/الفصول التي لم تُكتب بعد، لكنني أستطيع أن أتخيّل أنه بعد بضعة عقود من الآن قد يأتي بعض المستشرقين والمستعربين والأنثروبولوجيين إلى هنا لإجراء بحوث حول السكان الأصليين في هذه "البقعة من الأرض" لغايات استخبارية بحثاً أو بحثية محضاً أو كسبق صحفي أو من باب التعاطف الإنساني. وقد يأتي بعض الآثاريين ويعثرون على رفات رجل أبيض أوروبي ويحارون في أمره وهويته وسبب وجوده في مقابر السكان الأصليين، وقد يصبح هذا الكشف حالة دراسية مهمة للغاية بالنسبة لمجتمع الأكاديميا الغربي أو "خبيراً عاجلاً" وحديث الساعة في وسائل الإعلام الغربية أو محطّ اهتمام الرأي العام العالمي. وبعد إجراء فحوص الحمض النووي DNA وجمع الأدلة المادية والظرفية للكشف عن ملابس الوفاة لتحديد هوية المتوفي، سيتبين أن الرفات تعود إلى شخص اسمه "غودفري"، وهو نجل الجنرال جون باغوت غلوب (أبو حنيك) القائد البريطاني للجيش الأردني، المعروف هنا باسم "فارس" الذي أحب الأردن والأردنيين وعاش بينهم ودُفن في تربتهم، وأنه كان صديقاً لناهض حتر وطارق مريود التل. عندئذ ربما يبدأ تسليط الضوء على قضية الأردنيين وتصبح قضية دولية وجزءاً من حقوق الإنسان، وربما يتم إطلاق حملة عالمية تطالب بمنحهم جزيرة في أرخبيل الإدارة الذاتية "لدولة" شتى المنابت والأصول الزومبية الرثة.

4. مانيفستو اللحن الأردني الأخير: مقاربة مقارنة⁵¹

تعريف:

مُعجمياً، "المانيفستو" هو "مقترح من أجل العمل لغرض إيقاظ فئة محددة من المجتمع لرؤية الطبيعة الحقيقية للظروف التي يعمل ويعيش فيها أفراد هذه الفئة وخيارات تغيير تلك الظروف" - إن وُجدت خيارات - (العبارة الشرطية من الكاتب، وليست ضمن نص التعريف القاموسي، وذلك بالإشارة إلى الحالة العيانية قيد البحث، أي حالة الأردنيين).

وأودُّ أن أشير إلى أنني استلهمتُ عنوان هذا المقال واستندتُ في مقاربتني هذه إلى كتاب "كستر مات من أجل خطاياكم: مانيفستو هندي"، لمؤلفه فاين ديلوريا الإبن.⁵²

على الرغم من انحيازي التام والواعي إلى المانيفستو الشيوعي، فقد عمدتُ في هذين المقال والمقام إلى "استدعاء" المانيفستو الهندي الأحمر وليس المانيفستو الشيوعي لمقاربة الحالة الأردنية، بسبب التشابه بين الحالتين في المانيفستو الأول والتناقض بين الحالتين في الثاني. ذلك لأن البيان الشيوعي الأشهر والأول من نوعه في تاريخ الصراع الطبقي في العالم الذي كتبه ماركس وإنجلز وصدّر في عام 1848 جاء مؤذناً وبشيراً بمرحلة جديدة وفجر جديد في تاريخ البشرية، بثورة اشتراكية على الرأسمالية، أصاب شُبُحها أوروبا بأسرها بالذعر:

51- مصطلح "مقاربة مقارنة" ربما لا يكون موفقاً، ويردُّ هنا كاستخدام موضعي إن صحَّ التعبير - أي لغرض هذا المقال فقط - متطفلاً على مصطلحات مكرّسة من قبيل "أدب مقارن، تاريخ مقارن..."

52- Custer Died for Your Sins: An Indian Manifesto, Vine Deloria Jr., University of Oklahoma Press-Norman, 1988.

ويجدر التنويه هنا بأن الصديقين الأستاذ الدكتور رضوان الجراح عميد كلية الآداب والعلوم بجامعة ساوث ويسترن أوكلاهوما الأسبق، والعضو المؤسس لكلية Cheyenne- Arapaho Tribal College الخاصة بالهنود الحمر ورئيسها بالوكالة سابقاً، والسيدة سوزان غودوين المدرّسة السابقة في قسم اللغات بجامعة ساوث ويسترن أوكلاهوما وعضو الفريق المؤسس لكلية المذكورة، تفضّلاً بتزويدي بهذا الكتاب القيّم، الذي استندتُ إليه في غير موقع من هذا المقال، فلهما فائق الشكر وعظيم الامتنان.

”شبح/طيف (spectre) يخيم على أوروبا، شبح الشيوعية. وضد هذا الشبح اتّحدت في حلف مقدس قوى أوروبا القديمة كلها: البابا والقيصر، مترنيخ وغيزو، الراديكاليون الفرنسيون والبوليس الألماني.

فأيّ حزب معارض لم يتّهمه خصومه في السلطة بالشيوعية؟ وأي حزب معارض لم يردّ بدوره تهمة الشيوعية ”الشائنة“ إلى أقسام المعارضة الأكثر تقدّمية، وإلى خصومه الرجعيين؟

من هذا الواقع يُستنتج أمران :

- أن قوى أوروبا كلها أصبحت تعترف بالشيوعية كقوة.
- أن الشيوعيين آن لهم أن يعرضوا أمام العالم كله طرق تفكيرهم وأهدافهم، واتجاهاتهم، وأن يواجهوا خرافة شبح الشيوعية ببيان من الحزب نفسه. ولهذه الغاية، اجتمع في لندن شيوعيون من مختلف القوميات، ووضعوا البيان الآتي، الذي سيصدر باللغات: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والفلمنكية والدمركية.“

وأود أن أضيف هنا استنتاجاً ثالثاً، وهو أنه في المانيفستو الشيوعي نرى أن هذا ”الشبح“ المخيف الذي يخيم على أوروبا بالنسبة للرأسماليين ما هو إلا ”طيف“ لطيف يرفرف في سماء الحرية والعدالة بالنسبة للكادحين، أي أنهما نقيضان. أما في المانيفستو الهندي الأحمر والمانيفستو الأردني، فلا يوجد سوى شبح رهيب يحوم فوق جسد يلفظ روحه بانتظار الانقراض على جثته.

أما ”خطبة سياتل“ الأخيرة الشهيرة، خطبة الإقرار بالهزيمة وإعلان الاستسلام النهائي للغزاة البيض، التي ألّقاها زعيم قبيلة ”دواميش“ وغيرها من قبائل الهنود الأحمر⁵³ في حفل إشهار المعاهدة التي أملاها عليه حاكم ولاية واشنطن إسحق ستيفنس في عام 1854، فقد ضمّتها نص غاية في الجمال والبلاغة والعمق والحزن، فجاءت بمثابة معزوفة لحن الوداع الأخير، حزينّة كسيرة يائسة، ونذيراً بأفول

53- أُطلقت هذه التسمية على السكان الأصليين، أصحاب الأرض التي غزاها كريستوفر كولومبوس وظنّ أنه وصل إلى الهند وأن سكانها هنود. وقد اعتُبرت هذه التسمية عنصرية ضد أصحاب الأرض الأصليين كما هو معروف، ولذلك لا أتناهاها، وإنما أستخدمها لمقاصد هذا المقال. لكن بعض المصادر يذكر وصفهم بالحمّر، ومنها خطبة سياتل، لتمييز أنفسهم عن الغزاة البيض.

كوكب أمة عظيمة من أصحاب البلاد الأصليين الشرعيين، بل إبادتها تقريباً، وهي ممسكة بأخر أهداب نوستالجيا عشق أرض الأجداد:

”زعيم واشنطن الكبير“ يقول لي في رسالته، إنه يريد أن يشتري بلادنا. ويقول لي إنه صديقي، وإنه يَكُنُّ لي مودة عميقة. كيف نستطيع أن نبيع أو نشترى السماء ودفء الأرض؟ ما أغرب هذه الأفكار!!!

كيف نبيع طلاقة الهواء؟ كيف نبيع حباب الماء ونحن لا نملكها؟ كل شبر من تراب هذه البلاد مقدس عند شعبي. كل خيط من ورق الصنوبر، كل شاطئ رملي، كل مدى من الضباب في غياهب الغابات، كله مقدس في ذاكرة شعبي وتجربته مع الحياة.

فالنسخ الذي يسيل في الأشجار يجري بذكريات الإنسان الأحمر. إن موق الإنسان الأبيض ينسون مهدهم عندما يمشون بين النجوم. أما موتانا فأبداً لا ينسون الأرض الطيبة لأنها أم الإنسان الأحمر. نحن منها، وهي منا. الأزهار العطرة أخواتنا. الغزال والحسان والنسر العظيم كلهم إخوتنا. القمم الصخرية، ندى المروج، ودفء جسد الحصان، كلهم من هذه الأسرة الواحدة...”

لكم دينكم ولي دين

يجدر الإشارة هنا إلى أن ثمة أربع نسخ/طبعت لما عُرف باسم ”خطبة الهندي الأحمر الأخيرة“ تتضمن بعض الاختلافات في نصوصها وفي زمن ظهورها. وقد ألقاها الزعيم ”سياتل“، أو ”سياتل“، بلغة قبيلته وترجمها شخص آخر إلى لغة محلية أخرى، ثم ترجمها ثالث إلى الإنجليزية لأن سياتل لم يكن يتحدث الإنجليزية، وأظن أن ذلك ربما يكون سبباً في وجود تلك الاختلافات بين الطبعت، ومن أهمها أن إحداها تقول إن إلههم واحد (إله الهنود الحمر، أصحاب الأرض الأصليين، والغزاة البيض، وأخرى تقول إن لكل منهما إلهاً مختلفاً، بل نقيضاً له في صفاته الإلهية وعلاقته بعبادة). غير أنها جميعاً تتضمن تسليم الهنود الحمر بالهزيمة واستسلام زعيمهم سياتل للغازي الأبيض بشروط الأخير.

نحن هنا إذن أمام نوعين من الاستسلام للعدو الوجودي:
النوع الأول: استسلام وتصالح مع الغازي المنتصر، وتوسُّل إليه بأن يحب الأرض التي اغتصبها وأن يحافظ على جمال أزهارها وصحبة حيواناتها ورقّة أنسامها كما فعل هو وقومه معها من أصحابها التاريخيين منذ نبتوا فيها:

”سننظر في عرضك أن نذهب إلى المكان المخصص لشعبي لنعيش وحدنا بسلام. لم يعد من المهم أين نمضي بقية حياتنا. إنها أيام معدودات، بضعة اقمار اخرى، بضعة شتاءات... ثم لن يكون هناك أطفال من هذه الشعوب العظيمة التي عاشت يوماً على هذه الأرض، وها هي ذي شراذم ضئيلة تتسكع في أعماق الأدغال. لن يكون هناك أطفال سيكون على قبور بشر كانوا ذات يوم مثلكم أقوياء طافحين بالأمال. ولكن لماذا أبكي زوال شعبي؟ إن القبائل لا يصنعها إلا الرجال. أما الرجال فيجئون ويرحلون مثل أمواج البحر. حتى أنت أيها الرجل الأبيض الذي تمشي مع ربك وتحاكيه صديقاً لصديق لن تنجو من هذا المصير. ولعلنا، في النهاية، إخوة، وسنرى.

أعلم شيئاً واحداً قد يكتشفه الرجل الأبيض يوماً. أعلم أن إلهي وإلهه واحد. أنتم تعتقدون أنكم تملكون هذا الإله مثلما أنكم تريدون أن تملكوا أرضنا. إنه إله الإنسان وقد وسعت رحمته الإنسان الأحمر والإنسان الأبيض. إن هذه الأرض غالية عنده. وإن إيذاء الأرض لابد أن يثير غضب خالقها. لسوف تمضي أنت أيضاً أيها الإنسان الأبيض. وربما ستمضي قبل غيرك. هيا امعن في تلويث فراشك ولسوف تختنق يوماً في قاماتك.

والنوع الثاني: استسلام، لكن مع قطيعة نهائية مع الغازي الأبيض:
”إن ربكم ليس ربنا... فربكم يحب شعبكم ويكره شعبي. وهو يلفُّ بذراعيه الحاميتين صاحب الوجه الشاحب ويقوده من يده كما يقود الأب طفله الصغير. لكنه تخلى عن أبنائه الأحمر، إن كانوا حقاً بنيه، بل إن الروح العظيم إلها قد خذلنا أيضاً. إن ربكم يجعل من شعبكم أقوى يوماً بعد يوم، وقريباً ستملأون المدى. أما أبناء شعبي فيضمحلون مثل مدّ ممعن في الانحسار لن يتسنى له

أبداً أن يعود. لو كان إله الرجل الأبيض يحب أبناء شعبي إذن لكلأهم بحمايته. لكنهم أشبه بأيام بلا ملجأ يهرعون إليه في طلب العون، فكيف لنا أن نكون أخوة إذن؟ كيف يمكن لربكم أن يصبح ربنا وأن يعيد لنا الألق ويوظف فينا الحلم في عودة المجد الغابر؟

إذا كان لنا إله سماوي واحد فإنه لا بد إله منحاز، لأنه جاء لنجدة أبنائه البيض. إننا أبداً لم نره. وهو قد أنفذ قوانينه دون أن يرسل ولو كلمة لأبنائه الحمر الذين ملأت أخلاطهم يوماً هذه السهول الفسيحة مثلما تملأ النجوم قبة السماء.. كلا.. إننا جنسان متميزان، أصولنا مختلفة وأقدارنا متفارقة، وثمة القليل مما نشترك فيه...”

من ناحيتي، انا أميل الى الاعتقاد بأن النص الأول خضع لرواية مختلفة وليس لترجمه مختلفة.

فهل سيختار الأردنيون الاستسلام الذليل لإسحق ستيفنس القرن الحادي والعشرين والتصالح المهين معه والتماس رأفته بعد تجريدهم من وطنهم وحبسهم في إحدى جزر الأرخييل الديمغرافي في هذه البقاع؟ أم الاستسلام له واقفين كأسرى حرب خسروا معركة، مع القطيعة التامة معه، بانتظار الحتمية التاريخية أو مكر التاريخ على الأقل ويقولون: لكم ربكم ولنا ربنا؟ ويا لها من خيارات!

الفصل العنصري والصهر العنصري: استراتيجيتان وهدف واحد

في حربه مع الهنود الحمر والأفارقة السود، استخدم الرجل الأبيض استراتيجيتين: إقصاء السود عن المجتمع الأبيض بالفصل العنصري ”الأبارتايد“، واحتواء مَن تبقى من الهنود الحمر فيه، وذلك لتحقيق هدف واحد وهو القضاء على هويتهم وثقافتهم الأصلية واجتثاث ذاكرتهم الجمعية التاريخية وتدمير روحهم الإنسانية لتسهيل إخضاعهم واستغلالهم وانصياعهم التام له. فبالنسبة لأهالي البلاد الأصليين، أصحاب الأرض على الشيوخ، عمد الرجل الأبيض، بعد إبادتهم تقريباً والاستيلاء على أرض أجدادهم، إلى إدماج ما تبقى منهم في المجتمع الأبيض، مستخدماً ”السماحة السماوية“ للكنيسة و”النوازع الإنسانية الأرضية“ للباحثين

في منظمات المجتمع المدني.

ويبدو لي أن السمة المشتركة للغزاة المستوطنين الذين يحلّون محل السكان الأصليين في أية بقعة على هذا الكوكب هي أن المستوطنين يعتبرون السكان الأصليين التحدي الوجودي الرئيسي لهم والعدو رقم واحد الذي يشكل مجرد بقائه حياً على أرضه خطراً على وجودهم، ويظلون كذلك إلى الأبد، حتى بعد استقدام موجات أخرى من المهاجرين من مختلف أنحاء المعمورة وتوطينهم في البلاد وإغراق السكان الأصليين في بحرهم (كما هي الحال مع الاستيطان الصهيوني في فلسطين). فرمما يكون مردُّ ذلك إلى أنه في سويداء دماغ القاتل الآثم تستقر نقطة سوداء، لا أظن أنها وازع ضمير، وإنما هاجس عودة القتل إلى الحياة، ولذا فهو مستعد لقتله مثنى وثلاث ورباع.

هل حدث أمر كهذا للأردنيين؟

لعل من تكرار المكرر القول إن الاستعمار الكولونيالي البريطاني أنشأ كياناً وظيفياً تابعاً في منطقة شرق الأردن وجلب معه حاكماً من الخارج - الحجاز - وهو الأمير عبدالله نجل الشريف حسين بن علي ونصّب به أميراً على البلاد لتنفيذ مشروعه، وهو ما وثّقه عدد من المؤرخين والباحثين الأجانب والأردنيين،⁵⁴ استناداً إلى الأرشيف البريطاني. أما وظيفة هذا الكيان فهي معروفة كذلك بالوثائق والممارسات، وتتلخص في إنشاء منطقة عازلة buffer zone في المرحلة الأولى للمشروع الصهيوني لخدمة مصالح الامبراطورية في المنطقة وتسهيل تنفيذ إعلان بلفور، أو ما عُرف باسم "وعد بلفور" السيء الصيت، القاضي بإنشاء "وطن قومي لليهود" في فلسطين. وهو الشرط الذي رفضه الشيخ سلطان العدوان ونجله ماجد مقابل تأميرهما على شرق الأردن. وقد أخضع الحاكم الجديد شعب شرق الأردن بالقوة البريطانية المسلحة تارةً وبتحريض العشائر والقبائل ضد بعضها بعضاً تارةً أخرى. ومنذ اليوم الأول عمد الأمير عبدالله إلى اضطهاد أهالي البلاد وإقصائهم عن المشاركة في إدارة شؤون بلادهم، واستعان بأشخاص من الخارج، حتى مع أن

54- من بينهم: الدكتور عصام محمد السعدي، الحركة الوطنية الأردنية- ثلاثة أجزاء- منشورات معهد المشرق للدراسات الجيو- سياسية، 2010، 2014، 2020؛ والدكتور عبدالله العساف، ثورة البلقاء ومشروع الدولة الماجدية، دار وائل للنشر

بعضهم كان ضد الاستعمار المنافس (الفرنسي) كالأستقلاليين السوريين، الأمر الذي أثار غضب الزعماء والمثقفين الأردنيين الذي عبّرو عنه بشعار: "الأردن للأردنيين"، الذي كان موجهاً ضد غير الأردنيين الذين استقدمهم الأمير عبدالله وعيّنهم في المناصب الإدارية العليا. أما ثورة عام 1923 المناهضة لذلك التوجه، فقد عبّر عنها شاعرهم عرار:

”قسماً بماحص والفحيص وبالطفيلة والثنية
ودم ابن شهوان⁵⁵ الزكيّ ومصرع النفس الأبيّة.“

لم يكن أحد أهداف المشروع الوظيفي إبادة أهالي البلاد الأصليين، ولم يكن ذلك ممكناً حتى لو أراد صاحبه، لأنه لم يكن من بين أهداف بريطانيا توطين اليهود في شرق الأردن، بل إعدادها كوطن بديل للفلسطينيين الذين سيتم احتلال بلادهم واستيطانها وطردهم منها وإقامة الدولة اليهودية عليها. وها هو يتحقق الآن بزمن قياسي نسبياً بشكل ناعم أو خشن.

استراتيجيتان وهدف واحد

لقد استخدم نظام الحكم استراتيجيتين: الأولى اخضاع المعارضة الأردنية ثم استمالة الأردنيين واستخدامهم لحمايته وذلك بإدماجهم بأجهزة النظام العسكرية والأمنية والمدنية، بعد القضاء على الإنتاج الزراعي، ولا سيما زراعة الحبوب، وفرض الخصخصة وتمكين النيوليبرالية في وقت لاحق، والثانية إغراق البلاد باللاجئين والمهاجرين من مخرجات الأزمات السياسية والاقتصادية في المنطقة، تمهيداً لتصفية القضية الفلسطينية بشكل نهائي وإنشاء وطن بديل للفلسطينيين في الأردن، بالإضافة إلى أعداد هائلة من اللاجئين والمهاجرين الفارين من الحروب أو الباحثين عن لقمة العيش أو صائدي الفرص أو الباحثين عن أوطان بديلة، بحيث يصبح الأردنيون مجرد واحدة من الأقليات التي تقطن هذه البقعة الجغرافية، التي لن تكون وطناً لا للأردنيين ولا للفلسطينيين، بل مجرد حوض ديمغرافي لمن

55- صايل الشهوان العجارمة، أحد أبرز قادة ثورة 1923 الذي واجه المدرعة البريطانية بسيفه على صهوة جواده، فأردته برصاص رشاشها.

هبَّ ودبَّ من مُخرجات الأزمات والحروب الإقليمية.

”مقاربة مقارنة“

يرى الكاتب ديلوريا الإبن أن ثمة مشكلة أمام القيادات الهندية اليوم تكمن في امتثال البعض للصورة النمطية لشعبهم وللتوقعات المفترضة، أو الإنكار المطلق لها، أي إما تحقير شعبهم أو المبالغة في تعظيمه. فعلى سبيل المثال، أُصقت ممارسة سلخ فروة رأس العدو بالهنود الحمر بينما لم يكتف المستوطنون البيض بممارسة سلخ فروات رؤوس السكان الأصليين فحسب، بل جعلوا منها تجارة رائجة، وظهرت ”مهنة“ صائدي فروات رؤوس الهنود الحمر الذين جنوا منها ثروات طائلة. وكان الهدف من ذلك إظهار أن السكان الأصليين همج ومخلوقات متوحشة يجب إبادتهم في سبيل إنفاذ المهمة الإلهية الموكولة إليهم، وهي ”تعمير“ الأرض التي وهبها لهم.

ولتدعيم رأيه ودحض السردية النمطية عن الهنود الحمر يستشهد ديلوريا الإبن بفرمان عام 1755 الذي صدر باسم الملك جورج الثاني وقضى بأن يعامل الهنود من قبيلة بينوب سكوت ”كأعداء وتمردين وخونة لصاحب الجلالة، واعتبارهم حيوانات برية متوحشة، وعليه ينبغي مطاردتهم واصطيادهم وأسرهم وقتلهم وتحطيم كل فرد منهم.“ وتم سلخ فروات رؤوسهم، وتحديد مكافآت كبيرة على كل فروة رأس، حيث كانت أعلى ثمناً من فراء الحيوانات الأخرى: 40 جنيهاً مقابل فروة رأس كل هندي أحمر ذكر؛ 20 جنيهاً مقابل فروة رأس كل هندية أنثى أو طفل دون سن الثانية عشرة. كان للرجل الهندي مثل سعر الأنثيين والطفلين، طبعاً لأنه مقاتل.

ردَّ الهنود الحمر عليهم بمحاولة النأي بأنفسهم عن المستعمرين البيض، الذين يقفون لهم بالمرصاد بمصائد ”المغفلين“. ويذكر الكاتب ديلوريا على سبيل المثال قصة أفراد قبيلة ”تيغواز“ الهندية والكازينو، الذين رأوا أنهم ليسوا مضطرين لانصهار ثقافتهم في ثقافة البيض (الخزان الديمغرافي)، وسمح لهم بفتح كازينو. بعد ذلك قامت الحكومة الفدرالية بإغلاق الكازينو، الذي كانت القبيلة تعتاش

منه، فاضطرت إلى الاستعانة بالمحامي اليهودي أبرامز ودفعت له 4.2 مليون دولار لكسب تأييد أعضاء الكونغرس لإعادة فتحه، ولكن أبرامز سرق المبلغ وأدار ظهره لهم، ولم تكثر الحكومة بفتح الكازينو.

ماذا عن الأردنيين؟ هل سيذوبون في قدر الحساء الديمغرافي الذي يجري إعداده في الأردن الجديد؟ أم سيتمكنون من الاحتفاظ بلون وطعم خاصين مميزين في طبق سَلْطَة.

وقد رُسِّخت سردية مُطية مشابهة عن الأردنيين أهالي البلاد الأصليين، فهذه البقعة الجغرافية أرض بلا شعب، اللهم إلا من عدد قليل من البدو الهمج الكسالي بلا حضارة ولا تاريخ، وينبغي تعمیرها وتمدينها باستقدام المهاجرين إليها من الخارج، وهو المنطق نفسه الذي استخدمته الصهيونية في فلسطين كما هو معروف. ورداً على هذه السردية المفبركة والسائدة حتى اليوم، لجأ بعض المثقفين الوطنيين الأردنيين المعارضين للنظام إلى أعماق التاريخ، واستنجدوا بعصر الأنباط وصدر الإسلام والعهدين الأموي والعباسي وحتى الأندلسي لإثبات أن وطنهم ممتد الجذور في التاريخ وليس أرضاً بلقعاً، وأن شعبهم مجتمع متحضر وليس جماعة همجية بلا هوية. وقد ظهر ذلك في السجال الوارد في موقع آخر من هذا الكتاب والذي دار بين الراحلين الملك حسين والكاتب ناهض حتر حول سؤال: مَنْ هو الأردني/ما هو الأردن؟

ويصف ديلوريا الشخصية الجمعية للهنود الحمر بالقول إنهم "كالطقس، إذ يعرف الجميع كل شيء عن حالة الطقس، ولكن أحداً لا يستطيع تغييره". وكذلك الأمر مع الأردنيين، فهم يعرفون كل شيء ويحللون ويسمون الأشياء بأسمائها والأشخاص بأسمائهم، من قمة الهرم إلى قاعدته، ويشيرون بأصابع الاتهام إلى الفساد المؤسسي والبنوي والفاستدين، وإلى الخصخصة وبيع الأردن بالجملة والتجزئة، ومَن باع ماذا، وطبيعة السلطة الحاكمة والعملية الجارية لتفكيك الدولة والجيش، وصولاً إلى الوطن البديل وشطب فلسطين والأردن من الخريطة الجيو-سياسية. إن الأردنيين يعرفون كل ذلك، لكنهم لا يستطيعون تغيير شيء.

وهم في هذا يشبهون الهنود الحمر في علاقتهم بالطقس، إلا أنهم لا يسخرون من أنفسهم مثلما كان يفعل الهنود الذين كانوا ينفجرون ضاحكين مرارةً وهم يرددون النشيد الوطني الأمريكي عندما يصلون إلى المقطع الذي يقول:

”الأرض التي مات فيها أجدادنا،
الأرض التي مثّلت فخر المهاجرين..!“

نعم، كان الهنود الحمر ”يجهشون“ بالضحك ساخرين من أنفسهم، لأن أجدادهم في الحقيقة ماتوا كي يمنعوا اغتصاب أرضهم من قبل أولئك المهاجرين الغزاة، الذين قتلوا أجدادهم باعتبارهم متوحشين ومشعوذين وسالخي فروات الرؤوس، فكيف مثّلت أرضهم المغتصبة فخر المهاجرين البيض؟ وكيف كان أصحابها الأصليون يرددون نشيد اغتصابها في كل مناسبة؟

بمثل هذه العين ينظر عناصر ”الدولة الفوقا“ أو ما أسماه ناهض حتر ”تيار الأسرلة“ إلى الأردنيين، وبمثل هذه المعاملة يعاملونهم. فهم يعتبرونهم همجاً طفيليين استولوا على المناصب والأراضي، بغير وجه حق.

كيف تم الاعتراف بالهنود إذن؟

في جلسة استماع الكونغرس الامريكي طرح أحد أعضائه على هندي أحمر السؤال التالي:

- ما الذي تريدونه بالضبط أنتم الهنود؟ فأجاب الهندي:
- قانون ”دعونا وشأننا“، واتفاقية ثقافية ”دعونا وشأننا نصاً وروحاً“.

فهل سيطلب الأردنيون قانوناً واتفاقية ثقافية مماثلين؟ قانون دعونا وشأننا واتفاقية ثقافية ”دعونا نقلع شوكننا بأيدينا“؟ أم سيرسلون التماساً إلى إسحق ستيفنس يناشدونه فيه عدم التخلي عن الحكم الرشيد لبلادهم الى أن يبلغوا سن الرشد؟

بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية اعترفت التعديلات الدستورية بأن السود من جنس البشر واعتبرت صوت الناخب الأسود 5/3 صوت (أي أن الإنسان الأسود يعادل ثلاثة أخماس إنسان في التصويت). أما الهنود الحمر فلم يُعترف بهم ولم يُسمح لهم بإقامة دعاوى في المحاكم ولم تُقبل شهاداتهم فيها، كما لم يُسمح لهم بالتصويت أو مغادرة محمياتهم.

وذات يوم اكتشف الغازي الأبيض أن الهنود ما زالوا يحتفظون بـ 135 مليون هكتار من الأرض الصالحة للزراعة أو التعدين أو صناعة الأخشاب، فانتفض ضد نفسه.. يا للكنز الدفين! ويا لحقوق الإنسان المنتهكة!

بيد أن عقبة كبرى برزت في طريق الرجل الأبيض، إذ أن الأرض بالنسبة للهنود الحمر ليست للبيع ولا يحق لأحد منهم بيعها. عندئذ سرعان ما "اكتشف" الرجل الأبيض أن الهنود بشر ويجب أن يتمتعوا بالحق في بيع أراضيهم. وهكذا كانت الأرض وسيلة للاعتراف بصاحبها الهندي الأحمر كإنسان وأسلوباً يمكن بواسطته سرقة الأرض بشكل قانوني وحقوقى كذلك، وليس بشكل تعسفي صارخ: إنها عملية "تسليح الأرض".

"تسليح الأرض" إذن هي كلمة المرور السحرية للاستحواذ على الأرض والسيطرة على أصحابها وما فوقها وما في باطنها، وهو ما حصل ويحصل للأردنيين. فبعد القضاء على الانتاج الزراعي ومغادرة الأرض إلى الوظائف العسكرية والمدنية، في ظل الخصخصة وبسط الهيمنة الكاملة للنيلولبرالية على الاقتصاد، صدر قانون تحويل الأرض الميري إلى ملك مع تشديد الأوامر الإدارية من أعلى مستويات الحكم على تيسير وتسريع إفراز وتقسيم الأراضي ليسهل بيعها لأي كان من غير الأردنيين، ولا سيما المستثمرين الأجانب، المُعلن منهم والمُضمر، أي بمن فيهم الإسرائيليون بالطبع.

وعندما تم الاعتراف بالهندي الأحمر، أصبح من السهولة بمكان تقرير ماهية أهدافه. وكان منطق الغازي الأبيض يقول: إذا كان الهندي الأحمر مثل الرجل

الأبيض، فإن نظرتة إلى الأمور يجب أن تكون مثل نظرة الأبيض كذلك. وهكذا تم تخطيط مستقبل الهنود في الحياة العامة والخاصة، فكانت الخطوة الأولى تخصيص محميات لهم يستطيعون فيها بيع أراضيهم. وكانت خطة الرب الأبيض التي تقضي بإعادة تعمير القارة "الخالية" من السكان يجب أن تنطبق على أهداف الهنود الحمر التي رسمها أصدقاؤهم البيض من أبناء الرب. وبالمثل كانت خطة الرب التلمودي التي يجب أن تُطبق في شرق الأردن تقضي بتعمير أرض يباب بلا سكان، باستقدام وتوطين سكان بلا أوطان أو أراضي.

ويقارن دييلوريا الابن بين "الهنود الحمر والزنج"، أي السكان الأصليين أصحاب الأرض، والسكان السود الذين جُلبوا بالسلاسل من موطنهم الأصلي في أفريقيا إلى القارة الأمريكية المغتصبة ووضعت رقابهم تحت نير العبودية، فيعبر عن ذلك بلغة لا تخلو من السخرية السوداء:

"لحسن حظنا أننا لم نكن عبيداً، فقد تخلينا عن أرضنا عوضاً عن حياتنا وقوة عملنا. فلأن الأفريقي الأسود "الزنجي" كان يعمل، اعتُبر حيواناً أليفاً، ولأن الهندي الأحمر كان يمتلك الأرض، اعتُبر حيواناً برياً". ولذا تم تحويل الحيوان البري إلى حيوان منزلي أليف، سواء أراد ذلك أم لم يرد. فماذا إذن عن الأردني "الحنطي"؟⁵⁶

وبالمثل، قامت "الدولة الفوقا" الرثة⁵⁷ بشكل حثيث بعملية تحويل الأردني من "حيوان بري" إلى حيوان أليف بإدماجه في طاحونة الوظيفة العسكرية والمدنية وربطه بعجلة النظام الوظيفي و"إغرائه" بترك أرضه وتسليعها وبيعها، ثم رفع المظلة الاجتماعية عن رأسه، لتكون الضربة التالية هي القاضية.

56- بلون الحنطة، أي القمح، درة تاج زراعة الحبوب والغذاء الرئيسي للأردنيين وأهالي سهل حوران الفسيح في بلاد الشام، وكنز الامبراطورية الرومانية (إهراءات روما)، والذي كانوا يصفون رغبته بالبدر التمام ويشبهونه بالمصحف. يلتقطون لقماته عن الأرض المتسخة، يقبلونها ثلاثاً وعلى جباههم، ويزيحونها عن الطرقات. وقد استمر ذلك حتى أواخر الستينيات من القرن المنصرم، وقبل ان يتم القضاء المبرمج على زراعة الحبوب، ولا سيما القمح. وكان لون الحنطة من البيانات الشخصية التي تُكتب في جواز السفر الأردني القديم لجميع حامله تقريباً (اللون: حنطي)، ولا أظن أنه مستخدم في بلد آخر، وهو في هذا مميّز.

57- انظر مقال بعنوان: "في الحالة الرثة: عندما تصبح "شئى" بديلاً للهوية الوطنية،

السؤال الآن هو: هل سيتمكن الأردني الحنطي من البقاء على أرضه حيواناً برياً - حرّاً - أم سيستسلم ويقبل بالتحول إلى حيوان أليف؟ استناداً إلى الواقع الذي يتشكّل أمام عيوننا وعمليات الهندسة الاجتماعية الجارية على دماغه منذ تأسيس الدولة - الإمارة الوظيفية، فإن من المرجح أنه سيَرغم على القبول بالتحول إلى حيوان أليف، لكن لنقل الماء والحطب - أي لاستغلال قوة عمله فقط - أي كماشية، وليس كحيوان "بيتوتي" مدلّل لأنه يجري حالياً ترويضه وتدريبه على القيام بهذا الدور حتى قبل الوصول إلى اليوم العاشر،⁵⁸ حيث سيعمل خادماً أو حارساً أمنياً في المولات والشركات والمصارف والمزارع الخاصة المملوكة للرأسمال الطُفيلي المحلي والمستوطن والمتعدد الجنسيات و "من شتى الأصول والمنابت".

روح الدُعاة الهندية

يعتقد ديولوريا أن أحد أفضل السبل لمعرفة شعب ما يتمثل في معرفة ما يُضحكه؛ إذ أن الضحك يضمّد جروح الروح. ففي الدعاة يُعاد تعريف الحياة وقبولها. كما أن السخرية توفر تبصُّراً في النفس والقيم الجماعية لجماعة ما على نحو أعمق مما يمكن أن تفعله سنوات من البحوث. فعندما أدخل المناضل والممثل الكوميدي الأمريكي الأسود ديك غريغوري روح الدعاة في الكفاح من أجل الحقوق المدنية، إنما مكّن غير السود من دخول عالم الأفكار للعالم الأسود وتجربة الأذى الذي أصابه.

وعند قبائل الهنود الحمر لعبت الدُعاة والسخرية المرّة دوراً في تحمّل حالة اليأس وفقدان آفاق المستقبل. ومثالاً على ذلك يذكر المؤلف طُرفة تقول إن رئيس المجلس القومي للشباب الهندي كان يتحدث إلى مجموعة من الهنود حول إحياء الحياة الهندية التقليدية، فقال: عندما أُسست الولايات المتحدة كانت المناطق الحضرية - التي أقامها الغزاة المستوطنون البيض تشكل 5% من البلاد، بينما شكّلت المناطق الريفية 95% منها. أما اليوم، فقد أصبحت المدينة تشكل 70%، بينما يشكل الريف 30%. ولكن مستمعيه لم يفهموا مغزى الطُرفة، فسارع إلى توضيحها قائلاً: هذا يعني أننا ندفع البيض إلى المدن، ونحن ننتشر في الريف،

58- الإشارة إلى قصة "النمور في اليوم العاشر" لزكريا تامر.

وسرعان ما نستعيد بلادنا.“

في الأردن كذلك نرى أن الوافدين، من مهاجرين ولاجئين وغيرهم ممن تدفعهم أو تجذبهم الأزمات السياسية والاقتصادية والنزاعات الإقليمية والدولية الكبرى، يتركزون في المدن الرئيسية-عمان والزرقاء وإربد- بينما ينتشر الأردنيون في الريف والمحافظات الأخرى بحكم مواقع أراضيهم الزراعية ومراعيهم القديمة. بيد أنهم لن يتمكنوا من المحافظة على أرض الأجداد، ناهيك عن استردادها، ولا حتى بمنطق الطرفة التي ذكرها المؤلف على لسان رئيس المجلس القومي للشباب الهندي لأنه يجري إفرازها وتقسيمها ”مُر“ للبيع، وإنشاء المباني السكنية والمشاريع التجارية والمزارع الخاصة ومختلف أشكال البنس غير الإنتاجية عليها. هذا ما تثبته القواشين ”الطابو“ القابعة في خزائن المالكين الجدد وفي دوائر تسجيل الأراضي التي يشير إليها الشاعر الأردني الراحل حبيب الزبيدي:

آه .. يا جار الرضى

صرنا يتامى الأم لما ماتت التينات

يابن أبي تعال

لعلنا نبكي معا

كل لصاحبه

على مهل جحيم الاحتلال

جاري ... يغضب كلما ذكر المنابت والأصول

ويلجُ للإصلاح

ووحدها سندات تسجيل الأراضي في خزائنه تبرّد قلبه

فأقول: دعك من المنابت، تلك مسالة تقررها البنوك.“

ويعتقد الكاتب ديوريا أن نقطة الضعف المتأصلة في تاريخ المجتمع الأمريكي تتمثل في أن البلاد تأسست على العنف، وهي تعبد العنف، وستستمر في العيش مع العنف. وكل من يقابل العنف بالحب يُسحق، وظلت أمريكا تستخدم القتل المفرط والسحق بلا رحمة وحتى الإبادة الجماعية في بعض الحالات، وتطلب من أعدائها الاستسلام بلا شروط.

فما هي نقطة الضعف المتأصلة في تاريخ الأردنيين؟ بل ما هي بذرة الفناء التي يحملها الكيان السياسي في أحشائه منذ استيلائه؟

إن الكيان السياسي الذي أُقيم على أرض وطنهم في عام 1921 تحت اسم مؤقت، باللغة الإنجليزية، وهو Transjordan، أي "عبر الأردن"، وهو اسم ينطوي على استخفاف بالكيان نفسه وبأهله، وأُطلق عليه بالعربية اسم "إمارة شرق الأردن"، قد أنشئ منذ اللحظة الأولى بالقوة الكولونيالية البريطانية ككيان وظيفي تابع لها، كي يشكل منطقة عازلة buffer zone في المرحلة الأولى بين فلسطين وسوريا والعراق وبلدان الخليج لأغراض خدمة مصالح الامبراطورية والمساعدة في إقامة "وطن قومي لليهود" في فلسطين بموجب إعلان بلفور بعد طرد أصحابها الشرعيين منها، وإنجاز التصفية النهائية لقضيتهم، بإنشاء وطن بديل لهم في الأردن.

صفقة القرن وما أدراك ما صفقة القرن

خطة الرئيس الامريكى دونالد ترمب المعسولة الاسم "من السلام إلى الازدهار في الشرق الاوسط"، التي أطلق عليها اسماً تجارياً مغرباً لتجار الحروب والشعوب "صفقة القرن"، ربما تكون المعركة الأخطر والحاسمة في الأجل المنظور على الأقل، ومن شأنها، إن خسرتها، أن تسفر عن ضياع فلسطين والأردن معاً وتمزيق شعبيهما معاً، أصبحت بالنسبة للنخب والقوى السياسية "المعارضة"، اليسارية واليمينية والقومية والإسلامية، مجرد رطانة سياسية وكُرة لفضية تتقاذفها وتبارى في مهارات اللعب بها. وأزعم أن هذه القوى تدرك أن بنود الصفقة تتم فعلياً على أرض الواقع، ولم يبق سوى حفل إشهارها، وقد لا يقيم أصحاب الصفقة حفل افتتاح علني ويكتفون بافتتاح ناعم soft opening، لا خوفاً من المعارضة، وإنما ضحكاً على الذقون، ولتسهيل ابتلاعها عليهم.

فما هي صفقة القرن؟ سؤال بسيط وجوابه أبسط. لكنني أجد نفسي مضطراً لتكرار هذا السؤال المملوك منذ إعلان الرئيس ترمب عن صفقته، ويحار العرب في الإجابة عنه، يسهرون ويختصمون بشأنه، بينما ينام ترامب ملء جفونه عن شواردها.

وفي الحقيقة، يعلم الجميع ما هي صفقة القرن، ولكنهم يتغافلون. وأجزم أن الاسم التجاري للصفقة غير مهم، كما أن اسم صاحبها غير مهم، فهي في جوهرها "مشروع" ذو شقين: أحدهما يحمل التصفية النهائية للقضية الفلسطينية، ومحو فلسطين من الخريطة الجيو-سياسية، وثانيهما يحمل إنشاء "الوطن البديل" للفلسطينيين المقتلَعين من وطنهم التاريخي، على أرض الأردنيين التي أُعدت على مدى نحو قرن ككيان وظيفي لهذا الغرض على وجه الخصوص، وقد أزلت الآن لحظة الحقيقة.

ويجدر الملاحظة أن كلاً من "الكتلتين الشعبيتين الأردنية والفلسطينية" في الأردن (المصطلح ديموغرافي وليس إثنيًا، أستخدمه هنا لغايات البحث ووفقاً لمعيار "شتى المنابت والأصول" السائد، أي من أصل أردني/ من أصل فلسطيني) تنظر بعين واحدة، ولا ترى في الصفقة/المشروع إلا وجهاً واحداً للعملة. فالكتلة الفلسطينية لا ترى فيها سوى تصفية نهائية للقضية الفلسطينية خارج وطنها التاريخي فلسطين، وهذا صحيح وحق، لكنه أحادي التفكير، بينما لا ترى الكتلة الأردنية فيها سوى إنشاء وطن بديل على وطنها التاريخي الأردن، وهذا صحيح وحق، لكنه أحادي التفكير كذلك. وهنا تكمن بذرة الفشل الأكيد في إسقاط الصفقة/المشروع، ذلك لأنه لا يمكن إنجاح المشروع الوطني لأيٍّ من الشعبين الشقيقين إلا بالترابط والتلاحم الثوري في برنامج حركة تحرر وطني، ولأن العدو المشترك الذي يجعل نجاحه مستحيلاً هو وجود الكيان الصهيوني . كما أن من شأن هذا الفكر الأحادي أن يؤدي إلى انقسام على أساس ديموغرافي بدلاً من وحدة الشعبين لمجابهة الصفقة، وإذا أضفنا إلى هذا الانقسام الديموغرافي في الأردن ذلك الانقسام الفلسطيني - الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، فإن الحصيلة ستكون وصفاً مؤكدة لنجاح الصفقة/ المشروع وخسارة الشعبين لوطنيهما.

وقد أشرت سابقاً الى أن في أوساط النخبة السياسية والثقافية في الأردن ثمة مَنْ يشخّص المشكلة من زاوية المظلوميات، وهي أشبه بمقتل الخليفة الثالث عثمان وهو يقرأ من المصحف الذي حرص على جمعه بنفسه، ولم يجف الدم على قميصه بعد، ومقتل الخليفة الرابع علي في محرابه وهو أعزل بسيف لم يزل سُمّه يسري

في عروقه ، بعد مرور ما يزيد على أربعة عشر قرناً. ويرى أن ثمة مظلوميتين متقابلتين بين الكتلتين الشعبيتين من "سكان" الأردن: الفلسطينيين يقولون إن الأردنيين "يحتكرون" السلطة ويحتلون المناصب العليا العسكرية والمدنية والأمنية، بينما يقول الأردنيون إن الفلسطينيين "يحتكرون" الثروة وسيطرون على الاقتصاد في عالم المال والأعمال. والحل "المنطقي" برأي هؤلاء إذن يتمثل في تقاسم السلطة والثروة. لكن إذا كان تقاسم المناصب العليا ممكناً بجرة قلم من "الدولة الفوقا الرثة"، فإن تقاسم الثروة مطلب دونه صليل السيوف وأسنّة الرماح وبجاجة إلى ثورة اشتراكية، وهو حل مستحيل في الظروف الملموسة الراهنة والمستقبل المنظور برأيي- ولذا فإن أحد الطرفين سيجد فيه قسمة ضيزى لا يمكنه القبول بها. ودرءاً لخفة أحلام الفقراء وثقل كوابيس الأثرياء، يقوم زعماء الكتلتين من الليبراليين الجدد بعقد زواج آثم بين السلطة والبنزس، حيث يتقاسمون السرير الحريير نفسه في الليل، ويشعلون نار الحرب بين أتباعهم في النهار.

ويجدر التحذير من أن "تقاسم" الثروة والسلطة يعني على أساس المناابت والأصول، أي على أساس إثني، وليس "إعادة توزيع" للثروة والسلطة على أساس طبقي، أي بين الأغنياء والفقراء. وهنا بالتحديد تكمن الطامة الكبرى، إذ أن "التقاسم" يعني المحاصصة بين "الهويات القاتله"، وبالتالي تفجّر الصراعات الدموية والحروب الأهلية وتفتيت الدولة، مع استمرار الاحتلال الصهيوني لفلسطين والهيمنة الإمبريالية على الأردن، ولنا في المصير الذي آل إليه كل من العراق ولبنان أسطح مثال، وبئس من مصير.

ومن المهم والضروري لفهم ما يجري في بلادنا إدراك التحولات الجذرية التدريجية التي أخذت تطراً على ماهية القاعدة الاجتماعية لنظام الحكم نتيجة لعمليات الهندسة الاجتماعية الممنهجة والدؤوبة التي أُجريت على الكتلتين الشعبيتين منذ تأسيس الدولة- الإمارة، ونتج عنها تبديل مواقع ومواقف كلٍ منهما. فمنذ أيلول/ سبتمبر 1970،⁵⁹ التاريخ المفصلي للعلاقة بين الكتلتين، حتى نهاية القرن المنصرم،

59- الصدام المسلح الذي نشب بين فصائل المقاومة الفلسطينية والجيش الأردني، وأسفر عن إحداث شرح بين الشعبين الشقيقتين، استمرت آثاره حتى اليوم.

كانت الكتلة الشعبية الأردنية تشكل القاعدة الاجتماعية، أو الديموغرافية على الأصح، الموالية للنظام. وفي الآونة الأخيرة ظهرت ملامح تغيير في الموقع الاجتماعي والموقف السياسي لكلتا الكتلتين، حيث أخذت الكتلة الشعبية الأردنية، تحت وطأة الخصخصة وتآكل الدولة الريعية وفقدان المكتسبات المعيشية والخدمية القديمة وتخلي النظام الوظيفي عنها وتهميشها وإفكارها وازدراءها استجابةً لمقتضيات التحضير للحل النهائي المشار إليه آنفاً، تتذمر وتنتقد وتتهم وتهاجم وتنأى عن الارتباط بالنظام وتُحمّله المسؤولية عن "الفساد والاستبداد وبيع البلاد"، وهو الشعار الذي رفعه "الحراكيون" الأردنيون وهتفوا به في الشوارع والساحات وكتبوه في البيانات العلنية، وكان على رأسهم أشخاص من كبار الضباط العسكريين المتقاعدين، الذين كانوا إلى وقت غير بعيد جزءاً من القاعدة الاجتماعية والأمنية للنظام. أما الكتلة الشعبية الفلسطينية، بوجه عام، فقد نأت بنفسها عن الأوضاع الداخلية الخطيرة ووقفت موقف المتفرج عليها، أو المتعاطف مع النظام والمتوجس خيفةً من الحراك الأردني وريبةً فيه، وبدأت تشكل قاعدة اجتماعية/ ديموغرافية "موضوعية"، للنظام، الذي كانت تُحمّله المسؤولية عن أحداث "أيلول الأسود" ونتائجها المأساوية قبل نحو خمسة عقود.

ولعلّ من المستغرب كذلك أن أحداً من المعارضين لصفقة القرن في الأردن والعالم العربي والعالم، لم يأت على ذكر الوجه الثاني للصفقة/ المشروع، أي إنشاء وطن بديل للفلسطينيين المقتلعين من وطنهم على أراضي الأردنيين، بمن فيهم حزب الله، المقاوم الرئيسي للاحتلال الإسرائيلي، بل لوجود إسرائيل، والذي اجترح بطولات وتضحيات جسام في الصراع ضد إسرائيل و ضد الإرهابيين ومشغّلهم على الأراضي السورية. إن هذه الغفلة العامة أو التغافل عن هذا الوجه للصفقة هو ما يجعل الوطنيين الأردنيين يرددون العبارة البائسة في وصف وضعهم بأنهم "لا بواكي لهم" بدلاً من السعي لكسب المتعاطفين والحلفاء في سبيل إفشال الصفقة/ المشروع.

وخلاصة القول إنه إذا استمرت هذه الرؤية الأحادية، وبالتالي الانقسام الديموغرافي بين الشعبين الشقيقين الأردني والفلسطيني على الأراضي الأردنية، وتصرّف كل

منهما كتلة سكانية، فإن فسحة الأمل في التصدي للصفقة، ناهيك عن إفشالها، ستندم.

فلا سبيل للخروج من هذه الكارثة الوجودية المرتقبة- إن كان ثمة من مخرج- إلا ببناء حركة تحرر وطني-اجتماعي موحدة ومتلاحمة بين الشعبين الأردني والفلسطيني ضد الإمبريالية والصهيونية ووكلائها المحليين النيوليبراليين وحلفائها الإقليميين، بحيث تخوض معركة حقيقية- لا كلامية- لإسقاط صفقة القرن بوجهي العملة: ضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين من أجل تحريرها وعودة أهلها الشرعيين إليها، وضد إنشاء وطن بديل في الأردن، سواء للفلسطينيين المقتلعين من وطنهم، أو للمهاجرين واللاجئين من شتى أنحاء الإقليم. وقد كان لنا في الخمسينيات والستينيات سابقة يمكن الاستفادة منها، مع الأخذ بعين الاعتبار كافة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية العيانية التي طرأت حتى اليوم كي لا يكرر التاريخ نفسه على شكل مهزلة.

ملحق: التناص مع خطبة سياتل: تراجيديا المصائر

ثمة "تناصات" (جمع تناص) عربية مع خطبة سياتل تقدم مقارنة مقارنة وترسم نوعاً من التشابه بين قضية ومصير الهنود الحمر وقضايا ومصائر شعوب عربية، فجاءت بمثابة "نسخة" وطنية للخطبة:

- نسخة فلسطينية: مطوّلة الشاعر محمود درويش الشهيرة "خطبة الهندي الأحمر ما قبل الأخيرة"

"هنالك موتي ينامون في غرف سوف تبنونها
هنالك موتي يزورون ماضيهم في المكان الذي تهدمون
هنالك موتي يهرون فوق الجسور التي سوف تبنونها
هنالك موتي يضيئون ليل الفراشات، موتي
يجيئون فجرا لكي يشربوا شايبهم معكم، هادئين
كما تركتهم بنادقكم، فاتركوا يا ضيوف المكان
مقاعد خالية للمضيفين.. كي يقرأوا

عليكم شروط السلام مع الميتين!

- نسخة أردنية: مقال القاص سعود قبيلات ”خطبة الهندي الأحمر الأخيرة“:
” الليل والنهار لا يتساكنان. ونحن وإيّاك يبتعد كلُّ منّا عن الآخر باستمرار،
كما يفرُّ سديم الصباح المتقلّب على السفوح من أمام شمس الصباح..
الأفراد يأتون ويمضون..
تمامًا مثل أمواج البحر..
ذلكم هو ترتيب الطبيعة حيث لا ينفع أسى.
وربّما يكون زمان أفولك لمّا يلح بعدُ..
لكنّه قادمٌ.. قادمٌ من دون ريب.“

- نسخة عراقية: الشاعر العراقي عدنان حسين في ”خطبة العربي الأحمر“:
”سيد البيض يُلقي علينا
خطابَ الأناجيلِ القديمة
أنّ روحَ القدسِ قد أعطى له أرضي وليمة وعشاءً أخيراً
سيدُ البيضِ يقولُ :
”إنّ هنوداً يموتونَ خيرٌ لسيدنا في العُلَى من هنودٍ يعيشونَ“
وإنّ عرباً يُذبحونَ خيرٌ لسيدنا في العُلَى من عربٍ يكتبونَ الشعرَ حدّ الجنون.“

وبعد،

ربما كان محمود درويش وسعود قبيلات وعدنان حسين وغيرهم من الكتاب في تناصاتهم أكثر تفاعلًا، أو أكثر إنكارًا، مني، لكن هذه هي الصورة التي أراها أمامي في واقعنا العياني: قائمة، بشعة، محبطة. أما الصورة التي أريد أن أراها- الرغبوية- والتي أمضيت جلّ عمري في الكفاح من أجل تحقيقها، غير نادم عليها أو متنصّل منها، فهي مختلفة عنها تمامًا، بل نقيض لها. فما كنتُ نريده أن يكون وطنًا سعينا إلى تحرره واستقلاله وصونه بالعذابات، لم يعد وطنًا، بل كيان وظيفي تابع. وما كنا نريده أن يكون شعباً سعينا إلى وحدته ورفاهه وكرامته بالتضحيات، لم يعد شعباً بل مجاميع سكانية رثة و”هويات قاتلة“.

فهل سيُسعفنا التاريخ ذات غدٍ في كتابة نصوص مفعمة بالأمل الواقعي المتبصر، أم أننا نكتب الآن "نوستالجيا المستقبل" التي سنكرر فيها هذه البكائية من نص خُطبة سياتل؟

"هي بضعة أقمار أخرى، بضعة شتاءات أخرى وحسب، ولن يتبقى من نسل أصحاب الدار العظماء الذين كان يحميهم الروح العظيم، والذين كانوا يطوفون يوماً على هذه الأرض الفسيحة أو يقيمون في البيوتات السعيدة. لن يتبقى منهم من باكٍ على قبور شعب كان ذات يوم أشد منكم بأساً وأكبر أملاً. لكن، لماذا أندب قدر شعبي في آخر المطاف؟ ثمة قبيلة تتبع قبيلة، وأمة تتلو أمة.. والقبائل جمع أفراد وليست أفضل حالاً منهم.. والأفراد يأتون ويمضون، تماماً مثل أمواج البحر.. ثمة دمعة أخيرة، وترنيمة موت، ثم يختفون من أمام أعيننا التواقفة إلى الأبد. ذلكم هو ترتيب الطبيعة حيث لا ينفع أسى..."

ومضة: من أنا؟

كاتب؟ مناضل؟ إنسان؟

أو من اليسار إلى اليمين:

إنسان؟ مناضل؟ كاتب؟

لست هنا بصدد ترتيبها بحسب الأهمية، فأنا ثلاثتهم:

• كاتب منذ منتصف الستينيات من القرن المنصرم ، خربش الشعر، ثم كتب المسرح والقصة القصيرة والمقال الأدبي والبحث السياسي والثقافي.. أسهم في تأسيس رابطة الكتاب الأردنيين المستقلة عن الحكومات المعيّنة في منتصف السبعينيات.. كاتب مقلّ وكسول، لكن مجتهد في ما يكتب.. لا يلهث خلف الجوائز الثقافية المغمّسة بالنفط.. لا يستجدي المكرّمات ولا يلهف على سماع ”يا غلام أعطه ألف درهم“.. لا يعزف للحن الذي يطلبه المانحون والرعاة.. لا يعتنق خرافة الفصل التعسفي بين الثقافي والسياسي، ولا يأبه بالرطانة الثقافية الليبرالية، بل يؤمن بأن للثقافة والمثقفين دوراً ورسالة عظيمين كمتراس في الخط الأمامي للوطن، وحارس لثقافة الشعب وهويته، وحافظ لوجوده الحضاري في متن التاريخ.

• مناضل وطني وأممي لا يؤمن بفن الممكن.. أسهم في تأسيس وقيادة عدد من المنظمات السياسية والنقابية.. ابتلغته الزنازين والسجون و”الاختفاءات“ القسرية التي أثقلَ فيها على عائلات أحبائه وأصدقائه في حقبة الأحكام العرفية وقوانين الدفاع المكارثية التي دامت عقوداً.. يتقدّم الصفوف بجسارة عندما تدلهمُ الخطوب، ويعود إلى الخلف حين تنفرج.. مستعدّ للتضحية، لكنه لا يقبل بدور الضحية.. لا يعلن البراءة من تاريخه وخياراته الإرادية، ولا يندم على لحظة من عقود الجمر التي اكتوى بنارها.. لكنه لا يكابر بأخطائه أو يتنصّل منها.

• إنسان زاهد النفس ضامر ”الإيغو ego“.. يعيش التأمل والتفكير أكثر من الكلام والخطابة.. يفضّل ”فضة الصمت على ذهب الكلام“.. لا تُغريه الشاشات الفضية

أو الذهبية أو الماسية.. تؤرّقه معضلة التصالح مع الذات، والرضا عن النفس بدون أن تكون "عين الرضا عن كل عيب كليلة".. فكيف يمكنه تحقيق ذلك؟ وهل بوسعه أن يغمض عينيه عنه ويغفو؟ "فلو تُرك القطا لغفا ونام". وما هي الرسالة/العبرة التي سيورثها لمن بعده؟ هل من المعقول، مع جَسامة كل تلك التضحيات وفِداحة كل تلك الجرائم لمجرد أن في رأسه رؤية مغايرة بشأن حاضر ومستقبل بلده وشعبه، أن ينضب زيت سراج العمر ويفلت الجاني من العقاب، أو حتى من الاعتراف أو الاعتذار؟ إنها إذًا "لقسمة ضيزى"!!

